الدكتور محمد حبش

منهج التجديد والإصلاح

دراسة في فكر الشيخ أحمد كفتارو

Enlightenment and
Civilization Studies Center
United Arab Emirates
2019

مركز الدراسات
لبحوث التنوير والحضارة

كفتارو...
رسالة التجديد

دراسة في فكر الشيخ أحمد كفتارو

كفتارو رسالة التجديد

الطبعة التاسعة ٢٠٢٣

جميع الحقوق محفوظة

المؤلف: د. محمد حبش

هذه الطبعة من إصدار مركز الدراسات لبحوث التنوير والحضارة

دار متخصصة بالدراسات الإنسانية وإخاء الأديان

١٩- مدينة الشارقة للنشر- شارع الشيخ محمد بن زايد - الشارقة – الإمارات

هاتف: 00971551512545

habash2005@gmail.com

www.mohammadhabash.org

Edition 9 - 2023

All Rights Reserved

Mohamad Habash

This edition is issued by the Studies Center for Civilization and Enlightenment Research.

The center specializes in human studies and brotherhood of religions

Address 19- Sharjah Publishing City - Sheikh Mohammed Bin Zayed Rd - Sharjah - UAE

Tel: 00971551512545

habash2005@gmail.com

www.mohammadhabash.org

كفتارو

رسالة التجديد

قراءة في منهج الشيخ أحمد كفتارو في الإصلاح الديني

إعداد

محمد حبش

الطبعة التاسعة ٢٠٢٣

﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤﴾

[غَافِر : ٤٤]

مقدمة الطبعة التاسعة

منذ ثلاثين سنة بدأت بإعداد هذا الكتاب عن الشيخ أحمد كفتارو رحمه الله، وقد صدر عام ١٩٩٥ وطُبِع طبعات عدَّة، وهو يحاول أن يؤرخ لمرحلة مهمة من حياة الشيخ شارك فيها بفاعلية في الحياة العامة، ونجح في تأسيس حركة صوفية وتربوية عرفانية في بلاد الشام كما اكتسب شهرة دولية بوصفه صوتاً من أصوات التسامح والانفتاح على الأديان والثقافات.

من المؤلم أن الشيخ تعرَّض في سنواته الأخيرة لسلسة من الأمراض الشديدة حالت دون متابعته اليومية لمشروعه التنويري، وقد ظهرت صراعات أجنحة مريرة لم ترحم شيخوخته وسنه، وقام كل فريق بزج اسم الشيخ في صراعاته الأمر الذي أدى إلى خلافات عميقة، وإساءات بالغة للشيخ أظهرته بمظهر المتعصب المفتقر إلى التسامح والغفران الذي لا يرى في الفكر الآخر إلا ضلالاً وجاهلية.

بعد وفاة الشيخ أصبح الأمر أكثر وضوحاً وقامت السلطات الأمنية بإزاحة أسرة الشيخ من العمل في المجمع وزجت بهم في السجون وجاءت بفريق حكومي لإدارة المجمع لينكفئ المجمع عن رسالته التنويرية الشجاعة، ويعود مدرسة تقليدية تكرر المعارف القديمة ذاتها، وتدرَّس الكتب التقليدية التي طالما واجهها الشيخ بشجاعة،

وتعتبر أي رغبة في التغيير ردة على الثوابت تواجهها بفتاوى الزندقة والتضليل، والأسوأ أنها تنسب تعصبها إلى الشيخ مع أنه رجل تسامح وغفران، ولم ينشر في حياته كلها أي بيان ضدَّ أي كافرٍ أو ملحدٍ أو زنديق!

الشيخ أحمد كفتارو رجلٌ سياسيٌّ بارع، صاحب رؤية تنويرية شجاعة، وقد شكَّل لوقت طويل صمام أمان للمجتمع الشامي يحول دون انخراط الشباب بالعنف، ويقوم بتدوير الزوايا وممارسة الحكمة لمنع كل اصطدام عنيف.

الشيخ كفتارو كان شجاعاً وواضحاً وسابقاً لعصره، وقد تعرَّض في حياته لمختلف الاتهامات بالضلال والزندقة والانحراف والماسونية والعلمانية والمداهنة، ولكنه ظلَّ ثابتاً على أفكاره إلى أن وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً.

وهو أول زعيم مسلم توجه إلى معابد المسيحيين والبوذيين والسيخ والهندوس والأموتو وتحدَّث عن المشترك الإنساني وقدَّم صورة طيبة للإسلام الجميل.

الشيخ كفتارو كان يملك وعياً سياسياً متقدماً وهو الرجل الوحيد في سوريا الذي صرح بتأييد السادات في كفاحه السلمي لاستعادة

الأراضي الفلسطينية والمصرية والسورية على الرغم من موقف الحكومة الشديد في الممانعة والمقاومة.

الشيخ كفتارو هو الرجل الذي عودنا في الانتخابات أن يصوت لخالد بكداش زعيم الحزب الشيوعي السوري ولكوليت خوري الكاتبة المسيحية المعروفة على الرغم من اختلاف الدين والممارسة.

الشيخ كفتارو هو الفقيه الإسلامي الوحيد الذي أصدر بياناً رسمياً يدعو في إلى حوار مع سلمان رشدي في دمشق ويرفض فتاوى القتل والاغتيال.

الشيخ أحمد كفتارو رعى بنفسه مسرحية يوسف النبي وأشرف على ظهور إسحق ويعقوب ويوسف على خشبة المسرح وهو يعلم بوضوح موقف الأزهر وعموم الفقهاء في تحريم ذلك كله.

الشيخ كفتارو أقام أول مولد للسيد المسيح في الستينيات في جامع يلبغا ورفع السجاد من نصف المسجد ومدَّ فيه الكراسي ليجلس عليها البطارك والمطارنة في موقف فريد من الإخاء الإنساني.

الشيخ كفتارو كان يقدِّم برنامجه في السبعينيات في إذاعة دمشق وحين صرَّح بالأخوة الإسلامية المسيحية، وقال إخواننا المسيحيين تلقى بياناً طويلاً وقع عليه عشرات الفقهاء المشاهير في سوريا وأجبر

التلفزيون السوري على إلغاء برنامجه على الرغم من أنه المفتي العام للجمهورية.

الشيخ كفتارو حدَّثنا أكثر من ألف مرة أن قال للسفير الكندي: إن عدد المسيحيين في سوريا هو ١٧ مليون، وأنا أول المسيحيين، وعندها قال السفير: وأنا أول المسلمين.

الشيخ كفتارو ظلَّ في حياته يطالب بوضوح بتغيير مناهج الفقه الإسلامي التي تتحنط في الماضي ولا تدرك المستقبل، وحاول أن يغير المناهج من جذورها إلى مناهج حداثية مؤمنة بالواقع.

الشيخ كفتارو قال للبابا نفسه إن رجال الدين في الإسلام والمسيحية هم من أغلقوا الدين عن غاياته العظيمة وإذا استمروا بخطابهم المتقوقع فسيكون عرس البوم.

الشيخ كفتارو كان مجلسه عامراً بالسنة والشيعة والدروز والعلويين، وكان يقدمهم للصلاة في وعي متقدم من التسامح لا يشبه في شيء ذلك الهمود والانغلاق الذي وصلنا إليه.

لم يكن يخلو مجلسه كل يوم جمعة من مطارنة وبطارك وكهنة يشرح لهم محاسن الإسلام ويمنحهم الفرصة ليشرحوا محاسن المسيحية، وهو لون من الحوار النبيل سبق به عصره.

إن ما ينسب إليه اليوم من فكر مغلق وعقل إقصائي وبيانات ثأرية وبراءات من التنوير هي إساءات متعمدة لرسالته في التسامح والغفران ولمكانه في التربية الأخلاقية والصوفية العرفانية.

من المؤلم أن نضطر هنا لبيان ضروري عن البيان المنسوب إليه قبل وفاته بشهور، وهو شريط ينشره الحاقدون الفارغون كل يوم، ظهر فيه الشيخ واهناً مريضاً لم يرحموا شيخوخته ولا سنه، وحين بدأ الدرس نسي ما كانوا قد وسوسوا فيه فرفعوا أصواتهم يذكّرونه بما كان، وحين تذكر ما وسوسوه قال: يا إخوان، عم يقولوا إن محمد حبش ساوى بيان! فصاروا يقولون: لا لا لا مو محمد حبش! نحنا ساوينا بيان ضد محمد حبش...! فظهر عليه الغم والضيق وقال وقد أحيط به: طيب تفضلوا قولوا ما تريدون، فقام أشقى القوم وهو رجل مشهود له بالغدر وإساءة استخدام الأموال العامة لجمعية الإخاء السكنية وقد حوكم وصدر عليه الحكم بالسجن بسبب ذلك، فنطق هجراً وتلا بياناً ظالماً ضدي لا يليق بشيء من أخلاق الشيخ ولا سنه ولا عمره.

طبعاً كل هذا الكلام واضح في الشريط الذي يوزعونه كل يوم منذ عشرين سنة ولا يحتاج أي تعليق.

بعد رحيله بعشرين عاماً رأيت من الوفاء أن نصدر طبعة جديدة للكتاب، تتزامن مع إطلاق **مؤسسة كفتارو الدولية للتسامح** التي ترعاها حفيدته المجتهدة أسماء كفتارو وتنشر ثقافته وفكره وعطاءه في منابر الأرض منذ عشرين عاماً دون توقف.

محمد حبش رمضان ٢٠٢٣

من الطبعات السابقة للكتاب

وكتب أخرى متصلة به

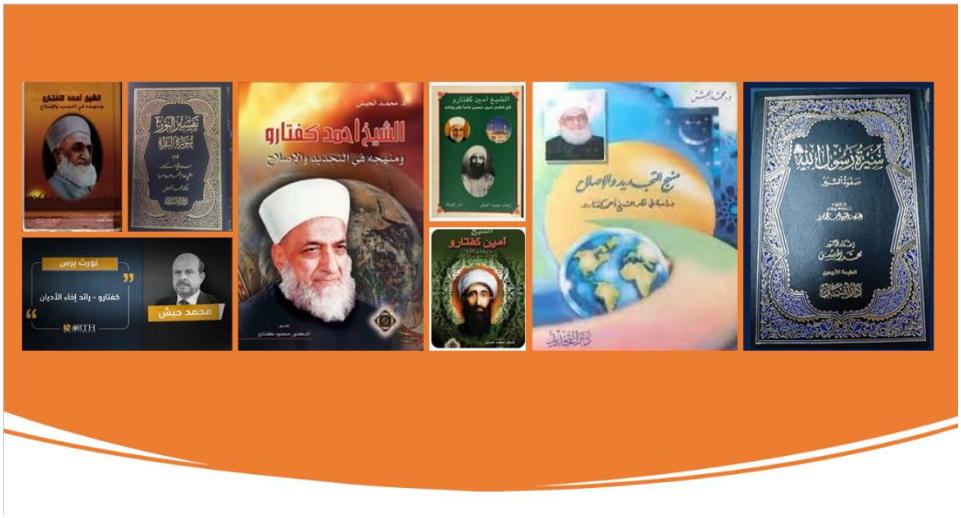

(والشيخ أحمد عالم مثقف مطَّلع ناضج العقلية، واسع آفاق الفكر، نشيط في عمله، وقد تمكَّن من إلغاء البغاء الرسمي في سورية، ومنهجه في الإصلاح يتمثل في وجوب إصلاح المعارف وتوجيهها الإسلامي، وهو قوي الأكل عظيم الثقة.

لقد قال لرئيس أركان الحرب الحاكم العسكري للبلاد: تستطيع أن تكون زعيماً للبلاد العربية كلها؛ بل للعالم الإسلامي كلِّه إذا هيَّأتَ لنفسكَ الزعامة الإسلامية واحتضنتَ خدمة الإسلام).

العلَّامة أبو الحسن علي الحسني الندوي

رئيس ندوة العلماء بالهند عن كتابه: مذكرات سائح في الشرق العربي عام (١٩٥١م) (نُذكِّر أنَّ عُمُرَ الشيخ أحمد حينئذٍ كان ٣٩ عاماً)

جامع أبي النور في سفح جبل الصالحين (قاسيون)

التقطت هذه الصورة عام (١٩٦٦م).

لم يكن المسجد إلا غرفةً مُعدَّةً للعبادة بجوار (**قراجا الصلاحي**)، وهو أمير ناصري جاهد مع صلاح الدين، وكان قائداً من قادة كتائبه، وقد توفي عام (٦٠٤هـ)، وأغلب الظن أنَّ قراجا الصلاحي كان يُسمَّى (**أبو النور**)، فغلبت هذه التسمية على المسجد.

بدأ **آل كفتارو** بالعمل في هذا المسجد منذ وصول الشيخ موسى كفتارو عام (١٨٩٤م)، واستأنف ذلك ولده الشيخ أمين، ثم الشيخ أحمد بارك الله بأيَّامه.

صورة جامع أبي النور عام ١٩٦٠

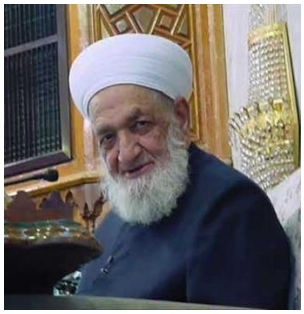

إن شيخنا –الشيخ أحمد كفتارو– قدوةٌ تُحتَذَى في العالم الإسلامي...

لقد قدَّم الصورة الحقيقية الناصعة للإسلام في عواصم العالم الكبرى، وتمكَّن من هَدْمِ كثيرٍ من الأوهام التي ينشرها أعداء الإسلام، وإن المجمع الإسلامي الذي أنشأه نموذج فريد ينبغي تعميمه في العالم الإسلامي وخارج العالم الإسلامي.

إني أتمنى على الرجال الذين سعدوا بصحبته أن يقتدوا به، ويعمِّموا هذه الدعوة في مختلف أصقاع الأرض.

الدكتور: حامد الغابد

رئيس وزراء النيجر السابق

والأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي

والحائز على جائزة فيصل العالمية لخدمة الإسلام

من كلمته التي ألقاها في جامع أبي النور صباح الجمعة ١٥/٥/١٩٩٥م

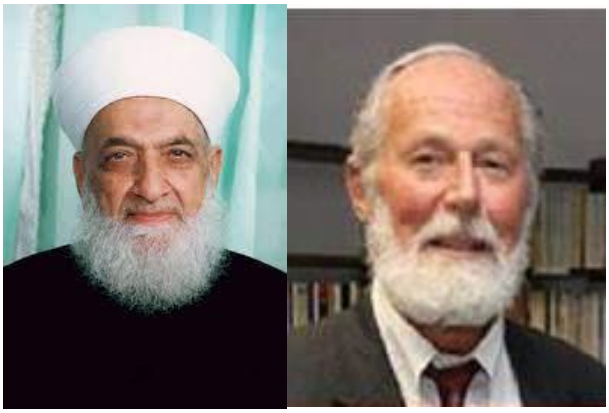

في العالم أجمع قلةٌ أولئك القادةُ الذين لديهم إدراكٌ لهذه التغيرات العميقة التي تجري في عالم اليوم، والذين يصرُّون على الدوام أن سرَّ النجاح هو في أيدي قادة العالم الروحانيّين هم نَزْرٌ يسير، ويقف سماحة الشيخ مفتي سورية وعالمها شامخاً وقد فاق الآخرين، وقد عمل لأكثرَ من نصف قرنٍ داعياً لا يَكَلُّ من أجل التفاهم والتعاون بين الأديان، وهو وحده الذي لم يتوانَ قطُّ ولم يَنْثَنِ في اعتقاده أن التعاون بين الأديان من أجل إيجاد حركةٍ صادقةٍ تسمُو بالسياسة كفيلٌ بأن يكون سبيل الخلاص للبشرية.

إنكم أيها السوريون محظوظون بأن يكون مثل هذا الشخص بين ظهرانيكم، وإنني كأمريكيٍّ لمحظوظٌ بأن أكون معكم في حضرة سماحة الشيخ أحمد كفتارو في هذه النقطة الحَرِجة من تاريخ البشرية.

الفيلسوف الأمريكي روبرت كرين

مستشار الرئيس نيكسون للشؤون الخارجية والسفير الأمريكي

ومؤسس مركز الحضارة والتجديد بأمريكا

من كلمته التي ألقاها في جامع أبي النور صيف عام (١٩٩٥م)

أشهد أنْ لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله...

لقد أتينا إلى هذا البلد كما تعلمون بدعوةٍ من صاحب السماحة الشيخ أحمد كفتارو، وشهدنا أيام رمضان المباركة في هذا الفردوس الروحي في جامع أبي النور.

إنني أغبطكم لأنكم مع أستاذٍ عظيمٍ تتعلمون منه كما تعلَّمنا منه، وإن انطباعي أنه بينما هو إنسان عادي، ولكنه في الحقيقة على صلةٍ روحيَّةٍ وإلهامٍ كبيرٍ من الله العظيم خالقِ الكَون والنبي محمدٍ ﷺ.

أليس مدهشاً أن تقوم عائلة الأموتو بعد ألفٍ وأربعمئة عامٍ بالدعوة لأفكار النبي محمدٍ ﷺ في اليابان؟!

السيد: كيتارو ديكوشي رئيس طائفة الأموتو اليابانية

من كلمته في جامع أبي النور يوم ١٩/٤/١٩٩١م

مقدمة الطبعة الثانية

أقدِّم للقارئ الكريم هذه الطبعة الثانية من كتاب: «**كفتارو رسالة التجديد**»، وأنا أكثر حماساً لتحمُّل هذا الواجب في التعريف بأعلام الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة الدقيقة التي تشهدها الصَّحوة الإسلامية.

منذ سبعين عاماً صَعِد الشيخ كفتارو على المنبر وما زال يؤدي الرسالة ذاتها، وقد أمضى أكثر من اثنين وثلاثين عاماً على سدَّة الإفتاء العامّ في سورية، سبقَتْها ثلاث عشرة سنة كان فيها مُفتياً لدمشق، وهي من أكثر الحواضر الإسلامية عراقةً وأصالةً، وبذلك فإنه أمضى نحو نصف قرنٍ وهو على رأس الحركة الإسلامية في الشام.

وهكذا فإن جهاداً ناجحاً بهذا الاستمرار والاستقرار والانفتاح والوضوح جديرٌ أن يكون مُلهِماً للصَّحوة الإسلامية التي تأخذ اليوم أسباب انبعاثها وأَلَقِها.

وحين دفعتُ الطبعة الأولى من هذا الكتاب للنشر لم أكتمك خوفي مما قد يَعْتَري دراستي من نقصٍ وقصورٍ، شأن أيّ بحثٍ لم تُستكمل وثائقه، حيث يستعصي حصر هذه الوثائق على مؤسساتٍ متفرغةٍ نظراً لحضور هذا الرجل في مختلف المحافل المؤثرة، فكيف بمن هو مثلي في تقصيره ومشاغله؟ ولكنني وجدتُ أجمل العون في مؤازرة أصحاب الفكر والقلم الذين وفَّروا لي الوثائق النادرة، وزوَّدوني بالملاحظات والتوجيهات التي ستلمس ــ ولا شكَّ ــ شميمها في هذه الطبعة الجديدة.

وأودُّ هنا أن أسجِّل الشكر الخاصَّ للأستاذَين الفاضلَين: الدكتور محمود كفتارو عميد كلية الدعوة الإسلامية بدمشق، الذي وفَّر لي أهمَّ الوثائق والصور النادرة، والأستاذ مروان شيخو عضو مجلس الشعب الذي أغنى هذه الدراسة بملاحظاته.

كما أسجِّل شكري لأصحاب الفضيلة السَّادة: الشيخ عبد الرؤوف أبو طوق، والداعية العامل الشيخ محمد المجذوب، والشيخ رجب ديب، والشيخ أحمد حسون عضو مجلس الشعب، والدكتور محمد علي سلطاني، والشيخ منذر الدقر، والشيخ محمد بشير المفشي، والأستاذ غازي آق بيق.

وقد سعدتُ بمستوى الإقبال الذي تلقَّى به القُرَّاء هذا العمل، إلى درجة أنه تمَّ نفاد الطبعة الأولى جميعها لدى الناشر خلال خمسة عشر يوماً فقط، وتلمَّستُ أثر الكتاب في نفوس أولئك الذين لم تكن لهم صِلَةٌ مباشرةٌ بالشيخ، وأكَّد لي كثيرون أن الكتاب كشف لهم من الحقائق ما كان خافياً عنهم، ولعلَّ أوضح ما جاءني في هذا السياق ذلك التقريظ الذي تجده في الكتاب مما سطَّره فضيلة العلَّامة الداعية الشيخ محمد المجذوب حفظه الله.

ولستُ أُخفِي حيرتي من الفتور الظاهر الذي تلقَّى به عددٌ من تلامِذَة الشيخ هذا العمل، وقد صرَّح لي بعضُهم بأني قصَّرتُ تقصيراً شديداً في إيفاء الرجل حقه، وأن ما كتبتُه عنه لا يكفي ولا يفي!

وهم في ذلك معذورون، فما شهدوه عياناً لن يبلُغه قلمي:

وَقَاصِرُ الوَصْفِ عَنْ إِيضَاحِ رُتْبَتِهِ وَصْمٌ، فصُمْ عنه أَوْ صِفْهُ وَلَا تَصمِ!

وهيهات أن يبلُغ الخبر العيان! ويبدو أن هذا الكتاب لم يُكتب لهم، على أني لا أدفع تقصيري، وهذا جهد المقِلِّ، والكاملُ اللهُ...

د. محمد الحبش

تقديم بقلم الأستاذ الدكتور: محمد الزحيلي

رئيس قسم الدراسات العليا في: مجمع أبي النور الإسلامي

ووكيل كلية الشريعة بجامعة دمشق

الحمد لله الذي هدانا للإيمان والإسلام، وختم به شرائع السماء، وارتضاه لنا دِيناً ومنهجاً، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ المبعوث رحمةً للعالمين، والهادي إلى الحقِّ والصراط المستقيم، القائل: «إنما بُعِثْتُ مُعلِّماً».

وبعد: فقد رغَّبَ إليَّ الأستاذ النشيط القارئ الشيخ السيِّد محمد الحبش بكتابة مقدمةٍ لدراسته المستفيضة عن نشاط سماحة الشيخ أحمد كفتارو، المفتي العام للجمهورية العربية السورية في خدمة الدعوة الإسلامية.

والواقع أن مجال الدعوة الإسلامية كبيرٌ واسعٌ، وأجواءه عريضةٌ، ومنافذه عديدةٌ، وإن سماحة الشيخ أحمد كفتارو يتمتَّع بمزايا كثيرةٍ، وصفاتٍ جليلةٍ، ويمارس الدعوة منذ خمسين عاماً على مختلف الأصعِدة، ولكن أكثر ما لفَتَ نظري هو رعاية سماحته للعلم الإسلامي والتعليم الشرعي، وحرصه على حمل مشعل العلم والتسلُّح بمعطياته في كشف الطريق، وتبديد الظلام، وإنارة السبيل، وإزالة الغشاوة، وبيان الحقِّ، ودعمه بالدليل والحجة، وتثقيف العقل، وفتح آفاق المعرفة؛ ليكون المسلم مستنيراً في دِينه ودُنياه.

هذا العلم الذي دعا إليه الإسلام منذ أول آيةٍ نزلت من السماء فقال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العَلَق: ١ - ٥]

ثم بيَّن الله تعالى مكانة العلماء وأَثَر العِلم عليهم، فقال عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فَاطِر : ٢٨]

ثم لفَتَ القرآن الكريم النظر إلى سُمُوِّ منزلة العلماء، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزُّمَر : ٩] ، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المُجَادلَة : ١١] .

ثم وضع رسول الله ﷺ البذور الصالحة للعلم، ودعا إليه ومارس التعليم، فكان المعلِّم المثالي، وقال عليه الصلاة والسلام: «فَضْلُ العالِمِ على العابِدِ كفَضْلِي على أَدْنَاكُم»، وجعل رسول الله ﷺ طلَبَ العلم فريضةً إسلاميةً على كل مسلمٍ ومسلمةٍ، وحرَّض ﷺ أصحابه على طلب العلم حتى صاروا «علماء حكماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء»؛ لأن «العلماء ورثة الأنبياء».

وحمل الصحابة أولاً والتابعون ثانياً والأجيال الإسلامية ثالثاً منارةَ العلم إلى العالَم أجمع، وأشادوا حضارةً باسقةً نُضاهي بها الأمم، حتى انفردوا بحَمْلِ الحضارة الإنسانية والعلوم المختلفة قروناً عدَّةً، وصبَغُوا العلوم جميعها باللغة العربية ومنهجهم المتميز، ثم واصلوا المسيرة في الاختراعات والاكتشافات في مختلف فنون المعرفة وجميع المستويات العلمية والشرعية، واللغوية والفكرية، والفلكية والرياضيات، والفلسفة والطب، والزراعة والصناعة... حتى خَبَا النور وانطفأ السراج، ونام المسلمون، وجمد الفكر والعقل والاجتهاد في العصور الأخيرة، وزال سلطان المسلمين حتى في بلادهم.

هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى كان العلم ــوما يزالــ أهمَّ وسيلةٍ لنشر الدعوة الإسلامية، وبثِّ النور الإلهي، وبيان الأحكام الشرعية الخالدة التي تحقق النفع والخير للناس، وتؤمِّن لهم السعادة الحقَّة في الدنيا والآخرة، ولذلك يدخل الناس في الإسلام على نورٍ وبيِّنةٍ، وحُجةٍ وإقناعٍ، وعلمٍ ومعرفةٍ.

ومن هنا تنبه سماحة الشيخ أحمد كفتارو في العصر الحاضر إلى هذا الواجب الديني، والفريضة الإسلامية في طلب العلم، وأهمية ذلك في الدعوة لدين الله تعالى، وخاصةً من رحاب المسجد الذي يمتاز بالفضل والبركة والنور على المعاهد كلها، فاتجه سماحة الشيخ إلى مسجد أبي النور، وهو مسجد صغير في سفح قاسيون، فأسس فيه دعوته الناشئة التي انطلقت من هذا المسجد وما زالت تتوسع حتى أصبحت من أهم مراكز الدعوة والتعليم في بلاد الشام، فاستعان بالله سبحانه، وقام بإعادة بناء هذا المسجد فأنشأ الجامع الكبير والمسجد المشهور والمجمع الضخم المعروف بجامع أبي النور بحيِّ ركن الدين بمدينة دمشق المحروسة، حتى أصبح هذا المسجد مركزاً ــكاسمهــ لإشعاع النور، ومجمعاً ثقافياً على مختلف المستويات التي رعاها سماحة الشيخ، ونشير إليها باختصار:

واظب سماحة الشيخ على التعليم الديني في رحاب جامع أبي النور ليواصل الدروس الدينية الأسبوعية التي كان يلقيها في جامع يلبغا، وعقد سماحته حلقات العلم، وأشرف على تنظيم الدروس الدائمة في المسجد، حتى غدا نموذجاً حياً للمسجد الإسلامي في الدعوة والنشاط والعلم، وأعاد إلى الأذهان ذكريات جامع بني أمية، وجامع الأزهر، وجامع قرطبة، وجامع القرويين، وجامع الزيتونة، وجامع المنصور، وصار يؤمُّ جامع أبي النور يومياً وأسبوعياً آلاف المسلمين من عشاق المعرفة وطلَّاب العلم، من الرجال والنساء، والكبار والصغار والأطفال، والمثقَّفين والعُبَّاد؛ للجمع بين العلم الديني والتزكية الروحية في العبادة والذكر، وقيام الليل وإحياء المناسبات الدينية.

المعهد الشرعي للدعوة والإرشاد:

وفي سبيل مواكبة العصر والجمع بين الجوهر والصورة والمضمون والشكل فقد أسس سماحة الشيخ المعهد الشرعي للدعوة والإرشاد الذي يتكوَّن من ثانويةٍ شرعيةٍ للذكور، وثانويةٍ شرعيةٍ منفصلةٍ للإناث، ويُدرِّس الجميع العلوم الشرعية والعصرية، ويجمعون بين الثقافة الدينية والدنيوية، وينهلُون من مَعين التراث الإسلامي بيدٍ، ومن الدراسات الكونية بيدٍ أخرى؛ ليحملوا الشهادة الثانوية، ويتخرج منهم الأئمة والخطباء والوُعَّاظ.

– كلية الدعوة الإسلامية:

وكان طموح الشيخ أكبر وأوسع، فرعى إنشاء كلية الدعوة الإسلامية بدمشق في الطابق الثاني والسادس من مجمع أبي النور، فرعاً لكلية الدعوة الإسلامية في طرابلس بليبيا؛ لتكون كليةً جامعةً في القطر السوري، ويتسارع إليها الشباب والفتيات، وتغصُّ قاعاتها بالطلاب والطالبات كلٌّ على حِدَةٍ، وتجذب المئات، حتى غدا الذين يُعتذَر عن قَبولهم أكثر من المقبولين فعلاً.

وخرَّجت هذه الكلية عشر دفعاتٍ ممن يحملون الشهادة الجامعية المعادلة للتدريس في القطر، مع التنوير الفكري والثقافة المتنوعة للسير في ركاب الجامعات المعاصرة.

وفتحت هذه الكلية أبوابها لمختلف الطلاب والجنسيات، ومنهم مَن يحمل شهادةً جامعيةً في (الطبِّ، أو الهندسة، أو الآداب، أو العلوم، أو الحقوق، أو الصيدلة)؛ ليجمعوا بين علوم الدِّين وعلوم الدنيا على سنن سلفنا الصالح الميمون، أمثال: ابن النفيس، وابن سينا، وسبط المارديني، والرازي، وابن تيمية، وابن رشد وغيرهم...

كما برزت في الكلية الفتاة المسلمة والمرأة الداعية، والأم المثقفة والمربّية الداعية، وظهر التنافس العلمي بين الذكور والإناث، كما امتدَّ هذا التنافس إلى مجال الدعوة العملية في المساجد والبيوت.

- **كلية أصول الدِّين:**

ولم يقف طموح سماحة الشيخ العلمي في الدراسة الجامعية عند المرحلة الأولى وقَطْع الطلاب في منتصف الطريق، فتوجه سماحته إلى جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان الشقيق، وهي من أعرق الجامعات العربية في العلوم الإسلامية، وتعاقد معها لفتح (كلية أصول الدِّين) للدراسة الجامعية، ثم فتح الدراسات العليا في: (الدبلوم، والتمهيدي، والماجستير، والدكتوراه)، وذلك منذ ثلاث سنوات فقط.

- **كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية:**

وكان إقبال الطلاب والشباب على الدراسات الإسلامية في مجمع أبي النور يفوق الإمكانيات المتاحة، وفاض الاستيعاب عن الحدِّ، فأرشد سماحة الشيخ إلى عقد توأمةٍ مع كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية في بيروت؛ لإقامة الروابط المتينة، وتسهيل تسجيل الطلاب فيها، وعقد الامتحانات في مجمع أبي النور للطلاب السوريين المنتسبين إلى كلية الإمام الأوزاعي، وقَبول طلبات طلاب الدراسات العليا، وتوجيههم في كتابة البحوث التمهيدية، وإنارة الطريق أمامهم في وضع خطط الماجستير والدكتوراه؛ ليوفروا عنهم عناء السفر المتواصل إلى بيروت، مع تبليغهم التوجيهات والقرارات المتعلقة بهم دورياً وأسبوعياً.

وبذلك يكون جامع أبي النور، وبعبارةٍ أدق (**مجمع أبي النور**) جامعاً ومجمعاً وجامعةً في آنٍ واحدٍ بكل ما في الكلمة من معنى، وأصبح مَوْئِلَ الطلاب من جميع المستويات في تحفيظ القرآن إلى أعلى الشهادات في الدكتوراه، ومن مختلف الجنسيات، ومن جميع المدن السورية والأقطار العربية، كل ذلك بفضل الرؤية البعيدة والعميقة لسماحة الشيخ، وحسن التخطيط والتدبير تطبيقاً لقوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصِّلَت : ٣٣] ، وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النَّحل : ١٢٥] ✺ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأَنْعَام : ١٥٣] .

نسأل الله تعالى أن يبارك في هذه الأعمال، وأن يحقق الآمال والأهداف، وأن تُنتِج هذه الغراس ثمارَها اليانعة في خدمة الأمَّة وحَمْل الرسالة، ونشر الدعوة وتبليغ الشرع للناس أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

دمشق في: ١٤/١٢/١٤١٥هـ

الموافق: ١٤/٥/١٩٩٥م

الأستاذ الدكتور: محمد الزحيلي

مدخل

جرت العادة أن يقوم الناس بالتعريف برجال الفكر والمعرفة عقب استكمال رسالاتهم في الحياة، وذلك أداء لواجب الوفاء لما قدَّموه من أعمالٍ طيبةٍ كريمةٍ.

ولكنَّ هذا العُرْف يجب ألَّا يلغي أهمية التعريف بالأحياء من رجال الإصلاح، وهو جهدٌ مبرورٌ نلتمس منه الفائدة الكاملة في إطلاع الناس على مشاعل النور المتَّقدة وهي في عطائها وأَلَقِها قبل أن تصبح ذكرى تُستَنْشَد منها الأطلال.

وفي هذا الإطار تأتي هذه الدراسة للتعريف بواحدٍ من رجال الإصلاح الذين عرفتهم بلاد الشام من نشاطهم المتوهج لأكثر من نصف قرنٍ، الذي يتمثل فيه نشاطٌ نادرٌ في تحقيق الوحدة الوطنية على أساسٍ من الإخاء الديني يكون مرتكزاً راسخاً لدعوةٍ عالميةٍ في المحبة والتسامح.

لقد عاش الشيخ أحمد كفتارو يدعو إلى هدفٍ واحدٍ، هو: الدعوة إلى الله ونشر التسامح والتقريب بين المذاهب الإسلامية، والتسامح بين أتباع الأديان السماوية من غير أن يقع في شَرَكِ ابتداع مذهبٍ دينيّ جديدٍ، وهو جهاد لا يستطيعه إلا قلةٌ من الحكماء، وبذلك فإنه أوجد تياراً حقيقياً من التفاهم الاجتماعي أمكنه أن يجرف ركاماً كثيراً من التعصب والبغضاء والأحقاد التاريخية.

إن من حق شباب الصحوة الإسلامية أن يتفهموا هذه التجربة، ويدركوا سرَّ نجاحها وبقائها، وعلى هدي هذه التجربة يمكن أن نقوم بترشيد كثيرٍ من حركات الإصلاح التي تختلط فيها المفاهيم لتبلغ مرادها الحقيقي في مرضاة الله والإحسان إلى خَلْقه.

وعلى كثرة ما نشر من دراساتٍ وتحقيقاتٍ بشأن حياة الشيخ كفتارو وأفكاره في أعمال المفكرين المعاصرين، وما تناولته الصحافة المحلية والعربية والدولية من قراءةٍ في فكره ونشاطه فقد بقيت الإصدارات جميعها جزئيةً ومتوزعةً لا تجتمع منها سيرة كاملة مستوعِبة.

وهكذا فإنني أعددتُ هذه الدراسة من خلال مجموعةٍ من الوثائق أمكَنني الحصول عليها، وينبغي القول: إنها لا تشكِّل مجموعةً كافيةً للكتابة الشاملة، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله!

وغنيٌّ عن القول: إن الآراء التي قدَّمتُها في هذا البحث تعكس رأي كاتبها وحده، ولا يمكن الجزم بأنها رأي الشيخ كفتارو، إلا ما كان نقلاً مباشراً عنه، وغاية الأمر أنها ملاحظات ورؤىً يقدِّمها فردٌ من الجيل الرابع ممن شملهم ذلك النعيم الروحي الغامر الذي أنشأه في الشام الشيخ أحمد كفتارو.

وإني إذ أدفع هذه الأوراق إلى النشر عارفٌ بما قد يعتري بحثي هذا من نقصٍ وقُصورٍ، وهذا شأن كل بحثٍ لم تُستكمَل وثائقه بعدُ، ولكني مطمئنٌّ إلى أن مثل هذا الجهد الصغير سوف يستنفر جهود المهتمين بترشيد الصحوة الإسلامية؛ لتقديم خدماتهم في الطبعات اللاحقة، واللهَ نسأل أن يجعل ما نقدِّمه في هذا السبيل خدمةً للوعي الإسلامي والوحدة الوطنية.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم : ٣٨]

محمد الحبش

الباب الأول

حكاية الكفاح

دمشق مدينة نور الدين الشهيد، وصلاح الدين الأيوبي، والملك العادل...

لقد أنجبت دمشق عبر تاريخها الطويل مجموعةً من العلماء والأعلام؛ كابن عساكر، وابن كثير، وشيخ الربوة الدمشقي صاحب نخبة الدهر، وعبد القادر بن عمر الدمشقي وغيرهم، وهي اليوم تقدِّم من العلماء المجاهدين المعاصرين: الإمام المفتي الأكبر **أحمد كفتارو...**

تحيةً عطرةً لدمشق عبر التاريخ، وللإمام الجليل الذي سعدتُ به، ولجماهير مُرِيديه...

د. أحمد شلبي

المفكِّر الإسلامي المشهور

مؤلف موسوعة: الحضارة الإسلامية، وموسوعة: مقارنة الأديان

عن كتابه: عواصم الخلافة الإسلامية

المنبت الطيب

قاسيون

تبدأ حكاية الشيخ من جبل قاسيون المطِلِّ مباشرةً على مدينة دمشق، الذي يمثِّل بحقٍّ جبهة المجد الشامخة لأقدم مدينةٍ معمورةٍ في العالم، ويرتفع إلى (١١٠٠م) عن سطح البحر بزيادة (٤٠٠م) عن دمشق التي ترتفع بدورها عن سطح البحر نحو (٧٠٠م).

وقاسيون هو الاسم القديم لذلك الجبل الذي نزله من قبلُ الأنبياء والصالحون حتى تزاحمت مدافنهم على سفوحه، وأوى إليه فيما بعدُ مؤمنون شرَّدهم الاضطهاد من بلادهم، حتى ضمَّهم هذا الجبل العتيد، يأكلون من خيراته، ويشربون من مائه، ويسبِّحون الله.

وما أحسن الاستهلال هنا بما تخيره القاضي محيي الدين محمد بن محمد الشهرزوري الحلبي[1] وهو يقرأ في سفر قاسيون من أخبار القرون الأولى، ويرثي كمال الدين قاضي القضاة بالشام الذي توفي عام (٥٧٢هـ) ودفن بقاسيون.

ألِمُّوا بسَفْحَي قَاسيون فسَلِّموا ... على جَدَثٍ بَادي السَّنا وتَرَحَّمُوا

ولو أَنَّني أسطيعُ وافَيْتُ ماشِياً ... على الرَّأسِ أَسْتَافُ التُّرابَ وأَلْثُمُ

[1] ابن الشهرزوري (٥١٩-٥٨٦هـ) هو محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم، أبو حامد محيي الدين بن الشهرزوري، قاضي الموصل ومن بيت مشهور فيها بالفضل والرياسة، رحل إلى بغداد في صباه، فتفقَّه على مذهب الشافعي، وسافر إلى الشام، وولي قضاء حلب، ثم انتقل إلى الموصل فولي قضاءها، وكان رئيساً كريماً، قيل: إنه في مدة حكمه لم يعتقل غريماً على دينارين فما دونهما، بل كان يوفيهما عنه ويخلي سبيله، له شعر حسن وترسل جيد، وهو الذي أنشأ له ابن بسام (صاحب الذخيرة) مقاماته الثلاثين، توفي بالموصل.

ومَنْ عَرَفَ الدُّنيا ولُؤْمَ طِباعِهـا وأَصبَحَ مغرُوراً بها فَهوَ أَلْأَمُ
فأينَ مُلوكُ الأَرضِ كِسرى وأينَ مَضى من قبلُ عادٌ وجرهمُ؟
وما الصَّبرُ إلَّا طاعَـةٌ غير أتَّه على مِثلِ رزئِي فيكَ رزءٌ ومَأْتمُ
سـلامٌ عليكم أَهلَ جِلَّقَ واصلٌ إليكـم يواليه ودادٌ مخيـمُ
وأُوصيكُم بالجـارِ خيراً فإتَّه يعزُّ على أهلِ الوفاءِ ويكـرمُ[1]

ومع أننا سندرج في بحثنا هنا على إيراد الوقائع بالوثائق المعتبرة غير أنه لا يسعُنا أن نتجاهل إيراد ما يعتقده أهل الشام في بركة قاسيون وفضله، وإن كان ذلك لا يستند إلى وثائق قوية، ولكنه على أي حالٍ جزء من ذاكرة أهل الشام التي تبلُغ حداً من الاتفاق يطمئن له القلب وتقرُّ به العين.

وقد كان من اعتقاد الصالحين في هذا الجبل أنهم كانوا يخلعون النعل إذا مشَوا فيه تأدباً مع مَن يرقُد فيه من أنبياء وأولياء وصالحين.

ففيه مرقد نبي الله ذي الكفل، وقد بني شماله مسجد جميل عامر باسم هذا النبي الكريم، وفيه مقام الأربعين من العابدين الصالحين، وهو مسجد جميل قرب قمة الجبل، كان أهل الصلاح يتخذونه دار خلوةٍ وانقطاعٍ، يخلُون فيها مع الله، يتأملون في خلقه وعباده، ويتفكَّرون في خَلْق السموات والأرض.

وعند سفحه الغربي ربوة صغيرة تطلُّ على وادٍ يُقال له: النيرب، يُقال: إنها الربوة التي جاء ذكرها في القرآن الكريم في قول الله عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [المُؤْمِنُون : ٥٠]

[1] انظر: الأبيات في «معجم البلدان» لياقوت الحموي، مادة قاسيون، جـ٤، ص٢٩٥.

وقد نقل الإمام الطبري شيخ المفسرين هذا القول عن جماعةٍ من الصحابة والسلَف الصالح، فيهم: ابن عباس، وعائشة، وجابر بن عبد الله، وسعيد بن المسيب، وذلك أن العذراء الطاهرة مريم خافت على ولدها عيسى ابن مريم من بطش اليهود، ففرَّت به إلى الشام، ونزلت في الربوة، وجعل الله سبحانه وتعالى لها عندها قراراً، وأجرى لها ماءً معيناً.

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس ﷺ قال: (مَن أراد أن يرى الموضع الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المُؤْمِنُون: ٥٠] فليأتِ النيرب الأعلى بدمشق بين النهرين، وليصعد الغار في جبل قاسيون، فليُصلِّ فيه فإنه بيت عيسى وأمه، وهو كان معقلهم من اليهود، ومَن أراد أن ينظر إلى إرم فليأتِ نهراً في حفر دمشق يقال له: بردى، ومَن أراد أن ينظر إلى المقبرة التي فيها مريم بنت عمران والحواريُّون فليأتِ مقبرة الفراديس)[1].

وقد أورد ابن عساكر نصوصاً كثيرةً في فضل جبل قاسيون، غير أنه لم يشر إلى أسانيدها، فتركتها مُحيلاً عليه، فمَن شاء الاستزادة فليرجع إلى ما أورده في باب ذكر فضل المساجد المقصودة بالزيارة، وذلك في الجزء الأول من كتابه الكبير «تاريخ دمشق».

وقد كثرت في جبل قاسيون المدارس العلمية والشرعية؛ كالمدرسة الأتابكية والدلامية والعمرية[2] ومدرسة الصاحبة، فقد جاء المقادسة بما عندهم من علمٍ، ونبغ في الشام منهم كثيرون، أشهرهم: الموفق بن أحمد بن قدامة المقدسي صاحب المغني، ومرجح

[1] راجع ابن عساكر باختصار ابن منظور، ط دار الفكر ج١، ص٣٠٢.

[2] انظر «خطط دمشق» لأكرم العلبي، صفحات: ٦٥-٩٧-٤٢.

المذهب الحنبلي، وكذلك أخوه الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة الذي أوقف أعظم مدرسةٍ في دمشق وهي المدرسة العمرية.

واشتهرت في الصالحية المدرسة الأتابكية ودار القرآن الدلامية، واشتهرت دور القرآن الكريم على ضفاف نهر يزيد، حتى بلغت العشرات، وبحسبك منها المدرسة العمرية التي كانت تحتوي ثلاثمئة وستين حجرة لتحفيظ وتدريس القرآن الكريم، ولا تزال فيها إلى اليوم مئة وعشر غرف تقوم الأوقاف بترميمها وإعدادها لتكون داراً للبحوث الإسلامية[1].

وإنما بسطتُ القول في الحديث عن قاسيون لأكشف عن البيئة العلمية التي نشأ فيها الشيخ في صباه، وتقلَّب عليها في تحصيله العلمي.

وإذا كان المسلمون لم يتفقوا على عين قبر نبيٍّ وصحابيٍّ غير قبر نبينا محمدٍ ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر فإن ذلك لا ينفي أن اشتهار أرضٍ ما بضريح نبيٍّ أو وليٍّ مظنةُ ثبوت، غير أنه لا يصحُّ الجزم في ذلك بيقينٍ إلا بتوافر السند من النقل أو الشهود.

ثم ما لنا نخوض فيما لا توثيق له معرِضين عمَّا تواترت به الأخبار وفاضت به الآثار، فقد نزل في جبل قاسيون خَلْق لا يُحصَون من الأولياء والعارفين، نذكر منهم: الشيخ محيي الدين بن عربي[2]، مالئ الدنيا وشاغل الناس، والشيخ

[1] المصدر نفسه، ص٢٤٣، ومقر هذه المدرسة في حي الشيخ محيي الدين تجاه مسجد الحاجبية.

[2] ابن عربي: (٥٧١-٦٤٨هـ) ويلقب بالشيخ الأكبر، صوفي مشهور، ولد بمرسيه ودرس الفقه والحديث، وارتحل إلى المشرق الإسلامي، أقام بدمشق وتوفي بها، تبلغ مصنفاته نحو المئتين، أهمها: الفتوحات المكية، فصوص الحكم، وديوانه: ترجمان الأشواق.

عبد الغني النابلسي[1]، والشيخ خالد النقشبندي[2]، والشيخ الموفق ابن قدامة المقدسي[3]، وأخوه أبو عمر المقدسي، وغيرهم كثير.

وقد كثرت منازل الصالحين في قاسيون حتى سمي هذا الجبل بجبل الصالحين، وسمي الحي الكبير القائم على سفحه بحي الصالحية.

وفي مطلع هذا القرن كنت تجد قاسيون يقسم إلى ثلاثة أحياء:

الأول: القسم الشرقي، ويسمَّى حي الأكراد، يسكنه عادةً الأكراد الذين وفدوا إلى دمشق الشام مع شيركو أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي.

الثاني: القسم الأوسط، ويسمَّى حي الصالحية، ويسكنه عادةً المقادسة الذين هاجروا إلى الشام في أعقاب الحروب الصليبية.

الثالث: القسم الغربي، ويسمَّى المهاجرين، وهي تسميةٌ تكشف عن مضمونٍ واضحٍ، فقد كانت الشعوب المضطهدة في العالم الإسلامي تهاجر إلى الشام وتقيم فيما

---

[1] عبد الغني النابلسي (١٠٥٠-١١٤٣هـ/ ١٦٤١-١٧٣١م) هو عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي، شاعر متصوف، عالم بالدين والأدب، ولد ونشأ في دمشق، ورحل إلى بغداد، ثم عاد إلى دمشق، وقد تنقل في بلاد الشام ومصر والحجاز، واستقر في دمشق إلى أن توفي فيها، يكثر من التصنيف، من كتبه: الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، تعطير الأنام في تعبير المنام، إيضاح الدلالات في سماع الآلات، وديوانه: الحقائق، وغيرها كثير.

[2] خالد النقشبندي (١١٩٠-١٢٤٢هـ/١٧٧٦-١٨٢٧م): هو خالد بن أحمد بن حسين أبو البهاء، ضياء الدين النقشبندي المجددي، صوفي فاضل، ولد في قره داغ، وهاجر إلى بغداد في صباه، ثم رحل إلى الشام وتوفي فيها بالطاعون، له تصانيف كثيرة، منها: (شرح مقامات الحريري) لم يتمه، و(إثبات مسألة الإرادة الجزئية)، وديوان شعر فارسي.

[3] ابن قدامة المقدسي (٦٠٥-٦٤٣هـ/ ١٢٠٨-١٢٤٥م): هو أحمد بن عيسى بن عبد الله بن قدامة، سيف الدين بن مجد الدين المقدسي الصالحي الحنبلي، من حُفَّاظ الحديث، دمشقي المولد والوفاة، له كتاب في الرد على محمد بن طاهر القيسراني في إباحته السماع، وله ورقات في تراجم بعض المقادسة.

تبقَّى من سفوح قاسيون، ونذكر مثلاً: هجرات بخارية، وأفغانية، وداغستانية، وشيشانية، ومغربية، وأرناؤوطية، وتركية.

وقد أصبحت أحياء قاسيون اليوم جزءاً رئيساً من مدينة دمشق؛ بل إن الجزء الغربي من قاسيون أصبح أرقى أحياء دمشق، وفيه السفارات والوزارات والقصر الرئاسي.

قراءة في عصر المشايخ

كان مطلع القرن العشرين حافلاً بالأحداث الكبرى التي قلبت الموازين والقوى في المنطقة، فلأول مرةٍ منذ أربعمئة عامٍ تقوم في سورية حكومة عربية بدل الحكومة العثمانية؛ إذ وصل الأمير الهاشمي فيصل بن الحسين إلى دمشق وأقام حكماً وطنياً، غير أنه لم يستمر إلا نحو أربعة أشهرٍ؛ إذ وقعت معركة ميسلون في ١٩٢٠/٧/٢٤م ودخلت فرنسا إلى دمشق في حملةٍ استعماريةٍ غاشمةٍ.

وأثمرت الثورة السورية التي دعا إليها شيوخ الشام فور دخول الفرنسيين عن العودة إلى الحكم الوطني عام (١٩٢٥م)، ولكن تحت مظلة الانتداب الفرنسية الذي لم يكن في الواقع إلا احتلالاً كاملاً مع بعض التجميلات الدبلوماسية.

وفي ١٩٤٦/٤/١٧م حصلت سورية على الاستقلال الكامل، وذلك عند خروج آخر جنديٍّ فرنسيٍّ من دمشق.

وهكذا فإن الشيخ كفتارو أدرك أيام الثورة السورية طفلاً بين الثامنة والثالثة عشرة، ولا شكَّ أن جهاد العلماء في بيئته ومحيطه رسم له صورةً قويةً من وجوب مقاومة الغزاة، ولعلَّ أقرب هذه الصور إليه ما رآه في تلامذة أبيه من الجهاد، أذكر منهم مثلاً: الدكتور مدحت شيخ الأرض الذي كان أخصَّ تلامذة الشيخ أمين، فشارك في الثورة وحكمت عليه فرنسا بالإعدام، ولم ينجُ من ذلك إلا حينما هرب إلى الحجاز مع الشيخ أمين متنكِّراً بعباءة امرأةٍ على أساس أنه زوجة الشيخ أمين.

وإذا أردت أن تتكلم في عصر الشيخ فيجب أن تتحدث عن رجال الدعوة والإصلاح في ذلك الوقت؛ إذ هم الذين كان لهم أكبر الأثر في توجيه الحركة الإسلامية في ذلك الحين، وهي بذلك البيئة التي نشأ فيها الشيخ وتحرك من خلالها.

وهكذا فإنه يمكن في هذه الفترة قراءة الواقع الاجتماعي من إطارَين اثنَين: التيار الوطني والحركة الإسلامية، فقد مضى التيار الوطني في المطالبة بالاستقلال السياسي والتخلص من حكم الأجنبي مستخدماً الوسائل السياسية من خلال الأحزاب والتكتلات والصحافة، فيما مضى التيار الديني في نشر العلوم الشرعية والمحافظة على الأخلاق العامة والدعوة إلى تحكيم الشريعة.

وكان على الحركة الإسلامية واجب كبير يتمثل في معالجة واقع الجهل والتخلف والضياع، فقد مضى على الدولتَين النورية والصلاحية –وهي آخر فترةٍ مضيئةٍ في تاريخ الشام– نحو سبعمئة عام، عاشت الشام خلالها فترةً مظلمةً، ولم تكن إلا هامشاً محيداً يتنازعون عليه ولا يحسنون إليه.

ومع ما شهدته دمشق من انتعاش في القرن العاشر الهجري على يد بعض ولاة الأتراك غير أن وهن الدولة العثمانية في القرنَين الأخيرَين عاد بأشأَم الضرر والأذى على الشام.

ومنذ أن بدأت أوربا تسمِّي تركيا: الرجل المريض، وتفكر باقتسام تركتها، كان على القيادات الإسلامية أن تتهيأ للنظام العالمي الجديد حينئذٍ، الذي تقرر فيه أن تتقاسم أوربا مناطق العالم الإسلامي دون حاجةٍ لتصاريح من السلطان العجوز.

وظهرت قيادات إسلامية على مستوى المرحلة تنشر الوعي في صفوف الشباب، وتبعث الروح في آمالهم، فظهر الشيخ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في مصر،

والأمير عبد القادر الجزائري في الجزائر، وعبد الكريم الخطابي في المغرب، ومحمد إقبال في الباكستان.

أما دمشق الشام فلم تكن لها مشاركة فاعلة على المستوى العربي والإسلامي، وذلك نظراً لتحييدها طوال سبعة قرون، وكان لها في همها الداخلي شؤون وشجون.

ويمكن القول: إن زعماء الحركة الإسلامية في الشام في القرن الماضي ونصف القرن الحالي لم يعنوا بدورٍ رائدٍ في العالم الإسلامي أو العربي، وإنما وجهوا جهودهم باتجاه إحياء دور دمشق كمركزٍ علميٍّ نهضَويٍّ، لا كثقلٍ سياسيٍّ وقياديٍّ.

ويتضح لك باستقراءٍ سريعٍ أن الإسلاميّين في الشام لم يشاركوا مشاركةً فعالةً في الحياة السياسية، لا في أيام العثمانيّين ولا في أيام الانتداب، وإنما شاركوا في الثورة ضدَّ الفرنسيّين (الكفار)، ولا يخفى هنا دور الدافع الديني في هذا الجهاد، وانصرفت جهودهم إلى نشر العلوم الشرعية والإصلاح الاجتماعي عن طريق التصوف والإرشاد.

ومن أهم الأسماء التي أسهمت في الحياة العلمية في الشام آخر القرن الماضي وأول هذا القرن كان: الشيخ جمال الدين القاسمي[1]، والشيخ طاهر الجزائري[2].

[1] القاسمي، جمال الدين (١٢٨٣-١٣٣٢هـ، ١٨٦٦-١٩١٤م): هو جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، إمام الشام في عصره في علوم الدين والأدب، مولده ووفاته بدمشق، انقطع في منزله للتصنيف وإلقاء الدروس الخاصة والعامة في التفسير وعلوم الدين والأدب، ونشر بحوثاً كثيرةً في الصحف والمجلات، وله مصنفات كثيرة، أهمها: تفسيره للقرآن في ١٧ مجلداً المسمَّى (محاسن التأويل)، وموعظة المؤمنين، تعطير المشام في مآثر دمشق والشام، وغيرها كثير.

[2] الجزائري، الشيخ طاهر (١٨٥٢-١٩٢٠م): ولد بدمشق، بحث عن المخطوطات، وساعد على إنشاء دار الكتب الظاهرية بدمشق، ثم أصبح مديرها وعضواً في (مجمع اللغة العربية)، له مؤلفات عدة في الأدب والحساب.

وفي مطلع القرن كانت دمشق الشام تسعد بعالمين اثنين: **الأول**: هو الشيخ عيسى النقشبندي[1]، **والثاني**: هو الشيخ بدر الدين الحسني[2]، ولكلٍّ منهما مدرسة ذات منهجٍ متفردٍ، فبينما اختار الشيخ عيسى جانب التصوف أساساً لدعوته مع الاهتمام ببعض العلوم الشرعية جعل الشيخ بدر الدين العلوم الشرعية أساس دعوته مع الإقرار بدور التصوف في التربية والتزكية.

فقد قاد الشيخ عيسى النقشبندي نهضةً إصلاحيةً من خدمته للطريقة النقشبندية في الشام، وأصبح مقره في جبل قاسيون مركز التربية الروحية والتوجيه الديني، وكانت عمائم الشام تزحف إليه تنهلُ من ذلك الرحيق الرباني الصافي أطيب شهد الإيمان.

[1] الشيخ عيسى الكردي: ولد عام (١٢٤٧هـ/١٨٣١م) في بلدة ترحم بالجزيرة شمال سورية، ثم رحل في طلب العلم، فقصد الحجاز، ثم مصر، وفيها التقى بكبار علمائها كالشيخ إبراهيم الباجوري شيخ الأزهر، ثم قصد الشام فتصدى للتعليم والإقراء والإرشاد حتى انتفع به خلق عظيم، وبلغ عدد الذين اجتمعوا حوله أكثر من خمسة آلاف سالك، ولعل ما يكشف عن مدى علمه وفضله أن تذكر أنه خلَّف من بعده خمسة خلفاء، وهم: الشيخ عطا الكسم المفتي العام للديار السورية، والشيخ أبو الخير الميداني رئيس رابطة العلماء، والشيخ إبراهيم الغلاييني، والشيخ أمين كفتارو، والشيخ أمين الكردي الزملكاني.

[2] الشيخ بدر الدين الحسني: (١٢٦٧-١٣٥٤هـ) محمد بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد الملك بن عبد الغني المغربي المراكشي البيباني السبتي الحسني، المحدث الأكبر وشيخ الشام وإمام المسلمين في عصره، ولد بدمشق، وأخذ عن شيوخ عصره كالشيخ عبد القادر الخطيب الدمشقي الكبير وابنه، لما توفي والده كان عمر الشيخ اثنتي عشرة سنة، فجلس في غرفة والده بدار الحديث -وكان لها اتصال بداره- وأخذ يحفظ المتون، وصار يحضر دروس شيخه الشيخ عبد القادر، فشغله بقراءة شروح المتون، ولم يمضِ وقت قصير حتى أجازه مشايخه وأذنوا له بالتدريس، وطار صيته في الآفاق، ولم يزل مثابراً على العلم والتعليم إلى أن توفَّاه الله تعالى في دمشق، رحمه الله تعالى.

وإذا رغبت أن تتصور مبلغ الأثر الذي تركه الشيخ عيسى في الشام فإن عليك أن تدرس حياة أهم الرجال الذين خلَّفهم، إضافةً إلى الألوف من الذاكرين والسالكين الذين كانوا يزدحمون على مجالسه.

فمن رجال العلم والتربية الذين تخرجوا على يديه: الشيخ عطا الكسم[1] الذي أصبح مفتياً عاماً للجمهورية السورية، والشيخ أبو الخير الميداني[2] الذي أصبح رئيساً لرابطة العلماء، والشيخ إبراهيم الغلاييني[3] الذي قاد نهضةً إصلاحيةً كبيرةً في ريف دمشق

[1] هو محمد عطاء الله بن إبراهيم بن ياسين الكسم، ولد بدمشق (١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م)، وأصله من حمص، أخذ عن علماء عصره: كالشيخ عبد الله السكري، والشيخ أحمد الحلبي، والشيخ محمد الطنطاوي، والشيخ سليم العطار، وقد تأثر بالشيخ سليم تأثراً واضحاً، فلازمه ملازمةً تامةً حتى توفاه الله (١٣٠٧هـ)، فكانت ملازمته له ١٧ سنة، درس وأفتى وتولى الإمامة والتدريس في مكتب عنبر، واختير مفتياً عاماً للجمهورية العربية السورية (١٣٣٧هـ) ١٩١٨/١١/١٥م، تخرج عليه كثير من العلماء والفضلاء، بقي في منصبه إحدى وعشرين سنة إلى أن توفاه الله في (١٣٥٧هـ).

[2] الشيخ محمد أبو الخير الميداني (١٨٧٦-١٩٦١م) ابن بكري الميداني الحنفي النقشبندي المجددي النضري المشهور، شيخ الشام ورئيس علمائها، فقيه صوفي محدِّث ورع، ولد بالميدان من أحياء دمشق من أبوين فقيرين صالحين، ونشأ بهذا الحي نشأة صالحة، فدرس في أحد الكتاتيب القرآن الكريم، ثم انتقلت به والدته إلى حي العقيبة، فالتحق بالمدرسة الرشدية، ثم بمكتب عنبر، ثم أتمَّ جميع تحصيله العلمي بدمشق، وأخذ الشهادات المعروفة حينئذٍ، ثم بدا له الالتحاق بالمدرسة الحربية باستنبول، فسافر إليها، ثم عاد بعد فترة لإتمام أوراقه الثبوتية، وفي ذلك الحين طلبت والدته إليه الذهاب إلى الشيخ سليم المسوتي إمام جامع التوبة ومدرِّسه آنئذٍ في فتيا، فتفرس فيه أن يكون شيخ الشام وأمرَه بطلب العلم، فلازم المترجم له الشيخ ملازمة تامة وقرأ عليه جملة من الكتب، ثم عرفه بالشيخ عيسى الكردي، فلازمه حتى تخرج على يديه وصار من كبار العلماء، توفي يوم الجمعة ١٦ رمضان.

[3] الشيخ إبراهيم الغلاييني (١٣٠٠-١٣٧٧هـ/١٨٨٣-١٩٥٨م): إبراهيم بن أبي الخير الغلاييني النقشبندي الخالدي الحنفي مذهباً الشافعي فتية، مفتي قضاء قطنا، مرشد وعالم مشارك، نشأ في طلب العلم فقرأ على كبار علماء عصره: كالشيخ محمد بدر الدين الحسني، والشيخ عطا الله الكسم، والشيخ محمود العطار، كانت له همةٌ عظيمةٌ في نشر العلم وتربية المريدين، وقد تخرج عليه كثيرون منهم، أخذ الطريقة النقشبندية على الشيخ عيسى الكردي، فأجازه الشيخ بكل ما أجازه به شيوخه، وكانت له يد في علم المواريث والمناسخات، وكانت فتاواه صحيحة، وكان مهيباً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يترك الاعتكاف في آخر رمضان، وله اتِّباعٌ عظيمٌ للسنة

والبقاع اللبناني، والشيخ أمين كفتارو[1] الذي أسس حركة الدعوة في جامع أبي النور، والشيخ أمين الكردي الزملكاني[2] الذي تولى مشيخة الطريقة النقشبندية من بعد الشيخ عيسى.

وقد قام هؤلاء العلماء بنهضةٍ تربويةٍ وعلميةٍ شرعيةٍ في مناطق واسعةٍ في دمشق وريفها، وامتدت آثارهم إلى الدول المجاورة.

النبوية وحبٌّ لرسول الله، وله أنجال بررة وأصهار سعداء، وممن قرأ عليه الشيخ محمد بدر الدين عابدين، وله فيه رسالة، توفي رحمه الله في ١٤ شوال يوم الجمعة سنة (١٣٧٧هـ)، فشيّع إلى الأموي حيث صُلّي عليه، ثم إلى مقبرة باب الصغير حيث دفن إلى جوار آل البيت في اليوم ذاته بعد صلاة العصر، وكان في الجنازة رسميون، منهم: نائب رئيس الجمهورية، وللشيخ رسالة مطبوعة اسمها: الموجز المبين فيما اختصره رسول الله من أمور الدين.

[1] الشيخ أمين كفتارو (١٢٩٣-١٣٥٦هـ، ١٨٧٦-١٩٣٨م): أمين بن موسى كفتارو، عالم فقيه، صوفي مرشد، داعية، ولد في دمشق من أسرة علمية عريقة، فوالده الشيخ موسى من علماء عصره، درس المترجم له العلوم العربية والشرعية على كثيرٍ من كبار العلماء، وحفظ القرآن الكريم، وكان مبرزاً في علوم الفقه، شافعي المذهب، أخذ الطريق النقشبندي على الأستاذ الشيخ عيسى الكردي، وأجازه إجازة خطِّية وشفوية، توفي بدمشق ودفن في سفح جبل قاسيون قرب جامع أبي النور.

[2] الشيخ محمد أمين الكردي الزملكاني (١٢٧٠-١٣٤٥هـ، ١٨٥٣-١٩٢٥م): عالم صوفي مربٍّ، خليفة الشيخ عيسى الكردي النقشبندي المجددي، حمل لواء الإرشاد والدعوة إلى الله بعد وفاة شيخه عيسى الكردي، وسار على دربه في ترشيد التصوف وتقييده بالكتاب والسنة معتمداً في ذلك على أخوَيه في الطريق وفي خلافة شيخهم الشيخ عيسى، واللذين كانا يلازمانه بأمر شيخهم طيلة حياته، وهما: الشيخ محمد أمين ملا موسى الكردي الشهير بـ(كفتارو)، والشيخ محمد أبو الخير الميداني، حفظ عن شيخه قوله: (لا تعتمدوا على مجرد الإذن والإجازة فهذا من غير عمل لا ينفعكم، فإن الإذن عادة جرت بين المشايخ ويغرُّ بها الكثيرون، وتبردُ همتهم، ويتباهون بها بين المريدين)، قام بالدعوة والإرشاد، في قبة مولانا خالد إلى أن لقي ربه وهو على ذلك في شهر المحرم السابع عشر منه (١٣٤٥هـ)، رحمه الله تعالى.

وأما الشيخ بدر الدين الحسني فقد بعث في الشام نهضةً هائلةً في التعليم الشرعي تولى رعايتها تلميذه الشيخ علي الدقر الذي أسس الجمعية الغراء التي هي بلا ريبٍ أم المدارس الشرعية في بلاد الشام.

كذلك فإن الشيخ بدر الدين كان أكثر مشاركةً في الحياة العامة، وله إسهام كبير في قيام الثورة ضد فرنسا، وقد تبوَّأ مقاماً فريداً من احترام الناس، حتى أصبح المرجع الديني الأعلى في الشام للجماعات الإسلامية العاملة، وكذلك في القضايا الاجتماعية كلها.

وحتى اليوم فإن علماء الشام متَّفقون على أن صحبة الشيخ بدر الدين وملازمته منزلة علمية سامية لا يزال مَن أدركها منهم يذكرها بالغبطة والاعتزاز.

وهكذا فإن الشيخ الشاب فتح عينيه على العمل الإسلامي وأمامه مدرستان اثنتان: مدرسة الشيخ عيسى الصوفية وامتدادها على يد والده الشيخ أمين، ومدرسة الشيخ بدر الدين في الفقه والحديث وامتدادها على يد الشيخ علي الدقر.

ومع أنه نشأ في مدرسة الشيخ عيسى غير أنه لم يطلْ به التردد، وعرف كيف يجمع بين مدرسة العلم ومدرسة التصوُّف، وأدرك أنه لا غنى لحركةٍ إسلاميةٍ عن جنَّة العلم وجنَّة الذِّكر، وعلى أساس ذلك أسس حركته الإسلامية الواعدة.

عائلة الشيخ

ينتمي الشيخ إلى عائلةٍ عريقةٍ من أصولٍ كرديةٍ هاجرت إلى دمشق في نهاية القرن التاسع عشر ضمن هجرات الأكراد المتتابعة إلى دمشق.

وقد كان من الأكراد مَن يقدم دمشق بغرض مجاورة الصالحين فيها، أو ابتغاء رزق الله، أو طلباً للعلم؛ لوجود اعتقادٍ راسخٍ لدى كثيرٍ من الشعوب الإسلامية بشرف السُّكْنَى في الشام وقُدْسية هذه البلاد، وغالباً ما تسمَّى الشَّام على لسان العجم عموماً: الشام الشريف.

وكان الأكراد يَألَفون الجبال، فهم في الأصل شعبٌ محارِبٌ شديدٌ يأنَفُ الذلَّ ويأبى الضَّيم، ويعتزُّ بمحتدِه وأصوله اعتزازاً لا حدود له، وقد بدأ نزولهم إلى دمشق إثر قدوم صلاح الدين الأيوبي مع عمه شيركو أسد الدين؛ إذ ساهموا مساهمةً عظيمةً في تحرير بيت المقدس وبلاد الشام، وطَرْدِ الفرنجة الغزاة من حيث جاؤوا[1]، وقد قاموا بحكم بلاد الشام بكفاءةٍ وإدارةٍ ظاهرتَين في فترةٍ مضيئةٍ لا نزال نسمّيها: الفترة الأيوبية.

غير أن الهجرة الكبرى للأكراد إلى دمشق بدأت قبل نحو قرنَين، واشتدت عقب الحرب الروسية التركية التي كان انتهاؤها في معاهدة باريس (١٨٥٥م) ظلماً ظاهراً

[1] تسمى غارات أوربا على بلاد الشام بالحروب الصليبية وهي تسمية أوربية محضة لا تجد لها ذكراً في أعمال المؤرخين المسلمين الذين كانوا يسمونها: (حروب الفرنجة)، ولا شك أن هذا يكشف لك مدى وعي المؤرخ المسلم الذي لم يقع في حبائل التضليل الإعلامي لقادة تلك الحروب، حيث أطلقوا عليها اسم: (الحروب الصليبية)؛ لكسب تعاطف المسيحيين في الشرق، ولإذكاء نار العداوة والحقد والبغضاء لدى المحاربين، وهكذا فقد كشف المؤرخ المسلم بتسمية: (حروب الفرنجة) طبيعة الدوافع الاستعمارية التي كانت تشعل نار هذه الحرب الظالمة.

للأكراد؛ إذ فصلت تلك المعاهدة حقوق الشعوب في منطقة الشرق الأوسط من غير إشارةٍ إلى الأكراد.

ولا يزال الأكراد في الشام بدءاً من الأيوبيين ومَن لحق بهم من بعدُ جزءاً عزيزاً من المجتمع الدمشقي في السرَّاء والضرَّاء والسرِّ والعلانية.

الشيخ موسى كفتارو

كان جدُّ الشيخ الملا موسى كفتارو الكرمي النقشبندي عالماً من علماء الأكراد[1]، انتفع به الناس في ماردين وكرمة، (وتقع كرمة اليوم ضمن الأراضي السورية على الحدود التركية لمحافظة الحسكة)، ثم ألجأته ظروف الحروب المستمرة إلى الهجرة، فهاجر إلى دمشق ووصلها عام (١٢٩٦هـ) الموافق (١٨٧٨م).

ومع أن الشيخ ملا موسى كان عالماً كبيراً غير أنه لم ينبغ في دمشق بسبب مبادرة الأجل له بعد هجرته إليها بسنواتٍ قليلةٍ، ولم يكن قد أتقن العربية محادثةً وتعايشاً بعدُ، على الرغم من إحاطته التامة بأصولها وقواعدها عن طريق الدرس للعلوم الشرعية.

وكان الملا موسى يحدِّث عن سبب هجرته إلى الشام بأن الشام فسطاط المسلمين وبلد الأبدال، وفيها مهبط عيسى ابن مريم عليه السلام، ومنها يخرج المهدي من آل محمدٍ ﷺ.

وكان يدفعه إليها رغبة عارمة أن يكون من رجال المهدي؛ إذ يخرج فيها فينصره ويؤازره حتى يقوم بأمر الله.

ويشاء الله عز وجل أن ينزل الشيخ ملا موسى بأهله في حي الزينبية بجبل قاسيون، وهناك يأوي إلى مسجدٍ مجاورٍ صغيرٍ يقوم بجانب تربة (أبو النور قراجا الصلاحي)، وهو أميرٌ ناصريٌّ جاهد مع صلاح الدين وكان قائداً من قادة كتائبه، توفي عام (٦٠٤هـ)، وبني أمام قبره هذا المسجد الصغير الذي أصبح فيما بعدُ واحداً من أكبر مساجد دمشق.

[1] انظر: كتاب الشيخ أمين كفتارو، ط دار المعرفة، ص٢٠.

وثمَّة حكاية لطيفة يذكُرها الشيخ ملا موسى عن سبب أُنْسِه بهذا المسجد، أنقلها لك عنه كما رويناها؛ إذ إن الملا موسى لما حطَّ رحاله في هذا المسجد المتواضع عنَّ له أن يمدَّ رجلَيه ويأخذ قسطاً من الراحة، فجلس في باحة المسجد، ثم تردد أن يمدَّ رجلَيه شرقاً؛ إذ تذكَّر مدفن الشيخ العارف بالله خالد النقشبندي، ثم تردد كذلك أن يمدَّها غرباً حيث يرقد الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، وخاف أن يمدَّها جنوباً حيث قبور الصحابة في الشام، وأشفق أن يمدَّها شمالاً حيث مقام الأبدال الأربعين في قلب جبل الصالحين في جبل قاسيون، ولما تحيَّر في أمره جثا على ركبتيه ثم أخذته سِنَةٌ من النوم رأى فيها مولانا خالد النقشبندي يلاطفه، ويقول: (مُدَّ رجلَيكَ نحوَنا فالبساطُ أحمدِي).

كانت هذه الملاطفة الحانية هي التي وصلت الرباط الروحي بين الرجل وبين هذه البقعة الطيبة التي ستصبح فيما بعدُ أهم مركزٍ للتربية والتزكية الروحية والعلم الشرعي في الشام مئةَ سنةٍ أخرى حتى يومنا هذا، ولعلها تبقى كذلك إلى آخر الدهر إن شاء الله[1].

[1] انظر: كتاب الشيخ أمين كفتارو ص٢٢.

الشيخ أمين كفتارو (١٢٩٤-١٣٥٧هـ/ ١٨٧٧-١٩٣٨م)

وهكذا فقد لازم الشيخ موسى جامع أبي النور ذاكراً ومتعبداً وناصحاً فيه حتى وافاه الأجل، فخلفه في ذلك ولده الشيخ أمين الذي كان قد عكف على طلب العلم منذ طفولته، فنجب بين أقرانه، وتميز بين خِلَّانه، ثم أخذ الطريق عن الشيخ العارف بالله الشيخ عيسى الكردي النقشبندي، وتفرغ للإرشاد والتعليم، وأمره الشيخ عيسى بملازمة مسجد أبي النور، فكان لا يترك مجلسه فيه حتى تحلَّق حوله عدد كريم من خيرة رجال دمشق ووجهائها وصلحائها، وأصبح مسجد أبي النور منذ ذلك الحين من أكبر مدارس الطريقة النقشبندية في بلاد الشام.

منهج الشيخ أمين:

واعتمد الشيخ أمين عليه رضوان الله مسلكاً تجديدياً في التربية والتعليم، ويظهر ذلك من خلال كتبه التي كان يقررها على طلَّابه ومُريديه، فقد اعتمد لهم في الفقه كتاب الإمام الشعراني[1]: (الميزان)، وهو كتابٌ نفيسٌ عُنِي فيه الشعراني بالتوفيق بين منهج الفقهاء ومنهج الصوفية، فبذلك أسعدهم بنعيم التصوُّف من غير أن يحجب عنهم المعارف الشرعية الضرورية.

كذلك فإن الشيخ أراد ببحثه هذا إزالة التعصب المذهبي الذي كان على أشده تلك الأيام، فقد عُنِي الشعراني بالدليل لدى تقرير الحكم الشرعي بصَرْفِ النظر عن

[1] عبد الوهاب الشعراني (٨٩٨-٩٧٣هـ) صوفي مشهور، ولد في القاهرة وعاش فيها، كان نساجاً يكسب قوته منها، وكان ينتمي إلى الطريقة الصوفية التي أسسها علي الشاذلي، ألَّف كثيراً في التصوف وعلومٍ أخرى كالقرآن والفقه والعقائد والنحو والطب، وكانت له مكانة مرموقة وأثر بالغ في العالم الإسلامي، أهم كتبه: (البحر المورود)، (الجوهر المصون والسر المرقوم)، (لطائف المنن)، (طبقات الصوفية).

موافقته لمذهبٍ دون مذهبٍ، كما عُنِي بالاستدلال للأئمة كافَّةً فيما ذهبوا إليه من اختياراتٍ في الفقه أصوله وفروعه.

كما قرر الشيخ أمين تدريس كتاب (بداية المجتهد) لابن رشد الحفيد[1]، وهو كتاب ألَّفه القاضي المالكي ابن رشد الحفيد، اعتمد فيه منهج الجمع بين الأدلة ومقارنة المذاهب الفقهية، حتى إنه رجَّح في كثيرٍ من الأحيان آراء غير المالكية في فروعٍ فقهيةٍ مختلفةٍ.

ولا شكَّ أن اعتماد مثل هذه المناهج التدريسية يكشف لك عن الفهم التجديدي الواضح الذي أراده الشيخ أمين لحركته الإسلامية الناهضة.

ومن أخصِّ ما يُروَى في هذا الباب ما اختاره الشيخ أمين لنفسه حينما أفتى بترك صلاة الظهر عقب صلاة الجمعة إذا تعدَّدت المساجد في البلد الواحد لحاجة، فقد أثارت هذه الفتوى حنقَ كثيرٍ من المتعصبين الجامدين؛ إذ رأَوْا فيها خلافاً للمشهور في مذهب الشافعية والحنفية، ولكن الشيخ مضى في فتواه، وأصدر في بيان ذلك رسالةً خاصةً طُبعت عام (١٣٤٢هـ) أسماها: «رسالة في جواز تعدد الجمعة في البلد الواحد، وبيان أنها تقوم مقام فريضة الظهر»، وفيها يقول ص٣٠:

(قال الإمام الشافعي ﷺ للمزني: لا تعمل بكل ما أقول، وهكذا وصية المجتهدين، حيث قالوا: لا يجوز العمل بكل ما قلنا إلا لمن علم من أين أخذنا، فهذه المسألة من

[1] محمد ابن رشد: (٥٢٠-٥٩٥هـ/ ١١٢٦-١١٩٨م) هو محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، ويعرف بابن رشد الحفيد (أبو الوليد)، عالم حكيم مشارك في الفقه والطب والمنطق والعلوم الرياضية والإلهية، ولد بقرطبة ونشأ فيها، ودرس الفقه والأصول وعلم الكلام، ثم أقبل على علوم الأوائل ومال إلى علوم الحكماء، وولي قضاء قرطبة، وتوفي في مراكش، من مؤلفاته: (الكليات في الطب)، (كتاب الحيوان)، (في المنطق)، (بداية المجتهد في الفقه)، (مختصر المستصفى في أصول الفقه).

المسائل الاجتهادية، ومعلوم أن اجتهاد المجتهد يفيد الظن، ولا يجوز العمل بكل الظنيات التي تفاد من كلام المجتهدين).

وهكذا فقد كانت بذور التجديد والانفتاح والوعي مهيئةً في جامع أبي النور، وقد زرعها الشيخ أمين في أرضٍ مخصبةٍ حرثها واستصلحها بنفسه.

وفي هذا الجو من التأهيل الحقيقي والانفتاح على فهم الإسلام من مصادره والوعي لمقاصد الشريعة ولد الشيخ أحمد في دار العلم والتصوف، وتقلَّب في تلك البيئة الطاهرة تُهيِّئهُ الأيام لأشرف المهمات وأقدس الواجبات.

في كَنَف أبيه

ولد الشيخ أحمد في ذي القعدة عام (١٣٣٠هـ) الموافق لعام (١٩١٢م)[١] في دار الشيخ أمين في حي الزينبية قرب جامع أبي النور بدمشق، وكان الشيخ أمين يتفرَّس في مولوده النَّجابة والتوفيق، ويحدُوه أملٌ حاضرٌ بأن يكون لولده هذا أثر كبير في خدمة الإسلام، وكان لا يزال يذكر دعوة شيخه الشيخ عيسى النقشبندي التي دعاها لولده أحمد، وهو جنين في بطن أمه، وهكذا فقد كانت أمانيه عظيمةً أن يكون لمولوده هذا أثر في خدمة الإسلام.

فلما دلَفَ إلى الحياة كان كأنه يدرك ما خُلِق لأجله، وأقبَلَ وهو صبيٌّ على كتاب الله عز وجل يحفظه ويرتِّله، ودفع به أبوه الشيخ أمين إلى شيخ حفَّاظ الدِّيار الشامية العلَّامة الشيخ محمد سليم الحلواني في جامع التوبة بدمشق، فكان يتردد إليه كل صباحٍ عند صلاة الفجر، واتخذ لنفسه أنيساً كريماً هو الشيخ منير الكسم، فكانا طفلين طاهرين تشهد لهما أشجار الياسمين التي كانت تنشر عبيرها بين حي الأكراد، وجامع التوبة في بساتين الصالحية والعدوي وعين الكرش؛ إذ طالما تفيَّأا ظلالها وعبيرها عن اليمين والشمائل شاكرَين ذاكرَين.

وحدثني الشيخ منير أن الشيخ أحمد كان نوعاً نادراً من الأطفال؛ إذ لم تكن له طفولةٌ بالمعنى الذي تعرِفه الأطفال، لقد وُلِد رجلاً، وكنتُ أصحبه من داره في الزينبية إلى مسجد التوبة، فما أسمع منه كلمةً في غير علمٍ، وكان وقته كله في مذاكرة القرآن

[١] ذُكِرَ في بطاقته الشخصية أنه ولد عام (١٩١٥م).

الكريم، لا يحدثك ولا تحدثه إلا بكلام الله مذاكرةً ومدارسةً، حتى استكمل حفظ القرآن على الشيخ سليم وعمره ١٣ سنة[١].

شيوخه:

وفي مدرسة الصاحبة التي انتظم فيها طفلاً كان بالنسبة إلى أساتذته لغزاً محيراً، فكانوا يتحدثون دائماً عن رجلٍ على المقعد ما يملكون أن يتجاهلوه في مناسبةٍ، ولا يجدون لأوسمتهم غير صدره الصغير.

ولم يطلْ به المقام فقد جمع رفاقه وهو في الصف الخامس الابتدائي وقال لهم: أما أنا فسأتحول إلى طلب العلم الشرعي، ولن يكون لي رفاق بعد اليوم إلا من المسجد وفي المسجد، ثم انصرف عنهم كما ينصرف أي ثائرٍ إلى خندق جهاده.

وانقلب إلى شيوخ العلم في دمشق يُحصِّل العلوم الشرعية عليهم، فقرأ على الملا عبد المجيد، وأخيه الملا سعيد، والملا محمد جزو، والشيخ علي التكريتي، والشيخ محمد الملكاني، والشيخ أمين سويد، والشيخ توفيق الأيوبي، وغيرهم من شيوخ الأكراد المقيمين في دمشق، كما أخذ عن الشيخ إبراهيم الغلاييني، والشيخ أبي الخير الميداني، وكان في تحصيله كله يرجع إلى مدرسة أبيه العلمية والروحية فيستكمل منها ما يلزمه لبناء شخصيته العلمية والعملية، وما بلغ العشرين من العمر حتى استكمل آلة التحصيل العلمي.

١ وعند كتابة هذه السطور فإنه لم يبقَ في القراء اليوم مَن قرأ على الشيخ سليم الحلواني غير الشيخ أحمد، فهو بذلك أعلى الحفظة إسناداً؛ إذ إن الحفاظ كافةً في بلادنا اليوم قرؤوا على تلامذة الشيخ محمد سليم، أو على تلامذتهم، وهكذا فإن الحفاظ الذين أقرأهم الشيخ أحمد هم اليوم أعلى الحفظة إسناداً في الشام.

واجتمعت له ملكة الاستنباط، فحفظ من المتون الشرعية نحو عشرة آلاف بيت: ألفية ابن مالكٍ في العربية، وألفية الزيد في الفقه الشافعي، وألفية السيوطي في الحديث، ومنظومات كثيرة في علوم الشريعة واللغة العربية، وصعِد المنبر وهو فتىً يافع، وآتاه الله الحكمة فغدا يقضي بها ويعلِّمها، وإلى جانب العلم فقد رزقه الله عز وجل موهبة إيصال المعرفة بالحُجَّة والبيان، فأصبح حبيباً قريباً لطلبة العلم على صغر سنه.

ثم استكمل تربيته الروحية بالذِّكر والمصابرة، فزَكَتْ نفسُه وأشرقت معاني الحقيقة في قلبه، فسلك على والده الطريقة النقشبندية، وبعد دوراتٍ قاسيةٍ عدةٍ من المجاهدة والمصابرة منحه والده الشيخ أمين الإجازة الكاملة بالإرشاد والتوجيه، وأجازه بكل ما أجازه به مشايخه من علومٍ وهو في سنِّ الحادية والعشرين.

زواجه:

وتخيَّر له والده الشيخ أمين فتاةً صالحةً من آل الملِّي، وهي أسرة كردية كريمة، فعقد عليها قرانه وهي بنت أربع عشرة سنة، وكان الشيخ حينئذٍ في السادسة عشرة، وقد عاشت معه نحو أربعة وستين عاماً حتى توفيت عام (١٩٩١م)، ومنها أنجب أولاده كلهم، وهم تسعة ذكور، وثلاث إناثٍ كريماتٍ.

وسعد بها الشيخ أكثر من ستين عاماً أمضتها إلى جواره، تصبر في الضرَّاء، وتشكر في السرَّاء، وتحمل عنه هموم الحياة وآلامها، ولكنها لم تشارك في الدعوة العامة نظراً للتربية المتشددة التي نشأت عليها في أسرتها من وجوب ملازمة المرأة لبيتها وخدمة بَعْلِها، وكذلك فإن موقعها في بيت الشيخ كان يأخذ عليها أوقاتها كلها، وما زال الشيخ يذكُرها بعاطر الثناء كلما ذكر أيامها السالفة.

﴿ وداع أبيه ﴾

ونزل الشيخ الشاب إلى ميدان الدعوة إلى الله، وتسلَّم أعباء الدعوة من أبيه شيئاً فشيئاً، وتعلَّق به تلامِذَة أبيه فأحبُّوه وعلَّقوا عليه الآمال الكبار، وسار في حياة أبيه شوطاً بعيداً، يتصدر للتدريس والإقراء، ويتولى الإرشاد ورعاية السالكين على مرأىً من والده يرعاه ويتولَّاه.

وحين دخل الشيخ أمين مرحلة المرض تولى ولده الشيخ أحمد الأعباء التربوية والتعليمية كلها التي كانت مناطةً بوالده، فقام بها خير قيام، وأدَّاها أحسن أداء، مع ما أخذ به على نفسه من واجب قيامه بخدمة أبيه في مرضه، حتى كان يضطر لهجر فراشه الليالي المتواصلة ليقوم بأشرف ما يقوم به إنسان، وهو خدمة والديه على هدي قوله سبحانه:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسْرَاء: ٢٣ - ٢٤] وفي يوم خميسٍ من أيام شهر رمضان جلس الشيخ أمين في محراب مسجد أبي النور يوصي إخوانه وصية الوداع، ويستحثُّ هممهم لنصرة الإسلام، ويؤلِّف قلوبهم على طاعة الله ومحبته في مجلس خفقت فيه القلوب وذرفت فيه العيون.

ثم أوصاهم أن يُخلِصوا سعيهم لله عز وجل، وألَّا يكون حبُّهم لشخصٍ سبباً يحجزهم عن مواصلة جهاد الدعوة بعد موته، وذكَّرهم بكلمة صدِّيق الإسلام أبي بكر رضي الله عنه عندما قام يوم وداع النبي ﷺ على جسده الشريف وقال قولته الباقية: (إنه مَن كان يعبد محمَّداً فإن محمَّداً قد مات، ومَن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت).

ثم أخبرهم بما شرح الله صدره إليه من عزمه على العهدة لولده الشيخ أحمد برعاية هذه الحركة الإسلامية الوليدة، ودعاهم إلى أن تأتلف قلوبهم عليه ليواصلوا ما كان قد بدأه من رسالة الإصلاح.

وفي ليلة وترٍ من خواتيم شهر رمضان (١٣٥٧هـ) الموافق (١٩٣٨م) فاضت روح الشيخ أمين، ومضى إلى لقاء مولاه بعد أن زرع في الأرض شجرةً طيبةً تُوشِكُ أغصانها وثمارها أن تفيءَ بظلالها السالكين.

ومضى الشيخ أحمد بنعش أبيه في جموعٍ عظيمةٍ من المحبين والمريدين، حتى إذا وصل إلى مقبره الجوعية وحطَّ عن كتفيه نَعْشَ أبيه شعر حينئذٍ بعظيم المسؤولية التي أُلقيت على كتفيه، فقد أدرك أيَّ رسالة مُضْنية من الإصلاح والتجديد والبناء قد ألقتها عليه الأيام.

وهكذا فقد كانت تربية الانفتاح والجماعة والإخاء التي نشأ عليها الشيخ أحمد في دار أبيه هي التي مهَّدت له السبيل لقيادة حركة الوعي الإسلامي التي نذر لها حياته وجهاده فيما بعد.

الشيخ الشاب

في مساجد دمشق:

بدأ الشيخ أحمد نشاطه في الدعوة إلى الله من خلال حلقة أبيه الشيخ أمين، ولم تكن إذ ذاك إلا حلقةً صوفيةً نقشبنديةً ذات نشاطٍ محدودٍ في العلم الشرعي، فراح الشيخ أحمد يجتهد في جمع إخوان والده يهيّئهم لما كان يتطلع إليه من آمالٍ إسلاميةٍ في الدعوة والإصلاح.

ومع الأيام الأولى لنشاطه الإسلامي بدأت دمشق تتحدث عن موهبةٍ إسلاميةٍ شابةٍ تتدفق حيويةً وحماساً في سفح قاسيون، وتنادي عدداً من الشباب المسلم إلى ذلك المسجد المتواضع من أحياء دمشق المختلفة، وبدأ الناس ينتظرون وعداً إسلامياً آتياً، وفكراً متجدداً تعلّق عليه الآمال الكبار.

ولم يطل ذلك الترقب فقد جاء إليه وجهاء الأحياء في الشام يُرغِّبونه أن يحاضِرَ في أحيائهم؛ ليطرح هذا الفكر الجديد الذي يجمع بين حقائق التصوف ومعارف الشريعة وعزيمة الشباب.

وبالفعل فقد اختار لنفسه أياماً طيبةً كان يحاضر فيها في مساجد دمشق، نذكر منها مثلاً: جامع السادات في حي العمارة، ومسجد الأقصاب، ومسجد الأحمدية، ومسجد الشيخ محيي الدين.

وفي هذه الأحياء كلها كان يواجه تيارين اثنين: تيار جمود، وتيار صحوة وانطلاق، فكان يلقى من الجامدين والمتعصبين العَنَتَ والاعتراض، وربما الغَمْزَ واللَّمْزَ، في حين كان شباب الصحوة الإسلامية يتحلَّقون حوله يأسرهم بفكره وتشدُّهم إليه روحه

الصافية، ويلمسون في عزيمته الصادقة مجمع آمالهم وطموحهم، فينطلقون خلف ذلك الوعد الصادق، وينظمون أنفسهم في سلك ذلك التيار المتجدد الذي كان يتعاظم كل يوم.

مع الرَّعيل الأول:

وبعد جولةٍ في مساجد دمشق تجاوزت عشرين عاماً استقرَّ نشاط الشيخ في مسجدين اثنين، هما: مسجد أبي النور، ومسجد يلبغا الذي كان يضيق على رحابته واتساعه بالمقبلين على محاضرة الشيخ، ولكن مركز نشاطه الدائم بقي في الأرض التي خلَّفه عليها الشيخ أمين، وهي مسجد أبي النور، حيث كان يلقى إخوانه كل يومٍ ويعد العدة لأيام الإسلام القادمة؛ إذ سيصبح بعد نصف قرنٍ قادمٍ ألمع اسم فاعل في الصحوة الإسلامية في بلاد الشام.

ولم يطل العهد بالشام حتى أدركت طبيعة ما يجري في جامع أبي النور فلم يكن الأمر مجرد خطبةٍ متميزةٍ يزدحم فيها الراغبون وتتراص فيها الأكتاف؛ بل ظهر للشام أن مسجد أبي النور يشهد مخاضاً جديداً لولادة حركةٍ إسلاميةٍ تجمع بين النشاط الديني والنشاط الاجتماعي والحضور السياسي.

ولأجل ذلك كان الشباب في المسجد يشهدون الاعتكاف في كل أسبوعٍ ليلتين، حيث كانوا يعزفون عن الأهل والولد، ويصفُّون أقدامهم خلف شيخهم الشاب يحققون مقاصدهم في مرضاة الله سبحانه، وطالما ذرفت منهم العيون، وسهرت منهم الجفون، وأضناهم سهر الليل، وأرهقهم صوم النهار، وهم يعرضون عن زخارف الحياة الدنيا ويعلِّقون أبصارهم في الآخرة.

الشيخ والتصوف:

وفي هذه الفترة كان أبرز ما يميز مسجد أبي النور ذلك الصفاء الروحي الذي كانت تبثُّه آداب الطريقة النقشبندية من الذكر والتزكية، ونشاط قيام الليل، والعبادة التي كانت أهم جانبٍ في التربية والسلوك.

وقد كان ذلك الإشراق الروحي العارم الذي يكسو جامع أبي النور حينئذٍ هو الذي يؤلِّف عليه القلوب؛ إذ لا يمكن لأي سببٍ آخر أن يحمل الناس على مجافاة فُرُشهم والسير على الأقدام في جوف الليل ببرده وزمهريره لموافاة الشيخ في صلاة الفجر.

حدَّثني والدي عن أيامه الأولى في المسجد أنه كان ينطلق من داره في الميدان كلَّ يومٍ قبل الفجر بساعة، فيجتاز بساتين عين الكرش والصالحية وهو في أوفر شوقٍ حتى يدرك صلاة الفجر مع الشيخ.

ولكن لم يكن والدي أقصى السالكين منزلاً، فقد كان هناك مَن يجتاز من قريةٍ إلى قريةٍ في جوف الليل ومعه عصاً يدفع بها شرَّ الذئب والضبع حتى يوافي الشيخ عند صلاة الفجر في جامع أبي النور.

حدَّثني الشيخ يوسف نصر الله إمام مسجد عين الخضراء أنه عرف أيامه الأولى في المسجد من دروس الفجر في جامع أبي النور، وكان يلازم هذه المجالس مع جماعةٍ من إخوانه الذاكرين في عين الخضراء، وكم من مرةٍ قُطعت الطريق بالثلوج والسيول، فكانوا يزحفون إلى جامع أبي النور عبر الجبال في سيرٍ يستغرق نحو ثلاث ساعات تحت خطر البرد والوحش والوحدات العسكرية الفرنسية، ولم يكن ثَمَّة خوف يصيبه إلا خوفه أن يفوته شيء من دروس الفجر!

وليست هذه الروايات إلا أطرافاً مما سمعتُه من الثقات، وهي كثيرة تبلُغ مبلَغ التواتر بحيث لا يشكُّ القلب في صدقها، ولك حينئذٍ أن تتساءل: أيمكن أن يسعى الناس سعيهم هذا إلى فراغ؟

لقد كان وعداً آتياً في الغيب بدأت الأيام ترسم معالمه في عالم الشهود في ذلك المسجد المتواضع في سفح جبل الصالحين.

وهذا السلوك الرباني في إعداد الدعاة هو هدي النبي ﷺ، فقد بدأ التوجيه الإلهي للنبي ﷺ يأمره بقيام الليل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المُزَّمِّل: ١ - ٤].

فأنت هنا أمام أمرٍ إلهيٍّ حكيمٍ لو تدبَّرته لوقعت منه على عجبٍ عجابٍ، فلو أنك جعلت الليل ثماني ساعاتٍ مثلاً لأمكنك أن تقرأ الآية:

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾: ست ساعات.

﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾: أربع ساعات.

﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾: ثلاث ساعات.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾: خمس ساعات.

فقد كان قيامه ﷺ بين ثلاثٍ وست ساعاتٍ في كل ليلة، وأما أصحابه الكرام فقد أخبر عنهم المولى سبحانه في خاتمة سورة المزمل:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [المُزَّمِّل : ٢٠] ، وثلث الليل في كل حالٍ أكثر من ساعتين، وهو أدنى ما كان يقومه الأصحاب الكرام.

ويروى في هذا المقام أن أبا يزيدٍ البسطامي حين كان صبياً سمع أباه يقرأ من القرآن الكريم سورة المزمل، فلما قرأ مطلع السورة قال لأبيه: أي أبتِ! إني أسمع الله سبحانه يأمر بقيام الليل إلا قليلاً، ونصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه، فما لنا لا نقومه كذلك يا أبتِ؟!

قال: يا بني، ذاك رسول الله ﷺ، وأيُّنا في مقامه وفضله؟!

فسكن الغلام ولم تسكن غلته، حتى إذا بلغ أبوه آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [المُزَّمِّل : ٢٠] قال الغلام: يا أبتِ! إني أسمع الله يقول: وطائفة من الذين معك؟

قال: يا بني، أولئك السابقون الأولون من أصحاب محمد ﷺ، فأين نحن منهم؟!

قال: يا أبتِ! فأيُّ خيرٍ في ترك ما كان عليه رسول الله ﷺ والسابقون الأولون من أصحابه؟!

وهكذا فإن الشيخ أدرك منذ فجر دعوته أن سبيل بناء الداعية الحق لا يمكن أن يقوم إلا على أساسٍ من الذوق الروحي، والتجرد في العبادة والإنابة، وتحصيل جانب المعرفة بالله من طريق القلب والروح لا من طريق العقل وحده.

قبل سنواتٍ زارني في دمشق مجموعة من شباب الصحوة الإسلامية في بلدٍ عربيٍّ أفريقيٍّ، ومضيت بهم في برنامجي المعتاد في جلسة الذكر عقب مجلس العلم، وحينما

جلست إليهم عشيَّةً قال لي أحدهم: ما أجمل ما تجتمعون عليه! إن أقرب ما أنتم فيه هو دار الأرقم حيث كان النبي ﷺ يلتقي أصحابه من الرَّعيل الأول.

فبادَهته القول: ولكن أليس هذا هو حال الحركة الإسلامية عندكم؟

فقال بأسفٍ وحرقةٍ: كذلك كنَّا، ثم قَسَتِ القلوب! ثم راح يتحدث عن واقع حركته الإسلامية، فقال: لقد بدأنا كذلك، فلم نكن نخرج من لقاءٍ نكون فيه إلا على قلوبٍ مطمئنةٍ بذكر الله وعيونٍ ساخنةٍ بمدامع الشوق، غير أننا اليوم نلتقي في همٍّ إسلاميٍّ ما، كإصدار صحيفةٍ أو توجيه مجلةٍ أو استنفار بعثةٍ تعليميةٍ أو طبيةٍ، أو إصدار بيانٍ أو تنديدٍ، ثم ننصرف كما ينصرف الناس، وربما نستغرق حيناً في الجدل والمناقشة حتى تقسُو القلوب، ثم لا نجد بعدئذٍ قلباً يجمعنا في المحراب فيمسح جفاءنا برحيق الأذواق ومدامع الأشواق.

إن الحركة الإسلامية التي تهمش الجانب الروحي والسلوكي من حياة أفرادها إنما تحنِّط مستقبلها وآمالها وتعزل نشاطها وجهادها، وتحوِّل شبابها من همةٍ إسلاميةٍ فاعلةٍ إلى هَمٍّ إسلاميٍّ جديد!

وهكذا فقد اختار الشيخ أن يبقى بحركته الإسلامية في فلَكِ التصوف على الرغم من سعيه للتحرر من المصطلحات التي قد تنشأ عنها اتجاهات تزيد في فرقة الأمة الإسلامية وشتاتها.

وفي المؤسسات الإسلامية كلها التي أنشأها فيما بعد فإن جانب التربية الروحية كان يحظى بالنصيب الأوفر في التربية والإعداد السلوكي؛ إذ كان كل فوجٍ من الطلَبة لا يتخرج في أي فرعٍ تعليميٍّ حتى يلزم حلقةً من حلقات الذِّكر على رأسها سالك من السابقين.

وأسجل هنا كلمةً للتاريخ والذكرى، وهي أن أي توفيقٍ يُكتب لحركةٍ إسلاميةٍ مرهونٌ بمدى قوة الصِّلَة بالله عبادةً وحباً واشتياقاً، فإذا ما وهَنَت هذه الروابط، وإذا أُصيب القوم في أرواحهم، فصار الجانب التعبُّدي سلوكاً هامشياً متروكاً لرغبات الأفراد فأَقِمْ عليهم مَأْتَماً وعَوِيلاً!

وإذا كنَّا نتكلم عن الفترة الأولى من دعوة الشيخ بأنها فترة التزكية والإعداد الروحي فليس معنى ذلك أن هذا الجانب قد تهمَّش فيما بعدُ؛ بل إنه ترسَّخ وتجذَّر، ولكن أُضيفت عليه جوانب أخرى من النشاط لم تكن في الأيام الأولى من حركة هذه الدعوة.

وحتى الآن فإن حلقات الشيخ كلها التي تعدُّ بالألوف في مختلف أنحاء العالم تبدأ بجلسة الذكر وتنتهي بجلسة الذكر، وما زالت الطريقة النقشبندية التي انطلقت من مسجد أبي النور هي عماد هذه اللقاءات، وهي جزء مهمٌّ من أي منهاجٍ يوضع لأي مؤسسةٍ تعليميةٍ تنطلق من جامع أبي النور.

رابطة العلماء:

مع بداية الأربعينيات من هذا القرن انطلق الشيخ الشاب في نشاطٍ آخر موائمٍ لنشاطه في الدعوة والتربية؛ إذ ظهرت رغبته المتوقِّدة في توحيد الرأي الإسلامي العامّ ليمارس دوراً مؤثراً في المجالات العامة، ورأى أنَّ قوة الأمة تكمُنُ في تعاون علمائها وتفاهمهم؛ إذ هم الصوت القوي الذي يوجِّه حركة الشباب المسلم، وكان ينطلق من حديث النبي ﷺ: (صِنْفان من الناس إذا صلحَا صلحَتِ الأمَّة كلُّها، وإذا فَسَدا فسدَتِ الأمَّة كلُّها: العلماءُ والأمراءُ)[1].

وهكذا فقد كان من أوَّل الأصوات التي نادت بتوحيد كلمة العلماء في البلد، وعلى الرغم من أنه كان من أصغر الدُّعاة سِناً إلا أن دعوته وجدت طريقها إلى الوجود، فشارك أولاً في جمعية العلماء التي أسسها الشيخ محمد كامل القصاب عام (١٩٣٨م) على الرغم من أنه لم يكن قد تجاوز السادسة والعشرين من العمر، وقامت الجمعية بدورٍ بارزٍ في توجيه الرأي العام والحفاظ على الوقف الإسلامي[2]، وكانت جمعية العلماء هي النواة التي تأسست منها فيما بعد رابطة العلماء التي تأسست عام (١٩٤٤م)، واختِير الشيخ محمد أبو الخير الميداني[3] رئيساً لها، كما اختير الشيخ أحمد عضواً فيها منذ أن تأسست، وأصبح أحد نائبي الرئيس، وقد قامت الرابطة بدورٍ فعَّالٍ في توجيه الرأي العام الإسلامي، وساهمت مراراً في صنع القرار السياسي لسورية على الرغم من الظروف القاسية الصعبة التي كانت تشهدها البلاد آنئذٍ.

---

[1] رواه أبو نعيم في الحلية وابن النجار عن ابن عباس.

[2] انظر كتاب: «العرب من وراء اللهب» لعبد الغني الأسطواني ص١٨١.

[3] انظر ترجمته في الكتاب.

وبعد وفاة الشيخ أبي الخير الميداني تولَّى رئاسة الرابطة الشيخ السيد محمد المكي الكتاني[1] حتى وفاته عام (١٩٧٣م).

ومن خلال نشاطه في الرابطة أدرك الشيخ دروساً غايةً في الأهمية في مسألة الوحدة الإسلامية –وهو ما سنعقد له فصلاً خاصاً في هذه الدراسة– فوحدة العلماء صورة لوحدة الرأي العام، وهي بذلك سبيلٌ لتحقيق وحدة العمل الإسلامي على الساحة الإسلامية الكبرى، وهذا ما يجعل السَّعي في جمع كلمة العلماء مطلباً يسعى إليه كل مُشتغِلٍ بالوحدة الإسلامية.

ورابطة العلماء تعني بمعنىً آخرَ وحدة الجماعات الإسلامية وتعاونها، وقد ميَّز الشيخ جيداً هنا بين الوحدة والاحتواء، فلم يطالب باحتواء الجماعات الإسلامية القائمة في حركته التي يرعاها وتحت مظلَّته؛ إذ إن في ذلك خنقاً لروح المبادرة التي آتاها الله لكل حركة، كما أنَّ تزاحم الطاقات في رتلٍ واحدٍ ليس من مصلحة الحركة الإسلامية، كما أن تجميع هذه الطاقات في بوتقةٍ واحدةٍ فيه استحالةٌ ظاهرةٌ؛ إذ لكلِّ حركةٍ منطلقاتها الفكرية الخاصة، وإنما المطلوب خَلْقُ جوٍّ من التفاهم والتعاون والودِّ، مع إتاحة المجال لانطلاق أبناء كل جماعةٍ في اختصاصهم الذي وفَّقهم الله إليه، مع احترام كل عالمٍ عاملٍ على أساس أنه رمزٌ للإسلام، ولبِنةٌ في بُنيانه، واشتهرت عنه عبارته: (يا بني، إذا رأيتم العمامة على عصاً فاحترموها؛ لأنها تمثِّل رمزاً لرسول الله ﷺ.

[1] محمد المكي الكتاني: (١٣١٥–١٣٩٣هـ/ ١٨٩٧–١٩٧٣م): هو محمد المكي الكتاني بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن إدريس، شيخ الشام في حياته، فقيه مالكي صوفي مجاهد، رئيس رابطة علماء سورية، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وشيخ الطريقة الشاذلية، ومفتي المالكية في الشام، درس العلوم على يد والده وعلى يد الشيخ بدر الدين الحسني والشيخ أمين سويد وغيرهم، توفي بدمشق عن عمرٍ يناهز الثمانين عاماً.

ومراراً تمثَّل بكلمة الإمام الشعراني: (إني أدخل على الشيخ والسالكون حوله، فأغسل الماء عن قدمَيه وأنا أعلم بعض وجوه النقص فيه، رجاءَ ألَّا أقطع عنهم إمدادهم).

وقد أدَّت رابطة العلماء دورها زمناً حتى عصفَتْ بها الأحداث فيما بعدُ وانتهت بوفاة السيد المكي الكتاني، ولعل الله يهيّئ سبباً تنهض فيه هذه الرابطة برسالتها من جديد.

ولم يستكمل الشيخ أربعين عاماً حتى كان ذِكْره على كل لسانٍ في بلاد الشام، وكانت محاضراته العامة في جامع يلبغا -المرجة- تجمع الألوف من شباب الشام، وتحدث الناس عن عطاءٍ كثيرٍ في أيامٍ قليلةٍ لهذا الشيخ الشاب على صعيد الدعوة والجماعة.

كما كان إخوانه في أكثر المحافظات السورية قد بذروا من غراسه وفكره، ومنذ تلك الأيام وحتى اليوم فإنه لا تمرُّ ليلةٌ على جامع أبي النور إلا وفيها ضيوف من مدنٍ وقرىً سوريةٍ قريبةٍ وبعيدةٍ، كلهم يزحفون إلى ذلك الغار الروحي والعلمي الأمين في سفح جبل الصالحين.

ومنذ مطلع الخمسينيات فإنه لا يمكنك أن تتحدث عن الحركة الإسلامية في دمشق إلا إذا عرَّجت على جامع أبي النور، حيث كان يشهد مخاضَ الحركة الإسلامية الواعدة في بلاد الشام.

وكان ضيوف سورية إذا عادوا إلى بلادهم يتحدثون عن تباشير الصَّحوة الإسلامية الهادئة الحكيمة التي يقوم بتأسيسها الشيخ كفتارو.

وبما أني لم أشهد تلك الفترة من حياة الدعوة فأنا أترك الحديث عنها لِمَن هو أوفرُ مني علماً وأدقُّ ملاحظةً وأقربُ مُشاهدةً، وهو العلَّامة الشيخ أبو الحسن الندوي[1] الذي قام بزيارة دمشق في ١٩٥١/٦/٢٥م، وكان عمُرُ الشيخ كفتارو حينئذٍ دون الأربعين، ولكنه كان من أبرز الدُّعاة الحاضرين على مستوى دمشق.

كتب الندوي يقول: (طرقنا باب الشيخ كفتارو وسألنا عنه، فقيل: هو في الجامع الأموي وله درس هناك، وفرحتُ بهذه المصادفة فقد أراد الله ألَّا نتأخر عن زيارة هذا الأثر الإسلامي العظيم الذي ما زلنا نقرأ عنه من أول عهدنا بالتاريخ الإسلامي، وتوجَّهنا إلى السوق الحميدي ومشَينا في أسواقٍ مسقوفةٍ حتى وصلنا إلى هذا الجامع العظيم، وابتدرَتْ أبصارنا إلى هذا البناء الشامخ، ودخلنا بابه الكبير، ومررنا بصحنه الواسع حتى دخلنا في داخل المسجد، وهنا رأينا حشداً كبيراً من المسلمين، ما بين مُصلٍّ وذاكرٍ، ومُسبِّحٍ ودارِسٍ ومتحدِّثٍ، وتمثَّلت لنا الحياة الأولى في العواصم الإسلامية الكبرى!

ومشينا إلى حلقةٍ كبيرةٍ جداً تضمُّ مئاتٍ من الناس والمكبرة تذيع صوت الشيخ أحمد كفتارو، وجلسنا نستمع، وحانت من الشيخ التفاتةٌ فرآني على بُعْدٍ وعرَفني، فدعاني وأدناني إليه، وعجبتُ من سرعة خاطره؛ لأننا لم نتقابل بعد الحج وما عنده علم بتوجُّهي إلى دمشق، واستمرَّ الدرس نحو ساعتين، وكان درساً في سورة البروج، إلا أنه كان درساً دينياً عاماً يتناول الحياة كلَّها، وأعجبني من الشيخ تطبيق الآيات على الحياة، والتعرض للواقع والحاضر من غير اقتصارٍ على المعاني العلمية والكليات، وتنزله

[1] هو العلَّامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الندوي من مشاهير علماء الهند المسلمين، ومن أكبر الدعاة العاملين في العالم الإسلامي، عضو مؤسس في رابطة العالم الإسلامي، منح جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام، له مؤلفات كثيرة في الفكر والعلوم الإسلامية لعلَّ من أهمها: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، وما زال يعمل بجدٍّ ونشاط وهو في التسعينيات من عمره أطال الله في عمره.

إلى مستوى الثقافة العامة، والتحدث في لغتهم المحلية الدارجة، وانتقد لا دينية المعارف في البلاد ونشوء الشباب على الجهل التامّ بالدين والغفلة عنه، وتعرَّضَ لنكبة فلسطين وخوف المسلمين إذا استمروا في سكوتهم وجُبْنهم من أن يستولي اليهود –لا سمح الله– على سورية ودمشق ويعتلي حبرٌ من أحبارهم هذا المنبر العظيم، وسرَّني أن نسبة الشباب وأبناء المدارس كانت طيبةً في حلقة الدرس، وبعد الدرس تصافحنا وتقابلنا وقال: لقد طالت إقامتكم في القاهرة، فقلت: وهل كان عندكم خبر بوجودنا في مصر؟ قال: نعم، ومشى الشيخ ونحن معه على سماطين من المسلِّمين والمصافحين والمودِّعين، فكان منظراً يذكر بما كان للعلماء من إجلالٍ واحتفاءٍ في الزمن السابق، وتوجَّهنا إلى بيت الشيخ في حي الأكراد، وأفطرنا وتعشينا، وجلسنا نتحدث).

وتابع يقول: (ويرى الشيخ أحمد أفندي –وقد عرفتُ ذلك منه في الحجاز، ولا يزال على رأيه– أن أقرب طريقٍ وأنجح وسيلةٍ لإصلاح الأوضاع الفاسدة وتطبيق الدِّين في المجتمع والحياة هو التأثير في رجال الحكومة الذين بيدِهم أزِمَّة الأمور والسلطة التنفيذية، وذلك عن طريق الاتصال بهم والمقابلات الشخصية وإيجاد الثقة فيهم، وأن ما يُكتب من النجاح في عامٍ عن طريق الدعوة العامة يُكتب في أسبوعٍ أو أقلَّ من ذلك عن طريق هؤلاء، وله خطة ومنهاج في الإصلاح يعتقد بأنه إذا نُفِّذَ اتجهت البلاد بأسرها اتجاهاً دينياً، وهو إصلاح المعارف وتوجيهها الإسلامي، وإصلاح الإذاعة وإصلاح السينما ورقابة الأفلام وتربية أئمة المساجد، وهو قويُّ الأمل عظيم الثقة بتأثير هذه الوسائل العصرية في توجيه الشعب.

والشيخ أحمد عالمٌ مثقفٌ مطَّلعٌ، ناضجُ العقلية، واسعُ آفاقِ الفكر، نشيط في عمله، وقد تمكَّن فعلاً في حكومةٍ سابقةٍ باتصاله برئيس الجمهورية من إلغاء البغاء الرسمي، وحُكي لي أنه اجتمع برئيس أركان الحرب الحالي وهو الحاكم العسكري للبلاد

وتحدث معه ساعةً، وقال له: تستطيع أن تكون زعيماً للبلاد العربية كلِّها؛ بل العالم الإسلامي كلِّه إذا هيَّأتَ لنفسك الزعامة الإسلامية واحتضنتَ خدمة الإسلام، وكان نتيجة هذا الحديث أنه طلب من فضيلة الشيخ أن يقدِّم إليه مقترحاته في توجيه البلاد وبرنامجه للإصلاح، وقال لنائبه أن يسمح له بالحضور والاجتماع في كل وقتٍ، وأن يأخذ تقريره ويقدِّمه، لكن الحادث الأخير الذي كان فيه العلماء معسكراً واحداً إزاء الحكومة أحدث شيئاً من الجفوة وعرقَلَ سيره.

وبعد ذلك خرجنا مع الشيخ أحمد أفندي في سيارته إلى الغوطة وأعجبني أن الشيخ رغم كونه شيخ طريقةٍ وعالم البلد المعروف يقود سيارته، ونزلنا في ببيلا –قرية في الغوطة– في بيت الشيخ عبد الحكيم خطيب جامع القرية)[1].

وفي الخمسينيات ظهر اسم الشيخ أحمد بوصفه واحداً من المشاركين في صنع القرار الشعبي في الحياة العامة، وأصبح جامع أبي النور مقياساً للرأي الإسلامي العام في الشام، ومنذ ذلك الحين وحتى هذا التاريخ فإن أكثر مَن يترشح للحياة النيابية باسم الإسلاميين يبدأ انطلاقته من جامع أبي النور.

وكان هذا التأثير للشيخ أحمد واضحاً في الحياة العامة، وقد تناولت كتبٌ ودراساتٌ عدَّة تحليل هذه الظاهرة؛ إذ لم يُعهَد من قبلُ أن يكون لشخصٍ في الثلاثينيات من العمر مثل هذا الأثر الشعبي في الناس من موقعه في مسجدٍ صغيرٍ وفي حيٍّ شعبيٍّ فقيرٍ بأطراف دمشق، وهو لا يمارس السياسة، ولم يشكِّل حزباً أو تنظيماً، إنها صورة واضحة تذكِّرك بدور العلماء والمجاهدين في أيام المجد الإسلامي.

[1] مذكرات سائح في الشرق العربي: تأليف العلَّامة أبو الحسن الندوي ص٢٢ وص٢٣٢–٢٣٣.

ومن الدراسات التي أشارت إلى ذلك كتاب: «عرب وأكراد»؛ إذ كتب مؤلِّفه يقول: (برع الشيخ أحمد كفتارو في علم الحديث، وظهر له مُريدون في مختلف أنحاء المدينة العريقة دمشق، وبلغ من شدة نفوذه وعُلُوِّ مكانته الدينية بين العامة أنه كان يؤثِّر في قوة المرشحين للانتخابات في العهود البرلمانية العتيقة، فيعدل كفَّة المرشح الحائز على دعمه ورضاه.

وقد توصل الشيخ كفتارو في مراحل لاحقةٍ إلى منصب مفتي دمشق، ثم إلى منصب مفتي الجمهورية، وهو أعلى منصبٍ دينيٍّ رسميٍّ في الدولة)[1].

وحينما أصدر الناقد المعروف عبد اللطيف الضاشوالي كتابه «مرايا» عام (١٩٤٧م)، وفيه اختار أبرز وجوه الشام في الحياة العامة من مفكِّرين وسياسيين ورجال دولة، ترجم فيه للشيخ أحمد كفتارو وتحت عنوانٍ كبيرٍ: (العلماء ورثة الأنبياء)، رغم أن الشيخ كفتارو كان حينئذٍ في الخامسة والثلاثين من عمره[2].

وفي عام (١٩٥٠م) أصدر الناقد المعروف فوزي أمين كتاباً آخر ترجم فيه لأبرز الشخصيات العامة على مستوى سورية، فاختار الشيخ أحمد كفتارو على أساس أنه أكبر الآمال الواعدة في مجال الإصلاح الديني على مستوى سورية، وأشار إلى آرائه التجديدية في العمل الإسلامي وطروحاته الجريئة، وأوضَحَ أن أكثر ما يميز الشيخ أحمد في موقعه الرياديّ هو حبُّ إخوانه المتميز له وتفانيهم في طاعته، رغم أنه كان حينئذٍ في الثامنة والثلاثين من عمره[3].

---

[1] كتاب «عرب وأكراد» للكاتب منذر الموصلي، الطبعة الثانية – دار العلم – عام (١٩٩١م) ص٢٧٥.

[2] كتاب «مرايا» لعبد اللطيف الضاشولي ط (١٩٤٧م) دمشق.

[3] كتاب «وجوه» لفوزي أمين ط (١٩٥٠م) دمشق.

وفي الفترات الانتخابية فإن المرشَّحين يزدحمون في جامع أبي النور في محاضرات الشيخ؛ ليظهروا عزمهم على خدمة القضايا الإسلامية والمساهمة فيها، وعادةً ما يوجه الشيخ التوجيهات الشديدة لهؤلاء المرشَّحين يبيّن لهم ما يقدمون عليه من مسؤوليةٍ، وأن مقام التكليف فيها أهم من مقام التشريف، ولم يقدِّم دعمه لمرشحٍ إلا بعد أن يقرأ عليه قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب : ٧٢].

وكان الذي يدعوه لتلك المشاركة هو إدراكه وجوب عدم ترك الساحة لغير المؤهَّلين لخدمة الأمة في دِينها ودُنياها، وأنه ليس من مصلحة الأمة أن يتخلى الشرفاء عن مواقعهم في خدمة الناس ترفُّعاً عن زخارف الحياة الدنيا.

وفي مجالس الحكم المتعاقبة من المجلس النيابي إلى مجلس الشعب إلى مجالس الإدارة المحلية فإن حضور الإسلاميين كان واضحاً، وكان الشيخ أحمد يَنْأَى بنفسه عن الدخول مباشرةً إلى هذه المجالس، ولكنه كان يمارس دوره في توجيهها وإرشادها من موقعه في سدَّة التوجيه الديني والإرشاد والإفتاء.

في سلك الإفتاء:

وفي عام (١٩٤٨م) انتُدِبَ الشيخ أحمد ليكون مدرِّساً دينياً لمحافظة القنيطرة، وهناك بذل جهداً طيباً في خدمة الدعوة الإسلامية من غير أن يُفارق ساحته الرئيسة في جامع أبي النور.

وفي عام (١٩٥٠م) نُقِلَ إلى التدريس الديني في محافظة دمشق ليصبح فيها مدرِّساً أولاً، وليتفرَّغ تماماً لمشروعه الإسلامي الكبير الذي نذَرَ حياته لأجله.

وفي عام (١٩٥١م) اختِيرَ ليكون مفتي محافظة دمشق، فأصبح بذلك عضواً في مجلس الإفتاء الأعلى، وهو أعلى مؤسسةٍ دينيةٍ في الجمهورية العربية السورية.

وفي هذه الفترة كان الشيخ ينشط في خدمة الدعوة الإسلامية من خلال الإطار الرسمي والشعبي، فإلى جانب لقاءاته المستمرة برجال السياسة والزعامات الدينية والاجتماعية العامة كان يتابع نشاطه في إعداد وتوجيه الحلقات العاملة، فينشر حلقات الذكر والتوجيه والإرشاد في المساجد والبيوت في المدن والقرى السورية، ولم يكن السالك يمضي في مسجد أبي النور عاماً أو بعض عامٍ حتى يصبح داعيةً مرشداً في حيِّه أو قريته، ويعقد حلقةً من حلقات الذكر وفق أصول الطريقة النقشبندية، ولا شكَّ أن هذا النوع من النشاط كان يمنح الحركة الإسلامية عُمقاً وانتشاراً، وهي مرحلة ضرورية لاستجلاب السالكين؛ إذ يبدأ بعد ذلك إعداد هؤلاء السالكين المنتخبين ليكونوا دُعاةً ناصحين.

جذور فكر التجديد:

ومنذ الخمسينيات ظهر للشيخ نشاطٌ واضحٌ رائدٌ في جوانب ثلاثة:

- الجانب الوطني.
- جانب السعي إلى الوحدة الإسلامية.
- جانب السعي إلى حوار الديانات.

ففي **الجانب الوطني**: أفاد الشيخ أحمد من مكانته الشعبية العالية وسخَّر ذلك ببراعةٍ وحكمةٍ في خدمة القضايا الوطنية والإسلامية، فقد كان دائماً محطَّ أنظار القيادات الوطنية المتعاقبة، يلتمسونه للشعب ويلتمسهم للإسلام، ومراراً تمكَّن من رفع مظالمَ كانت قائمةً بما أوتيه من صراحةٍ وجرأةٍ ومكانةٍ، وقد تمكَّن بالفعل من إلغاء البغاء الرسمي الذي كان سائداً في سورية قبل الخمسينيات وكان أثراً سيئاً خلَّفه الاستعمار الفرنسي، وأغلق بذلك باباً من شيوع الفحشاء لم يُفتَح من بعده قطُّ[1]، كذلك فقد كان له حضورٌ مستمرٌّ في القضايا الوطنية كلها التي شهدتها البلاد.

وقد اتخذ الشيخ لنفسه وإخوانه بعد استقلال سورية موقفاً مبدئياً التزمه دائماً، وهو التعاون الإيجابي مع كل حكمٍ وطنيّ، فقد كان يحسن فهم التكامل في الحياة، فالنشاط السياسي اختصاص، كما أن النشاط الديني والاجتماعي اختصاص، وثمة فرقٌ واضحٌ بين تكامل النشاطَين وبين تنازعهما، فعلينا أن نقوم بواجبنا الديني والاجتماعي على الوجه الأتمّ، ونُفسح المجال لرجال السياسة أن يقوموا بواجبهم على أتمّ وجهٍ، ونكون

[1] من كتاب: «مذكرات سائح في الشرق العربي» للشيخ أبو الحسن الندوي.

معهم ناصحين راشدين ما داموا حُكَّاماً وطنيين يحترمون قواعد الدين ولا يُعطِّلون رسالته.

وقد شهد الشيخ ثلاثة عشر وضعاً سياسياً مختلفاً في سورية، ومع ذلك فلم يكن في يومٍ من الأيام على خطِّ مواجهةٍ مع سلطةٍ وطنيةٍ؛ بل كان دوماً رفيداً مهماً وناصحاً كريماً وكلمةً مسموعةً محترمةً، وكان ضمانةً حقيقيةً للحركة الإسلامية حافظَ عليها في مختلف الظروف السياسية المتعاقبة.

وكان يطرح شعاره دوماً وفق الأثر المشهور:

(الإسلام والسلطان أخوان توأمان لا يصلُحُ أحدهما إلَّا بصاحبه، فالإسلام أسٌّ والسلطان حارس، فما لا أسَّ له يهدم، وما لا حارس له ضائع)[1].

وسوف نأتي على تفصيل نشاطه في هذا الجانب حينما نفرد فصلاً خاصاً للحديث عن جهاده الوطني[2].

وفي **مسعاه لبعث الوحدة الإسلامية** كان فارساً مجلياً، وقد رضع هذا المعنى مع حليب أمه، فقد كان والده الشيخ أمين من أشدِّ الناس مقتاً للتعصب المذهبي والتحجر الفكري، وفي منهجه التدريسي اختار للفقه كتاب الفقيه المالكي ابن رشد «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، وهو كما أسلفنا كتابُ فقهٍ مقارنٍ يتجاوز إطار المذهب الواحد، وكتاب الشعراني «كشف الغمة عن جميع الأمة»، وهو كتابٌ نفيسٌ أراد به

[1] رواه الديلمي عن ابن عباس.

[2] انظر: بحث «منهجه في الجانب الوطني» من هذا الكتاب.

الشعراني أن يحتجَّ لمذاهب الفقهاء جميعاً ويوفِّق بين اختياراتهم على هُدىً من الكتاب وصحيح السُّنَّة.

وفي سعيه الطويل اجتهد في هدم الحواجز المذهبية التي تحول دون تحقيق الوحدة الإسلامية في مجال الفقه والاجتهاد، ومع أنه بقي سنواتٍ عدَّة مفتي الشافعية في سورية غير أنه لم ينسج على نشاطه خيوطاً مُربكةً؛ بل بقي في اختياره ضمن حديقة الفقه الإسلامي الغنَّاء يتخيَّرُ منها ما فيه مصلحة الأمة وسعادتها.

وكذلك فقد انطلق إلى المسلمين من الشيعة بطوائفها ومذاهبها المختلفة، وبادرهم بالزيارة واتخذ منهم أصدقاء وأعواناً، وأنشأ معهم أوثق الصِّلات على قاعدةٍ من الاحترام المتبادَل والمحبة الإسلامية الصافية.

ورحل إلى إيران مراراً والتقى بأغلب الزعامات الشيعية في إيران والعراق وباكستان والهند ولبنان، وكان في مسيرته الطويلة أحد أركان التقريب والإخاء بين المذاهب الإسلامية.

وكان أحد الدُّعاة القلائل الذين توجَّهوا بالحوار إلى الطوائف الإسلامية الأُخرى؛ كالبهرة في الهند، والدروز في لبنان وسورية، والإسماعيلية والزيدية والإباضية وغيرها...

ولن نطيل القول هنا فقد عقَدْنا فصلاً خاصاً للحديث عن نشاط الشيخ في مجال تحقيق الوحدة الإسلامية وها نحن نحيلك عليه.

وكذلك فقد تميز الشيخ عن أقرانه بمسعىً آخرَ لم يكن يقلُّ عنده أهميةً وفائدةً، وهو **سعيه في مجال حوار الديانات** والتعاون بين أتباع هذه الديانات.

وبرز نشاط الشيخ في هذا الجانب قبل الخمسينيات، واختار سبيل الحوار والتعاون سبيلاً لعرض الإسلام بحقيقته وجوهره في كثيرٍ من المحافل التي لا يبلُغُها صوت الإسلام الحقُّ، وكان هذا منطلقاً دائماً في الدعوة اختاره عن علمٍ وبصيرةٍ نافذةٍ.

وبدأ نشاطه هذا من خلال لقاءاته الكثيرة برجال الدِّين المسيحيّ في سورية من مختلف طوائفهم، ثم انطلق إلى العالم الغربي يلتقي برجال الأديان في العالم، ولا يوفِّر موقفاً فيه موعظة أو نصيحة إلا سعى إليه.

ويأخذ بك العجب حين تُدرك وعيَه المبكِّر بالمسألة الطائفية وقضية حوار الدِّيانات، فقد اشتُهِرَ بسعيه هذا منذ منتصف الأربعينيات؛ إذ لم يكن يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمُر في وقتٍ كان التعصُّب الدينيُّ على أشده، وكانت فرنسا تتخذ من ذلك ذريعةً لتمسُّكها بالاحتلال، وتُنذر بأن خروجها من المنطقة سيشعل الحرب الأهلية بين المسلمين والمسيحيين، وتُقدِّم الأدلَّة على ذلك من التصريحات النارية الطائفية الغاضبية التي كان يتسابق لإطلاقها بعض رجال الدين من الطرفَين على السواء.

ومضى إلى الفقه الإسلامي فتخيَّرَ من مذاهب الأئمة ما هو أقربُ إلى مقاصد الشريعة في تحقيق الأُلفة والإخاء، واختار مذهب الحنفية في دخول غير المسلمين المساجد رغم أنه كان شافعيَّ المذهب، وفتح باب المسجد بكل شجاعةٍ لكل منصفٍ راغبٍ بالتعرف إلى الإسلام.

وأقام في مسجد يلبغا وسط دمشق لأول مرةٍ احتفالاً حاشداً بعيد ميلاد السيد المسيح، ودعا إليه رؤساء الطوائف المسيحية في دمشق ولبنان، ولأجل إيلافهم فقد رفع فرش نصف المسجد، ووضع مكانه كراسي ليجلس عليها النصارى كما هي عادتهم،

وهكذا فإنه بشيءٍ يسيرٍ من تغيير هيئات الجلوس فقد غيَّر كثيراً من مكامِنِ البغضاء وسوء الظَّنِّ، وزرع بذور المحبة والمودة في دعوة إيلافٍ حقيقيٍّ طافحة بالبشائر.

وقد أثار ذلك ذهول الجامدين واعتراضهم من الجانبين معاً؛ فالجامدون من النصارى رأَوْا في ذلك اعترافاً من المشاركين بنبوة محمدٍ ﷺ، وهو أمر دأَبَتِ الكنائس الشرقية ــوللأسفــ على التنكُّر منه، والجامدون من المسلمين رأَوْا في ذلك تنازلاً عمَّا يتصوَّرونه من وجوب مقاتلة أهل الكتاب حتى يدخلوا في الإسلام راغمين.

ولكن ذلك في الوقت نفسه أثار إعجاب أهل العلم والعقل والغيرة والوطنية من الطوائف كافةً؛ إذ رأوا فيه مهاداً لوحدةٍ وطنيةٍ واجتماعيةٍ، ورأى فيه علماء الشريعة المستبصرون إحياءً لهَدْي النبي ﷺ حين كان يستقبل الوفود في مسجده الشريف، فيكرمهم ويعرض عليهم أحكام الإسلام.

كتبت صحيفة التمدُّن الإسلامي وهي لسان الحركة الإسلامية في الشام حينئذٍ وتحت عنوان كبير: **جماعة من النصارى المنصفين في جامع يلبغا**[1]:

(حضر درس المرشد الأستاذ الشيخ أحمد كفتارو في جامع يلبغا بدمشق جماعةٌ من النصارى المنصفين بعد أن غصَّ الجامع ليلتئذٍ بالمستمعين، فألقى الأستاذ كفتارو درساً يوافق المقام، وبيَّنَ أن رسالة النبي ﷺ عامةً وأنها اعترفت بجميع الأنبياء...).

ثم ذكرت الصحيفة أنه تحدث من الضيوف كلٌّ من الشاعر: حليم دموس، والسيد يوسف الحاج، والسيد يوسف الحجار، وأوردت قصيدة الشاعر حليم دموس التي ألقاها، وفيها:

[1] ننبه أن عمر الشيخ أحمد حينئذٍ كان خمسة وثلاثين عاماً.

رأى قلبي دمشـــقَ وقد تذكَّر فهـلَّـل فـي جـوامِعِهـا وكـبَّر
وردَّد قائلاً: الله أكبر!

أجامع (يلبغا): حُيِّيت دوماً وسـرتَ إلى الهدى يوماً فيوما
فكم أسمعتنا: الله أكبر!

جمعتَ محمَّداً وجمعتَ عيسـى فلنْ تلقى فقيراً أو تعيســـا
إذا صاح الفتى: الله أكبر!

فسِـــرْ نحو الحقيقةِ والكمالِ بـعَـونِ إلهـنـا ربِّ الجـلال
وقم واهتف وقل: الله أكبر[1].

ولقد تعاظم نشاطه في هذا الميدان حتى ارتبط باسمه، فإذا تحدثتَ عن الحوار الديني على مستوى المنطقة فلا بدَّ أن تتحدث عن الشيخ كفتارو، وإذا تحدثتَ عن الشيخ كفتارو فلا بدَّ أن تتحدث عن نشاطه في جانب الحوار الديني.

وفي سبيل ذلك قام بزياراتٍ كثيرةٍ إلى الولايات المتحدة، واليابان، وأوربا الغربية والشرقية، وموسكو، وعواصم أفريقية كثيرة، وزارته كذلك وفود من مختلف أنحاء العالم وللغرض ذاته، حتَّى اختِيرَ عام (١٩٩٠م) من قِبَل المنبر العالمي التابع لهيئة الأمم المتحدة رئيساً وممثِّلاً لرجال الدين والروحانيين في العالم في مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتطور من أجل البقاء الإنساني.

[1] مجلة التمدن الإسلامي عدد ١٤ و١٥ /آذار/ ١٩٤٧م.

كذلك سُمِّي رئيساً للقسم الديني في قمة الأرض التي انعقدت في البرازيل عام (١٩٩٢م) وشارك فيها مئة وعشرون رئيس دولة أو نائبه، وقد حالت ظروفٌ خاصةٌ دون مشاركته في هذه القمة.

وستجد تفاصيل واسعة بشأن هذه المشاركات جميعاً لدى حديثنا عن هذا الجانب في الفصل الخاص لحوار الأديان في نشاط الشيخ.

جمعية الأنصار:

وفي عام (١٩٥١م) قام الشيخ بتأسيس جمعية الأنصار الإسلامية، وذلك إيماناً منه بضرورة العمل الجماعي في خدمة الإسلام، وكان تأسيس الجمعية انتقالاً في نشاط الشيخ من العمل الفردي إلى العمل الجماعي.

وقد اعتمد الشيخ في تأسيس الجمعية على كبار الشخصيات العلمية والاجتماعية في دمشق، أمثال: الشيخ عبد الرؤوف الأسطواني، والشيخ محمد بشير الباني، والدكتور عارف الطرقجي، وغيرهم ممن تجد أسماءَهم موثَّقةً في الفصل الخاصِّ بآثار الشيخ.

وقد أسس الشيخ بعد ذلك عشرات المؤسسات الإسلامية في الشام، كانت جمعية الأنصار غطاءها القانوني والإداري، فقد بدأت الجمعية عملها في الجوانب الخيرية والتعليمية منذ عام (١٩٥١م)، غير أنها لم تُشهَر رسمياً إلا عام (١٩٥٩م)، وقد تخير الشيخ هذا الاسم **الأنصار** في قصدٍ واضحٍ إلى إحياء رسالة الأنصار من أصحاب النبي ﷺ، الذين قدَّموا شبابهم وأموالهم وجهادهم في خدمة الإسلام من غير أن يبتغوا على ذلك أجراً، وبالفعل فقد بدؤوا جهادهم صادقين مخلِصين، ووفَّوا حياتهم كذلك صادقين مخلِصين، لم تشبْ جهادهم شائبة الغرض، وقدِموا على الله بما قدَّموا، وكان نصيبهم من جهادهم دعوة النبي ﷺ الباقية: (اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار).

في لبنان:

وفي عام (١٩٥٤م) كان عضواً في المؤتمر الإسلامي الذي عُقِدَ في لبنان، وقد أدرك في هذا المؤتمر أهمية الحوار الديني بين المسيحية والإسلام، وتخيَّرَ من هذا المؤتمر رفاقه في مسعى الحوار ودرء أخطار الحروب الطائفية، فكان رفيقه في الجانب الإسلامي العلَّامة الشيخ بهجة البيطار[١]، نائب رئيس جمعية أصدقاء الشرق الأوسط في أمريكا.

كما استخلص من المسيحيين أفراداً ممَّن أُوتُوا الحكمةَ والرشد، وكان أبرز مغانمه في هذا المؤتمر الشاعر الماروني الشهير حليم دموس، الذي سبق له أن زار الشيخ في دمشق عام (١٩٤٧م)[٢]؛ إذ توثقت صلة الرَّجُلَين، وقام الشاعر حليم دموس بزيارة الشيخ في دمشق وألقى في جامع يلبغا قصيدته الشهيرة في مدح النبي ﷺ:

تغنَّي عروسَ الشِّـعرِ باسـمِ محمَّدٍ ... وهزّي بني الـدُّنيـا بسـيرةِ أحمـدِ
وأقسـمُ لو يدرِي الورى كُنْهَ دِينِه ... لَمَا فرَّقُوا ما بين عيسـى وأحمدِ
فأبصرُ في القرآنِ عيسى ابنَ مريمِ ... وألمحُ في الإنجيـلِ نُـورَ محمَّـدِ
لَعَمْرُكَ مـا الأديانُ إلَّا نـوافـذ ... ترى اللهَ منهـا مُقلـةُ المتعبِّـدِ

---

[١] الشيخ محمد بهجة البيطار (١٨٩٤- ١٩٧٦م)، من علماء دمشق وأعيان حي الميدان، تلقى علوم اللغة والأدب والدين عن والده، ثم اتصل بكبار شيوخ عصره فأخذ عنهم، كالشيخ: جمال الدين القاسمي، والشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ بدر الدين الحسني، وانتدبه الملك عبد العزيز للإشراف على المعهد العلمي السعودي في عام (١٣٤٥هـ) فقام بإدارته خمس سنوات، واختير عضواً في المجمع العلمي العراقي، وفي مجمع اللغة العربية، كان داعية متحمساً للإصلاح والانفتاح، وشارك في نشاطات الحوار الإسلامي المسيحي، واختير في الولايات المتحدة نائباً لجمعية أصدقاء الشرق الأوسط، وقد تعرض لحملاتٍ كثيرةٍ من الجامدين والمتعصبين ولكنه صبر على ذلك، وما فتئ يدعو إلى الإخاء والتسامح حتى لقي الله سبحانه عام (١٩٧٦م).

[٢] انظر: مجلة التمدن الإسلامي عدد ١٤ و١٥ /آذار/ ١٩٤٧م، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

ورأى الشيخ كفتارو في تيار حليم دموس – يوسف الحاج ظاهرةً فريدةً في الطائفة المارونية؛ إذ يَنْدُرُ وجود هذا الانفتاح في مجتمعٍ يتهيَّأ كثيرٌ من أفراده لإنشاء كيانهم الطائفي، والمضي بلبنان نحو إقامة الدولة المسيحية المضارعة للدولة اليهودية على أسسٍ طائفيةٍ تجعل من المارونيين وحدهم أصحاب الأرض، ومن الطوائف الأخرى محض ضيوفٍ وافدين على الأرض اللبنانية، سوف يُطلَبُ منهم ذات يومٍ أن يخلوها لأصحابها[1].

ومن أجل ذلك فقد كان لدى الشيخ كفتارو أكثر من سببٍ يدعوه للاهتمام بهذا التيَّار، وكان من مظهر ذلك كما أسلفنا أنه قام بدعوة حليم دموس ويوسف الحاج وعدد من رفاقهما إلى دمشق، وعلى الرغم من ميولهم الداهشية[2] الظاهرة لكنه رأى أن مثل هذه الاعترافات الصريحة بنبوة النبي وتآخي الأنبياء يمكن أن تشرخَ بوقَ الفتنة المرصود، وتكفَّ بعض ريح الطائفية العاتية.

وقد تنبَّه لذلك دعاة الفتنة الطائفية، فاتخذوا ما يلزم لخنق هذا الاتجاه، وبالفعل فقد اجتاز حليم دموس وأصحابه الحدود السورية إلى سيارة الاعتقال فوراً، وتعاقبت بعد ذلك المكائد حتى تبخَّر ذلك السَّعي النبيل في أتونِ المحرقة الدَّنيئة.

---

[1] انظر مثلاً: تصريح البطريرك أغناطيوس هزيم بطريرك انطاكية المشرق لطائفة الروم الأرثوذوكس كافة لمجلة الجمهورية اللبنانية في: ١٩٨٥/١٢/٦م، وفيه يقول: العالم العربي ليس عالماً مسلماً، فالدول العربية حكَّامها مسلمون، ولكن هناك بين شعوبها نسبة من المسيحيين تختلف من بلدٍ إلى آخر، علماً أن المنطقة كانت كلها مسيحية في الأساس بما في ذلك الحجاز، وسبق لي أن قلتُ: إن المسلمين هم ضيوف علينا نحن المسيحيين، وبما أن الحكَّام في البلاد العربية جميعهم مسلمون فليتركوا لنا لبنان في هذا التمييز الإنساني.

[2] داهش، أو الدكتور داهش: زعيم مسيحي لبناني، ظهرت منه بعض الخوارق المدهشة، اشتغل بالتنويم المغناطيسي والأرواحيات، وتحلَّق حوله عدد من مفكِّري لبنان، مسيحيين ومسلمين، وانتهت حركته بوفاته.

ومنذ أن كُتبت له أول زيارة للبنان أحسَّ محنة هذا البلد، فهو في الحقيقة تركيب طائفي مخيف، ولم تخرج فرنسا منه إلا بعد أن كرَّست الحالة الطائفية ووضعتها على حافَّة بركان، وراحت تنفُخ في كِيْرِه حتى فجَّرته حميماً وغسَّاقاً.

وكان أكثر ما يؤلمه أن ذلك اليوم المشؤوم ما هو إلا جحيم يصنعه زعماء الطائفية السياسية بمباركةٍ من رجال الدِّين الذين كانوا يمارسون دوراً طائفياً تحريضياً على أسوأ وجه.

وهكذا فإن أكثر من وسيلةٍ يمكنها أن توقف هذا القدر المرَّ المحتوم، ولكن التعصب الطائفي الذي كانت تعيشه لبنان كان قد أحرق هذه الوسائل كلَّها.

وعلى قدر طاقته بدأ يستنفر إخوانه إلى لبنان لنشر روحٍ من التسامح والمحبة في وجه رياح البغضاء والحقد العاصفة أملاً في تجنب الكارثة، وبالفعل فقد نفرت أول طائفةٍ منهم إلى قرى البقاع، وأنا فخور بأنَّ والدي المجاهد عبد الرحمن الحبش كان واحداً منهم، وقد مضى في جهاده في الدعوة بدءاً من عام (١٩٤٧م) في قرىً لبنانيةٍ عدةٍ، حيث استقر به المقام في بلدة الروضة بالبقاع الغربي، ومنها تزوج بوالدتي، وأمضى سنين طويلة يؤدي رسالته الشريفة في الدعوة إلى الله ونشر الحب والتسامح.

وحينما رأى المحنة تتفاقم والكارثة تقترب قام الشيخ كفتارو بجهدٍ آخر؛ إذ نسق مع دار الفتوى اللبنانية في مطلع السبعينيات، وعاد ليستنفر خِيرة إخوانه إلى جهادٍ لا سيف فيه في مساجد بيروت ومدارسها، يدعون إلى الله، ويلتقون القيادات السُّنِّيَّة والشيعية والدرزية والمسيحية، ويطرحون سبل التقارب والتعاون بدلاً من نار الحرب الموقَدة، وقد خرج في تلك البعثات عدد من الدعاة الموهوبين من إخوانه وتلامذته، وبدؤوا يطرحون فكر المحبة والتسامح، وكان الشيخ أحمد يزورهم في مساجدهم ولقاءاتهم،

واستمر ذلك سنين عدَّة، ولكن أتَّى لهذا الصوت العاقل الخافت أن يتغلب على طبل الحرب الطائش؟ ووقعت حادثة عين الرمانة عام (١٩٧٥م)، واشتعلت لبنان كلها، وسُلب ذوو العقول عقولهم، ونطق الرصاص فما يُباح كلام، وجرى القصاص فما يُتاح ملام، وجاءت العاقبة السوداء، وكان أمر الله قدراً مقدوراً!

وخلال الأيام السوداء التي عصفت بلبنان كان الشيخ يتحدث عن وجوب التعايش والتسامح، وحتمية وحدة لبنان، على الرغم من أن غالب الأصوات الفاعلة انجرفت خلال المحنة إلى مواقعَ طائفيةٍ.

ففي حديثه لوكالة الأنباء الفرنسية بتاريخ ١٠/٥/١٩٨٦م سُئِلَ الشيخ كفتارو:

لقد اشتعلت الحرب قبل أحد عشر عاماً في لبنان، فما رأيكم بالتقسيم كحلٍّ ممكنٍ لوضع حدٍّ لهذا التنازع؟

عند هذا السؤال هزَّ المسؤول الديني رأسه بإشارة الرفض وبنظرةٍ إنسانيةٍ قلِقَةٍ، وقال:

ليس هناك أيُّ لبنانيٍّ شريفٍ أو وطنيٍّ يغار على مصير وطنه يستطيع أن يقبل بالتقسيم، الوطن العربي مقسم سلفاً إلى حوالي عشرين دولة، فهل تريدون تفتيته أكثر؟

قال هذا بصوت جهير مضيفاً:

تعود إلى اللبنانيين –ولهم فقط– معرفة قوانينهم الموضوعة، أهي صالحة أم تحتاج إلى تغيير[1].

وفي تصريحٍ آخرَ لمجلة: (إلى الأمام) اللبنانية قال الشيخ كفتارو: (إني أدعو الطوائف الدينية أن تتقيد بأخلاقية وواجبات عقائدها الدينية كما وردت في كتبها السماوية فيما يخص التعايش مع المواطنين الآخرين... بحيث يكون كافة المواطنين صفاً واحداً أمام العدو الحقيقي)[2].

[1] وكالة الأنباء الفرنسية، نشرة: ١٠/٥/١٩٨٦م، وانظر أيضاً: صدى هذه التصريحات في الأنوار اللبنانية: ١٣/٣/١٩٨٦م، وانظر أيضاً: النهار العربي والدولي: ٢٦/٣/١٩٨٦م.

[2] لقاء صحفي مطول للشيخ مع مجلة (إلى الأمام)، تاريخ: ٩/١١/١٩٨٥م.

في مصر:

وفي عام (١٩٥٧م) تلقَّى دعوةً من مجلس قيادة الثورة في مصر ليُحاضِر في الجامع الأزهر ضمن إطار التعاون الثقافي بين سورية ومصر، وأتاحت له هذه الزيارة التعرف إلى الحركة الإسلامية في مصر، وقد تركت هذه الزيارة في نفسه أثراً عميقاً؛ إذ كان يلتمس أثر الصحوة الإسلامية التي قادها الشيخ حسن البنا في مصر، ولكنه كان يَأْلَمُ للتغيير الحاصل في منهج أتباعه من بعد؛ إذ غلب صوتُ العاطفة صوتَ العقل، أصبح فتيان الدعوة الأغرار أكثر نفوذاً من شيوخها الراسخين، ولا شكَّ أن ذلك كان من أهم الأسباب التي أوجدَت الصدام بين الحركة الإسلامية والحكم القومي، وقد عاد هذا على الطرفين بأفدَح الضرر.

وشارك كذلك في لجنة التقريب بين المذاهب الإسلامية التي كانت تُعقَدُ في الأزهر بالقاهرة، وهناك أمكَنَه أن يُدْلِيَ بدَلْوِه في هذا المسعَى النبيل.

وفي اللقاء توثقت صلته بالشيخ محمود شلتوت[1]، شيخ الأزهر الذي كان يعاني حينئذٍ من وهنٍ ظاهرٍ في ساقَيه، وكان يتهلل لمجيء أخيه الشيخ كفتارو، ويسأله الدعاء لاعتقاده به، والله سبحانه لا يردُّ دعوة المؤمن لأخيه، وقد قِيل قديماً: ادع الله بلسانٍ لم تعصِ الله فيه، وهو لسان أخيك في الله.

[1] محمود شلتوت (١٨٩٢-١٩٦٣م) عالم بالدين وشيخ الأزهر، ولد بمنية بني منصور بالبحيرة بمصر، التحق بمعهد الاسكندرية الديني (١٩٠٦م)، وكان ترتيبه الأول دائماً، حصل على شهادة العالمية (١٩١٨م)، عُين مدرّساً بمعهد الإسكندرية، ودعا إلى إصلاح الأزهر الذي عُيّن مدرّساً في القسم العالي فيه، ثم عُيّن عضواً في لجنة الفتوى، ثم وكيلاً لكلية الشريعة وعضواً بالمجمع اللغوي، ثم عُيّن شيخاً للأزهر حتى وفاته، من مؤلفاته: الإسلام عقيدة وشريعة، والدعوة المحمدية، والقتال في الإسلام وغيرها.

وكان من بركة هذه اللقاءات صدور فتوى الأزهر الشريف بتوقيع الشيخ شلتوت، وهي تدعو المسلمين إلى نبذ الخلاف، واعتبار المذهب الجعفري خامس المذاهب الإسلامية المعتمدة، وقد كانت هذه خطوة جريئة أسهمت ظاهرياً في كسر أوهام البغضاء التي خلفتها القرون.

في سويسرا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا:

وفي عام (١٩٥٩م) أعدَّ المركز الإسلامي في سويسرا برنامجاً حافلاً للشيخ أحمد لزيارة الدول الأوربية؛ إذ كان الدكتور مدحة شيخ الأرض[١] يُشرِف على مراكز إسلامية عدَّة تتبع للسعودية في أوربا، وهو تلميذ قديم للشيخ أمين كفتارو، وكان دائم الصلة بالشيخ أحمد منذ طفولته، وكان يعجب بما آتاه الله من موهبةٍ ونجاحٍ.

وقد شملت جولته سويسرا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا، حيث حاضر في جامعاتٍ أوربيةٍ ومراكز إسلاميةٍ عدَّةٍ، والتقى عدداً من المستشرقين والمهتمين بالدراسات الإسلامية[٢].

وفي أثناء لقائه بالجاليات الإسلامية في أوربا كان يتلمَّس الواقع المرَّ الذي تعيشه تلك الجاليات في غياب الفكر الإسلامي الواعي والمنفتح، وحيث ظهر أن المسلم هناك واحد من اثنين: إمَّا ملتزم بإسلامه غريب في المجتمع الأوربي، معتزل كل نشاطٍ حضاريٍّ نافعٍ، ماضٍ في تحصيل رزقه، ساخط على مَن حوله، لا يألَفهم ولا يألَفونه، وإمَّا سائب ضائع لم يعدْ يربطه بإسلامه إلا اسمه ولقبه وذكريات أجداده، لا يعرف من دينه شيئاً ولا يريد أن يتعرَّف، وهكذا فقد تأكدت في ذهنه الحاجة الكبرى لوجود جيلٍ جديدٍ من الدعاة يقدِّمون الإسلام في ثوبٍ عصريٍّ متجدِّدٍ، يجمعون بين القلب

[١] الدكتور مدحة شيخ الأرض: طبيب وداعية إسلامي بارز، صحب الشيخ أمين كفتارو، وانخرط في الثورة السورية فحُكم عليه بالإعدام، ثم فرَّ هارباً إلى الحجاز، وهناك اتصل بالملك عبد العزيز، فأكرمه وأحسن وفادته وأصبح طبيبه الخاص، ثم انتدبته الحكومة السعودية سفيراً في أوربا، وولي عدة مناصب هامة، وأسهم في افتتاح عدة مراكز إسلامية في أوربا، ثم تفرغ في المركز الإسلامي بسويسرا وما زال حتى اليوم هناك، وقد تجاوز التسعين من العمر، من أبرز إنجازاته إسلام الفيلسوف روجيه غارودي على يديه.

[٢] انظر كتاب: The Way Of Truth، إصدار مؤسسة: WQS – Damascus.

والعقل، والعلم والعمل، يطرحون الإسلام في الغرب نظاماً حياً فاعلاً، وليس ظِلاً جامداً من الماضي.

ولكن أكثر ما أشعل في نفسه الأحزان كان زيارته لمسجد قرطبة في الأندلس، ذلك الأثر الإسلامي الخالد الذي تُختصر فيه قصة مجدٍ تالدٍ عاش ثمانية قرون، في كل ساريةٍ من سواريه الثمانمئة حكاية مجدٍ ونصرٍ وحضارةٍ ومعرفةٍ رغدت بها الأندلس يوم كانت أوربا تتخبَّط في ظلمات العصور الوسطى، وهي حقيقة لا يجهلها منصِفٌ عاقل.

وحينما مضى المغامرون الإسبان إلى العالم الجديد لم يجدوا شيئاً يحملونه أغلى ولا أبهج من قرطبة، وهناك جعلوا عاصمة الثقافة في الأرجنتين في مدينة قرطبة على ضفاف نهر بريميرو عند سهل البامبا[1] بالاسم العربي ذاته؛ إذ الخلود أكبر شملاً من أن تأسره أزمان أو أوطان.

هناك في غابة الأعمدة في مسجد قرطبة لم تتمكَّن رجلاه الصابرتان من حمله في جوانب هذا المسجد؛ إذ أثقلت كاهله ذكريات تاريخٍ حزينٍ يتنهد في قرطبة، فتنسكب فيها دموع العارفين.

وعند ساريةٍ من هذه السواري التي تنطق بالأسى والأشواق افترش الأرض وجلس يتذكر رائعة إقبال في تخليد مسجد قرطبة:

قصر التاريخ ومسجـــــــده ما أروع ما صـــنعت يده!

وقصيدته المشهورة:

[1] الموسوعة العربية الميسرة ص١٣٧٧.

يا ظـلَّ حـدائـق أنـدلـس أنســـيـت مغـاني عشـــرتنـا
وعـلـى أغصـــانـك أوكـار عـمرت بطلائع نشـــأتنـا؟!

في بغداد:

وفي عام (١٩٦٢م) شارك الشيخ كفتارو في مؤتمر العالم الإسلامي الخامس في مدينة بغداد أيام عبد الكريم قاسم[١]، وتعرَّف عن كثبٍ على المشكلة القديمة في العالم الإسلامي بين السُّنَّة والشيعة.

ومع أنه كان يمثِّل علماء سورية غير أنه لم يكن مذهبياً في طرحه، وأفاد من المؤتمر حيث أنشأ صلاتٍ طيبةً مع القيادات الشيعية في العراق من خلال زيارة المشاهد المباركة في النجف وكربلاء والكاظمية.

وفي لقاء المشاركين مع عبد الكريم قاسم أمكنه في كلمته التي ارتجلها أن يوصل إليه أماني علماء العراق من سُنَّةٍ وشيعة، وتحدَّث عن وجوب الصلح بين العسكر والناس، وكان طرحاً جريئاً غير متوقَّعٍ، فالرجل زاهٍ بهدم النظام الملكي، وقد قام بطرد القواعد البريطانية، وما زال بزيّه العسكري لا يعرف إلا ثكنته ومدفعه، ولهذا كله فإن مثل هذا الوفاق لم يكن بالنسبة إليه أمراً ذا بالٍ، ومضى على ذلك، ولم تطلْ أيامه بعد حتى جاء العسكر أنفسهم باستئصاله؛ إذ أُعدِم بالرصاص في ٨/شباط/١٩٦٣م.

[١] عبد الكريم قاسم (١٩١٤ – ١٩٦٣م)، زعيم عراقي التحق بالكلية العسكرية ببغداد (١٩٣٢م)، شغل وظائف كثيرة بالجيش، والتحق بكلية الأركان (١٩٤٠م)، اشترك في معركة فلسطين أميراً لفوجٍ من المشاة، التحق بدورة تدريبية في انكلترا ثم عاد إلى بلاده ليقود الثورة (١٩٥٨م)، حيث تولى قيادة الجيش ثم رئاسة الوزارة، ألغت حكومته النظام الملكي وأعلنت الجمهورية، وتسلمت القواعد الحربية البريطانية، رقي إلى رتبة فريق عام (١٩٦٣م)، أُعدِم رمياً بالرصاص في أعقاب ثورة (١٩٦٣م) العسكرية هو وعدد من أعوانه، (الموسوعة الميسرة).

في جامع أبي النور:

وكانت هذه الرحلات التي يقوم بها بين الحين والآخر تُغنِي تجرِبته في الدعوة، وتحدد منهجه في خدمة القضايا الإسلامية، وقد جمع من ذلك كله ميراثاً من الحكمة والاستبصار عاد ينشره في إخوانه بواسطة نشاطه التربوي المستمر والمنتظم.

واتخذ الشيخ منهجاً علمياً له من خلال تفسير القرآن الكريم؛ إذ جعل مدار محاضراته كلها مباحث التفسير، فكان يعقد في كل أسبوعٍ ثلاث محاضرات رئيسة: صباح الجمعة في جامع أبي النور، ومساء الإثنين في جامع يلبغا، ومساء الخميس في جامع أبي النور أيضاً، فجعل شغله فيها تفسير القرآن الكريم، فكان يفسر القرآن من موضعين: واحد لمجالس المساء وواحد لدرس الفجر، وبدءاً من ذلك التاريخ فقد أكمل تفسير القرآن الكريم أربع مراتٍ بمعدل مرَّةٍ كلَّ عشر سنواتٍ تقريباً.

وقد اختار في إحدى هذه المرَّات أن يفسر القرآن الكريم تفسيراً مرتباً وفق أسباب النزول؛ ليوافق المقاصد القرآنية في تربية الجماعة المسلمة.

ولم يكن منهجه في التفسير منصرفاً إلى حلِّ العبارات وإيضاح الدلالات البلاغية والمحسنات البديعية؛ بل كان فهمه للقرآن الكريم منسجماً مع فقه الأحكام والدعوة والحياة، وأقرب ما يمكن أن تُعرِّفَ به منهجه في التفسير أنه تفسير مقاصد القرآن الكريم وغاياته، فكان اجتهاده الأكبر في إسقاط النصِّ على واقع الحياة والبحث عن دلالاته في السلوك والعمل، بينما كان الآخرون ينشغلون في الكشف عن روعة النصِّ كان يشتغل في الكشف عن دلالاته وتوجيهاته وتطبيقاته.

وقد لقيت هذه الدروس نجاحاً منقطع النظير، فكانت تشهد ازدحاماً غير مألوف، وفي رمضان لم يكن ثمَّة مسجد يتَّسع لروَّاد هذه المحاضرات إلا الجامع الأموي الكبير

الذي كان يمتلئ على رحابته وسعته، ويمكن القول: إنه ومنذ أن اختُرِعت أجهزة التكبير الصوتي –الإذاعات– لم تشهد دمشق مجالس عِلمٍ أكثر ازدحاماً أو اكتظاظاً من مجالس الشيخ أحمد.

وعلى ذلك فلم يكن هذا الزحام غوغاء هملاً من الناس؛ بل كان المجلس يضم معظم شرائح الناس المثقفة، فكان فيه العلماء والحقوقيون والأطباء والمهندسون والاختصاصيون وطلبة الجامعات، إضافة إلى ما يحضره أيضاً من عمَّال وحرفيّين وناسٍ طيبين.

ومنذ منتصف الستينيات فإن هذه المحاضرات التفسيرية للشيخ موثقة بواسطة التسجيل الصوتي؛ إذ كان العشرات من الحضور يسجّلون الدروس كاملةً على أجهزةٍ مختلفةٍ، كذلك فقد بُدِئ منذ عام (١٩٨٢م) بالتسجيل الصوتي والمرئي بواسطة أجهزة الفيديو المختلفة، وتجد لدى تسجيلات الأنصار اليوم تسجيلاً صوتياً كاملاً يمتدُّ لنحو ثلاثين سنة، وتسجيلاً مرئياً يمتدُّ حوالي خمس عشرة سنة.

وقد تفرَّغت لجنة متخصصة لصياغة هذا التفسير من جديد، وإخراجه في عملٍ مطبوعٍ ينتفع منه الناس، وقد أُعِدَّ بالفعل قسم كبير منه للطباعة، وقامت بعض الدُّور العربية بنشر مختاراتٍ منه[1].

وليس هذا مكان الكلام عن تفسير القرآن الكريم الذي أعدَّه الشيخ، فمحل ذلك في إصدارات التفسير نفسها التي سيسعد بها القرَّاء في الأيام القادمة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن درس التفسير لم يكن محضَ نشاطٍ اختصاصيٍّ بشأن النص ذاته فحسب؛ بل كان كتاب حياةٍ يستعرض من خلاله الشيخ هموم المسلمين

[1] انظر مثلاً: مجلة صوت العرب أعوام (١٩٩٠ – ١٩٩١م)، ومجلة صدى الإيمان أعداد (١٩٩٦م).

وآمالهم وأمانيهم، ويعالج مشكلاتهم وعثراتهم وأخطاءهم، ويوجّه الحركة الإسلامية الناشئة في جميع ما يعترضها من هموم.

ولا بدَّ من القول أيضاً: إن هذا العمل العلمي الرائد الذي بدأ منذ نحو خمسة وأربعين عاماً، وانتفع به عشرات الألوف مباشرة، وأعداد أُخرى تزيد عن ذلك من خلال التسجيل والتصوير قائمٌ بحول الله ما يزال يزداد كل يومٍ نشاطاً وألقاً، ومن يدري؟ فلعل ما بقي منه أكثر مما فات، وما ذلك على الله بعزيز، وربك يخلُقُ ما يشاء ويختار.

انتخابات الفتوى:

وفي مطلع الستينيات كان الشيخ أحمد قد بلغ الخمسين من العمر، وهي سنُّ النضج والكمال، وأصبح عمر دعوته بعد أبيه نحو ربع قرنٍ، وهي تجربةٌ كافيةٌ لتحديد وجهة هذه الدعوة ووسائلها وغاياتها، وصار له رصيد من التجربة والخبرة تؤهّله لقيادة العمل الإسلامي بكفاءةٍ وتجربةٍ ونجاح.

ومضى على وجوده في فتوى دمشق وعضوية مجلس الإفتاء الأعلى أكثر من ثلاث عشرة سنة، وكأنما كان على موعدٍ مع القدر، فقد شغر منصب الإفتاء العام وهو أعلى منصبٍ دينيّ في سورية، وكلّف فضيلة الشيخ المرحوم عبد الرزاق الحمصي بتسيير أمور الإفتاء العام إلى حين انتخاب مُفتٍ عامٍّ للبلاد، وذلك من نيسان (١٩٦٣م)، وحتى ٤ تشرين الثاني عام (١٩٦٤م)؛ إذ جرت انتخابات الفتوى العامة لملء منصب الإفتاء العامّ[1].

ومنصب المفتي العام في سورية موقع مهمٌّ في حركة الدعوة الإسلامية، ولذلك فإنه لا عجب أن يتنافس فيه كبار رجال الدعوة مؤتسين في ذلك بالنبي يوسف عليه السلام حين قال لعزيز مصر: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يُوسُف : ٥٥].

وهذا التنافس في الخيرات خُلُقٌ محمود، وهو مظهر من مظاهر حرية الرأي في الإسلام، ولعل أوضح صورةٍ لذلك حكاية الخلافة التي بدأت عقِبَ وفاة النبي ﷺ، فقد تنافس في تحصيلها رجال كرام من خِيرة الصحابة، فيهم: الصِّدِّيق أبو بكر، وسعد بن عبادة، وعلي بن أبي طالب، وكان كلٌّ منهم حريصاً أن ينال شرفها ليقوم بشرف خدمة أمَّة النبي ﷺ، وليس من الحكمة هنا أن نتجاهل الروايات الكثيرة التي

[1] عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام، ص٣٠.

أشارت إلى تنافسهم في هذا الباب من الخير، فقد كان كلٌّ منهم مجتهداً مأجوراً أخطأ أو أصاب.

والأمر ذاته تكرر يوم وفاة عمر؛ إذ عهد بالخلافة إلى ستةٍ من خِيرة الصحابة أهل الشورى، وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وقد ظلُّوا أياماً ثلاثةً يمارسون حقهم الانتخابي على أتم درجة من حرية التعبير، ويتحدث كلٌّ منهم بنعمة الله عليه، ويبرز جوانب الكفاءة التي مَنَّ بها الله عليه فخوَّلته طلب الخلافة.

ولكن هذه المنافسة الشريفة ليست هي أروع ما في الأمر؛ بل إن أروع ما جرى هو قَبولهم فيما بعدُ لاختيار الأمَّة، ولو لم يتَّفق مع ما كانوا يرجون، وعلى هديٍ من ذلك فقد أقبل أسامة بن زيد، والعباس بن عبد المطلب، وبلال بن رباح، وعلي بن أبي طالب، وأبو سفيان بن حرب إلى أبي بكر الصديق يُبايعونه بعد أيامٍ عدةٍ امتنعوا فيها من البيعة نظراً لآرائهم التي لم تكن موافقةً في البداية لِمَا جرى في سقيفة بني ساعدة، ولكن لما رأوا البيعة انعقدت صحيحةً لأبي بكر جاؤوا مُبايعين صيانةً لوحدة الأمة وجمعاً لكلمتها[1].

[1] من جهة أخرى فإننا نعتز بهذا الخلاف في الرأي الذي وقع بين الصحابة على أهم مسائل الحياة بإطلاق، وهي الإمامة، وذلك نظراً لما يترتب عليها من فروع وأحكام، وأنت ترى أن الصحابة لم يحسموا هذا الخلاف بوسائل البطش والإكراه كما يفعل كل سلطان مع مَن يقبض يديه عن البيعة؛ بل ترك لهم الأمر حتى بايعوا طائعين، وقد تخلف بعضهم عن البيعة أياماً؛ بل شهوراً، وهم في مرمى سهم أبي بكر لا يتمردون في حصونهم، ولا تمنعهم أجناد مدربة؛ بل إن بعضهم لم يبايع بالكلية كفاطمة بنت النبي ﷺ، وسعد بن عبادة الخزرجي، ومع ذلك كله فإنه لم يُسلَّط على هؤلاء سلطان من القهر والإكراه ليختاروا غير ما يحبون، ولم يحطَّ رأيهم الحر من أقدارهم ومنزلتهم في الإسلام، ولا شكَّ أن هذه صورة فريدة من الديمقراطية وحرية الرأي لم تعرفها أمة من الأمم في ذلك الوقت من التاريخ.

وقل الأمر نفسه في إقبال علي وسعد والزبير على بيعة عثمان بن عفان بعد أن نافسوه فيها، وذلك حينما تحقَّق لهم أن مصلحة الأمَّة تقتضي التزام خيار الجماعة.

وهكذا فإن انتخابات الإفتاء العام لم تكن إلا لوناً من هذا التنافس الشريف، وقد اجتمعت كلمة علماء سورية على رجلَين اثنين، وهما: الشيخ أحمد كفتارو، والشيخ حسن حبنكة[1]، وكلاهما من رجال الدعوة الموفقين في الشام.

وفي أثناء شهورٍ من التمهيد لهذه الانتخابات فقد بذل كلٌّ من الشيخَين الفاضلَين جهده في سبيل الفوز بهذا الشرف الكبير.

ويقضي قانون انتخابات الفتوى أن يتم تعيين المفتي العام عن طريق الانتخاب؛ إذ يقوم بانتخابه كبار علماء سورية، وهم: مفتو المحافظات، وقضاة الشرع، ونقباء الأشراف، وأعضاء مجلس الإفتاء الأعلى، وهكذا فإن مجموع الناخبين يبلغ خمسةً وثلاثين رجلاً هم في الحقيقة مراجع العلم والدعوة في سورية، وقد تمَّت دعوتهم يوم الرابع من تشرين الثاني (١٩٦٤م) لأداء هذا الواجب الإسلامي النبيل.

[1] الشيخ حسن حبنكة الميداني (١٣٢٦-١٣٩٨هـ): ولد بالميدان بدمشق لأسرة قدِمت من بادية حماة، ثم دخل الكتاب ودرس على الشيخ سليم اللبني، وكذلك تتلمذ على كبار علماء دمشق؛ كالشيخ عبد القادر شموط، والشيخ أمين سويد، والشيخ عبد القادر الإسكندراني، والشيخ سعيد التبليسي وغيرهم كثير، ولزم دروس الشيخ علي الدقر، فأوكل إليه الإشراف على بعض مدارس الجمعية الغراء بالإضافة إلى التدريس في مساجد كثيرة؛ كجامع منجك، وجامع باب المصلى، وجامع السنانية وجامع السادات، والتكية السليمانية وغيرها، بالإضافة إلى الخطابة التي بقي فيها أربعين عاماً، أسهم في تأسيس رابطة العلماء بدمشق، وانتُخِب عضواً للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة، توفي بدمشق ليلة الإثنين عام (١٣٩٨هـ)، وشُيِّع في جنازة مهيبة حيث صُلِّي عليه في الجامع الأموي، ثم دفن رحمه الله قرب جامع الحسن في الميدان، انظر: تاريخ علماء دمشق جـ٣ ص٣٩٧.

وبنتيجة التصويت فقد نال الشيخ أحمد ثمانية عشر صوتاً كريماً، فيما نال الشيخ حسن سبعة عشر صوتاً كريماً، وتعكس هذه النتيجة جوَّ التنافس الشريف الذي ساد جوَّ الانتخابات.

وبعد ذلك فقد أقبل علماء الشام كافةً على الشيخ أحمد يتعاونون معه في أداء الأمانة التي أُسندت إليه، والتعامل مع واقع البلاد الجديد التي كانت حينئذٍ تشهد تغييراً في كل شيء.

وكان من أنبل المواقف التي سجلت لعلماء الشام موقف العلَّامة الشيخ أحمد علي الدقر[1] عضو مجلس الإفتاء الأعلى الذي كان من أبرز المشاركين في هذا المجال، فقال: لقد كنَّا نرى رأياً، لكن لما اجتمعت الكلمة على الشيخ أحمد فإن آراءنا أصبحت مجرد ذكرى، وإن المصلحة الإسلامية فوق كل اعتبارٍ آخر[2]، والخِيرة فيما اختاره الله.

وأقبل على رأس المهنّئين سماحة العلَّامة الشيخ أبو اليسر عابدين[3]، الفقيه الطبيب، ومفتي الديار السورية من قبلُ، وتحدث في اللقاء بكلمةٍ طيبةٍ يُعبِّر فيها عن غبطته

---

[1] الشيخ أحمد الدقر (١٣٢٣-١٣٩٦هـ/ ١٩٠٥-١٩٧٦م) أحمد علي الدقر، عالم مشارك من رجال التربية والتعليم، بدأ تعليمه في مدرسة الشيخ عيد السفرجلاني، ثم نشأ في كنف أبيه، وأخذ عنه النحو والفقه والكلام وغير ذلك، وأخذ عن المحدِّث الأكبر الشيخ محمد بدر الدين الحسني علمَ البلاغة، وما زال يقرأ ويدرس حتى أصبح أستاذاً لكبار الطلبة مدة طويلة للنحو، ثم لما كثرت الطلبة ناب عن أبيه في تنظيم أمور المعهد (الغراء)، وكان هو مديره، وكان نائباً عن رئيس الجمعية الغراء، ثم صار رئيساً لها، وفي عام (١٩٥٩م) قام ولاة الأمور آنذاك بإغلاق المعهد، فأثر ذلك في نفسه وانصرف يُشرف على مزرعته، ثم أصابه فالج نحو ثلاث عشرة سنة حتى توفي بدمشق ودفن فيها، وكان بالجملة غيوراً على دينه وأمته، يأخذ بالشورى وله اعتداد برأيه.

[2] من كلام نجله فضيلة الشيخ منذر الدقر مدير التعليم الشرعي بوزارة الأوقاف.

[3] الشيخ أبو اليسر عابدين (١٣٠٧-١٤٠١هـ/ ١٨٨٩-١٩٨١م): محمد أبو اليسر بن محمد أبي الخير بن أحمد بن عبد الغني، وجده عمر عابدين فقيه الحنفية وصاحب حاشية ابن عابدين الشهيرة، عالم، أديب مجاهد، مفتي سورية الأسبق، أستاذ الشريعة واللغة في كلية الشريعة بالجامعة السورية، أخذ العلوم عن والده وعن الشيخ =

وسعادته بوصول الشيخ كفتارو إلى هذا الموقع وهو في حيويته وانطلاقه ونضارته، متمنياً أن يجد من هذا الموقع فرصاً أوسع وأشمل لتبليغ رسالة الله سبحانه وتعالى[1].

وكان رحمه الله دائم الصلة بالشيخ على الرغم من تقدُّم سِنِّه، وكان كثيراً ما يغشى دروس الشيخ في جامع يلبغا، فيبتهج بقدومه تلامذةُ الشيخ وإخوانُه، ومن موقعه الجديد كرئيسٍ لمجلس الإفتاء الأعلى ومُفتٍ عامٍّ للجمهورية العربية السورية –وهو أعلى منصبٍ دينيٍّ في البلاد– بدأ الشيخ يتحرك في أُطُرٍ أوسع، فقد كان اختيار علماء سورية له رئيساً لمجلس الإفتاء الأعلى ومفتياً عاماً بمنزلة إقرارٍ لنهجه الفكري الذي استقرَّ وتوضَّحَ في الخمسينيات ومطلع الستينيات من خلال محاضراته ومواقفه.

وفي أثناء ثلاثين عاماً قضاها في الإفتاء العام وُجِّهت إليه دعوات رسمية إلى أكثر عواصم العالم تقريباً، وقد لبَّى معظمها، وأمكنه أن يُعرِّف بالإسلام في الشرق والغرب وعلى أعلى المستويات، من خلال المؤتمرات والندوات والمحاضرات والأحاديث

= سليم سمارة، والشيخ أمين سويد، والشيخ الأكبر محمد بدر الدين الحسني وغيرهم، درس الطب وأتقنه، وكان يتقن اللغات: الفرنسية والتركية والفارسية وألمَّ بالإنجليزية بالإضافة إلى إتقانه العربية، كان يقوم بواجبات الإمامة والخطابة والتدريس في جامع الورد، بالإضافة إلى التدريس في مساجد كثيرة طوال عقود عدة، بالإضافة إلى مؤلفات عدة في العلوم الإسلامية، توفي عام (١٩٨١م)، ودفن في مقبرة الباب الصغير عليه رحمة الله، انظر: أعلام دمشق ص٣٠٥.

[1] يحلو لبعض السفهاء أن ينسبوا إلى الشيخ أبي اليسر عابدين –رحمه الله– موقفاً رافضاً من انتخابات الفتوى، ويُشيعوا بين الناس أنه قام برفع دعوى ضد الشيخ كفتارو بدعوى أنه سلبه هذا الموقع، وأنه ألقى خطبة احتجاج على منبر جامع الورد، وهؤلاء يسيئون أول ما يسيئون إلى ذلك الشيخ العارف الزاهد الشيخ أبي اليسر عابدين، وينكرون الواقع الذي تؤكده الصور والوثائق المرفقة، التي تثبت بما يقطع الشك حالَ الصفاء والمحبةَ الذي كان عليه الشيخ أبو اليسر عقب الانتخابات، وأما الدعوى التي رُفِعت في ذلك المعنى ونُهض بها محامٍ نصراني، وأحتفظ بصورتها الفوتوكوبية؛ فهي سعيٌ خاسر من عمل جهة حاسدة موتورة لا علاقة لها بالشيخ أبي اليسر لا من قريب ولا من بعيد.

التلفزيونية، وقد آتت هذه الرحلات آثارها وافيةً ضافيةً، وسوف تجد في البحث تفاصيل كثيرةً من هذه الزيارات ونتائجها.

والتفت الشيخ إلى الحركة الإسلامية التي أسسها في جامع أبي النور، وقد تعلقت بها آمال الإسلاميين في سورية كما ظهر في انتخابات الإفتاء، وقام يصبِّر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعَشِي يريدون وجهه لا تَعْدُو عيناه عنهم، تطفح نفسه بالآمال الكبيرة، يكرر كلمته التي حفظتها له الأيام: (المستقبل للإسلام).

ولم يتصرف الشيخ في الفتوى على أنه قائد حركةٍ من الحركات الإسلامية؛ بل تصرف على أساس أنه أخٌ للعاملين في الحقل الإسلامي كافةً، لا يَضِنُّ عليهم بنصيحةٍ ولا يَأْلُو جهداً في خدمة الراشدين منهم وتوجيه العاملين.

ويظهر لك ذلك من التعيينات التي قام بإقرارها في ملاك الفتوى العامة، فقد اجتهد أن يغني جهاز التدريس الديني في سورية بالكفاءات القادرة كلها أيّاً كان اتجاهها، ولذلك فأنت تجد في مُدرِّسي الفتوى: صوفيين وسلَفيين وشافعية وحنفية ومالكية وحنابلة؛ بل تجد فيهم مَن يشتد في النقد لمنهج الشيخ نفسه، ولكنه مع ذلك يسدُّ ثغراً من ثغور الإسلام، ومن الحكمة أن يُقَرَّ في موقعه ويُدعَمَ في موقفه.

وليس من الحكمة أن أشير هنا إلى أسماء بعينها، ولكن بوسع العارف أن يعود إلى تعيينات الفتوى خلال هذه الفترة ليتفهَّم ذلك بالأسماء والأرقام.

في أندونيسيا:

وكانت أُولى مشاركاته الخارجية بعد تولّيه الإفتاء العام زيارةَ أندونيسيا، وذلك للمشاركة في أعباء المجلس المركزي للمنظمة الإسلامية الأفريقية الآسيوية في باندونغ عام (١٩٦٥م)، وأندونيسيا أكبر بلدٍ إسلاميٍّ من حيث عددُ السكان؛ إذ يبلغ تعداد سكانها اليوم نحو ١٩٠ مليوناً، منهم: ١٧٠ مليون مسلم.

وعقب ذلك بعامين انعقد المجلس المركزي للمنظمة الإسلامية الأفروآسيوية في جاكرتا عام (١٩٦٧م)، وكان الشيخ كفتارو من ألمع المشاركين في المؤتمر، وقد ترك انطباعاً طيباً خلال لقاءاته ومشاركاته.

وفي مؤتمر جاكرتا وقعت حادثة طريفة جعلت أعضاء المؤتمر يوجّهون أبصارهم صوب الشيخ كفتارو لِمَا عُهِد فيه من حكمةٍ وتجربةٍ.

ذلك أن اللجنة التنفيذية للمؤتمر أُصيبت بإحراجٍ غير معتادٍ؛ إذ شاءت أن تفتتح الجلسة بقراءة الفاتحة لروح الشهداء، ولكن وجود عددٍ من المشاركين من غير المسلمين أربَكَ اللجنة ورأى بعض أعضاء اللجنة أنه ليس من اللياقة الدبلوماسية أن يُطلَبَ إلى النصارى المشاركين قراءة الفاتحة، فتحيرت فيما تختار من رأيٍ، وهنا قال أحد الوزراء المشاركين: إننا نحكِّم كفتارو مفتي سورية في هذه المسألة، أنقرأ الفاتحة أم نقف دقيقةَ صمت؟ وهنا بادهه الشيخ بالجواب: بل نقرأ الفاتحة وقوفاً، وضجَّت القاعة بالتصفيق لهذا التخلُّص الحكيم الذي أفرح المشاركين كافةً، وهكذا فقد قام المشاركون وقرؤوا الفاتحة وبدأ المؤتمر.

وخلال المؤتمر لم يكفَّ الشيخ كفتارو عن عقد اللقاءات والزيارات مع أعضاء الوفود والمؤسسات الفاعلة في أندونيسيا؛ إذ كان يعلم أنه في أكبر بلدٍ من حيث السُّكَّانُ في العالم الإسلامي، وهو مجمع هائل للطاقات العلمية والفكرية والروحية.

كذلك فقد رُتِّب لقاءٌ خاصٌّ للشيخ كفتارو مع السيد سوكارنو رئيس الجمهورية الأندونيسية، وفيه قدَّم الشيخ كفتارو عرضاً حياً عن الإسلام كما هو دعوة رقيٍّ ونهوضٍ ووحدةٍ.

واختار الشيخ أن يجعل كلمته في المؤتمر حديثاً عن دور القيادات الإسلامية في إحياء فقه الحياة في المجتمع الإسلامي؛ لينهض المجتمع من كَبْوَتِه التي قادته إلى الفوضى والضياع حتى تسلَّط عليه عدوَّه في كل وجهٍ.

فليس دور القيادات الإسلامية مقصوراً على التشجيع على العلم الشرعي وحده وبناء المساجد وتنظيم وفود الحج؛ بل إن لها دوراً كبيراً في بَعْثِ النشاط الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في كل جوانبه إذا هم أحسنوا فَهْمَ القرآن.

وفي كلمته تلك قرأ قول الله عز وجل: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة : ٢٠١]

وتعمد أن يقرأها خطأً بوضع كلمة (الآخرة) قبل كلمة (الدنيا) دون أن يقول: قال الله تعالى، فهبَّ المشاركون من هنا وهناك يُصَوِّبون نصَّ الآية الشريفة، فأعاد تلاوتها ولكن تعمَّد مرةً ثانيةً أن يقرأها خطأً، فقرأ كلمة (الآخرة) قبل كلمة (الدنيا)، وعاد الحاضرون من كل حَدْبٍ وصَوْبٍ يقولون: ﴿ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، فأعاد تلاوتها، وتعمَّد للمرة الثالثة أن يخطئ في تلاوتها، فثارت ثائرة الوفود يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ، فالتفت إليهم وعلى شفتَيه ابتسامة ذات مدلولٍ كبيرٍ وقال: أيها الإخوة

رؤساء وأعضاء وفود المؤتمر، أظن أنكم تعتقدون أنه لا يوجد مسلم يخطئ في تلاوة هذه الآية، ولكنني قرأتُها على هذا الشكل بلسان حال المسلمين الذين حذفوا الدنيا من حسابهم، إنكم لا ترضَون قطُّ أن نبدِّل لفظ كلمةٍ بكلمةٍ أُخرى تقديماً أو تأخيراً في القرآن الكريم –وذلك في حيّز الألفاظ– فكيف نرضى أن يتم هذا التحريف للقرآن الكريم في الأعمال، وفي نطاق الأفعال في مختلف ميادين الحياة؟! أين التقدُّم العلمي والتكنولوجي لدى المسلمين؟! أين الرقي والتطور الحضاري في بلاد المسلمين؟! أين العزة والرفعة التي اختصَّ الله بها نفسه والمسلمين؟! إنَّ واقع المسلمين إنْ دلَّ على شيءٍ فإنما يدلُّ على أنهم اتجهوا في الأعصُرِ الأخيرة إلى طلب الحالة الحسنة في الآخرة وترك الحالة الحسنة في الدنيا، وهذا تحويرٌ لمعاني القرآن الكريم أخطر بكثيرٍ جداً من تحوير الألفاظ والكلمات! ونحن علماء المسلمين نتحمَّل المسؤولية الكبرى في إعادة تصحيح الأفهام حسب منهج الله تبارك وتعالى.

وانفجر الحاضرون بتصفيقٍ حادٍّ طويلٍ يُعبِّر عن مدى ما حملت هذه النفوس من إعجابٍ كبيرٍ بهذا المفهوم الرائع لحقيقة الإسلام[1].

كما ركز الشيخ كفتارو في كلمته على المسألة الباكستانية، وقدَّم بالحجج والبراهين موقف الباكستان العادل تجاه العدوان الهندي، وحقَّ شعب جامو وكشمير في تقرير المصير، ودعا شعوب المنظمة الإسلامية الأفروآسيوية وحكوماتها إلى بذل كل جهدٍ ممكنٍ لنصرة القضية الباكستانية العادلة.

[1] الدعوة والدعاة، د. محمد حسن الحمصي جـ٢ ص٦٢٤.

وقد أسهمت كلمته في اتخاذ موقفٍ رسميٍّ من المؤتمر بصدد التأييد الكامل لشعب جامو وكشمير في صراعهم مع الهند من أجل تقرير المصير، مما أعطى القضية بُعداً إسلامياً متميزاً.

وفي زياراته اللاحقة لباكستان عرف رجال الفكر والكلمة أثر الشيخ في مؤتمر جاكرتا، وتوجَّه السيد محمد حسن قرشي رئيس مؤتمر العالم الإسلامي بالشكر والامتنان لسماحة مفتي سورية؛ لإيضاحه وجهة نظر باكستان في الصراع الهندي الباكستاني في مؤتمر جاكرتا[1].

وقد كان من أثر زيارته تلك أن أقامت له جامعة شريف هداية الله في أندونيسيا حفلاً تكريمياً خاصاً حضره عدد كبير من المسؤولين، فيهم: رئيس مجلس النواب، ورئيس منظمة مسلمي آسيا وأفريقيا، ووزير الشؤون الدينية، وعدد من سفراء الدول العربية والإسلامية، وأساتذة الجامعات، وعلماء أندونيسيا، مُنِح على إِثْرِه درجة الدكتوراه الفخرية في علم الدعوة الإسلامية.

وكانت جامعة شريف هداية الله من أكبر الجامعات في العالم الإسلامي حينذاك، وشريف هداية الله هو الداعية الإسلامي الأول الذي جاء بالإسلام إلى أندونيسيا[2].

ومما قاله رئيس الجامعة في حفل التكريم: (إننا نمنح شهادة الدكتوراه الفخرية في علوم الدعوة الإسلامية لسماحة الأستاذ **أحمد كفتارو** المفتي العام للجمهورية العربية

[1] نشرة السفارة الباكستانية بدمشق ١٩٦٦/٢/٩م راولبندي Pakistan Times.

[2] انظر: الدعاة والدعوة الإسلامية المنطلقة من مساجد دمشق، جـ٢ ص٦٣٣.

السورية؛ تقديراً منا لخدماته الجُلَّى في مجال الدعوة الإسلامية، سواء في داخل سورية أو خارجها، ولِمَا يقوم به سماحته من جليل الأعمال)[1].

وفي ختام المؤتمر ألقى وزير الدفاع الأندونيسي كلمته بصفته رئيس المؤتمر، توجه بالشكر فيها إلى الحاضرين كافةً، وأثنى على نتائج المؤتمر، وقال إن حكومته رأت أن تكرّم الوفود المشاركة بهديةٍ رمزيةٍ هي العلَم الأندونيسي للوفود كافةً، ولكنَّ ضيقَ الوقت يحول دون تسليمها إلى الوفود كلِّها، وهكذا فإنها ستُسلَّمُ لأكبر رؤساء الوفود على أن يتمَّ إرسال هدايا الوفود إلى المشاركين في غرفهم.

ولم يُفاجأ الحضور حينما دُعِيَ الشيخ كفتارو لتسلُّم العلَم الأندونيسي باسم الوفود كلها؛ إذ كان بالفعل أكثرهم حيويةً وانطلاقاً.

أما الشيخ كفتارو فقد أفاد من تلك المناسبة، وحين تُلِيَ اسمه ليتسلَّم العلَم الأندونيسي قام إلى المنصة وتناول بيمينه العلم الأندونيسي، ثم قال:

يُشرِّفني أن أستلم العلَم الأندونيسي نيابةً عن إخواني رؤساء الوفود الإسلامية، ولكنني حينما أحمل هذا العلم لا أشعر أني أحمل راية الإسلام؛ بل أحسُّ أني أحمل قطعةً ممزقةً من رايةٍ إسلاميةٍ كبيرةٍ مزقها المسلمون بتفرُّقهم وشَتَاتهم وضياعهم، وإنه لا مجدَ لهذه الأمَّة إلا إذا توحَّدت رموزُها تحت رايةٍ واحدةٍ، ثم راح يُعرِبُ عن تشوُّقه لذلك اليوم الذي تُرفرف فيه رايةٌ إسلاميةٌ واحدةٌ فوق هذا العالم الإسلامي الممزَّق كما رفرفت من قبلُ في أيام المجد الإسلامي.

[1] نشرة السفارة الأندونيسية بتاريخ (آب/ ١٩٦٧م)، وانظر: نص الدكتوراه الفخرية في قسم: شهادات عالمية آخر الكتاب.

وقد بعثَتْ هذه الكلمات مكامن الأشواق في القيادات الإسلامية المشاركة في ذلك المؤتمر، وخصوصاً في ذلك الشعب الأصفر القاصي في مطلع الشمس، وأضافت حبلاً متيناً من حبال الودِّ مع العالم الإسلامي المترامي الأطراف، واليوم فإن المئات من مسلمي أندونيسيا والفليبين وتايلاند قدِموا إلى دمشق؛ ليطلبوا العلم الشريف وليأخذوا أصول الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة من جامعة الشيخ كفتارو في جامع أبي النور.

في القدس:

القدس عاصمة فلسطين الأبدية، والمأوى الروحي للمؤمنين في الأرض، فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين، وما من نبيٍّ إلا وجَّه إليها قلبه ووجهه، وبها اختار الله سبحانه أن يخلق المعجزة الخالدة في ميلاد السيد المسيح.

وبقدر ما هي عليه من الشرف والمجد بقدر ما هي فيه من الصبر والمحنة، فقد لقيت في أثناء تاريخها الطويل من المحن والتجني والبلاء والأرزاء ما تَنُوء بحَمْلِه الجبال.

وبقدر ما هي طاهرة بقدر ما تسلَّطت عليها أيادٍ غيرُ طاهرة، وتنازعتها أطماع وأهواء، وتبقى القدس كما خلقها الله أرضَ الطهارة العذراء، وأرض المحبة والإخاء، يحجُّ إليها قلبُ كلِّ مُوحِّدٍ، وتُشَدُّ إليها رحال المؤمنين.

والقدس قضية حاضرة مؤرقة في خاطر كل مخلصٍ غيورٍ، وكذلك كانت في خاطر الشيخ كفتارو منذ أن عايش مأساة فلسطين في أول شبابه وهي تُنتَهَك وتُستَلَب، إلى أن سلَّمت عصبة الأمم بواقع التقسيم، إلى أن أصبحت فلسطين كلها مأساة حزنٍ وحائط مبكى، إلى أن وصلت قوافل أطفال الحجارة تقرع بوَّابة الأمل الواعد.

ومنذ مطلع نشاطه فإنه لم يُغْفِلْ ذِكْرَ فلسطين في محاضرةٍ أو ندوةٍ أو مؤتمرٍ، وكان دائم الصِّلة مع قادة الكفاح الفلسطيني من الرَّعيل الأول، أمثال: الحاج أمين الحسيني.

ومشكلة فلسطين برأيه ليست إلا نتيجة طبيعية لواقع العالم الإسلامي المنهار، وواقع التخلي والتسيُّب الذي تجده في سلوك الزعامات العربية والإسلامية، وهكذا فإن عودة الأرض مرهونةٌ بالعودة إلى الإسلام والالتزام بأحكامه.

وفي عام (١٩٦٦م) تنادى المسلمون إلى عقد مؤتمرٍ حاشدٍ في المسجد الأقصى في ذكرى الإسراء والمعراج، وكانت الفرقة والتناحر بين العرب قد بلغت الغاية، وأدرك العقلاء حينئذٍ أن القدس مقبلةٌ على أيامٍ سُودٍ، وعلى وَجَلٍ من ذلك وإشفاقٍ ركب الشيخ كفتارو سيارته ومضى إلى القدس ليلقي كلمته نذيراً ناصحاً رائداً لا يكذِبُ أهله؛ إذ حمَّل حكَّام العرب مباشرةً مسؤولية ما سيجري على الأرض المقدسة، ومن كلمته التي ألقاها من منبر المسجد الأقصى:

(يا ملوك العرب، يا رؤساء العرب: إن في أعناقكم ضياعَ فلسطين، وإن التاريخ سيسجل عليكم ذلك، كما أن ملككم ورئاستكم لا تدوم، وإن أعمالكم لَمُسجَّلةٌ عليكم عند الله، وقريباً ستنزلون عن عروشكم إلى نُعُوشكم، وعن قصوركم إلى قبوركم، وستقفون مكتوفي الأيدي بين يدَي جبَّار السموات والأرض، وسيسألكم الله عن ضياع المسجد الأقصى، وعن ضعف الإسلام، وعن إهمال العمل بتشريع الإسلام.

يا رؤساء العرب وملوكهم: إن سبعمئة مليون مسلمٍ ينظرون إليكم نظرة الجندي والجيش إلى قائده، إن شعوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لَيَتَطلعون إليكم لتقودوهم بالإسلام، الإسلام الذي جعل لكم بفضله عشرات الشعوب ومئات الملايين من الشعوب الإسلامية إخوة وأشقاء يبكون على ضياع فلسطين بالدماء والدموع ويفدونها بالمهَج والأرواح.

فيا رؤساء العرب، يا ملوك العرب: اذكروا أن الحياة فانية والملك مؤقت، واقتدوا بآبائكم وأجدادكم أبي بكر وعمر.

أيها العرب: عندما نعتز ونفخر، وعندما نرفع الرأس عالياً، فبمَن نعتز وبمَن نفخر؟

إننا نقول: (فمنَّا الوليدُ ومنَّا الرَّشيدُ)، فهل تدرون ماذا كان تشريع الوليد وماذا كان دستور الرشيد؟ وبماذا كانوا يحكمون؟ وبأي تشريعٍ كانوا يحكمون؟ لقد كانوا يحكمون بالقرآن ويعتزون بالإسلام، فلمَّا أعزوا دين الله أعزهم الله، ولما نصروا الإسلام نصرهم الله)[1]، اهـ.

وقد نُقِلَت كلمته هذه عبر أكثر الإذاعات العربية، وألهبت مشاعر المسلمين، ووضعت مسؤولية مستقبل فلسطين على أعناق حُكَّام العرب وملوكهم مباشرة، وقد كان ذلك مناسبةً مهمةً للحديث عن العودة إلى الإسلام في أكثر من عاصمةٍ عربيةٍ.

ولم تمضِ إلا شهورٌ قليلة حتى جاء العدوان الإسرائيلي في حزيران (١٩٦٧م)، ووقع المحذور، وسقطت مدينة السلام (القدس)، وعاد الشيخ يُذكِّر بما حذَّر منه من قبل، واشتد في مهاجمته لسعي بعض دعاة القومية في تهميش دور الإسلام واعتباره قد استنفذ أغراضه وولَّت أيامه، وكانوا بذلك يسيئون إلى القومية وإلى الإسلام جميعاً، وقد قام الشيخ بدورٍ كبيرٍ في مكافحة هذا التيار، وقد لقي جرَّاء ذلك عناءً كبيراً وأذىً بالغاً يحتسب في الباقيات الصالحات.

[1] انظر: المرشد المجدد ص١٩٢.

في الباكستان:

الباكستان: كلمة أوردية معناها: الأرض الطاهرة، وهي على كل حالٍ إلهامٌ أُلهِمَه إقبال في غمرة كفاحه مع الزعيم محمد علي جناح في تأسيس تلك الجمهورية الإسلامية.

وقد كان مخاض الباكستان عسيراً ومرهِقاً، ودفع المسلمون ثمنها أنهاراً من الدماء الزكية والأرواح الطاهرة التي سحقها الحقد الهندوسي الأعمى، حتى أمكن لأمةٍ يزيد عدد سكانها عن مئة مليون إنسانٍ –وهي تتَّحد بروابط الدين والتاريخ والإرادة المشتركة– أن تملك قرارها بنفسها.

وباكستان أمل إسلاميٌّ كبير بعثَ أشواق العالم الإسلامي إلى إحياء أمجاده وآماله، وأوجد إرهاصاً بعودة المارد الإسلامي الآتي.

وكان سعي الغرب الدؤوب للحيلولة دون قيام باكستان يقوم على أساس وحدة القارة الهندية، وهو اعتبار جغرافيٌّ بَحْتٌ يحفظ مصالح الغرب، ويشتِّتُ آمال المسلمين في قيام دولةٍ إسلاميةٍ قويةٍ.

وقد تهدَّم ذلك السعي كله بشعارٍ أطلقه محمد علي جناح حينما قال في عصبة الأمم: إنهم يعبدون البقرة، نحن نأكلها! فكيف يلمُّنا علَمٌ واحد؟! هيهات!

وهكذا فإن نظرة الشيخ إلى باكستان لم تكن إلا صدىً لآمال المسلمين الذين ارتقبوا من دولة المئة مليون مسلمٍ أن تقلب كل موازين القوى في العالم.

وفي عام (١٩٦٧م) حضر الشيخ كفتارو المؤتمر الإسلامي الذي عُقِد في كراتشي بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم، وفي المؤتمر كوَّن صورةً دقيقةً للمجتمع الباكستاني قيادةً وشعباً وعلماء وعامة.

ولم تكن مشاركته في المؤتمر محضَ تشريفٍ يتنعم به؛ بل كان رجل رسالةٍ يناضل لها، وقد نُظِر إليه على المستوى الرسمي بصفته مجدِّداً إسلامياً بارزاً صاحب رسالةٍ حيَّةٍ متوثِّبةٍ.

وكانت الباكستان الإسلامية لدى قيامها قد لقيت مِحَناً عظيمةً؛ إذ انبعث الحقد الهندوسي مستخدماً الوسائل كلَّها للحيلولة دون قيام هذه الدولة، تؤيِّده في ذلك قوى الاستكبار العالمي المعادية للإسلام.

ومع أن ساسة الدول الكبرى عجَزوا عن منع قيام باكستان، ولكنهم تمكنوا من سلخ إقليم جامو وكشمير، وهما إقليمان كبيران تسكنهما أغلبيةٌ مسلمةٌ، هكذا فقد فُرِضَ على الشعب الباكستاني جهادٌ مريرٌ من أجل تحرير هذا الجزء العزيز من الوطن الإسلامي الكبير.

وكان الشيخ كفتارو واحداً من المسلمين الذين تعلَّقت أبصارهم وقلوبهم بباكستان، ورأوا فيها أملاً واعداً، فخرج بنفسه لزيارة باكستان لدى قيامها عام (١٩٥١م)، والتقى عدداً من القيادات الإسلامية هناك، ورسَّخ صلاتٍ طيبةً مع علماء باكستان تواصلت في أثناء مواسم الحج؛ إذ يحرص كل حاجٍّ باكستانيٍّ أن يزور الشام الشريف لدى زيارة الحرمَين الشريفَين.

وحين قامت محنة كشمير نهض الشيخ كفتارو بكل ما أوتي من طاقةٍ وقوةٍ ليُساهم في حَشْدِ الرأي العام العربي والإسلامي لصالح باكستان في جامو وكشمير، ولأجل ذلك عقد الندوات والمحاضرات الحاشدة في مساجد دمشق، وقد التفَّ حول الشيخ كبار رجال العِلْم في الشام؛ إذ أخذ يطُوف بهم السفارات الغربية في دمشق، ويشرح لهؤلاء السفراء حقيقة الوحدة الإسلامية، وما يمكن أن يطالَ بلادهم من غضب

المسلمين في العالم إن لم يقفوا موقفاً عادلاًمن قضية باكستان، وكان يلتقي بالسفراء الغربيين في دمشق، وكذلك فقد أصدر النداءات المتكررة باسم الشعب العربي في سورية إلى هيئة الأمم والمنظمات العربية والعالمية، ولا شكَّ أن هذه الجهود آتَتْ أُكُلَها وكشفت عن عمقٍ حقيقيٍّ لهموم العالم الإسلامي في الأقطار كلها، وعلى إثْرِ هذا النشاط الكبير وجه مؤتمر العالم الإسلامي خطاباً إلى الشيخ كفتارو يشكره على جهوده، ويدعوه لترؤُّس وفدٍ خاصٍّ من كبار الشخصيات السياسية والدينية؛ ليقوم بشرح القضية الباكستانية العادلة في العواصم المؤثرة على القرار الهندي.

وبالفعل فقد قام الشيخ كفتارو بزيارة عددٍ من العواصم في الشرق الأوسط والأقصى على رأس وفدٍ دينيٍّ وسياسيٍّ وشرح قضية باكستان العادلة، وتمكَّن من إقناع كثيرٍ من المسؤولين في تلك العواصم بضرورة اتخاذ المواقف السياسية الجريئة في تأييد القضية الباكستانية.

وفي أعقاب هذه الجولات وُجِّهت للشيخ كفتارو دعوة خاصة في شباط عام (١٩٦٦م) لزيارة باكستان ولقاء الرئيس الباكستاني المشير أيوب خان، وقد استُقْبِل هناك استقبالاً حافلاً من قبل العلماء والرسميين في مكتب العلاقات الخارجية والسكرتير العام لمؤتمر العالم الإسلامي.

وقد أُقيمت للشيخ حفلات تكريمٍ عدَّة حضرها رجال الفكر والعلم في باكستان، وفي لاهور أقام مؤتمر العالم الإسلامي حفل استقبالٍ كبيرٍ على شرف الشيخ حضره عدد من الوزراء والأعيان وكبار العلماء، وكانت الغاية الرئيسة هي توجيه الشكر للشيخ لِمَا وُفِّقَ إليه من حَشْدِ الرأي العام الإسلامي لتفهُّم القضية الباكستانية العادلة في جامو وكشمير، وقال السيد محمد حسن قرشي رئيس المؤتمر:

(إنه لأمرٌ عظيمٌ أن يقوم رجال الدعوة الإسلامية الذين يمتلكون سمعةً عالميةً طيبةً بتوظيف جهودهم لخدمة القضايا الإسلامية متجاوزين الحدود الإقليمية).

وفي ختام زيارته ولقاءاته أُعِدَّ له لقاءٌ خاصٌّ مع الرئيس الباكستاني أيوب خان، وكان في الحقيقة لقاءً تاريخياً، ومن رواية الشيخ لهذا اللقاء أختار لك هذا الحوار:

قال أيوب خان: يا شيخ أحمد، كيف وجدتَ الباكستان بعد أن نالت شرف الاستقلال؟

قال الشيخ أحمد: في الحقيقة يا سيادة الرئيس، لم أجد ما كنتُ أتوقَّعه!

قال أيوب خان مستغرباً: وكيف؟ ألم تجد المساجد مَلْأَى؟! وقوافل الحجاج تُمْنَح كل التسهيلات؟ وتلاوة القرآن في كل مكانٍ؟!

قال الشيخ أحمد: أنا لا أختلف معك في هذا، إنه شيء طيب، لقد زرتُ باكستان منذ خمس عشرة سنة ورأيت مساجدها مزدحمةً، وشعبها الطيب مفطور على الهدى، ولكن الذي كنت أتمناه أن أرى أمام كل مئذنة مسجدٍ مدخنة مصنع! أريد أن أرى الإسلام القوي الذي لا يستَجْدِي حضارته وقوته استجداءً، أريد أن أرى خيرات الأرض المسلمة بأيدي المسلمين لا يجور على قرارهم أحد، أليس هذا فقه قول الله عز وجل: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٠١] ؟!

وكان كلاماً مدهشاً لأيوب خان لم يملك بعده إلا أن قال: إنني أسمع الإسلام بهذا الشكل الصحيح لأول مرةٍ في حياتي، وإنه لَيُسعدني أن تقوم بنقل هذا الفهم الحي للإسلام إلى علماء بلادي وقياداتها الدينية.

وعاد الشيخ كفتارو إلى الشام ليواصل نشاطه في خدمة القضايا الإسلامية، وعلى رأسها القضية الفلسطينية والباكستانية، ويمكنك الاطلاع على كلمته العنيفة التي خاطب بها حُكَّام المسلمين مُنذِراً بسقوط القدس[1]، وذلك قبل احتلالها بشهور، وقد أوردنا طرفاً منها قبل صفحات، وفي العام التالي (١٩٦٧م) وجه الرئيس الباكستاني المشير أيوب خان دعوةً خاصةً للشيخ كفتارو لزيارة الباكستان، وذلك بغرض مواصلة ما بدأه معه من حوارٍ في العام الماضي.

وعقب جلسةٍ مطوَّلةٍ مع الرئيس أيوب خان في قصر الرئاسة في راولبندي أمرَ الرئيس الباكستاني بمنح الشيخ كفتارو وسام نجمة باكستان العظمى، وقد جاء نصُّ المرسوم الرئاسي كما تلقَّتْه الخارجية السورية بتاريخ ١٩٦٧/٧/٢٧م:

(من المشير محمد أيوب خان رئيس جمهورية الباكستان إلى سماحة الشيخ أحمد كفتارو المفتي العام للجمهورية العربية السورية، تحيةً وبعدُ:

ليعلم الجميع بأننا نولي ثقتنا الخاصة في إخلاصكم وشخصكم، ورغبةً منا في تقدير خدماتكم لباكستان فإننا نقلِّد سماحة الشيخ أحمد كفتارو لقب ومرتبة حامل وسام (ستارة باكستان) مع كل ما يتبعها من الحقوق والمكانة.

وآمر بأنه وفقاً للمراسم التي تخصُّ هذا الوسام فإنني أقلِّدكم هذه الميدالية لتحتلُّوا المرتبة والمكانة التي يُخَوِّلكم إياها هذا الوسام).

ولم يتخلَّ الشيخ كفتارو عن القضية الباكستانية في الأعوام اللاحقة على الرغم من أن الحكومات في سورية اتخذَتْ موقفاً محايداً من الأزمة الهندية الباكستانية؛ نظراً لتأييد الهند الدائم للعرب في قضية فلسطين، وقد مضى بنفسه إلى الهند في أواخر الثمانينيات؛

[1] انظر: المرشد المجدد للشيخ بشير الباني، ص١٩٢.

إذ أسهم في مؤتمر المصالحة بين الجماعات الإسلامية في الهند، والتقى معظم قادة الحركات الإسلامية هناك، وكان يؤكد وجوبَ الحفاظ على الوجود الإسلامي في الهند، فالهجرة المستمرة إلى الباكستان تجعل المسلمين في الهند في وضعٍ محرجٍ؛ إذ يزيد عددهم على مئة مليون مسلم، ولكن يُنظَر إليهم من قِبَلِ الهندوس على أساس أنهم مُفرَّغون من الحسِّ الوطني لأرض الهند، وهي نظرة خاطئة يجب أن تقوم القيادات الإسلامية في الهند بإسقاط مبرراتها من خلال إيجاد انتماءٍ وطنيٍّ بحكم الجذور التاريخية للهند، وفي المقابل فقد وجَّه نداءاتٍ عدَّة إلى السلطات الهندية لكبح جماح المتطرفين الهندوس الذين يشعلون أسباب العداء والكراهية مع غير الهندوسيين، وخلال لقائه بالدكتور بال رام جهاكار رئيس البرلمان الهندي في دمشق في عام (١٩٨٩م) أكَّد الشيخ كفتارو هذه الحقيقة، وطلب إلى المسؤولين الهنود بذل الجهود المضاعفة من أجل محاربة العنصرية على أساس اللون أو العقيدة أو العِرْق[١].

وهكذا فقد أدَّى رسالته في خدمة القضية الباكستانية مع وعيٍ واضحٍ بالقضية الإسلامية في الهند، فلم ينسَ أن يؤكد أيضاً على الحقوق الإسلامية في الهند، ووجوب التعايش في تلك القارة العجيبة.

ولم تنقطع صلة الشيخ بباكستان، وقد عرف الشعب الباكستاني له الحب والوفاء، وأصبح لا يمر بالشام حتى اليوم زائر باكستاني إلا ويقصد الشيخ كفتارو؛ بل إن السفير الباكستاني في الستينيات السيد وقاف حمداني كان من أشدِّ المريدين التزاماً بالشيخ،

[١] انظر: صحيفة دنيا العرب عدد (٥٢) تاريخ ١٩٨٩/٣/٢٠م وقد حضر اللقاء أعضاء البرلمان الهندي، السادة: خورشيد أحمد شادري، هارون إسلام، ساتيا بركاش ماليفيا، هارون محثا، ميرملاكوماري.

وقد أخذ عنه الطريقة النقشبندية وتحقق فيها، كذلك فقد قدَّمت جامعة عمر الفاروق بكراتشي درجة الدكتوراه الفخرية للشيخ مع وسام العدالة عام (١٩٨٥م)[١].

[١] انظر: الملاحق، صور الشهادة ووسام العدالة.

في الولايات المتحدة:

وفي عام (١٩٦٦م) وُجِّهت إلى الشيخ أحمد دعوة خاصة من رابطة جامعات البحيرات الكبرى لزيارة الولايات المتحدة وإلقاء المحاضرات في جامعاتها، وذلك ضمن برنامجٍ متينٍ يطوف به على أربع عشرة جامعة في الولايات المتحدة.

وبالفعل فقد استجاب للدعوة بعد أن أدخل بعض التعديلات في برنامجها، بحيث شملت زياراتٍ مكثفةً للمراكز الإسلامية في الولايات المتحدة.

وفي أثناء شهرين اثنين أمضاهما متنقلاً بين الولايات الأمريكية، إنديانا وميشغان وأوهايو، ومن خلال أربع وأربعين محاضرة في مواقع مختلفة أمكَنَه أن ينقل صورةً مختلفةً عن الإسلام إلى الذهنية الغربية التي كانت قد تشبعت بافتراءات المستشرقين على الإسلام ورجاله[١].

وكانت قضية فلسطين همّاً حاضراً في كل محاضراته؛ إذ يشرح معاناة الإخوة الفلسطينيين، ويفضح ما يقوم به الصهاينة من استغلال المشاعر الدينية والافتراء على الأنبياء من أجل إقامة الكيان المزعوم.

وقد أثار ذلك اللوبي الصهيوني في أمريكا؛ إذ كانت الجامعات الأمريكية حينذاك بوقاً لذلك اللوبي، حيث يسيطر على إعلامها ومقوماتها، فكان وجود صوتٍ إسلاميٍّ عربيٍّ واضحٍ اختراقاً غير مألوفٍ لتلك المعاقل، وهكذا فقد تحرك اللوبي الصهيوني من خلال مجلس الحاخامات وسلَّم احتجاجاً رسمياً لحكومة الولايات المتحدة على منحها

[١] سنعرض في دراستنا هذه جانباً من هذه المحاضرات.

تأشيرة الدخول للشيخ كفتارو، حيث سخَّر المنابر التي وُضِعَت تحت تصرفه لخدمة القضية العربية ومهاجمة إسرائيل، وهو خلاف ما كانت تنتهجه السياسة الأمريكية.

وقد كتب منصور السقا الذي كان مراقباً مكلفاً من قبل وزارة الخارجية الأمريكية تقريراً خاصاً حول الزيارة جاء فيه: (إني أستطيع أن أؤكد بأن من بين جميع القادة العرب الذين رافقهم في زياراتهم للولايات المتحدة بأن المفتي العام السوري كان أكثر الزوار قدرة وثقة وواقعية، إنه حكيم ومستقيم ومخلص لمبادئه، وأما اعتراض مجلس الحاخامات على الزيارة فله دوافع مفهومة)[١].

ونشرت صحيفة أنباء الشرق العربي تقريراً ذكرت فيه أن الشيخ كفتارو تمكن من تقديم حجج المواقف العربية بشكلٍ واضحٍ، حتى كان المستمعون يبكون من شدة التأثر وقوة الحجج الدامغة[٢].

وكذلك فقد التقى عدداً من أعضاء الكونغرس الأمريكي ورجال السياسة، وتحدث عن حق الشعب الفلسطيني الذي تتواطؤ القوى الكبرى على سحقه وتجاهله[٣].

وخلال ذلك فإن دعوته القديمة في الحديث عن الحوار بين الأديان السماوية[٤] قد لقيت تجاوباً كبيراً في المجتمع الغربي عموماً، وأسهمت في ردِّ افتراءات المستشرقين على

---

[١] تقرير مطبوع للسيد منصور السقا محفوظ لدي.

[٢] أنباء الشرق العربي بتاريخ ١٩٦٦/٦/١٩م.

[٣] نشرة الأنباء الداخلية الصادرة عن وزارة الإعلام السورية رقم (١٥١) تاريخ ١٩٦٦/٦/٢٠م.

[٤] تعبير وحدة الأديان يمكن أن يرد به معنيان اثنان:

الأول: ما أخبر به القرآن الكريم من وحدة مصدر الشرائع والديانات، وهذا يعني أن الأديان في أصولها واحدة، وأن الإسلام هو مجمع الأديان السماوية وخاتمها، يجد فيه أهل الكتاب دينهم الحق وإيمانهم العميق برسالتي سيدنا موسى وعيسى عليهما السلام، ومقتضى ذلك أن يعود أبناء الأديان جميعاً إلى الأصل الأول لهذه الديانات، وهو توحيد الله سبحانه وتعالى، ونشر الخير والحب والفضائل، ولا شك أن هذا المعنى مقصد رئيس من مقاصد الشريعة.

الإسلام التي تتلخَّص في اتهامه بالعداونية تجاه غير المسلمين، وكبت التفكير الحر والمناقشة الفكرية.

أما المعنى **الثاني**: وهو ما يفهمه البعض من هذا التعبير، وهو صناعة دين جديد يحتوي الأديان الأولى ويجمعها، فهو بلا ريب عبث تتنزه عنه مدارك العقلاء، ولا شك أن توحيد الأديان الحق قام به النبي ﷺ حينما جمع له الله سبحانه وتعالى هداية الأنبياء من قبله في شريعة الحق الإسلام.

مع أُمَّة الإسلام:

وإلى جانب البرنامج الرسمي الذي أعدَّ له في الجامعات الأمريكية للتعريف بالإسلام فقد كان حريصاً غاية الحرص أن يتفهَّم واقع الجالية الإسلامية في أمريكا، فقد بدأ الوجود الإسلامي في أمريكا متأخراً نسبياً، حيث وصل إلى أمريكا الأوربيون في أواخر القرن الخامس عشر، ثم توالى على تلك الأرض مهاجرون من أنحاء مختلفة من العالم، فبعد المسيحيين وصل اليهود ثم البوذيون ثم الكونفوشيوسيون ثم الهندوس، وبدأ هؤلاء باستعمار الأرض الجديدة.

ولكن قادة الاستعمار الجديد لم يقفوا موقفاً أخلاقياً ملائماً يتناسب مع نِعَم الله الوافرة التي مُنِحُوها، فراحوا يتسلَّطون على خَلْقِ الله من سكَّان البلاد الأصليين (الهنود الحمر)، ومن سكان أفريقيا المعذبين الذين ابتُلُوا بتجَّار الرقيق، وخلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ارتكبت أفظع المخازي في تاريخ البشرية، وهي حملات القرصنة البشرية التي كان يشنُّها الأوربيون لاصطياد الرقيق من القرى الأفريقية.

وكلمة (اصطياد) تعبير دقيق عمَّا كان يجري، فقد كانت هناك حِرابٌ وسهامٌ ومطارداتٌ وشِبَاك وسلاسل تُستَخدَم في هذه الجرائم البشعة، تماماً كما يستخدم ذلك في مطاردة أي غزالٍ أو طريدةٍ برّيَّةٍ، حيث يزجُّونهم بعد ذلك في سفن الشقاء، فيُحملون إلى عالم القهر والعذاب، وقد كان هؤلاء الأشرار يحسبون أنهم إذا استعبدوا هذه القطعان البشرية البريئة يخلصون من إثمهم هذا إذا قاموا بتعميدهم بالزيت، ومنحهم الحق في السماع إلى الكتاب المقدس من المرتّلين الخاشعين!

وهكذا فقد وجد هؤلاء المساكين أنفسهم في أمريكا بغير جذور، ولم تقنعهم ألحان التراتيل أنهم سِيقوا لأغراضٍ شريفةٍ، وهلكت منهم أجيال بعد أجيالٍ في العذاب والحرمان والجهل، يشتاقون إلى الحرية والجذور ولا يجدون إلى ذلك سبيلاً.

وحينما هبَّت نسائم الحرية في أعقاب حرب التحرير، وقال الشرفاء كلمتهم، وسمع الناس أبراهام لنكلولن وتوماس جيفرسون؛ نهض (السود) الذين عمرت أمريكا على أكتافهم يكسرون الأغلال التي تُطوِّقهم، ويدعون المستكبرين إلى ساعة الحساب، ويومُ المظلوم على الظالم أشدُّ من يوم الظالم على المظلوم!

وكانت أبرز مظاهر تلك الحركات حركة الزعيم الأمريكي الأسود (أليجا محمد).

ولد أليجا محمد في مطلع القرن العشرين في شيكاغو، وعمل عدة أعمالٍ حرَّةٍ، وعانى من العنصرية الظالمة التي كان يفرضها المجتمع الأمريكي على السود، مما أثار لديه كراهيةً شديدةً للرجل الأبيض عموماً، وتأسَّست عنده نزعة ثوريَّة غاضبة، وحينما تَنَسَّمَ عبير المساواة في الإسلام وَثَبَ على قدميه، وأذَّن في مسامع الأمريكيين السود بالجذور الإسلامية الأفريقية لهذا الشعب المكافح، ودعاهم إلى ثورةٍ على الرجل الأبيض الذي أصبح يسمى باسم (الشيطان)، واختار أليجا محمد لأصحابه اسم: (أمة الإسلام)، وقد تجاوز عددهم المليون خلال عشر سنوات، مما يعكس لك عُمْقَ المظالم التي كانوا يعانون منها في المجتمع الأمريكي.

وحين وصل الشيخ كفتارو إلى الولايات المتحدة كانت حركة أليجا محمد في ذروة قوتها ونشاطها، فقد كانت بعض القوانين العنصرية لا تزال سائدةً في أمريكا كشاهدٍ حيٍّ على المظالم التي ارتكبها البيض بحقِّ هذه الشعوب المغلوبة، وكان يتحرك في نفوس

السود عموماً ذلك الغليان الهائج بوجوب الثأر للآباء والأجداد الذين لقُوا في أمريكا أبشع العَنَتِ والاضطهاد.

وهكذا فقد توجهت هذه الحركة توجهاً انتقامياً هائجاً تغلَّب على صوت العقل والحكمة والاعتدال الذي كانت تقتضيه الأحكام الإسلامية، إضافةً إلى ضحالة المعارف الإسلامية عموماً.

ومع هذا النجاح المتعاظم الذي لقيه أليجا محمد في جمع الأمريكيين السود تحت راية الإسلام التحررية فإنه لم يقمْ بحركةٍ تثقيفيةٍ موائمةٍ للعودة إلى المنابع الإسلامية الصافية، وهكذا ظلَّ النجاح التنظيمي مُنفصِلاً عن النشاط المعرفي، مما أدى بالحركة إلى انحرافٍ واضحٍ عن تعاليم الإسلام السَّمْحَةِ، وقد تطورت هذه الانحرافات إلى درجة تغيير كثيرٍ من الأحكام الشرعية في جوهرها، فأصبحت الصلاة مرتين فقط في اليوم، وأُهمِلَ الحديث عن الحج، وابتُدِعَ نظام جديد للزكاة؛ بل وصل الأمر إلى حدِّ ادعاء (أليجا محمد) النبوة.

وهكذا فقد قام الشيخ كفتارو بتحليل تاريخ الحركة وواقعها، وطلب إلى مضيفيه أن يرتبوا له لقاءً خاصاً بأليجا محمد في شيكاغو، وقد استغرب المضيفون هذا الطلب على أساس أن أليجا محمد ما هو إلا مارقٌ منحرفٌ، وهو في خصامٍ دائمٍ مع الجاليات الإسلامية الملتزمة التي لا توافقه موقفه العنصري ضدَّ البيض، ولكن هذه الأسباب بعينها هي التي دفعت الشيخ إلى الإصرار على هذه المقابلة شعوراً منه بضرورة البلاغ والذكرى لتصويب ما كان يراه.

وبالفعل قام الشيخ كفتارو بزيارة أليجا محمد في شيكاغو، واستغرق اللقاء نحو ثلاث ساعات متواصلة، وتخلَّله غداء، وقد حدثني -حفظه الله- أن أليجا سُرَّ سروراً

عظيماً بلقائه، وكان الشيخ يخبره بما يتحدَّث عنه الناس، فكان يُنكِر بعضَه ويُقِرُّ ببعضِه، فكان الشيخ يُصَوِّبُ له ما انحرف فيه، ويَشُدُّ أَزْرَه فيما أصاب فيه، وبالرغم مما تقبل منه من أفكار فقد بقي أليجا محمد بعيداً عن الالتزام الكامل بالعقيدة والشريعة في الإسلام، ورأى الشيخ أن ضمانة تصويب فكر هذه الحركة التي هي بلا ريبٍ كبرى الحركات الإسلامية في أمريكا يمكن أن يتمَّ من خلال رعاية أحد أبناء أليجا محمد لخلافة أبيه، وهكذا فقد اقترح الشيخ على أليجا محمد أن يتخيَّر أحد أبنائه للدراسة في دمشق، ووجه ذلك إليه على شكل دعوةٍ رسميةٍ لولده (أكبر محمد)، وبالفعل فقد وفد أكبر محمد إلى الشرق الأوسط في شهر ١٩٦٦/١١م، وانتظم في جامعة الأزهر، وكان على صلةٍ بالشيخ خلال تلك الفترة حتى تخرَّج في الأزهر، وحينما درس علوم الشريعة من منابعها الأصلية هاله ما ذهب إليه أبوه وأصحاب أبيه من انحرافٍ خطيرٍ عن الشريعة الإسلامية، ومن فوره عاد إلى أمريكا ليقود حركةَ تصحيحٍ ثورية في حركة أبيه، ولكن لم تمضِ إلا شهور قليلة حتى غضب أليجا محمد من منهج ولده وحكم بحرمانه وطرده من الحركة.

وعلم الشيخ كفتارو بما كان من الأمر، فكتب إلى الفتى يُخَطِّئه في طريقته الثورية، ويدعوه بدلاً من ذلك إلى استعمال الحكمة والموعظة الحسنة، وأدرك (أكبر محمد) أنه تسرَّع في الإصلاح، وعاد رويداً إلى حركة أبيه حتى تبوَّأ مقعده الذي أعدَّ له من قبلُ، وبالفعل فقد أدخل كثيرًا من الإصلاحات في الحركة، وتولَّى بعد أبيه قيادة بعض كوادر الحركة، وعاد بهم إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة، وهو اليوم يؤدِّي دوراً واضحاً في الحركة الإسلامية في أمريكا[1].

[1] انقسمت حركة (أمة الإسلام) بعد موت أليجا محمد إلى ثلاثة أقسام: الفرخانيون والبلاليون وأمة الإسلام، **الفرخانيون**: أتباع لويس فرخان، وهو استمرار لأفكار أليجا محمد، ما زال أتباعه يعتقدون بنبوة أليجا محمد وأنه

وخلال نشاطه الطويل لم يكفَّ عن الاهتمام بحركة (أمة الإسلام) وهموم المسلمين الأمريكيين من أصلٍ أفريقيٍّ، فبدأ يوجه إليهم المِنَحَ الدراسية، ويكرمهم في دمشق مهاجرين طيبين.

وفي مطلع عام (١٩٩٦م) وصل إلى دمشق الزعيم الأمريكي الأسود لويس فرقان بدعوةٍ من الشيخ كفتارو[١]، وألقى كلمةً ملتهبةً في جامع أبي النور تحدَّث فيها عن معاناة المسلمين في أمريكا، وشكر للشيخ أحمد اهتمامه الكبير بمسلِمِي أمريكا مشيداً بالآثار التي تركها في الجماعة في زيارته لأمريكا عام (١٩٦٦م) في الدعوة إلى الله ملهماً حكيماً لنشاط المسلمين في أمريكا.

وهكذا فقد كانت زيارته الأولى لأمريكا عام (١٩٦٦م) نقطة انطلاقٍ في حياته نحو هذا العالم البعيد الواعد وراء البحار.

المسيح الموعود، ويطغى الجانب السياسي العملي في نشاطهم على الجوانب الاعتقادية، وهم يطالبون الحكومة الأمريكية بانتهاج سياسة مؤيدة للعرب، وأن تكفَّ عن تأييد إسرائيل، وقد قاد لويس فرخان ثورة المليون أسود في أواخر عام (١٩٩٥م)، وقد أسهمت هذه المظاهرة في إثارة الحديث عن الوجود الإسلامي في أمريكا وهمومه، ونأمل أن يتجه الفرخانيون اتجاهاً تصحيحياً في حركتهم ونشاطهم، **البلاليون**: وهم طائفة أخرى صححت كثيراً من مفاهيم أليجا محمد، ولكنها لا تزال ترفض العنصر الأبيض عموماً على أساس أنه الشيطان نفسه، وهم يعظمون الأنبياء، ويرسمونهم جميعاً على أساس أنهم أصحاب بشرة سوداء، **أمة الإسلام**: وهم أكبر الجماعات الثلاث، وهم أتباع وارث الدين بن أليجا محمد، وقد قاد فيهم حركة علمية تصحيحية ظاهرة، وللحركة صلات طيبة مع مراكز الدعوة في العالم الإسلامي، ومن أتباع وارث الدين: محمد علي كلاي، ومايك تايسون الذي أعلن إسلامه مؤخراً عام (١٩٩٥م).

[١] انظر صحيفة تشرين والبعث في ١٩٩٦/٢/١٧م.

وقد سبقت أنباء هذه الزيارة الناجحة وصوله إلى الشام، فاستُقبِل استقبالاً حاشداً، وحينما جلس لاستقبال ضيوفه كان من أول زوَّاره في الدار رئيس الدولة حينذاك، والدكتور نور الدين الأتاسي مع عددٍ من الوزراء، وقد صرَّح حينذاك بأن هذه الزيارة وما جرى فيها يعدُّ رصيداً قوياً للقضايا العربية والإسلامية في الغرب[1].

وفي أعقاب هذه الزيارة الناجحة تمَّ الاتفاق على تنظيم جولاتٍ سنويةٍ للشيخ أحمد في الجامعات الأمريكية للتعريف بالإسلام بواقع ثلاثة أشهرٍ كل عامٍ، ولكن قيام حرب (١٩٦٧م)، وموقف أمريكا المؤيد لإسرائيل، وجهود اللوبي الصهيوني في أمريكا الذي رأى في التعريف بالإسلام بحقيقته وجوهره اختراقاً لجهود الصهاينة في زرع الحقد في الغرب ضدَّ الإسلام والمسلمين؛ حال دون تواصل هذه الزيارات.

وقد كانت آماله كبيرةً في تواصل زياراته إلى العالم الغربي بغرض التعريف بالإسلام، ولكن مواقف الحكومات الغربية من الإسلام عموماً والقضية الفلسطينية خصوصاً حال دون استمرار هذه الجهود وفق ما أراده لها الشيخ أحمد.

وهكذا فإنه خلال الأعوام العشرين التالية ركز الشيخ أحمد نشاطه في الدعوة إلى الإسلام في العواصم الشرقية من العالم، حيث كانت آنذاك أكثر تفهماً لقضايا العرب وتجاوباً معها، ولم يقم خلال ذلك إلا بجولةٍ واحدةٍ في النمسا خلال عام (١٩٧٩م) سنشير إليها فيما بعد.

وفي أواخر الثمانينيات قام بزياراتٍ عدَّة ومشاركاتٍ في الولايات المتحدة تجد تفاصيل عن أخبارها عندما نتحدَّث عن تلك الفترة من حياته.

[1] نشرة الأنباء الداخلية الصادرة عن وزارة الإعلام السورية رقم (١٥١) تاريخ ١٩٦٦/٦/٢٠م.

في الاتحاد السوفياتي:

الاتحاد السوفياتي رأس المنظومة الاشتراكية طوال أربعة وسبعين عاماً، وإضافةً إلى أهميته السياسية والاستراتيجية على المسرح العالمي فإنه أيضاً يحتوي على شعوبٍ إسلاميةٍ يزيد تعدادها على ستين مليوناً من المسلمين.

ومع أن الاتحاد السوفياتي قد تفكك الآن وتمزقت فيه أسباب وجوده غير أن معاناة الشعوب الإسلامية التي كانت فيه ما زالت متشابهة، ومن الحكمة أن ندرسها مجتمعةً في إطارٍ واحدٍ.

وتنتشر هذه الشعوب بشكلٍ رئيسيٍّ في منطقتَين جغرافيَّتَين متميزَتَين تمتد الأولى فيما بين شمال شرق الصين إلى بحر قزوين، وتحدُّها جنوباً الصين فأفغانستان فإيران، وهي تشمل جمهوريات أوزبكستان وطاجكستان وقيرغيزيا وتركمانستان، ويزيد عدد المسلمين فيها عن ٨٠% من مجموع السكَّان، وهي ما تسمَّى عادةً: (جمهوريات آسيا الوسطى)، وتحدُّها شمالاً جمهورية كازاخستان الكبيرة[1] التي يشكِّل المسلمون ٥٠% من سكَّانها، وقد تأسَّست عام (١٩٤٦م) إدارة دينية لرعاية شؤون المسلمين في هذه المناطق سمِّيت: **الإدارة الدينية لمسلِمِي آسيا الوسطى وكازاخستان**.

وأما المنطقة الثانية فهي منطقة جبال القوقاز (قفقاسيا)، وتقع بين بحر قزوين والبحر الأسود، وتحدُّها جنوباً إيران وتركيا، وتضم جمهوريات أذربيجان وأرمينيا وجورجيا، ويتركز المسلمون فيها في جمهورية أذربيجان، وهي جمهوريات مستقلَّة اليوم،

[1] في عام (١٩٩٢م) اعترفت روسيا باستقلال: قيرغيزيا وتركمانستان وأوزبكستان وطاجكستان وكازاخستان رسمياً.

كما تضم داغستان وشيشان وكبردينيا بلقار وجركيسيا والأديغة وأنغوشيا، وهي ما زالت ضمن اتحاد روسيا، وقد أعلن بعضها استقلالاً ذاتياً ولكن لم يحظَ باعتراف روسيا.

وهناك أقلّيات إسلامية كبيرة ضمن روسيا؛ كجمهوريتَي بشكيريا وتتاريا، وكذلك فإن ثمة شعوباً إسلاميةً في القرم ومناطق مختلفة من روسيا تصل إلى وسط سيبيريا.

وشعوب آسيا الوسطى عريقة في الإسلام، فقد وصل الإسلام إلى أطراف هذه الثغور في العهد الأموي، حيث فتحت حواضر بخارى وسمرقند وطشقند على يد قتيبة بن مسلم الباهلي، ومحمد بن القاسم الثقفي، ولا أَدَل على ذلك من وجود ضريح الصحابي الجليل القثم بن العباس القائم في سمرقند[1].

كما أن الوجود الإسلامي في قفقاسيا يعود إلى أيام هشام بن عبد الملك، حيث وصلت جيوش الفتح إليها بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك[2].

وخلال التاريخ الإسلامي فإن هذه الشعوب لم تكن هامشاً في الحضارة الإسلامية؛ بل أسهمت فيها بأكبر قدرٍ من المعرفة والجهاد، حتى أصبحت فعلاً مَثَلاً يُحْتَذَى ودليلاً واضحاً على عالمية الإسلام.

فبحسبك أن تتحدث في النشاط العلمي الذي قدمه (العجم)، وهو الاصطلاح التاريخي الذي كان المسلمون يطلقونه على غير العرب، ليتبدَّى لك مدى المساهمة الحاضرة التي قدمتها تلك الشعوب لحركة الحضارة في القرون التي غرقت فيها أوربا في عصر الظلام.

---

[1] الأعلام جـ٥ ص١٩٠.

[2] انظر: كتاب أشواق داغستان للمؤلف.

ففي العلوم الإسلامية نبغ في التفسير شيخ المفسرين بالمأثور الإمام الطبري من طبرستان، وموقعها اليوم في جنوب بحر قزوين، وشيخ المفسرين بالرأي الإمام الفخر الرازي من الري، وموقعها اليوم في إيران، وشيخ المفسرين باللغة الإمام الخوارزمي من خوارزم، وهي منطقة تمتد ما بين تركمانستان وأفغانستان وإيران، وهؤلاء جميعاً كانوا من العجم.

وليس إيرادي لأسمائهم على سبيل حصر المفسرين من العجم، ولكني تخيَّرتُ المدارس الكبرى الثلاث في التفسير، وهؤلاء أئمَّتها بلا منازع.

وفي الحديث فإن الأئمة الستة إلا مسلماً كانوا من الأعاجم أيضاً، فالبخاري من خرتنك في بخارى حاضرة أوزبكستان، وأبو داود سليمان بن الأشعث من سجستان، وهي اليوم في جنوب إيران، والنَّسائي من نَسَا، وهي مدينة في خراسان بإيران، والتِّرمذي من ترمذ، وهي قرب بلخ فيما وراء النهر، وابن ماجه القزويني من مدينة قزوين قرب بحر الخزر، وكذلك فإن الإمام مسلماً نشأ في نيسابور وتتلمذ على الإمام البخاري في بخارى وإن كان في نسبه عربياً قشيرياً.

ومن خلال استعراض هذه الأسماء الستة فإنك تتصور مدى ما قدمه هؤلاء للثقافة العربية والمعارف الإسلامية المختلفة.

وفي العلوم المختلفة فإن ابن سينا الشيخ الرئيس كان من بخارى في أوزبكستان، والفارابي كان من فاراب في آسيا الوسطى، والبيروني إمام المؤرِّخين كان من أصلٍ فارسيٍّ.

ولا يتضمن إيراد مثل هذه الحقائق اتهام الأمة العربية بالقصور العلمي؛ بل هو توكيد لحقيقة عالمية الإسلام واشتراك الشعوب الإسلامية المختلفة في تأسيس الحضارة

الإسلامية، وهي مشاركة معقولة مفهومة إذا علمتَ أن المسلمين من العرب يشكِّلون حقيقة (خمس) العالم الإسلامي الكبير فقط.

ويشتمل هذا الأمر على توكيد آخر على رسالة العرب العالمية التي نقلت الحضارة بالإسلام إلى تلك الشعوب فحرَّرتها وأطلقت مواهبها وأنشأت فيها عبقرياتٍ علمية وقياداتٍ فكرية فذَّة ساهمت بشكلٍ كبيرٍ في صناعة مجد الأمَّة الإسلامية الواحدة.

وهذا العطاء في الجانب الحضاري من تلك الشعوب لم يُلْغِ دورها في العطاء الجهادي أيضاً، فقد كانت شعوب آسيا الوسطى أول مَن تلقى الغزو المغولي وكافحه وصمد في وجهه، وكانوا عبر التاريخ الإسلامي يَلْقَون من روسيا القيصرية ومن أباطرة الصين والحكومات المغولية المختلفة أشد العَنَت والأذى في سبيل صمودهم وثباتهم على بوابة العالم الإسلامي الشرقية.

ولكن الأذى الأكبر الذي لحق بهم كان في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حينما أخذت الإمبراطورية الروسية تتعاظم وترسل جيوشها وعتادها بُغيةَ الوصول إلى المياه الدافئة، واكتمل هذا الاضطهاد بقيام الثورة الروسية الحمراء التي ضربت حولهم الغل الأحمر، وقطعت عنهم كل صلةٍ بالعالم الإسلامي من حولهم، ورأت فيهم عدواً فكرياً عنيداً، إضافةً إلى كونهم عدواً قومياً تقليدياً.

وهكذا فإن ماضي هذه الشعوب في خدمة الإسلام يعتبر رصيداً عظيماً لا يجوز أن يتنكَّر له المسلمون في أيام المحن.

وقد كان الشيخ أحمد يتطلَّع إلى هذه الشعوب المسلمة مستشعراً ثِقلَ الأمانة التي تطوِّق أعناق المسلمين في الأرض تجاه إخوانهم داخل السُّور الحديدي الأحمر، ومع أن الظواهر لم تكن فيما يبدو مشجعةً، وأن أي خطوةٍ في خدمة الحالة الإسلامية ضمن

جمهوريات الاتحاد السوفياتي كانت تعتبر ردةً رجعيةً يقاومها الإيديولوجيون الشيوعيون بكل بطشٍ، مع ذلك فقد انطلق الشيخ في هذا المقام من قاعدة: **ما لا يُدرَك كلُّه لا يُتْرَكُ جُلُّه.**

وقد كانت مشكلة المسلمين في الاتحاد السوفياتي هماً مؤرّقاً يعيشه الشيخ منذ أن تعرَّف وهو طفل إلى الجاليات الإسلامية التي هجَّرها الاضطهاد الروسي ثم الشيوعي، والتي كانت تقيم عموماً في جبل قاسيون حيث نشأ الشيخ، وتوجد في قاسيون أحياء كاملة لداغستانيين وشيشانيين وبخاريين وتركمانيين وأباظيين.

وكذلك فقد كان يجتهد في لقاء الحجاج السوفييت وهم يَعبُرُون أراضي الشام، ليتفهم منهم عن قُربٍ أحوال المسلمين المكتومة في تلك الأمصار المترامية الأطراف.

وكانت أول زيارةٍ رسميةٍ له إلى الاتحاد السوفياتي أواخر عام (١٩٦٨م)، حيث وُجِّهَت إليه دعوة على رأس وفدٍ من علماء سورية لزيارة آسيا الوسطى من قبل الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان في أيام المفتي ضياء الدين خان بن إيشان باباخان.

وفي هذه الزيارة نُظم له برنامج خاص لإلقاء محاضرات في مساجد أوزبكستان، ولقاءات مع رجال الدِّين لدى الإدارة الدينية.

وبحكمته المعهودة تمكَّنَ من تحقيق بعض ما كان يصبُو إليه من خدمة هذه الشعوب الإسلامية في تلك الفترة الحرجة، وذلك من خلال لقاءاته بالمسؤولين هناك كضيفٍ زائرٍ لا يخشى عواقب تقديم مطالبَ إسلاميةٍ معارضةٍ لأفكار الحزب الشيوعي، وفي هذا الصدد أنقلُ لك ما كتبته صحيفة (صوت العروبة) في عددها الصادر بتاريخ ١٩٦٨/١٢/٣م:

(لقد توجه الشيخ كفتارو بمجموعةٍ من المطالب إلى الحكومات المحلية، وأمكن من خلال ذلك إصلاح وترميم أكبر مسجدٍ في آسيا الوسطى، وهو مسجد الأمير كلال الذي يتسع لخمسةٍ وعشرين ألف مُصلٍّ في بخارى، وكذلك إصلاح مسجد شاه نقشبند مؤسس الطريقة النقشبندية وترميمه، وإصلاح مدرسته وضريحه إصلاحاً لائقاً شاملاً، كذلك تمكَّن من إلغاء قيد القبول في مدرسة (مير عرب) في مدينة بخارى، وهي المدرسة الشرعية الوحيدة التي كانت قائمةً في أوزبكستان، وكان عدد طلابها لا يتجاوز الخمسين طالباً، فتمَّت مضاعفة عدد الطلاب، كذلك تمَّت زيادة عدد الحجاج بدون قيدٍ بعد أن كان عددهم لا يتجاوز عشرين حاجّاً كل عامٍ).

واستأنفت الصحيفة تقول:

(كما تمَّ إعادة عددٍ آخر من المساجد إلى الإدارة الدينية، وعددها ثمانية مساجد بعد إصلاحها، نذكر منها: مسجد زنجي بهلوان، ومسجد الإمام البخاري، ومسجد عبد الخالق الغجدواني، وكان لهذه الجهود الخيرة التي بذلها سماحة الشيخ والنتائج الطيبة التي اقترنت بها هذه الجهود بالغُ الأثر في نفوس مسلمي الاتحاد السوفياتي).

ثم تشير صوت العروبة بقولها:

(لقد كان فرح المسلمين في آسيا الوسطى كبيراً لا يُقدَّر بثمنٍ، فقد رأوا في زيارة سماحة المفتي العام الدكتور الشيخ أحمد كفتارو للاتحاد السوفياتي نصراً مؤزراً لهم ولقضاياهم الدينية التي لم يُتَحْ لها أن تُعالَجَ من قبل على هذا المستوى الرفيع، وبمثل هذا الاهتمام والعناية والتلبية الفورية)[1].

[1] صوت العروبة ١٩٦٨/١٢/٣.

ولم يكن هذا النجاح الظاهر إلا تطبيقاً للحكمة العلمية التي انتهجها الشيخ في سائر حياته من الإيجابية واحترام الآخرين، كما أنه أفاد من العلاقات السوفياتية السورية القوية حينئذٍ، ووجَّه ذلك كله لرعاية مصالح المسلمين.

وكان سماحته إذا خلا برجال الدعوة في الإدارة الدينية يقول لهم: (أخبروني عن مطالبكم، فأنا أذكرها للمسؤولين خلال لقاءاتي معهم، وإن ما تخافون من طرحه بحكم موقعكم لا يضيرني كضيفٍ زائرٍ، وإن بلادي على علاقةٍ طيبةٍ مع الاتحاد السوفياتي، ومن الممكن أن تلقى مطالبي تجاوباً كبيراً لأكثر من سبب).

ومع ذلك فلم يكن في مطلبٍ من مطالبه يطلب ما لا يُعطاه؛ بل كانت حساسيته الدقيقة تقوده إلى طلب الممكن فقط من بين كل مرغوب.

وقد شملت هذه الزيارة جمهوريات أوزبكستان وطاجكستان وكازاخستان[1]، وكانت تلك الفترة صعبةً ودقيقةً بالنسبة للمسلمين، فبعد موت ستالين خفَّت وطأة القبضة الحديدية على رقاب الشعوب الإسلامية، وعرفوا شيئاً من الحريات الدينية في عهد خروتشوف، ولكن ذلك لم يطلْ إذ عاد النظام الجديد الذي يتزعمه بريجنيف ونيقولاي بودغورني، والذي بدأ منذ (١٩٦٤م) إلى المطالبة بالتزام الأصول الماركسية العقائدية، وهو ما كان يعني تشديد القبضة على النشاط الإسلامي، وهذا ما جمَّد كثيراً من مشاريع إعادة المساجد وتنشيط المعارف الإسلامية، ولذلك فقد توجه نشاط الشيخ في هذه الزيارة إلى محورين اثنين:

[1] ورد في النص الصحفي لإدارة الإفتاء العام أن هذه الزيارة شملت أذربيجان، وهو أمر مستبعد؛ لأن الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان لا تشمل في أنشطتها أذربيجان التي تتبع للإدراة الدينية لمسلمي قفقاسيا والقوقاز، وقد زار الشيخ كفتارو أذربيجان بعد ذلك عدة مرات.

الأول: مع القيادات السياسية، حيث كان يتحدث بمطالب المسلمين وأحوالهم مستفيداً من موقعه كضيفٍ زائرٍ لبلدٍ مهمٍّ من الناحية الاستراتيجية بالنسبة للاتحاد السوفياتي، وقد لقيت مطالبه تجاوباً كبيراً كما أسلفنا.

الثاني: مع جماهير المؤمنين الذين كان يلتقيهم في المساجد والمدارس الإسلامية، حيث كان يركز في خطابه إليهم على ضرورة تحقيق التفوق العلمي، شارحاً موقف الإسلام من تلقّي المعارف وتشجيع الوسائل والقيم الحضارية.

وكان هذا الطرح في غاية الأهمية؛ إذ إن الجيل الجديد من المسلمين كان قد أُصيب بخيبة أملٍ وإحباطٍ جراء انتكاسة الآمال المتوقعة وذلك يؤدي بلا ريب إلى التهاون في المعرفة التي سينتج عنها فيما بعد تجهيل ظاهر يجعل المتدينين والجمهوريات الإسلامية عموماً أفقر شعوب المنطقة في الميدان العلمي.

ومن كلمة سماحته في مسجد عبد المجيد خان في طشقند أنقل لك النص الآتي[1]:

(إن آباءنا الأولين لما عرفوا الإسلام معرفةً صحيحةً وأنه قائم على العلم والمعرفة والتقدم شمروا سواعد الجد والعمل، فبحثوا ودرسوا، وأخذوا العلوم من خزائن الشرق والغرب حتى صاروا أعلم شعوب الأرض قاطبةً، فقبل ألف سنة كانت البلاد الإسلامية مصدر إشعاع العلم والمعرفة إلى جميع أنحاء العالم، فقد نشأ فيها أكبر العلماء وأعظم الباحثين، وفي جميع أنواع العلوم الدينية والدنيوية، وبذلك جمعوا بين الدنيا والآخرة حيث كانوا إلى جانب تقدمهم وثقافتهم ومعرفتهم وعلمهم بالشؤون الحياتية كانوا أيضاً المسلمين الصادقين والمؤمنين المخلصين والعابدين المتقين، فإذا أردنا أن نكون كما كان الآباء –أن نكون مسلمين حقيقيين– فما علينا إلا أن نتبع خطواتهم ونسير على

[1] انظر: المرشد المجدد ص٢٥٧.

هديهم، فنتعلم علوم الدنيا وعلوم الدين، وأن ندفع أبناءنا نحو ذلك أيضاً، ونحضهم على العلم والتعلم حباً بالإسلام وحباً برسول الله ﷺ الذي كان يحب العلم ويحض عليه، ونبينا الآن صلوات الله عليه وروحه في السماء ينظر إلى الدنيا منادياً أبناءه المسلمين، مشجّعاً إياهم ليُقبِلوا على العلم، ليقبلوا على المعرفة، ليقبلوا على الإنتاج، ليُقبلوا على تعلم علوم الدنيا وعلوم الآخرة).

وراح الشيخ في مجالسه الخاصة مع علماء المسلمين في مختلف تلك البقاع من سيبيريا إلى القوقاز ينبّه قيادات المسلمين على ضرورة اكتساب أكبر قدرٍ من المعارف التكنولوجية والعلوم المعاصرة، والتحضير لما هو آتٍ في وقتٍ تبزغ فيه شمس الحرية والاستقلال، خاصة بعدما لفت انتباهه التوجه الواسع لتلك الشعوب للعمل الزراعي على حساب العمل الصناعي، والتوجه للدراسات الأدبية على حساب الدراسات العلمية والتكنولوجية.

وأثبتت الأحداث المعاصرة صحة نظرية الشيخ عندما انكشف غطاء الحضارة المزيف ومظاهر الدولة العظمى الخادعة، وتبين أن الشعوب الإسلامية كانت تعيش أسوأ حالات السيطرة الاستعمارية الروسية التي سرقت خيرات هذه الشعوب عبر نزيفٍ لا ينقطع ولا يُراد له أن ينقطع حتى هذا اليوم.

ولم يكن يقتصر في نشاطه على ما يرتب له من برامج؛ بل كان يجتهد دائماً في تجاوز البرنامج المرسوم للبحث عن إخوانه في هذا المجتمع المغلق.

ومن أطرف ما أخبر به زيارة خاصة قام بها برفقة المفتي ضياء الدين خان بن إيشان بابا خان إلى سيبيريا، تلك الصحراء الضاربة في شمال الأرض كأنها من كوكب آخر، حيث تبلغ درجة الحرارة أربعين تحت الصفر، وهكذا فقد مضى يكسر ذلك الجليد

بدفء شوقه إلى المسلمين من إخوانه الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا: ربنا الله، حيث يجهل كثير من الناس أن الملايين من المسلمين قد أُجبروا على السكنى في هذه البقاع من أجل تنفيذ خطط ستالين في إقامة أمميةٍ شيوعيةٍ على أساس زرع قطعانٍ من البشر في مناطق متباعدةٍ من المجتمع الشيوعي الضاري، ولكن هذه المخططات الجهنمية التي أفلحت في اقتلاع الناس من أراضيهم وبيوتهم لم تفلح في اقتلاع الإيمان من نفوسهم، ولم تفلح في قطع ما بينهم وبين المسلمين في الأرض من أخوة الدين التي عقد الرحمن سبحانه وشائجها.

وهكذا فإنه لما حطت الطائرة في المطار ونزل الشيخ كفتارو على سلَّم الطائرة هاله ما رأى من جموع المسلمين الكبيرة التي أمَّت المطار ترحِّب بداعيةٍ مسلمٍ جاء من الأرض المباركة (الشام الشريف).

ولكن الأمر الأغرب أن هؤلاء كانوا قد نصبوا صفَّين اثنين من المستقبِلين، وفتحوا أفواههم بشكلٍ غير مفهومٍ كمَن تثاءب ثم نسيَ أن يُغلِقَ فمَه!

وتحير الشيخ من هذا المشهد، وحين سأل سماحة الشيخ المفتي ضياء الدين أخبره بأن هؤلاء جاؤوا إلى المطار بقصد البركة، وهم يقصدون أن يصيبهم أثر من بركاتك في أفواههم ليخالط ريقهم ريق أهل الأرض المباركة –الشام الشريف– جيران النبي ﷺ.

لقد كان موقفاً من الحب العارم للعرب الذين يمثلون أرض الأنبياء وميراث النبوة، وأنت تدرك كم تشكل هذه الأشواق اللاهبة في بلاد العجم من دعمٍ لقضايا العرب، لو أحسن العرب الإفادة منها بالعودة إلى هدى النبي ﷺ.

ونظر الشيخ في تلك الوجوه المشتاقة متحيراً فيما يجب أن يفعله؛ إذ كيف يمكنك أن تشاهد هذه الأشواق اللاهبة، ثم تكتم دموع عينيك وخفقان قلبك؟!

لا تخف ما فعلت بك الأشــواق وافتح هواك فكلنـا عشــاق

قد كان يخفى الحب لولا دمعك الـ ـجاري ولا قلبـك الخفــاق

فعســـى يعينك من شـــكوت له في حمله فالعاشقون رفــاق

ومع أن الشيخ لم يجد في هذا التصرف عادةً حسنةً، واعتذر إلى الشيخ ضياء الدين، ولكنَّ الشيخ ضياء الدين أكَّد له أن القوم يحزنون أشد الحزن إن لم يخالط ريقهم ريق الشيخ الذي يمثل لهم ميراث النبي العربي محمد ﷺ.

وراح الشيخ يمد أصبعه المبللة في تلك الأفواه المشتاقة العاشقة، في مشهدٍ تسيل منه العيون وتخفق فيه القلوب، ويحمل من معاني الوحدة والمحبة الإسلامية المتجذرة ما تضيق عن وصفه المجلدات.

ومن الأمور الخاصة جداً أن الشيخ كان يتحمل في كل سفرٍ تمرير الممنوعات من المصاحف وكتب العلوم الشرعية التي كان يطبعها على حسابه في دمشق وينقلها إلى علمائهم عند كل سفر، وقد كان مجرد وجود تلك الكتب في تلك الفترة من الزمن لدى أحد المسلمين سبباً للسجن والاعتقال تحت تهمة الترويج لأفكارٍ معاديةٍ للنظام الماركسي الملحد.

ولم ينسَ علماء تلك البلاد الغالية هذه الجهود الكبيرة، والتحمل للمسؤوليات الخطيرة أيام المحن، والفتوح الباهرة أيام الحصار، في حين أن جهات رسمية إسلامية كثيرة كانت تخشى أن تقدم بضاعة الكلام على الأقل خوفاً على مصالحها مع الاتحاد السوفيتي الصديق.

وفي عام (١٩٩٢م) قام الشيخ محمد صادق -وهو أحد أبرز المفتين في روسيا شمال القوقاز- وتوجه بالشكر للوفود الإسلامية الزائرة منوهاً بما قدمته هذه الوفود من

قبل حكوماتها من معوناتٍ ومطبوعاتٍ إلى الإدارات الدينية في آسيا الوسطى بعد انهيار الشيوعية، عندما أكد أن أعظم الشكر يجب أن يوجه لهذا الجندي المجهول، هذا الشيخ المجاهد الذي يحمل على أكتافه أثقال المرض والإجهاد وفوقها هموم المسلمين، ويتحمل الأخطار من أجلهم أيام المحن، فليس جهاد أيام المحن كمجاملة أيام الرخاء[1].

ومع أن استقصاء تفاصيل وقائع الزيارات التي نتحدث عنها أمر يطول ولكن ليسمح لي القارئ الكريم أن أشير إلى بعض المواقف التي رواها أعضاء الوفود التي رافقت الشيخ لِمَا لمست فيها من دروسٍ ناجحةٍ في الحكمة والموعظة الحسنة.

خلال زيارة الشيخ إلى موسكو عام (١٩٦٩م) عُقِد لقاء مركزي في الكرملين برعاية رئيس مجلس القوميات الأعلى الذي تصدى للحديث وصرح بقوله: إن أيديولوجية الدين قد استنفذت أغراضها، وقد تخير هذا الاستهلال السافر لينبه رجال الدين السوفييت إلى أنهم قطعة من الماضي يؤدون رسالةً غير مبررةٍ ولا مقنعةٍ، وأنه ليس ثمة من مبررٍ لوجودهم إلا بعض الضرورات الاجتماعية، أما كفكرٍ فقد ولَّى زمن الدين.

وهنا تصدى الشيخ أحمد للحديث مباشرة، وعوضاً عن أن ينفي هذه التهمة قام بدوره يثني عليها ويؤيد مضمونها بقوله: (حقاً إن أيديولوجية الدين قد استنفدت أغراضها...).

[1] كتبت صحيفة اليمامة السعودية في ١٥/ جمادى الآخر/ ١٤٠٨هـ تحت عنوان: (شهادة قادم من موسكو، مليونا مسلم في السجون السوفياتية) تحقيقاً حول واقع المسلمين في الدولة الشيوعية، قال فيه المحرر منوهاً بجهود الشيخ كفتارو في روسيا خلال تلك الأعوام القاسية، مشيراً إلى أنه وسط ذلك الظلام الدامس الغالب على الواقع الإسلامي تمكن الشيخ كفتارو من الضغط على الحكومات المحلية حتى تم افتتاح كلية إسلامية.

وقبل أن يقول سماحته كلمة: (ولكن) ارتسمت علامات الدهشة والاستغراب على وجه كلٍّ من رئيس القوميات ووزير الأديان، واستغرب جميع الحضور أن يتكلم مثله هذا الكلام وهو في مركزه الديني المعروف وشخصيته القوية الصامدة للمناقشات!

وحبس الجميع أنفاسهم قبل أن ينطق سماحته كلمة (ولكن) التي أتبعها بقوله: (ولكن الدين الذي استنفد أغراضه هو الدين الذي عرفتموه بعيداً عن العلم، بعيداً عن الحضارة، بعيداً عن مختلف مرافق الحياة، ذلك الدين الذي لا يعرف إلا العبادة والرهبانية... أما الدين الحق الصحيح فإنه لم يستنفد أغراضه مطلقاً... وكيف يستنفد أغراضه وهو دين يدعو إلى أن يسلم الإنسان وجهه لله؟ أن يسلم مقاليد نفسه لله فلا يخالف له أمراً؟ ينقاد إليه في المعاملات كما ينقاد إليه في العبادات، فيعمل في مجال الزراعة والصناعة والعلوم الضرورية لتقدم الأمة ورقيها...).

ومضى الشيخ يشرح الدين الحق كما يفهمه في موقفٍ حرجٍ وصعبٍ أمام قياداتٍ سياسيةٍ صارمةٍ جعلت رسالتها في الحياة محاربة الدين بكل أشكاله.

ومع ذلك فقد كانت أول كلمةٍ يقولها رئيس مجلس القوميات الأعلى: (إذا كان الإسلام ما نسمعه منك فالإسلام شيء حسن).

وأدرك الشيخ ببصيرته ومشاهدته أن النشاط الإسلامي في هذا المجتمع الأحمر يبدو مسحوقاً، وأن المصلحة تقضي تعاون الشرفاء في سبيل الدفاع عن الحرية الدينية، وهكذا فإنه حين لمس من القيادات السوفياتية بعض التجاوب في القضايا الإسلامية وجَّه نداءً لإقامة مؤتمر عالمي للأديان في موسكو يتناول قضايا السلام والإخاء الإنساني.

وقد لقيت دعوته هذه تجاوباً واضحاً، فأُقيم أول مؤتمرٍ دوليٍّ للأديان في الاتحاد السوفياتي في مدينة زاغورسك بالقرب من موسكو في ١٩٦٩/٧/١م، وكان لنشاطات

سماحة مفتي سورية أثر كبير في إنجاحه وإنجاح الدورة التالية للمؤتمر، كما كان له أثر كبير في توجيه المؤتمر، واقترح فيها عدة اقتراحات بشأن الوضع القائم في الشرق الأوسط، فقد قُوبلت جميعها بالموافقة التامة، وصدرت توصيات المؤتمر مؤكدةً موافقتها على تلك المقترحات[1].

وقد كان في دعوته القيادة الشيوعية للاهتمام بالدين عارفاً بما يقنع القوم، فيتوجه إليهم من حيث يفهمون، فكان يشرح لهم دور العالم الإسلامي في مقاومة الإمبريالية، وتناقض المفاهيم الإسلامية مع المفاهيم الرأسمالية من الاحتكار والأشر والبطر، مبيناً أن تعاطف العالم الإسلامي مع أي حركة تحررٍ أو سلامٍ مرهونٌ بموقف هذه الحركة من الحرية الدينية، وأن العالم الإسلامي يشكل أكبر رفيدٍ وداعمٍ لقضايا السلام في الأرض.

ومن خلال مؤتمر الأديان في زاغورسك تمكن الشيخ أحمد من توجيه المطالب إلى القيادة السوفياتية باسم الدينَين معاً (المسيحية والإسلام)، وذلك من خلال لقاءاته المتواصلة مع البطرك (بيمن) بطريرك موسكو وكل روسيا؛ إذ أثمر ذلك كله مقترناً بجهود المخلصين الأخرى في تخفيف وطأة القهر والتضييق على النشاط الإسلامي.

وتواصلت اللقاءات فيما بعدُ مع القيادات الإسلامية والمسيحية في الاتحاد السوفياتي، وفي عام (١٩٧٢م) قام البطريرك (بيمن) بزيارةٍ لدمشق، التقى خلالها بالشيخ وتبادل معه الحديث حول تعاون أبناء الدينين في وجه الإلحاد.

وفي عام (١٩٧٦م) دُعي الشيخ مرةً أُخرى لزيارة الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي، وذلك لحضور المؤتمر العالمي المخصص للذكرى الثلاثين لتأسيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان في طشقند (١٩٧٦م).

[1] مجلة أنباء موسكو، عدد ٢١ تاريخ ١٩٦٩/٨/٢٣م.

وفي طشقند وسمرقند وبخارى تلك الحواضر الإسلامية العريقة الجاثمة قرب سفوح الهمالايا كان الشيخ يتجول في تلك الحواضر المظلومة التي ينبعث منها عبق التاريخ، حتى كأن كل شيء فيها يتكلم؛ مآذنها الشامخة، وقبابها السندسية، وأضرحة رجال الفتوح والمعرفة، ومدارسها العظيمة التي لم تجرؤ يد الحدثان أن تطرقها، على الرغم مما تعنيه من رموزٍ مناقضةٍ للتوجه الشيوعي فأصبحت متاحف خاويةً من البهجة، ولكنها عامرة بالروح.

وكم من مرةٍ وقف أمام ضريح الصحابي الجليل القثم بن العباس في سمرقند يستنطق ذلك الضريح الطاهر، أي سرٍّ من عجائب الغيب دفع هذه الصقور المولودة في مكة أن تهاجر إلى سفوح الهمالايا تبشر بالإسلام، وتروي بدمها الزكي تلك الأرض، مردداً مع إقبال شاعر الإسلام:

من ذا الذي رفع السيوف ليرفع ... اسمك فوق هامات النجوم منارا؟
لم تنسَ أفريقيا ولا صحراؤها ... سجداتنا والأرض تقذف نارا
كنا نرى الأصنام من ذهب فنهـ ... ـدمها ونهدم فوقها الكفارا
كنا جبالاً في الجبال وربما ... سرنا على موج البحار بحارا
كنا نقدم للسيوف صدورنا ... لم نخشَ يوماً غاشماً جبارا
ورؤوسنا يا رب فوق أكفِّنا ... نرجو ثوابك مغنماً وجوارا

وفي قرية خرتنك قرب بخارى بذل جهداً كبيراً لإعادة ترميم ضريح الإمام البخاري رغم اعتقاده أنه حجر لا يضر ولا ينفع، ولكن الرمز الذي بعثه ذلك الضريح كان جليَّ المعنى، بالغ التأثير في الأجيال المسلمة التي بدأت تشعر أن لها من الماضي ما يعلق بها أبصار الأمة الإسلامية في الأرض، وأن سمرقند وطشقند وبخارى وعشق آباد

لها وجه آخر غير ذلك البرقع المستعار الذي يحجب عنها عبق التاريخ ينبغي أن تعود إليه وتنشأ عليه.

وعن عمدٍ كان الشيخ يقوم بزيارة قبر الشاه نقشبند مؤسس الطريقة النقشبندية أكثر الطرق انتشاراً في الشرق الأوسط، ويجتهد في خدمة هذه الرموز الإسلامية، ولو على أساسٍ من حفظ التراث القومي والتغني بالآباء.

وفي مؤتمر طشقند ألقى سماحة الشيخ أحمد كلمةً مهمةً جامعةً تحدث فيها عن الإسلام ودوره في تحقيق حضارةٍ شريفةٍ، ورعايته للمصالح الإنسانية المعتبرة[1].

ونالت كلمته إعجاب المشاركين، ولفتت أنظار المسؤولين في أوزبكستان وموسكو الذين أدهشهم هذا التفصيل الذي جمع به الشيخ أحمد بين عمران الدنيا وعمران الآخرة، وأوضح بأمثلةٍ حيةٍ من تاريخ أوزبكستان كيف يمكن أن يكون الإسلام ناجحاً لحركة إعمار الأرض وإسعاد الإنسان.

وخلال ذلك فإن صلة الشيخ أحمد بمسلمي الاتحاد السيوفياتي لم تنتهِ عند حدود الزيارات التي كان يقوم بها إليهم؛ بل إنه جعل لهم من جامع أبي النور محطاً دائماً لمسلمي الاتحاد السوفياتي وهم يعبُرون الشام إلى الأراضي المقدسة، وكانت دمشق على موعدٍ دائمٍ قبل كل موسم حجٍّ وبعده في جامع أبي النور، حيث يأتي مسلمو الاتحاد السوفياتي ليتحدثوا إلى إخوانهم في دمشق عن روابط الأخوة والمحبة.

ولا ينسى أهل الشام الزيارة الكبيرة التي خصَّهم بها مفتي آسيا الوسطى وكازاخستان سماحة الشيخ ضياء الدين خان بن إيشان باباخان عام (١٩٧٣م)، حيث تحدث إلى إخوانه في الشام في جامع تنكز مثنياً على جهود الشيخ كفتارو في تحقيق التواصل

[1] نجد ثبتاً كاملاً لهذه المحاضرة في كتاب: كفتارو يصرّح.

والتآخي بين مسلمي الاتحاد السوفياتي وإخوانهم في الأرض، وكنت يومئذٍ طفلاً مميزاً، ولن أنسى حينئذٍ مشهد الباكين من وفد سماحة الشيخ ضياء الدين خان وهم يُعَمَرون بنظرات الشوق والحب من إخوانهم في دمشق، وأذكر جيداً أنه حينما دخل الشيخ كفتارو وضيوفه إلى السيارات أقبل إخوان الشيخ فحملوا السيارات بمَن فيها على أعناقهم من مسجد تنكز إلى مسجد المولوية، وكان مشهداً رائعاً مثيراً ما أظن أن أحداً شاهده من غير أن ينتفض في قلبه إحساس عارم غامر بأن المؤمنين في الأرض إخوة، وأن هذه أمتكم أمة واحدة، وأن المجد للإسلام!

وكان مسلمو الاتحاد السوفياتي إذا جازوا بالشام فأصابوا ما يغنيهم من توجيهاتٍ وقبساتٍ إيمانية تزودوا أيضاً بما يمكنهم إدخاله وتسريبه من مطبوعاتٍ وتفاسير ترشدهم في سعيهم المتواصل للحفاظ على إيمانهم، وقد أتينا على تفصيل ذلك قبل قليل.

وفي عام (١٩٨١م) وُجِّهت الدعوة رسمياً من موسكو للشيخ كفتارو ليحاضر عن الإسلام، وفي هذه المرة فإنه لم يُدْعَ من قبل الإدارة الدينية للمسلمين، ولكنه دُعِي من قبل المؤسسة الأكاديمية في موسكو ليلقي كلمةً في كلية العلوم وفي معهد الاستشراق الذي يديره ويشرف عليه الشيوعيون، وذلك كي يتحدث عن الإسلام.

وكان أمراً غريباً ومدهشاً أن يدخل عالم متعمم من رعايا الدول النامية إلى معهدٍ علميٍّ يضم أساتذةً على مستوى أساتذة الجامعات؛ ليلقي بينهم محاضرةً عن الإسلام وهم في بلدٍ لا يؤمن بالأديان، إنها أول حادثةٍ من نوعها في تاريخ الاتحاد السيوفياتي أن يُدعَى رجل دينٍ ليلقي عليهم محاضرةً عن الإسلام!

غير أن مهارة الشيخ في عرضه استطاعت أن تجتذب هؤلاء الأساتذة الكبار بعد أن أبدَوا استغرابهم؛ بل إعراضهم في بادئ الجلسة؛ إذ ما كاد يسير شوطاً في محاضرته

حتى تبددت سحب الوجوم والاستنكار، وبدت أمارات الإقبال على التعرف على الإسلام، وما كاد سماحته ينتهي من محاضرته هذه حتى كان هؤلاء العلماء قد سجل كلٌّ منهم ملاحظاته وأسئلته، وطلبوا من سماحته جلسةً للمناقشة.

وفي جلسة المناقشة بدَت آثار الإعجاب بسماحته منذ بدء الجلسة؛ إذ إن رئيس المعهد أفاض بالمدح والثناء على سماحة الشيخ مشيراً إلى سعة علمه وعمق فهمه، ثم تنازل عن إدارة الجلسة لسماحة المفتي معلناً أمام الجميع أنه يتنازل عن إدارة الجلسة لمن هو أقدر منه على ذلك! هذا مع العلم أن رئيس المعهد هذا لم يجد في سماحة الشيخ صفةً تكريميةً يذكُرها لسماحته -في الجلسة الأولى- إلا أنه رجل صديق للاتحاد السوفياتي.

وفي جلسة المناقشة تلك زال من أذهانهم ما كان يلتبس عليهم، وعرفوا الإسلام بوجهه الصافي، وعرفوا على وجه الخصوص سعي الإسلام لإقامة سلامٍ عالميٍّ مبنيٍّ على روحٍ من الإيمان والإخاء بين بني الإنسان، فأُعجِبَ الجميع إعجاباً منقطع النظير وشكروا لسماحته جهده هذا[1].

وركز الشيخ جهده في هذه المحاضرة ليشرح بالأدلة المقنعة دور الإسلام في تحقيق السلام العالمي والنهوض بالحضارة الإنسانية، وقدم أوفر الأدلة على تحقيق عبارة: (**إن التطور والحضارة الإنسانية يمكن أن تنطلق تحت راية الإسلام**)، وهذه العبارة بعينها هي الشعار الذي أطلقه بريجنيف رأس الدولة السوفياتية خلال كلمته التي وجهها إلى الشعب السوفياتي بمناسبة العيد الوطني للاتحاد السوفياتي في أكتوبر عام (١٩٨٢م) بعد محاضرة الشيخ كفتارو بشهور.

[1] مجلة المسلمون في الشرق السوفياتي العدد ٢ (٥٤) سنة (١٩٨٢م).

وفي عام (١٩٨٢م) دعا الاتحاد السوفياتي إلى مؤتمرٍ عالميٍّ لرجال الأديان في سبيل إنقاذ البشرية من الكارثة النووية، عُقِدَ في موسكو في أيار من ذلك العام.

وقد شارك الشيخ كفتارو في هذا المؤتمر بوصفه نائباً لرئيس المؤتمر[١]، وفي كلمته التي ألقاها بعنوان: **(المبادئ الدينية والروحية السلمية للأديان العالمية)** توجَّه إلى الزعامات الدينية المختلفة ليشرح لهم بطريقةٍ واقعيةٍ دور رجال الدين في مسألة السلام، وهو يتمثل في معالجة مشاعر البغضاء والكراهية التي يتورط رجال الأديان المحرفة بزرعها في الأجيال وعنها تنشأ بذور الحرب والخراب.

ثم طرح الفهم الإسلامي للسلام؛ إذ جعل منه تحية المسلمين واسم الخالق سبحانه، ثم أشار إلى أن الإسلام لم يقف عند حدود السلام، فالسلام هدنة بين متخاصمين على قلوبٍ تنطوي على مُرِّ الضغائن، أما هدف الإسلام النهائي فهو الرحمة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبيَاء : ١٠٧].

وانعقدت لمتابعة توصيات هذا المؤتمر ندوتان لاحقتان على مستوىً دوليٍّ تحت اسم: (مؤتمر الطاولة المستديرة)، عام (١٩٨٤م) وعام (١٩٨٦م)، وقد شارك الشيخ كفتارو في أعمال هذه الندوات ونشاطاتها[٢].

وفي حزيران عام (١٩٨٦م) قام مسلمو الاتحاد السوفياتي بأكبر نشاطٍ لهم منذ سبعين عاماً حين تنادوا إلى عقد مؤتمرٍ إسلاميٍّ عالميٍّ على أعلى مستوى، حيث شاركت أكبر المؤسسات الإسلامية في العالم؛ كرابطة العالم الإسلامي، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، وهي التي كانت إلى عهدٍ قريبٍ محظورة على حدود الإمبراطورية

[١] انظر: صحيفة الثورة السورية تاريخ ١٩٨٢/٥/١٨م، وانظر أيضاً: مجلة المسلمون في الشرق السوفييتي عام (١٩٨٣م) عدد (١)، مجلة المستقبل عدد (٢٤٩)، مجلة المجتمع عدد (٥٥٢) تاريخ ١٩٨١/١٢/١٥م.

[٢] صحيفة تشرين ١٩٨٦/٥/٢٠م، وانظر: ((صوت العرب)) عدد تشرين ثاني لعام (١٩٨٦م).

الحمراء، وبدا كما لو أن المؤتمر جاء تدشيناً لعهدٍ من البعث الإسلامي في تلك البلاد المرهقة.

وقد تولى سماحة الشيخ رئاسة بعض جلسات المؤتمر، وخلال كلمته المهمة طرح مشروعاً حقيقياً للإخاء الإنساني من خلال مؤسسة عالمية تجمع:

١- علماء أكاديميين محبين للسلام.
٢- رجال دين مجددين.
٣- رجال سياسة مخلصين.

وهذا الاقتراح وجد طريقه للوجود بعد أربع سنوات؛ أي عام (١٩٩٠م) في مؤتمر البيئة والحفاظ على الجنس البشري الذي أقامه المنبر العالمي تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة في موسكو، حيث جمع المؤتمر هذه الشرائح الثلاث كما سيرد معنا لاحقاً[1].

وفي العام نفسه التقى بالرئيس السوفياتي حينذاك أندريه غروميكو، وهو أعرق دبلوماسي في الإمبراطورية الحمراء، وقد ألقى الشيخ خلال هذا اللقاء كلمةً مهمةً جاء فيها:

منذ أربعين سنةً وأنا أعمل على تلاقي الدِّينَين الإسلامي والمسيحي، وإقامة جسور التعاون والتآخي بينهما... وقد استطعت بجهدي الشخصي أن أقرب بين هذين الدينين في مؤتمراتٍ عالميةٍ عُقِدت لهذا الغرض... لقد استطعت خلال أربعين سنة بالمحاضرات والمؤتمرات أن أبني جسوراً للتعاون والتآخي بين أبناء الديانتين لم تكن موجودةً من قبل... وهأنذا اليوم أطرح عليكم السؤال عن إمكانية إنشاء حوارٍ آخر بين العلم والعقل وبين الإيمان، بين العلم والدين لعلنا بذلك نستطيع أن نقيم بينهما حلفاً ليقفا معاً في

[1] انظر: الصفحة التالية من هذا الكتاب.

خندقٍ واحدٍ أمام دعاة الحروب والاستعمار، لا ليتحقق السلام العالمي فقط؛ بل لتتحقق الأخوة العالمية[1].

وما إن استمع السيد (غروميكو) لهذا السؤال حتى أبدى إعجابه، وأفاض في الجواب بضع دقائق، وكانت أول كلمةٍ قالها في ذلك: إن سؤالك لهامٌّ وجدير بالعناية والدراسة، وسنهتم به، وإنني أعتبر أن لقاءنا هذا نوع من أنواع الحوار المطلوب...، وختم جوابه بقوله: (وإننا نرحب بالفكرة).

وقد كان لهذا الاقتراح الذي رحب به السيد غروميكو أن يغير جهة النشاط الشيوعي في العالم لو قُدر له أن يرى النور.

فقد كان السيد غروميكو حينذاك يشغل منصب رئيس الاتحاد السوفياتي، في حين كان غورباتشيف الأمين العام للحزب الشيوعي، ولا شك أن خبرة السيد غروميكو وتجربته العريقة في إدارة الدبلوماسية السوفياتية وقيادته لها لأكثر من ربع قرن كانت كفيلةً بجعل هذا الاقتراح تحولاً صارخاً في تاريخ الحركة الشيوعية، ولا سيما بعد أن أقره وأمر بنشره في سائر وسائل الإعلام السوفياتية.

ولا يحتاج العاقل إلى جهدٍ كبيرٍ ليدرك بوضوحٍ أي نتيجةٍ يمكن أن يُسفِر عنها حوار العقل مع الدين الحق إذا تبنَّت قيامه ونتائجه دولة كبرى.

ولكن لم تمضِ إلا شهور قليلة حتى دخل غروميكو في صراعٍ مع المرض لم يطل حتى أودى بحياته وحياة المشروع معاً[2].

---

[1] عن صحيفة الشرق الأوسط، العدد (٣٥٠١)، تاريخ ١٩٨٨/٦/٢٩م، ص١٩.

[2] كتبت صحيفة (المسلمون) السعودية الواسعة الانتشار في عددها (١٠٣)، تاريخ ١٩٨٧/١/٣٠م، عنواناً كبيراً: (أول حوار إسلامي داخل الكريملين) تناولت فيه المجلة جهود الشيخ كفتارو المتواصلة في التعريف بالإسلام في

لقد أُتيحت للشيخ كفتارو فرص عديدة تحدث فيها من خلال وسائل الإعلام الشيوعية وعبر مؤتمراتها العالمية عن الدين كما هو في حقيقته رسالة تحرر ووحدة وخير، لا كما شاء أساطين الشيوعية أن يصوِّروه ويتصوَّروه من خلال تخلُّف المسلمين وجهلهم، وهكذا فقد كان الشيخ كفتارو صرخةً واضحةً انطلقت في العواصم الشيوعية، وأمكن أن تسهم مساهمةً كبيرةً في تخفيض حدَّة عداء المسؤولين الروس للإسلام، الأمر الذي كان سبباً من أسباب إعادة التفكير والبناء الذي أدى في النهاية إلى سقوط الإمبراطورية الحمراء بعد أن فقدت مبررات وجودها.

ولا شك أنه كان هناك أصوات كثيرة تعمل في هذا الاتجاه، وأن تعاون المخلصين من مختلف مواقعهم أسهم في القضاء على التناقض الذي أراد له الشيوعيون أن يبقى قائماً بين الحركة الإسلامية وأنظمة الحكم في آسيا الوسطى وكازاخستان وقفقاسيا وغيرها من المناطق الاسلامية.

وخلال نشاطه المتواصل في كفاحه ضد الإلحاد لم يفقد الشيخ كفتارو أمله الحي في مستقبل الإسلام، ولم يكن يرى في هذا العملاق الشيوعي الذي كان حينئذٍ يتعاظم يوماً بعد يومٍ مدعاة لليأس؛ إذ إنه تفهم تماماً سبب ولادة الشيوعية الذي يتحمل وزره الأكبر رجال الكنيسة الذين قدَّموا الدين على هيئةٍ يأباها العلم والمنطق، وقد تظاهر على توكيد هذا المعنى تخلف المسلمين وجهلهم، وفقدان القيادة الدينية الواعية لمتطلبات العصر.

مختلف عواصم العالم المتقدم، وهي جهود ظافرة واختراقات لحصون منيعة لم يسبق أن بلغها من قبل داعية مسلم كما أشارت الصحيفة.

وكان يؤكد دوماً كلمته المشهورة: الشيوعية تكنس الطريق أمام الإسلام، ذلك أن إقامة مجد الإسلام لا تكون إلا إذا تم هدم كل تصوُّرٍ فاسدٍ للدين، وهو ما يرى أن الشيوعية تقوم به من حيث تريد أو لا تريد.

وقد أمكنه أن يستخلص اعترافاتٍ ذات أهميةٍ بالغةٍ من أعلى الشخصيات في الكريملين، يُقرُّون فيها بأنهم لا يعرفون ما يكفي عن الإسلام، وهكذا فإن الإنسان دوماً عدوُّ ما يجهل، وعليكم أن تستمعوا أكثر لتعرفوا أكثر.

ومع مطلع الثمانينيات حيث شهد العالم ثورةً واضحةً في تكنولوجيا الاتصالات، ومع انتشار القنوات الفضائية ظهر أن المجتمع السوفييتي المغلق لم يعد مغلقاً، وأن كثيراً من المعارف التي كانت محرمة أصبحت في كل بيتٍ بالصوت والصورة، وهنا بدأ الشيخ أحمد يتحدث عن سقوطٍ قريبٍ للشيوعية بعد أن استنفدت أغراضها ومبررات وجودها.

ومع ذلك فإنه لم يكن يرى في الشيوعيين أشباحاً خاويةً من الخير، فقد كان يلتمس لهم فيما اختاروا أعذاراً كثيرةً، فلعلهم لم يسمعوا بالدين الحق، ولعل أوهام كنائس العصور الوسطى هي الدين الذي حاربوه، وكان منطقه الراشد في ذلك يتلخَّص في قوله: (إني لم أجد في حياتي ملحداً؛ لأن الذي ألحد لم يعرف الدين على حقيقته الناصعة، ولو عرفها لَمَا ألحَدَ أبداً، فإذا جاءك رجل الدين يخبرك بأن اللبن أسود وأنت تراه أبيض فما الذي يدعوك إلى تعطيل عقلك وتصديق وهمه؟ وهل يشفع له أن يقول لك: بل إن اللبن أسود، وقال الله إنه أسود، وعيناك تريانه أبيض؟! فهل يُلام العاقل حينئذٍ إذا أعرض عن رجل الدين واتَّهَمَ أفكاره؟!

إن ركاماً من الأوهام صاغته كنائس العصور الوسطى، وقدَّمته لخدمة القيصر الروسي تبرر له بطشه وطغيانه في المساكين من العمال والفلاحين على أساس أنها إرادة الله التي لا تُغالب ولا تُناقش، وهي التي جاءت بها الأنبياء ونصَّت عليها الكتب.

فهل يُلام العاقل حينئذٍ إن أنكر هذه الأوهام وجحد بها وقاد ثورته الحمراء ليبقر بطون جلَّاديه، وينتف لحى مَن زيَّنوا لهم البطش والطغيان باسم إرادة الله؟!).

ويروي الشيخ حكايةً طريفةً من تجربته في هذا الاتجاه في دمشق، فقد بدأ النشاط الشيوعي في دمشق قبل نحو ستين عاماً على يد فتىً كرديٍّ اسمه خالد بكداش، وقد مضى خالد بكداش ينادي بالشيوعية في الشرق الأوسط منذ منتصف الثلاثينيات، ومع أنه كان يقيم في حي الشيخ كفتارو فإن علاقته بالطبع لم تكن طيبةً مع الشيخ نظراً لاختلاف سائر المفاهيم بينهما اختلافاً جذرياً.

ومع ذلك فقد قرر الشيخ أن يتصدى له ويحاوره من خلال أسلوبه الإيجابي البناء، وهكذا فقد رصده في طريقه أمام داره وتلقَّاه ودعاه إلى داره للحوار والمناقشة، وتبع هذا اللقاءَ لقاءاتٌ كان الشيخ يشرح فيها دور الإسلام في محاربة الاحتكار والمظالم وأنظمته في توزيع الثروة وتحقيق التكافل الاجتماعي والإخاء الإنساني، وكان الناس يَعْجَبون من جلوس زعيم المسلمين وزعيم الملحدين على مائدةٍ واحدةٍ يتحدث فيها الشيخ عن الإسلام في حقيقته وجوهره بما لا يَسَعُ مكابِراً أن يتنكَّبَ عنه أو يتنكَّرَ له.

ذات مرةٍ التقى الرئيس السوري حافظ الأسد بالسيد خالد بكداش، فقال له مداعباً: بلغني أن الشيخ كفتارو قد أعادك إلى الإسلام، فهل هذا صحيح؟

وهناك قال زعيم الحزب الشيوعي السوري خالد بكداش:

أما الإسلام الذي أسمعه من سماحة المفتي فإنني بالفعل أضعه على رأسي[1]، وهل بوسع عاقلٍ في هذا العالم إذا استمع إلى الدين الحق أن يقول غير ذلك؟!

وفي عام (١٩٩٠م) حضر الشيخ كفتارو آخر مؤتمرٍ عالميٍّ له في الاتحاد السوفياتي قبل تفكُّكه، كان ذلك بدعوة من الأمم المتحدة تحت شعار: (المنبر العالمي حول البيئة والتطور من أجل البقاء الإنساني).

وفي هذا المؤتمر الفريد الذي انعقد من ١٥ إلى ١٩ من شهر كانون الثاني عام (١٩٩٠م) تبوَّأ الشيخ أحمد كفتارو موقعه كممثلٍ عن رجال الأديان في العالم؛ إذ كان المؤتمر يرمي إلى تعاون رجال السياسة والدين والعلم في العالم من أجل المحافظة على البقاء الإنساني في وجه التهديد النووي وتلوث البيئة[2].

وهكذا فقد ألقى السيد مخائيل غورباتشيف رئيس الاتحاد السوفياتي كلمة رجال السياسة في العالم، فيما ألقى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي كلمة رجال العلم، فيما أُسندت كلمة رجال الأديان في العالم إلى الشيخ كفتارو، ونُقِلَت الكلمات مباشرةً عبر الأقمار الصناعية إلى مئات محطات البث والتلفَزَةِ في العالم.

ولا شك أن اختيار هيئة الأمم المتحدة للشيخ كفتارو ممثِّلاً عن رجال الأديان في العالم يكشف لك عن مدى الاحترام والتقدير الذي لقِيَه الشيخ على المستوى العالمي في سعيه المتواصل من أجل توضيح صورة الإسلام المشرقة ودوره في خدمة الإنسانية على أبواب القرن الحادي والعشرين.

---

[1] وانظر: أيضاً تصريحاً قريباً من ذلك في كتاب: خالد بكداش يتحدث لعماد نداف ص٤٨.

[2] لاحظ الاقتراح الذي قدمه سماحة الشيخ كفتارو لإنشاء مؤسسة عالمية تجمع رجال الدين والعلم والسياسة، وذلك في المؤتمر الإسلامي (١٩٨٦م) بباكو، وهي عين ما دعي إليه هنا، انظر: الصفحتين السابقتين من هذا الكتاب.

وفي الجلسة الختامية للمؤتمر تم الاتفاق على عقد المؤتمر مرةً أخرى في اليابان عام (١٩٩٣م)، وقد اتفق أن يسمَّى الشيخ أحمد كفتارو رئيساً عاماً لمؤتمر المنبر العالمي وفق اقتراح اللجنة التوجيهية للمؤتمر.

ونكتفي هنا بإيراد خبر المؤتمر تاركين تحليل نتائجه وثماره الهائلة إلى البحث الخاص بنتائج حركة حوار الأديان التي قادها الشيخ نحواً من نصف قرنٍ من الزمان.

ولكن جهده الأوضح في خدمة مسلمي الاتحاد السوفياتي إنما بدأ بعد أن تكسرت الأغلال الحديدية الحمراء التي كانت تطوِّق رقابهم وتحُول بينهم وبين التواصل العملي مع إخوانهم المسلمين في الأرض، ومع ترنُّح ذلك العملاق الشيوعي المريض وبدء حملات البيروسترويكا والغلاسنوست كان الشيخ يجري اتصالاته مع المراكز الإسلامية في أراضي الاتحاد السوفياتي، وقام خلال ثلاث سنوات (١٩٨٨-١٩٨٩-١٩٩٠م) بزياراتٍ متلاحقةٍ إلى الاتحاد السوفياتي يواصل الإعداد لمشروعه الإسلامي الذي رصده لخدمة هذه الشعوب المظلومة.

وخلال جلسات البحث والدراسة مع إخوانه ومعاونيه في المجمع الإسلامي بدمشق تم إعداد برنامجٍ متنوعٍ من خمسة محاور بغرض خدمة مسلمي الاتحاد السوفياتي:

الأول: تقديم منح دراسية خاصة لمسلمي آسيا الوسطى وقفقاسيا وما حولها بغرض تخريج دعاةٍ عاملين، يجمعون بين ثقافة العقل والقلب والكتاب والروح، من خلال دراسةٍ خاصةٍ أُعِدَّت لهم في جامع أبي النور في برنامجٍ مكثفٍ يمتد إلى ست سنواتٍ، فيه المعارف الشرعية والبرامج التعبدية، وصحبة الذاكرين والعارفين وملازمة الدعاة الناجحين، مع التأكيد الدائم على دور الحكمة والوعي في قيادة أي عملٍ إسلاميٍّ.

وقد تم بالفعل بدءاً من عام (١٩٨٨م) منح مئات المنح الدراسية للمسلمين من أوزبكستان وتركمانستان وقيرغيزستان وداغستان والشيشان وكبردينيا وتتاريا وجركيسيا، وتخرَّج من هؤلاء عدد من الدعاة الناجحين راحوا يمارسون واجبهم في خدمة الدعوة الإسلامية.

الثاني: إيفاده دعاة عاملين من مجمع أبي النور الإسلامي إلى تلك البلدان، وذلك أداءً لرسالة البلاغ الحق التي أخذ الله ميثاق العلماء عليها.

وبالفعل فقد تمَّ رصد رواتب مقبولة لهؤلاء الدعاة وبُدِئ بإرسالهم منذ مطلع التسعينيات، حيث أُوفِدَ عدد من الدعاة لينقلوا تجربة الدعوة الناجحة التي أداها الشيخ على خير وجهٍ[١].

ولن أنسى في هذا الإطار أن أشير إلى شهيد الدعوة الأستاذ الحبيب عبد الوهاب قانقوش الذي طالته يد الغدر يوم ١٩٩٤/١٢/٦م وهو يقوم بواجبه في الدعوة في جمهورية كبردينيا بلقار الواقعة إلى الغرب من شيشانيا.

وقد تشرفت بإلقاء كلمةٍ خاصةٍ في حفل التأبين الذي أُقيم له في مجمع أبي النور الإسلامي يوم الجمعة ١١/آذار/١٩٩٥م، حيث حضر الحفل سماحة الشيخ كفتارو وأَمَّ الآلاف من المؤمنين في صلاة الغائب على روحه الطيبة.

وكان السيد عبد الوهاب قانقوش قد أُوفِدَ من قِبلِ مجمع أبي النور في أوائل مَن أوفد إلى قفقاسيا، حيث قام بتأسيس مركزٍ إسلاميٍّ كبيرٍ على أرضٍ مساحتها عشرة

[١] يمكن الاطلاع على بعض اتفاقيات انتداب الدعاة في الكتاب الذي أصدرته دار إقبال بدمشق عام (١٩٩٤م) تحت اسم: مجمع أبي النور الإسلامي بدمشق – الدورة التأهيلية الأولى للأئمة والخطباء والمدرسين الدينيين من البلدان الناطقة بغير اللغة العربية.

آلاف مترٍ مربعٍ في مدينة نارت قالا قرب نالتشك، وتمت تسميته: مجمع النور الإسلامي، وفاء مع مجمع أبي النور في دمشق، وقد حدثني أحد أصدقائه أن عبد الوهاب أخبره ذات يومٍ أنه تلقَّى تهديداً من مجهولين إذا مضى في مشروعه الإسلامي، ولكن ذلك لم يصدَّه عن المضي فيما ندب له من رسالة شريفة، حتى إذا مضى عام على تخصيص أرض مجمع النور الإسلامي في نارت قالا، وتم بناء الطابق الأول، وبدأت دراسة العلوم الشرعية فيه؛ جاءه مجهولون في جوف الليل وقتلوه خنقاً في حُجرته التي لم يكن له فيها زوجة ولا أولاد ولا أصحاب[1]، يريدون بذلك أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمَّ نوره ولو كره الكافرون.

وأذكر أن كلمتي في المأتم كانت مؤثرةً موجعةً؛ إذ عرضتُ لواجب المسلمين في الأرض تجاه إخوانهم في قفقاسيا وآسيا الوسطى وكازاخستان الذين صبروا سبعين عاماً أو يزيد لا يبدلون ولا يغيرون رجاءَ أن يسعد أبناؤهم بالإسلام من منابعه الأصيلة.

وعرضتُ لخبر وفاة عبد الوهاب قانقوش، وقلت: إن أشبه يومٍ بيوم استشهاده هو يوم صاحب رسول الله ﷺ خبيب بن عدي الذي بعثه رسول الله ﷺ داعياً إلى قبيلتي عضل والقارة في جماعةٍ من أصحابه، فغُدِرَ به عند ماء الرجيع ثم حُمِلَ إلى مكة، ولما وُضِعَ على خشبة الصلب قال له أبو سفيان: يا خبيب، أتودُّ أن تكون في أهلك ومالك ويكون محمد مكانك، وهناك قال خبيب: والله ما أرجو أن أعود إلى أهلي ومالي وولدي وأن يُشَاكَ رسول الله بشوكةٍ في أخمصِ قدمِه.

وهناك على خشبة الموت قال خبيب ما قاله كل شهداء الدعوة فيما بعد:

لقــد جمع الأحزابُ حولي وألَّبُوا قبــائلَهم واســـتجمعُوا كــلَّ مجمعِ

[1] فتحت السلطات المحلية في كبردينيا بلقار تحقيقاً رسمياً خاصاً حول الجريمة ولم تظهر نتائجه بعد.

إلى الله أشـــكو غُربتي ثم كُربتي وما أرصدَ الأحزاب لي عندَ مَصْرَعِي
وذلك في ذاتِ الإله وإنْ يَشَـــأْ يُبَارِكْ على أوصـــالِ شِـــلْوٍ ممزَّعِ
ولســـتُ أُبالي حين أُقتَلُ مســـلماً على أيّ جَنْبٍ كان في الله مَصْـرَعِي

إنها قافلة البلاغ لا تمر إلا على جماجم الدعاة ودمائهم الزكية.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البَقَرَة : ٢١٤].

الثالث: تأسيس معاهد شرعية في تلك البلاد تلتزم منهج مجمع أبي النور في التربية والسلوك والتوجيه، وقد تم ذلك بالفعل من خلال الإفادة من المساجد والمدارس القائمة، ومن خلال شراء أراضٍ جديدةٍ وإنشاء المراكز والمدارس الإسلامية عليها.

وقد تم بالفعل عقد اتفاقياتٍ مختلفةٍ لتفعيل أكثر من عشرة معاهد شرعية في داغستان والشيشان وجركيسيا وموسكو وغيرها.

وأشير هنا إلى جمهورية داغستان بالذات؛ إذ كان لي نصيب من الاهتمام بها في أكثر من مناسبة[1]، فقد تقدم الدعاة هناك إلى السلطة القائمة بطلبٍ يرجون فيه تخصيصهم بقطعة أرضٍ لإنشاء مسجدٍ عليها، ولكن كان جواب السلطة حينئذٍ أن بوسعكم أن تختاروا أي مقرٍّ من مقرات الحزب الشيوعي البائد وتحويله إلى مركزٍ إسلاميٍّ،

[1] قمت عام (١٩٩٠م) بإصدار كتاب بعنوان: أشواق داغستان، عرضت فيه لتاريخ داغستان وجهاد أبنائها، وذلك في مقدمة كتبتها لقصيدة رائعة في المديح النبوي للشاعر الداغستاني نجم الدين بن دنوغونة، وهي قصيدة نادرة أعدها بحق من روائع الأدب العربي، وقد تناولتها في الكتاب بالشرح والتحقيق، وتقع القصيدة في ٣٦٢ بيتاً من الشعر، وقد صدرت منه الطبعة الثانية عام (١٩٩٥م) تتضمن دراسة حول القضية الشيشانية.

وبالفعل فقد تم اختيار أربعة مراكز؛ واحد في الجنوب، وواحد في الشمال، وثالث في العاصمة (محتش قالا)، ورابع في مدينةٍ ساحلية.

وهكذا تحولت تلك المباني الباذخة التي بناها الشيوعيون من جهد البروليتاريا، وتفننوا في زخرفتها وتشييدها بنشاط مَن ظنَّ أنه لا يموت، وادَّخروها صروحاً ليحاربوا بها الله، فجعلها الله سبحانه مراكز يوحَّد فيها الله، واللهُ غالبٌ على أمره ولكن أكثرَ الناس لا يعلمون!

الرابع: تنظيم دورات خاصة لتقوية الأئمة والخطباء والدعاة العاملين في تلك البلاد.

إن عودة هذه الشعوب إلى المساجد عقب انهيار الشيوعية كانت عمليةَ طفرةٍ لم يسبق لها إعداد، وهكذا فقد وجد الناس ذلك العملاق الغاشم الذي صادر حريتهم الدينية عشرات السنين يترنَّح ويتهاوى، وأقبل الناس على المساجد المقفلة يفتحونها ويعيدون إليها الحياة بعد تعطيلٍ دام سبعين عاماً أو يزيد.

وهكذا فإن ستين مليوناً من المسلمين يحتاجون على أقل تقديرٍ إلى ستين ألفاً من الدعاة، بمعدل واحدٍ لكل ألفٍ، وأنت عليم بأن التعليم الشرعي كان محرَّماً في تلك البلاد إلا بمقدار ما يحتاجه الإعلام الخارجي، وهكذا فإن الوضع الجديد أفرز هموماً جديدةً، ووجد كثيرون من عامة الناس وأنصاف المتعلِّمين أنفسهم على المنابر وفي المحاريب لضرورة سدِّ الفراغ الناشيء، فعلى سبيل المثال وعقب انهيار الشيوعية في ألبانيا تم بين عامَي (١٩٩١-١٩٩٢م) افتتاح نحو ألف وأربعمئة مسجدٍ في ألبانيا، وذلك خلال فترةٍ بسيطةٍ وقصيرةٍ، ولا يخفى حينئذٍ أن أنصاف المتعلِّمين أصبحوا في مواقع قيادةٍ دينيةٍ تتطلَّب كفاءة مميزة ومعارف محترمة.

وهكذا فقد اختار الشيخ أن يتعامل مع هذا الواقع الجديد، وتم تنظيم دورات مكثفةٍ خلال الصيف تستمر الواحدة منها مئة يومٍ، يمكن من خلالها منح هؤلاء الدعاة أهم المعارف الشرعية والحقائق العرفانية وفق منهجٍ مكثفٍ جداً أُعِدَّ خصيصاً لهذه الدورات وبمشاركة خِيرة علماء الشام ومفكريها.

وخلال أعوام (١٩٩٣-١٩٩٤-١٩٩٥م) فإن مئاتٍ من الدعاة في مناطق الاتحاد السوفياتي السابق (قفقاسيا خاصةً) قدِموا إلى الشام، فأفادوا من هذه الدورات وأغنَوها، وكما تعلموا فيها معارف جديدة فإنهم منحوا أبناء دمشق نفحات إيمانية عظيمة حين كان أبناء دمشق يستمعون إلى جهادهم وصبرهم ويلمسون ارتباطهم العظيم بالأمة الإسلامية[١].

وقد عرفت تلك الشعوب الصابرة الوفاء لهذا الجهاد المبرور، فقد بلغت كلمته الصادقة مبلغها في تلك الآفاق، ووجد المشتاقون إلى المجد الإسلامي منهج ذلك الانطلاق، ووصلوا ما بينهم وبين الشام برباط المحبة والشوق.

وحين قام في أواخر عام (١٤١٠هـ-١٩٩٠م) بزيارة جبال القفقاس كان يقلب بصره في تلك الوجوه الصادقة ذات الملامح الجبلية القاسية، ينتظر وعد الغيب الآتي من تلك القمم الشاهقة المخبر بأن الخلود في الأرض لكلمة الإيمان.

[١] يمكن الحصول على أرقام تفصيلية ودقيقة عن نتائج هذه الدورات من خلال الكتاب الذي تصدره سنوياً دار إقبال بعنوان: الدورة التأهيلية للأئمة والخطباء والمدرسين الدينيين من البلدان الناطقة بغير اللغة العربية في مجمع أبي النور الإسلامي.

وأختم الحديث عن نشاط الشيخ كفتارو في البلاد التي كانت خاضعةً للحكم الشيوعي بهذه المقتطفات من صحيفة (الحقيقة) التي تصدر في داغستان في عددها الصادر في ١٩٩٦/١/٢٠م:

(إن الشيخ كفتارو لم يفكِّر يوماً ولا لحظةً أنْ يذكر للداغستانيين ما يقدم لطَلَبتهم من الخدمات حتى يكافئوه على ذلك أو يثنوا عليه، ولكن يقال: «إن الجمل لا يخبأ في الهشيم» كذلك فإن سعة أفقه العلمي، والعقل الراجح، والفكر العميق، وبُعد النظر، وخبرته في جمع كلمة سائر الخلق ليست مخفية؛ إذ لا توجد بقعة في هذا العالم الواسع لم يوصل إليها الشيخ كفتارو نور الإسلام، إننا نأمل أن يكون في داغستان أحمد كفتارو من جنسها)[1].

[1] من تحقيق مستفيض نشرته جريدة (الحقيقة) الداغستانية، عدد، ١٩٩٦/١/٢٠م، ترجمة السيد مرتضى علي بن محمد الداغستاني.

في إيران:

إيران... المجد والتاريخ والأساطير، والحب والجمال... فردوس الإسلام الروحي، حواضرها مصارع العشاق، ورياضها فراديسهم، وجبالها مكامن الإلهام، جاء وافدها سلمان الفارسي إلى مدينة النبي ﷺ وكأنما كان قدَراً تخيَّره الله عز وجل ليقوم برسالة المودة في القربى، وهي الوصية التي أهدرتها الأمة زمناً، حتى جاءت بها الرايات السود من خراسان، وحضنتها القلوب البيض في طهران.

وإذا كان لكل بلدٍ إسلاميٍّ رسالة فإن رسالة إيران المودة في القربى، وإلى ذلك فإن أعلام اللغة والتفسير والفلك والتصوف في إيران لا يُحصَون كثرةً وعدداً، ولو كان للقلم أن يجري كما يشاء لسطَّر لك أخباراً ممتعةً عن أعلام إيران؛ كسيبويه صاحب اللغة، والفيروزأبادي صاحب القاموس، والطبري صاحب التاريخ والتفسير، وعمر الخيام صاحب الفلك، والغزالي إمام التصوف، وغيرهم من أعلام إيران العاملين في شتى المعارف الإسلامية.

كانت إيران بالنسبة للشيخ مُنيةً يشتاقها وأملاً يسعى إليه، فهي رمز لخمسين مليون مسلمٍ ينتشرون في الأرض، يصطرع فيها تياران: تيار ثارات الحسين، وتيار عفو الحسن، فبينما يشتد المغالون في تصوير العالم الإسلامي في حالة ردةٍ مستمرةٍ منذ بُويع الصديق أبو بكر فإن ثمَّة تياراً آخرَ يدعو إلى نبذ الخلاف والفرقة، والدخول في جنة الجماعة، وترك الماضي للماضي، وجمع الأمة الواحدة التي تؤمن بالكتاب ذاته والنبي ذاته والعقيدة ذاتها.

وصلة الشيخ بالمسلمين الشيعة قديمة قديمة من أيام الشيخ أمين كفتارو -رحمه الله- الذي كان يتولى بنفسه رعاية (العلويين) في جبل قاسيون، فقد أوَتْ هذه الطائفة إلى

جبل قاسيون فراراً من المظالم التركية، حيث كان السلطان يرى فيهم عدواً تقليدياً محسوباً على الدولة الصفوية التي كانت في حالة حربٍ شبه دائمةٍ مع الأتراك العثمانيين.

ولكن هؤلاء وقد فرُّوا من الاضطهاد التركي لم يجدوا بين إخوانهم في الشام تفهماً لمعاناتهم، فقد نُظِر إليهم من قِبَل العامة على أنهم أتباع عقيدةٍ منحرفةٍ، وقد قام بعض مَن يتصدَّر المحاريب والمنابر بتعميق هذه الهوَّة حتى أصبح القوم في غربة فوق غربتهم تكاد تتمزق أواصرهم مع كل نشاطٍ إسلاميٍّ طيبٍ من حولهم.

ولكن الشيخ أمين كان يتولَّاهم بنفسه بالزيارة والمعونة والمودة، ويشرح لهم حب أهل السنة لأهل بيت الرسول ﷺ، وحتى اتصل منهم ما كان قد انقطع، وأصبحوا إخواناً للشيخ يودهم ويودونه، واليوم ورغم مرور نحو ثمانين عاماً على ذلك فإن أبناء حي المتاولة يعرفون ذلك للشيخ أمين، وأظهرُ الأمثلة على ذلك أنهم يتواصَون أن يُصلَّى على أمواتهم في جامع أبي النور؛ إذ يرون فيه رمزاً حقيقياً للوحدة الإسلامية.

كذلك فإن الشام سعدت في منتصف هذا القرن بإمامٍ شيعيٍّ نادرٍ هو الشيخ محسن الأمين العاملي الذي كان مثَلاً نادراً في السعي إلى الوحدة والجماعة وإزالة الفرقة والاختلاف.

وقد اتصل الشيخ كفتارو بالسيد محسن الأمين[1] على الرغم من فارق السن بينهما، وتعاون معه في تنظيم لقاءاتٍ عدةٍ بغرض جمع القلوب وإزالة الخلاف[2].

---

[1] محسن الأمين بن عبد الكريم الحسيني الفاطمي الهاشمي، ولد في جبل عامل (١٢٨٢هـ-١٨٦٥م)، ثم رحل إلى النجف فدرس بها، وعاد فاستقر بدمشق ونبغ بها، وأشهر كتبه: كتاب أعيان الشيعة، طبع بعد وفاته في أربعين مجلداً، اشتهر بالإصلاح الديني والاجتهاد المذهبي، وكان بإجماع العارفين من أبرز دعاة الوحدة الإسلامية في بلاد الشام، توفي في بيروت عام (١٣٧١هـ-١٩٥٢م)، وحمل جثمانه إلى دمشق حيث دفن في السيدة زينب.

[2] الدعاة والدعوة ص٥٠٤.

وكانت أول زيارة للشيخ إلى إيران عام (١٩٧٢م)، حيث ألقى عدداً من المحاضرات في المجامع والحوزات العلمية في طهران، والتقى عدداً من الزعماء الدينيين في إيران، وأنشأ صلةً وثيقةً بالزعيم الإيراني آية الله الشيرازي الذي جاء إلى دمشق فيما بعد عام (١٩٧٨م).

كما أُعِدَّ له لقاء خاص بشاه إيران استغرق ساعةً ونصف، طرح فيه الشيخ مبدأ العودة إلى العالم الإسلامي، وأفاض في وصف قوة هذا العالم الإسلامي وموقع إيران منه، وقدَّم أكثر من اقتراحٍ يبين فيه أن مصلحة إيران الحقيقية تتمثَّل في التزام موقفٍ إسلاميٍّ ملتزمٍ بقضايا العالم الإسلامي وقضية القدس خصوصاً، ولكن لم تجد هذه الاقتراحات سبيلاً إلى النور، ومضى الشاه في سبيله الذي اختاره حتى جاء التغيير بعصا الليمون لا بشرابه.

ومع أن لقاءه مع شاه إيران لم يغير من الواقع شيئاً غير أنه أفاد من زيارته تلك في إطلاق شعارات التقريب بين السُّنَّة والشيعة، ليس على أساس التقاصص والتعاتب وإنما على أساس بناء الوحدة الإسلامية التي هي مصلحة للطرفين.

وفي كلمته التي ألقاها في جامعة طهران قال الشيخ: (إذا كانت السُّنَّة هي العمل بكتاب الله وسُنة رسول الله فكلُّنا سُنَّة، ومسلم لا يلتزم السُّنَّة فليس بمسلمٍ، وإذا كانت الشيعة هي محبة أهل بيت رسول الله والانتصار لهم فكلُّنا شيعة، ومسلم لا يتشيع فليس بمسلم، وإذا كانت السُّنة والشيعة أسماء نتسمَّى بها فتفرق جماعتنا وتهدم وحدتنا فنحن نبرأُ إلى الله من ذلك كلِّه ونتسمَّى بما سمَّانا به القرآن الكريم ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج : ٧٨] ، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء : ٩٢]).

وطلب الشيخ من لجنة المراسم أن تهيّئ له زيارةً خاصةً للمناطق الكردية في إيران، وهناك بدأت صلته بعالمٍ كبيرٍ هو الشيخ عثمان سراج الدين النقشبندي، وهو أحد أعلام التصوف الكبار في العالم الإسلامي، وتفهم الشيخ عن قُربٍ مشاكلَ الأكراد في إيران الذين كانوا يشكلون غالبيةً من السنة، وتوثقت الصلات مع الشيخ عثمان سراج الدين الذي انتقل فيما بعدُ إلى تركيا، وما زال حتى اليوم يقوم بدورٍ كبيرٍ في خدمة التصوف الإسلامي.

وقد تواصلت روابط المودة والأخوة مع زعماء الشيعة في إيران، وكان أبرزها زيارة آية الله العظمى الشيرازي إلى دمشق، حيث ألقى في جامع أبي النور كلمةً مهمةً عقب محاضرة الشيخ كفتارو جاء فيها:

(لقد كنا نعتب على الشام وأهل الشام وتاريخ الشام، والآن أمكننا أن نتعرف إلى جيل الوحدة الإسلامية في الشام الذي يرعاه الشيخ أحمد كفتارو، وأقول: لقد أصبحنا نحب الشام وأهل الشام وتاريخ الشام، وسنمضي مع الشيخ كفتارو في جمع هذه الأمة الإسلامية تحت راية: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢]).

وحينما سقط حكم الشاه، وأغلقت في طهران سفارة إسرائيل، وفتحت أول سفارة لفلسطين؛ هلل المسلمون في الأرض، وتعلقت أبصارهم وآمالهم بعمائم قادة الثورة في إيران، وأسس الشيخ كفتارو صلاتٍ طيبةً مع قيادات الثورة في إيران ومندوبيها في دمشق.

وفي شباط عام (١٩٨٢م) قام الشيخ كفتارو بزيارة إيران والتقى لقاءً مطولاً مع رئيس الجمهورية السيد خامنئي، ووافاه بتجربته في الدعوة، وأشار إلى ما يجب فعله لوضع حدٍّ للحرب العراقية الإيرانية التي تشتعل في المنطقة بلا هدفٍ ولا غايةٍ، منبّهاً

إلى آثارها البعيدة في خَلق جوٍّ من القطيعة بين السُّنَّة والشيعة في العالم الإسلامي[1]، ولكن سياق الأحداث جعل من هذه المقترحات صرخةً في وادٍ ضاعت فيما ضاع من جهود المخلصين.

كما التقى الشيخ كفتارو بالزعامات الدينية العلمية: آية الله شريعتمداري، وآية الله السيد منتظري، وآية الله نجفي مرعشي، وآية الله كلبايكاني.

وقد تركت زياراته انطباعاً قوياً في إيران، وقد عاد يتحدث عن تيارٍ مخلصٍ في إيران، حريصٍ على وحدة المسلمين، ينبغي أن تُقدَّم لتشجيعه كل الوسائل المعنوية حتى ينهض برسالة التقريب.

وبعد شهورٍ قام السيد هاشمي رفسنجاني بزيارةٍ إلى دمشق، وكان حينذاك رئيس مجلس الشورى الإيراني، واشتُهر بأنه الرجل القوي في إيران، وقد أصبح اليوم رئيساً لجمهورية إيران للمرة الثانية، وخلال زيارته هذه فإنه خصَّ مجمع أبي النور بالزيارة، وهو خلاف البروتوكول الدبلوماسي، وهناك التقى الشيخ كفتارو وإخوانه، وتحدث طويلاً عن مستقبل الإسلام مستبشراً بوجود قياداتٍ إسلاميةٍ واعيةٍ كالشيخ كفتارو[2].

---

[1] وجه الشيخ كفتارو عدة نداءات إعلامية على المستوى المحلي والدولي لوقف الحرب بين العراق وإيران، وقد كان إسهامه في هذا الواجب مميزاً ومؤثراً، وكانت الدوائر المعينة تتلقى هذا النداء بالاهتمام، ولم يكف عن عقد اللقاءات بهذا الغرض خلال سنوات الحرب المتواصلة حتى كتب الله نهاية هذه الحرب، انظر مثلاً: النهار العربي والدولي اللبنانية العدد (٤٧٣) تاريخ ١٩٨٦/٥/٢٦م، وقد كانت صحيفة النهار تتخذ حينئذٍ موقفاً غير مؤيد للسياسة السورية، ولكنها أشارت إلى نداء المفتي حينذاك على أنه موقف جريء وإيجابي.

[2] لدى زيارة السيد هاشمي رفسنجاني لدمشق أعدت له القيادة السورية برنامجاً خاصاً يتناسب مع موقعه كرئيس للسلطة التشريعية، ولكن لدى وصوله اتصل بالشيخ كفتارو وطلب لقاءً خاصاً معه، وبالفعل تم اللقاء عشية يوم خميس من شتاء (١٩٨٣م) في قاعة جامع أبي النور، وكنت فيمن حضر اللقاء، وقد استهلَّه السيد رفسنجاني بقوله: (إني لك عاشق يا شيخ كفتارو)، واستغرب الحاضرون هذا الاستهلال؛ إذ لم يسبق للرجلَين أي لقاء من قبل

وكذلك فقد زار جامع أبي النور في ١٩٨٤/١١/٢٤م آية الله أردبيلي الرئيس الأعلى للسلطة القضائية في إيران، وألقى كلمةً في جامع أبي النور، وكانت مناسبة مهمة للحديث عن الوحدة الإسلامية.

وبالجملة فإنه قلَّ أن يأتي زعيم من زعماء الثورة الإيرانية إلى دمشق إلا ويأتي إلى مجمع أبي النور ويتحدَّث مُطوَّلاً إلى الشيخ كفتارو الذي أصبح يمثِّل بحقٍّ قطباً إسلامياً تأنَسُ به سائر القيادات الإسلامية على اختلاف مشاربها ومذاهبها.

ولكنَّ ألمه المِمِضَّ كان في أخبار تلك الحرب المشتعلة طوال ثمان سنين، والتي كان المسلمون وقودها على الجبهتين، وكان الرابح الأوحد فيها هم تجار السلاح ومَن يقف وراءهم من الدول الكبرى.

ومن أجل ذلك فقد قام مرةً أُخرى بزيارة إيران خلال عام (١٩٨٧م)، وأفاد من لقاءاته وصلاته القوية بالقيادات الإيرانية ببذل كل ما يمكن بذله من حججٍ وبراهين لإقناع أصحاب القرار بإصدار نداءٍ إسلاميٍّ لوقف الحرب والبدء بلملمة الجراح[1].

ولا شكَّ أن هذا النداء كان واحداً من مئات النداءات التي وجهها مخلصون كُثُر، وأدت في النهاية غايتها حينما أعلن بالفعل عن وقف الحرب.

ذلك، فما وجه هذا العشق؟ وهنا طفق رفسنجاني يتحدث بقوله: (حين زار الشيخ كفتارو إيران في عام (١٩٧٢م) كنت في سجون الشاه حينئذٍ، وكنت أقرأ في السجن محاضرات الشيخ ولقاءاته في طهران، ودعوته للوحدة الإسلامية ما جعلني أتعلق بهذا الرجل وأعشقه، ومنذ ذلك الحين فأنا أنتظر فرصةً لزيارة دمشق ولقاء هذا المفكر والقائد الإسلامي الكبير، كامل اللقاء مسجل بالكاسيت ومحفوظ في أرشيف دار القرآن بدمشق.

[1] انظر مثلاً: بعض ما أشارت إليه الصحافة ونداءاته المتواصلة لإنهاء الحرب، السياسية الكويتية عدد (٦٣٨٣) تاريخ ١٩٨٦/٥/١٣م.

وإذا كان قرار الحرب والسلام مسؤولية رجال السياسة فإن مسؤولية رجال الدعوة قد بدأت تتعاظم بعد ذلك؛ إذ إن الهوَّة تباعدت كثيراً بين السُّنَّة والشيعة، وقد قاد الجانب العراقي هذه الحرب على أساس أنها حرب بين السُّنَّة والشيعة؛ بل طرح شعار: مسلمون ومجوس، وقد وقع عرب كثير في أتون هذه الحرب الظالمة من غير أن يتنبهوا إلى المآل الذي قادتهم إليه فيما بعد.

وبعد أن توقفت طبول الحرب الآثمة قام الشيخ كفتارو بزيارة إيران مرات عدة، وقد طرح مشروعاً إسلامياً كبيراً يضمن عدم قيام حروبٍ إسلاميةٍ – إسلامية في المستقبل، وذلك من خلال قيام مجلس شورى إسلامي لا تقوده الحكومات، وإنما تسيره إرادة علماء العالم الإسلامي وحكمائه، يخوَّل وحده بإعلان الحرب والسلام وفق مصالح المسلمين العليا، وغني عن القول أن مثل هذا المجلس لو كتبت له الحياة فإنه لن يتخذ على الإطلاق وتحت أي ظرفٍ قراراً بحربٍ إسلاميةٍ إسلامية.

ولم يصدر حتى الآن شيء عملي حول قيام مجلس شورى إسلامي باستثناء تصريحٍ لرئيس الجمهورية الإسلامية في إيران تضمَّن الترحيب بمشروع الشيخ كفتارو في ذلك الحين، ولعل الأيام تُسعدنا برؤية مثل هذا الفتح الإسلاميّ عن قريب.

عودة إلى جامع أبي النور:

مع انطلاق نشاط الشيخ في الخمسينيات والستينيات كان الناس يقدمون من محافظات سورية ولبنان للمشاركة في هذا الفردوس الروحي العارم، وكان الشيخ يجعل من يوم الجمعة وليلتها نشاطاً متواصلاً يجمع قيام الليل والعلم الشرعي والتوجيه العملي، وجرت عادة إخوان الشيخ أنْ يصلوا إلى جامع أبي النور كل أسبوعٍ عصر الخميس فيعتكفون إلى عشية الجمعة.

وما زال الرعيل الأول من إخوان الشيخ يذكرون تلك المجالس وما كانت تغمرهم به من نشاط روحي وإيماني يصحبهم زاداً وذخيرةً في كل مسعاهم ونشاطهم.

وكانت خطة الشيخ في التربية تتلخص في إعداد الدعاة وبنائهم روحياً وعلمياً، ثم توجيههم لينفروا في قُراهم وبلداتهم وأحيائهم يعقدون للناس مجالس الذِّكر على أصول الطريقة النقشبندية يتخلَّل ذلك شيء من التوجيه والتعليم، وببركة التوجيه والتعليم والذكر والصحبة كانت تصلح أحوال ناسٍ كثيرٍ، فيأتون إلى مسجد أبي النور ليصبحوا بدورهم دُعاةً عاملين.

وهكذا فإنه يمكن القول: إن ألوف الشباب الذين أدركوا تلك الفترة من حياة الشيخ كانوا يوماً ما على رأس حلقةٍ تربويةٍ تضمُّ طائفةً من الشباب، وكانت هذه الحالة تتكرر في كل جيلٍ، ومع أنه يصعب رصد هذه الظاهرة بالأرقام نظراً لأنها ذات طابعٍ متحولٍ متنقلٍ وغير رسمي فإنه لا يصعب إدراك عُمقها في المجتمع وتأثيرها في الناس من خلال ما تحصَّل منها من تيار الانفتاح والتجديد وعودة الشباب إلى الإسلام.

وكان الناس يعجبون لهذا النشاط الكبير إذا ما جاؤوا إلى زيارة مركزه في جامع أبي النور الذي لم يكن في الحقيقة إلا مسجداً قديماً صغيراً ألحقت به عدة حُجُرٍ متوزعةٍ

وباحة صغيرة، ولكنه على ذلك كان مقصد كل زائرٍ إلى الشام وموئل الشباب التائب، ومنه تنطلق وجوه الدعاة في رسالة الإصلاح والتجديد.

وفي مطلع السبعينيات تأكدت الحاجة لإنشاء مجمعٍ كبيرٍ يربط هذا النشاط ويستوعبه، وفق منطقٍ مستقبليٍّ سديدٍ، وهكذا فقد ودع إخوان الشيخ تلك الحُجُر القديمة في المسجد، وبُدِئ بإنشاء المجمع الإسلامي اعتباراً من عام (١٩٧٢م).

وفي عام (١٩٧٥م) أسس الشيخ المعهد الشرعي للدعوة والإرشاد بقسميه الذكور والإناث في الطابق الأول من جامع أبي النور، واختار له مجموعةً من طلاب العلم، وافتتحه ولم يُجهَّز بعد بالنوافذ والبلاط والتجهيزات الأخرى اللازمة، وكان الطلاب يحضُرون الدروس في الشتاء البارد، لا يحميهم إلا ستائر من القماش تمنع دخول الهواء البارد إلى الغرف التي لا أبواب لها، وذلك رغبةً من الشيخ في الإفادة من عنصر الزمن.

وخلال سنوات قليلة استُكمِلَ البناء بأدواره الثمانية ليستقبل أكثر المشاريع خيراً وبركةً على بلاد الشام.

وكان أول ما صنعه الشيخ بمعهده أنه نثر فيه رجال المعرفة بالله من ذاكرين وعارفين ممَّن درج معهم في العبادة والمحبة والذكر، ومن العلماء المتخصصين، أمثال: الشيخ محمود الرنكوسي وبعض إخوانه، والشيخ بشير الباني، والشيخ رجب ديب، والشيخ عمر الصباغ، والأستاذ أبو الخير الصباغ، والشيخ بشير الرز، والشيخ صالح السقا، والشيخ أحمد الكناكري وغيرهم.

فكانوا يقيمون مع هؤلاء الطلَبة في زوايا المسجد، فيفتحون أذواقهم على رحيق العبادة وحقائق الشهود وعجائب التصوف، إضافةً إلى منهاجٍ علميٍّ متينٍ أعدَّته لجنة مختصَّة وفق مناهج الأزهر الشريف.

إلى النمسا:

لم تكن العلاقات بين أوربا والبلدان العربية طيبةً في أواخر الستينيات وفي السبعينيات، وذلك نظراً لمواقف هذه الدول المؤيدة لإسرائيل في حربَي حزيران وتشرين، وهذا ما جعل من زيارات الشيخ كفتارو للعالم الغربي قليلةً خلال هذه الفترة، على الرغم من أنه كان يعتقد جازماً أن العالم الغربي أفضل ساحات الدعوة إلى الله نظراً لحرية الفكر والإعلام الموجودة فيه، ولانتشار الثقافة والمعرفة وسقوط التعصب الديني الأعمى على المستوى الفردي على الأقل.

وخلال هذه الفترات وُجِّهت إليه عشرات الدعوات إلى عواصمَ كثيرةٍ في الغرب، ليشارك في مؤتمراتٍ ويحاضر في جامعاتٍ، ولكنه لم يشارك فيها خشيةَ أن تكون هذه المشاركة ذريعةً تفيد منها إسرائيل، إقراراً لمطامعها أو تأييداً لمواقفها في العدوان على العرب.

ولذلك فقد آثر الشيخ كفتارو أن يتوجه بنشاطه خلال هذه الفترات إلى المجتمعات الإسلامية والدول الاشتراكية التي كانت تؤيِّد بصفةٍ عامةٍ موقف العرب في الصراع في فلسطين وذلك من (١٩٦٧م حتى ١٩٨٥م).

ولم تسجَّل له خلال هذه الفترة أي زيارةٍ لأوربا باستثناء زيارته للنمسا (١٩٧٩م) وزيارة أخرى للعلاج في لندن عام (١٩٨٥م)، حيث أُجرِيت له عملية جراحية في فقرات الظهر.

ولا شك أن مواقف هذه الدول كانت أسىً بالغاً في نفس الشيخ كفتارو، فقد كانت هذه السنوات فترة نضج الشيخ وحيويَّته، وكان في نفسه كلام كثير يودُّ أن يبلغ

به مسامع العقلاء في الغرب حول الإسلام الذي يجهلونه فيحاربونه، ولو أنهم سمعوه كما أنزله الله لأتَوا إليه مذعنين راغبين.

ومما يدعو للأسف أن هذه الفترة شهدت نشاطاً غير عاديٍّ للحركات الإسلامية المتطرفة التي كانت تفيد من الحرية الممنوحة للإعلام الغربي فتتخذ منها منابر لفكر الكراهية والبغضاء، وتقدم طروحات عدوانية باسم الإسلام تدعو إلى استباحة النصارى في دمائهم وأموالهم، وتسفِّه كل رأي يتجه للحوار أو التعاون أو التفاهم، ولم يكن ثمة سبيل أفضل للتنفير من الإسلام خيراً من تشجيع مثل هذه التيارات.

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه!

وفي نيسان (١٩٧٨م) وصل إلى دمشق رئيس أساقفة النمسا الكاردينال (كوينغ)، وهو شخصية كبيرة في المؤسسة الكنسية وله نفوذ كبير في الفاتيكان، وخلال زيارته لدمشق التقى بالشيخ كفتارو، وجرى خلال اللقاء حوار إسلامي مسيحي سادت فيه روح التفاهم والتعاون.

وفي جامع أبي النور ألقى الكاردينال كوينغ كلمةً عقب محاضرة الشيخ كفتارو، وقد أدهشه ما رآه من تزاحم ألوف الشباب في محاضرة الشيخ.

وعقب المحاضرة قدم إليه الشيخ كفتارو أحد تفاسير القرآن الكريم، ولم يكن منه إلا أن قبَّله ووضعه على رأسه في موقفٍ غير معتادٍ من رجال الكنيسة الكاثوليكية التي لا تزال ترفض الاعتراف بالإسلام كدينٍ سماويٍّ.

وعقب عودته إلى النمسا قام بتوجيه دعوةٍ خاصةٍ للشيخ كفتارو لزيارة النمسا، وقد أدخل الشيخ كفتارو بعض التعديلات على برنامج الزيارة قبل أنْ يوافق على تلبيتها، وتمَّ له ما أراد.

وبالفعل فقد سافر الشيخ كفتارو إلى النمسا في ١٤/٥/١٩٧٩م، وأجرى هناك لقاءاتٍ وحواراتٍ عديدةً مع أساقفة فيينا عرض فيها الرأي الإسلامي، كما أجرى لقاءاتٍ صحفيةٍ وإذاعيةٍ، واستقبله كلٌّ من الرئيس الاتحادي ورئيس الحكومة، وأجرى مباحثات مع المستشار النمساوي (رئيس الوزراء) (برونو كرايسكي) وغيره من الشخصيات النمساوية، وكما أكَّد في أحاديثه الصحفية على الرغبة في التفاهم الديني واللقاءات الأخوية بين المسلمين والمسيحيين، وبيَّن أن الطريق لتحقيق ذلك شاقَّة وطويلة، وأنها (لا يمكن أن تُقطَع إلا بخطواتٍ قصيرةٍ، وأن الوقت الراهن هو وقت الزرع، وأن الثمار المرجوَّة سوف تنمو ببطءٍ شديدٍ، ولكنها ستعود بالفائدة على العالم بأسره)، كما بيَّن أن الوقت قد حان لتلاقي الإسلام والمسيحية[١].

كما قام بزيارة المركز الإسلامي في فيينا، وكان لمَّا يكتملْ بعدُ، والتقى المشرفين عليه، واجتهد أن يبذل النصيحة الصادقة في توجيه مركز العمل الإسلامي لدى قيامه؛ ليكون سفيراً ناجحاً لقضايا العالم الإسلامي ورسولاً أميناً لنقل الفكر الإسلامي.

وقامت الجهات الثقافية المختصة باتخاذ كل التدابير المناسبة ليقوم الشيخ كفتارو بإلقاء محاضرةٍ خاصةٍ عن الإسلام بجامعة فيينا، وبالفعل فقد قام بإلقاء تلك المحاضرة القيِّمة بعنوان: **(وحدة أصول الأديان السماوية واللقاء بين الإسلام والمسيحية)**

[١] الدعاة والدعوة، ص٦٦٥.

وأنقل لك بعض ما كتبه الأخ الباحث الدكتور محمد حسن الحمصي عن هذه المحاضرة، راح يقول:

لقد نزلت شرائع الله كلها لتؤكد هذا المعنى، وجاء أنبياء الله في مراحل مختلفةٍ من حياة البشر ليبيّنوا للناس أن دين الله واحد، وأن رُسُل الله ما هم إلا إخوان متحابون لا عداء بينهم ولا خصام، وأن الغرض من رسائلهم واحد، وأن الذي بعثهم جميعًا بأصول هذا الدين واحد، وأن هذه الأصول لا تَخَالُفَ فيها ولا تَبَايُنَ، هذه الحقيقة حتى تتركزَ في عقول الأجيال وتنطبع في وجدان الناس وقلوبهم لا بد لها من جهدٍ وبذلٍ وتعاونٍ وثيقٍ وتَلَاقٍ أكيدٍ بين المفكّرين في العالم ومن شتى رجال الديانات السماوية، وهذه فكرة وعقيدة أعمل لها منذ خمسٍ وثلاثين سنة ولا أزال، وأوصي وأبشّر بها كل مؤمنٍ ومخلصٍ.

لقد دفعني إلى هذه الدعوة –فضلاً عن أنها سبيل سعادة الناس وجعلهم يعيشون في صفاءٍ لا حقد بينهم ولا بغضاء– دفعني إليها أيضاً آيات من القرآن الكريم والإنجيل الكريمين تثبت كلها وحدة الأديان السماوية في أصولها العقائدية وأهدافها الإنسانية.

وها هو ذا القرآن يبيّن وبكل وضوحٍ بأن أقرب الناس إلى المسلمين إنما هم النصارى؛ لما يتمتعون به من علمٍ وتقوى، ومكارم أخلاقٍ كثيرة يلتقون فيها مع أتباع النبي محمد ﷺ، فيقول:

﴿* لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المَائِدَة: ٨٢ - ٨٣] إلى أن قال: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المَائِدَة: ٨٥].

(نتيجة لهذا البيان الإيجابي حول موقف الإسلام والقرآن من المسيحية والإنجيل السماوي اندفع كثير من المسيحيين الأقدمين؛ ليقابلوا تكريم الإسلام ونبيَّه للسيد المسيح وتعاليمه، فأعلنوا إيمانهم وتقديسهم للنبي محمد ﷺ وتعاليمه ووصاياه؛ بل زاد بعضهم بتقديم معوناتٍ ماديةٍ ومعنويةٍ للمسلمين، مما ساعدهم على تثبيت مواقفهم ونشر دعوتهم السماوية كما فعل النجاشي ملك الحبشة المسيحي في القرن السادس الميلادي، حيث هاجر إليه عدد من المسلمين المضطهدين، لقد طلب ملك الحبشة آنذاك أن يستمع من المسلمين إلى بعض آيات القرآن وما يقوله حول السيد المسيح ودينه.

ولما قُرئت أمامه بعض الآيات القرآنية صار يبكي هو ورُهبانه إيماناً وخشوعاً، ثم أعلن اعترافه بنبوة محمد ﷺ وتعاليمه قائلاً: إن ما جاء به السيد المسيح والنبي محمد ﷺ إنما يخرج من ينبوعٍ واحدٍ)[1].

(لقد عرفناكم من خلال قرآننا وأوامر نبينا فاعرفونا، وصافحناكم بأمرٍ من نبينا وقرآننا فصافحونا، وعانقناكم فعانقونا، ودرسناكم دراسة أخوَّةٍ وحُبٍّ من خلال ديننا وفقهنا فادرسونا، وقدَّسنا السيد المسيح وإنجيله السماوي وأمه العذراء فردوا التحية بمثلها أو بأحسنَ منها، وإني لأشبِّه ابتعاد بعضنا عن بعضٍ كمثل أخوين ضاع أحدهما عن الآخر سنوات عدة، وفي يومٍ من الأيام وبينما كان أحد الأخوين يمشي في فلاةٍ من الأرض شاهد عن بُعْدٍ جسماً يتحرك ظنَّه وحشاً فهيأ سلاحه لقتله، ولما اقترب أكثر وصار على مقربةِ أمتارٍ منه إذا به وجهاً لوجهٍ مع أخيه الذي ضاع عنه لسنواتٍ، فتعانقا وانهمرت دموع الفرح والسعادة بلقائهما بعد غيبةٍ طويلةٍ.

[1] الدعاة والدعوة، ص٦٦٨.

ولا ينقصنا إلا أن نقترب ونقترب، وعندها لا بد إلا أن نرى أنفسنا إخوة متعاونين متفاهمين، هذا اللقاء والتعاون سيكون قريباً بإذن الله وبجهد المؤمنين والمخلصين من أبناء كل دينٍ سماويٍّ، ولن يكون أمامنا من عقباتٍ –بعون الله– سوى عقبة واحدة، ترى هل نستطيع أن نتغلب عليها؟ إنها عقبة لا تزعج المؤمن ولا يهتم لها؛ بل يفرح بها ويُسَرُّ، ألا وهي غضب الشيطان من لقائنا، ورضاء الرحمن وأنبيائه والمؤمنين في كل مكانٍ عن تعاوننا[1].

وقد بلغت كلمته تلك مداها وغايتها في مسامع عاصمةٍ صليبيةٍ عريقةٍ، فقد سمعوا لأول مرةٍ صوت الإسلام حبيباً أليفاً قريباً، وكانت ذاكرتهم لا تعرف عن الإسلام إلا تلك الحملات الإنكشارية التي وجهها السلاطين العثمانيون لغزوهم وحربهم، والتي كانت عادةً تتكسَّر عند أسوار فيينا، تلك الغزوات التي يجب أن نقول بإنصاف: إنها لم تكن تمثِّل في شيءٍ ذلك الفتح الراشدي الذي سعدت به الأمة في عصور مجدها الغابرة يوم كان الفتح حقيقةً رسالة دعوةٍ وتحريرٍ وتسامحٍ دينيٍّ وتواصلٍ إنسانيٍّ[2].

---

[1] مجلة صوت العرب، أيار (١٩٨٦م).

[2] لقد كان أول مظاهر الفتح لدى العثمانيين أنهم كانوا يغلقون كنائس القوم ويحولونها إلى مساجد، ويقتلون الرهبان والكهنة ورجال الدين، أين هذا من هدى الفتح الراشدي المتمثل في قول أبي بكر رضي الله عنه: (لا تقتلوا طفلاً ولا امرأة، ولا تهدموا بيعة، وستجدون أقواماً نذروا أنفسهم في الصوامع، فذروهم وما نذروا أنفسهم لأجله)؟! وهل في القدس أو دمشق أو حلب أو بيروت أو مصر أو غيرها من المدائن التي فتحها الراشدون كنيسة هدمت أو كاهن ذبح؟ أين هذا من سلوك الإمام الراشدي عمر بن الخطاب حين أدركته الصلاة وهو في كنيسة القيامة، فقام لأداء الصلاة عند درج الكنيسة وقال للنصارى: أخشى إن صليت بداخل كنيستكم أن يأتي ناس من بعدي فيقولون: ههنا صلى عمر، فيغلبوكم على كنيستكم؟! ولكن الذي كان يوجه نشاط العثمانيين في شرق أوربا هو رياح الكراهية والبغضاء التي خلفتها فلول جيوش الفرنجة (الصليبيين) حينما ولَّوا عن سواحل الشام وتركيا خائبين، وإن ما تشهده اليوم البوسنة والهرسك من مظالم آثمة ما هو إلا بقية من آثار حروب الفرنجة

وقد كتبت الصحف النمساوية أحاديث مطولة لخبراء في السياسة والدين والاجتماع تناولوا بالثناء والشكر كلمة الشيخ كفتارو على أساس أنها تطرح معاني جديدة للتفاهم والتلاقي بين أهل الديانتين الأعظم: الإسلام والمسيحية[١].

ولم يرق ذلك بالطبع لتيارات التشدد والتطرف التي تنتشر عادةً في صفوف مسلمي أوربا الشرقية من أصلٍ تركيٍّ، والذين رأوا في هذا الطرح تناسياً للجروح المؤلمة التي خلَّفتها حروب الفرنجة (الصليبيين) وما يعقبها، فكتبوا في ذلك نشرات مختلفة تندِّد بهذا اللقاء وآثاره، وقد وزع منها بعض النسخ في تركيا خصوصاً[٢].

ونسي هؤلاء أن مصلحة المسلمين الحقَّة هي أن يعودوا إلى قراءة الخلق من خلال القرآن الكريم والسنة الصحيحة حيث تتبدَّى رحمة الإسلام بالعالمين، وليس من خلال المواقف التاريخية التي تورط فيها الناس، والتي يقضي الحق أن يتحمل وزرها أصحابها الذين شاركوا فيها، ويُسألون عنها يوم القيامة، وأن لا يحولَ ماضٍ أسود دون قيامنا بواجبنا في الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته ومدِّ جسور الحوار والتفاهم مع سائر الخلق.

وبمثل ذلك النقد أو أعنف واجه المتشددون النصارى من أصول صربية وسلافية هذا المسعى الذي قام به الكاردينال كوينغ، حيث تسبب في إضعاف روح الحقد والبغضاء التي يرون أن وجودها ضمانة لبقاء حماسة النصارى للتبشير في بلاد المسلمين.

(الصليبيين) وردود أفعالها التي يتحمل وزرها عند الله البابا أوربان الثاني الذي أعلن بدء الحروب الصليبية وسائر الأشرار الذين دفعوه إلى الجرائم ومشَوا بعدُ في هواه.

[١] انظر مثلاً: جريدة (MKKZ) الألمانية، تاريخ (١٠/٥/١٩٧٩م)، وجريدة (الصحافة) النمساوية (Diepresse)، تاريخ (٦/٥/١٩٧٦م) و(١٧/٥/١٩٧٩م)، وكذلك صحيفة (الشرق الأوسط) العربية، تاريخ (١٦/٥/١٩٧٩م)، وصحيفة (البعث) السورية، تاريخ (١٨/٥/١٩٧٩م).

[٢] نشرة وزعها أحد المراكز الإسلامية في آخن أحتفظ بنسخة منها.

وأيّاً ما كان فقد كانت زيارة الشيخ كفتارو للنمسا بداية نشاط له في أوربا أثمر فوائد جمة على صعيد التعريف بالإسلام والحوار الإسلامي المسيحي، وليس أدل على ذلك من المجموعات النقشبندية التي تعاظم نشاطها في المجتمع النمساوي المسيحي، وقد دخلت بالفعل مجموعات جديدة من النمساويين في الإسلام[1].

[1] انظر: صورة الوفد النمساوي لدى دخوله في الإسلام بجامع أبي النور (الصور الملونة).

وفاة زاهر كفتارو:

وفي عام (١٩٧٩م) عرضت للشيخ محنة قاسية موجِعة، وهي وفاة نجلِهِ الداعية الشيخ زاهر كفتارو، فقد كان زاهر موهبة إسلامية مشتعلة، تميز بشخصيته القوية وقدرته على التأثير والإقناع، وخلال عشر سنواتٍ تقريباً قام فيها على منبر جامع لالا باشا بدمشق، وأصبح مسجده مقصداً لشباب الصحوة الإسلامية، حيث كانوا يفترشون الحصير على رصيف المسجد حتى امتلأت النفوس بالآمال، وتعلَّقت العيون بموهبةٍ يُنْتَظَر منها الخير الكثير.

وفي أعوام (١٩٧٧م) و(١٩٧٨م) قام الشيخ زاهر بإلقاء محاضرات الجمعة في المسجد الأموي بدلاً عن أبيه، وهي أكبر المجالس حضوراً في الشام، حيث كان حرم المسجد الأموي يمتلئ على رحابته بالحضور القادمين من مختلف أنحاء دمشق والمحافظات السورية، فكان الأمل به يتعاظم كل يوم، وكان أوضحَ مظهرٍ لاستمرار رسالة الشيخ في الدعوة والتجديد.

ولكن مَن يدري؟ فقد كان في لوح القدَر شيء آخر، وكان هذا الشاب الطامح على موعدٍ آخر مع إرادة الله الباقية، فقد كُتب له أن اعتمر مع والده في مطلع عام (١٩٧٩م)، وتخيَّرَ لنفسه زيّاً وهيئةً تليقُ بما وطَّن نفسه لأجله، وكان قد استكمل عامه الثاني والثلاثين عندما جاءت رصاصة غدرٍ آثمة وأودت بحياته في بستانٍ قُرْب قرية المليحة بدمشق، حيث ينزل الصحابي الجليل سعد بن عبادة.

وكان الأشرار الذين ارتكبوا الجريمة قد قصدوا أن يُفْجَع الشيخ بأنجاله الثلاثة معاً: زاهر ومحمود وحسن، وبالفعل فقد استُشهِدَ زاهر، وأُصِيبَ محمود في مقتله، وجازت

رصاصة ثالثة بحسن، غير أن إرادة الله قضت الشهادة لزاهر وكتبت الحياة لأخوَيه، ولا رادَّ لِمَا قضى الله وقدَّرَ.

وكان مساء يوم الخميس ١٩٧٩/٢/٢٢م مساءً عجباً، فقد كان إخوان الشيخ في جامع أبي النور ينتظرون شيخهم، وعلى غير عادةٍ طال الوقت من غير أن تأتي إشارته، فقام الشيخ عمر الصباغ بإلقاء المحاضرة وهو لا يعلم أخبار ما يجري، ولكن لم يطل مقام القوم حتى جاء غراب البَين بنبأ الفاجعة، وتواثب الناس يسأل بعضهم بعضاً، ولم يدرِ الناس ما يقولون، أيمكن أن نتصور أن الأمل كله تهدم في ساعةٍ واحدةٍ، وأن ضربة طائشٍ حطمت من الآمال ما استغرق بناؤه سنين متواصلة؟!

وفي صباح الجمعة احتشدت الألوف من الناس لوداع ذلك الأمل الإسلامي ولتعزية الشيخ في مُصابه، وكان أول المعزِّين هو السيد الرئيس حافظ الأسد بنفسه الذي فاجأ الناس بوصوله قبل الظهر ليقدِّم بنفسه التعزية مباشرةً للشيخ.

ولا شكَّ أن هذا الموقف يعكس لك نبل الرجل ووفاءه، فقد تجاوز كل البروتوكولات والأعراف التي تقضي بقيام وزير شؤون الرئاسة بأداء هذه المراسم في مختلف المستويات، والذي أعرفه من حياة السيد الرئيس أنه ذهب شخصياً مرتين فقط لأداء التعزية بمواطن في سورية، **الأولى**: في وفاة زاهر ابن الشيخ أحمد كفتارو، **والثانية** في وفاة زوجة الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري[١]، وتعكس الأولى منزلة الشيخ التي تعاظمت في زيادة الحركة الإسلامية، كما تعكس الثانية رعاية السيد الرئيس للأدب العربي ورموزه.

ولا شكَّ أن ذلك كله يجسِّد صورةً حقيقيةً لوفاء السيد الرئيس حافظ الأسد الذي أصبح مكرمةً يتحدث بها الناس.

[١] الجواهري: محمد مهدي، شاعر عراقي مهاجر يقيم في دمشق.

وعلى الرغم من هول الموقف وكثرة الجراح فقد اختار الشيخ أحمد أن يقف بنفسه على جثمان ولده يتحدث عن القضاء والقدر، ويصبِّر أحبابه وإخوانه.

وقد ألقى كلمة الرثاء الشيخ أحمد راجح، والأستاذ مروان شيخو عضو مجلس الشعب، وكانت كلمةً بليغةً مؤثرةً، ثم ألقى الشيخ بشير الرز خطبة الجمعة، كما ألقى الشاعر زهير ظاظا قصيدةً شعريةً مؤثرةً أقتطف لك منها هذه الأبيات:

صدعٌ أَلَمَّ بركبنا وبلاء
رباه ليس لنا سواك عزاءُ
صدعٌ به باتت طليعتنا وفي
فمها الرثاء وفي الفؤاد بكاءُ
صدعٌ وأيةُ رؤبة ستسدُّه
ما لم يكن لله فيه قضاءُ
من كان يدري أن ضربة طائش
سيخر منها للدعاة لواءُ
مَن كان يدري أن ساعد زاهر
وهي التي تقري الفرى وتشاءُ
ستلوح من جنح الغروب وما بها
إلا الوداع تزفه الأنواءُ؟
يا قاسيون: إليك منا نعوة
نعطيكها وأكفُّنا صفراءُ
عن زاهر الركب الحنيف ومن ترى
ذاك الشهيد ومن له آباءُ
هذا ابن خير رجال جلَّق نسبةً

آباؤه الشجعان والعلماءُ
يا شيخنا إني أقول رسالةً
باسم الجميع ختامها الإهداءُ
كل الطليعة زاهر فانعم بها
والحشد هذا كله أبناءُ
يا رب لم نسألك رد مقدَّرٍ
لكنَّ لطفك تسأل الرُّؤفاءُ
فارحم مودَّعنا وجمِّلنا على
أن لا تشتت قلبنا الضراءُ
واحفظ لنا محمود واجبر ساعداً
لأخيه ليس لهم سواك وقاءُ
هذا رجاء العابدين لكم وفي
دار المشيئة لا يخيب رجاءُ

وفي جوٍّ متوتر ملتهب حيث يضج قاسيون بصيحات التهليل والتكبير، ويتبارى الشعراء والخطباء في إلهاب المشاعر، وتتوالى دموع الأسى والحزن على الوجنات؛ نهض ذلك الشيخ الذي أوهنته الجراح وقد سُجِّيَ أمامه ولده الأمل، وهو لا يدري أمر ولده محمود أحيٌّ يُرجى أم ميت يستغفر له؟! نهض عملاقاً يتسامى على جراحه ويقرأ على الجموع المحتشدة موعظة الصبر المُرة القاسية من غير أن يفقد أعصابه الفولاذية حتى كأنه قُدَّ من صخر، وأمكنه أن يأخذ بسلطان الحكمة والعقل رعونة الطيش الجامحة فسلمت له مسيرته في تلك الأيام العصيبة.

ومن كلمته في ذلك اليوم أختار لك هذه الفقرات:

وبعد... إن الإنسان في هذه الحياة ما خُلِق ليكون مخلَّداً فيها، خُلِق ليتزود منها بالعمل الصالح، لينتقل مزوداً بإيمانه وتقواه للقاء ربه لينعم بحياة الخلود في فردوس الله، هذه سُنَّة الله وقانونه في كل خلقه من عهد آدم وإلى أن يرِثَ الله الأرض ومَن عليها، لقد توفي الأنبياء والرسل والصالحون بمختلف أنواع الميتات، فكثير من الأنبياء قُتلوا، وكان معظم المسلمين في عهد رسول الله ﷺ يموتون شهداءً، وكان القليل منهم مَن يموت على فراشه، والموت ما هو كما يظن الناس أنه عدم وفناء، إنما هو انتقال من حياةٍ دنيا إلى حياةٍ أرقى بحسب شفافية الإنسان وإيمانه الذي هو قوة صلته بالله وما يترشح من هذه الصلة من فضائل ومكارم وأخلاق وإنسانية وسلوك صادق.

والآن فقيدنا عليه رحمة الله، ولدي وأخوكم زاهر، هذه سُنَّة الله في خلقه، فرسول الله لقي أشد البلاء في حياته، وتوفي رسول الله متأثراً بالسم، وسيدنا عمر استُشهد في المحراب، وعثمان وهو يقرأ القرآن، وسيدنا عليٌّ وهو في طريقه إلى المسجد، وسيدنا الحسين بعد أن احتزَّ أعداء الله رأسه داسوا جثته بسنابك الخيل حتى سوَّوْا به الأرض، وهو ابن بنت رسول الله! فهذه سُنَّة الله في الكون، وقد قُتل في سبيل الله أنبياء وأولياء وصالحون، وتلك سبيل لست فيها بأوحدٍ!

زاهر قُتِلَ مظلوماً بغير حق، وأنا أحتسبه عند الله، وأتعزى بما روي في الحديث القدسي: ((إذا وجهت إلى عبدٍ من عبيدي مصيبةً في بدنه أو في ولده أو في ماله، فاستقبله بصبرٍ جميلٍ استحييتُ منه يوم القيامة أن أنصبَ له ميزاناً أو أنشرَ له ديواناً)) [1].

زاهر كولدٍ لم يكن يهمني كثيراً، والموت شأن هذه الحياة، وكلنا ميتون، ولكني كنت أتوسم وآمل وأبذل جهدي وطاقتي في إعداده ليكون داعياً إلى الله، يخدم دينه وإسلامه وأمَّته وعروبته، وكان نعم الموهبة لو كُتِب لها البقاء، ولكن الله أغيَرُ على دينه، وقد توفي

[1] الحكيم عن أنس، كنز العمال ٣/٦٥٦١.

رسول الله ﷺ ولم يتوقف الإسلام؛ بل انتشر وتوسَّع، فأرجو من الله أن يجعل من كل واحدٍ منكم زاهراً وأزهرا.

الصحابة كانوا أفضل من زاهر وقد مات كثير منهم شهداء سعداء، وبرنامجي وعهدي الذي أعهده إليكم، وأركز على كل إنسانٍ ألقاه من كبير أو صغير، من مسؤول وغير مسؤول، من رجل دين ورجل دنيا، ليست لديَّ أسرار، ليس لي هم في الليل والنهار إلا الإسلام، الإسلام الذي هو الحياة الرفيعة، الحضارة الراقية والعلم الغزير والوحدة الفولاذية، والجهاد الذي لايهاب الموت؛ بل الموت يهابه!

فأرجو الله أن يشمر كل واحدٍ منكم لساعة الجد... المعركة رهيبة وهائلة، الآن الحرب الصليبية أعظم من الحروب الصليبية التسعة التي هزمها صلاح الدين بالإسلام، وهزمها نور الدين بالإسلام، الآن حرب صليبية أوربا مع أمريكا ومعها الصهيونية العالمية، ومعها الماركسية اللينينية التترية، فإذا عاد العرب إلى الإسلام بجوهره وحقيقته، لا رجوع التَّزمُّت والرهبانية، ولا رجوع البغضاء والأنانية، رجوع ما كان عليه رسول الله ﷺ إلى الحياة، إلى الفكر، إلى العقل، إلى الاتحاد، إلى المحبة، إلى التعاون، فإن وعد الله آتٍ، لا يُخْلِفُ الله الميعاد، وإن تنصروا الله ينصركم ويثبِّت أقدامكم.

ثم قال: فأنا أشكركم على تشييعكم لفقد أغلى أولادي عليَّ، عليه رحمة الله، أنا أريد الولد الذي يكون كله للإسلام، كله لأمَّته، كنت أتوسَّم فيه الخير ولكن الله اختاره إلى جواره، وجواره مع الله خير من جواري، وعناية الله به إن شاء خير من عنايتي.

وخلال أيام العزاء الثلاثة جاءت سائر الشخصيات العلمية والسياسية والدينية لتشارك الشيخ في المصاب، وكان أغرب ما رآه الناس حينئذٍ أن الشيخ لم يوفر كلمة خيرٍ يمكن أن تجد موضعاً في مسمع زائريه بالموعظة إلا ونصحَ بها، فكان ربما تكلم في

يوم العزاء الواحد خمس مراتٍ أو أكثر، يتخلل زائريه بالموعظة ويصبّرهم حتى كأنهم طُرقوا دونه بالمصاب وحصل دونهم الثواب، وبالفعل فإن تلامذة الشيخ لم يحمدوا أياماً ربا فيها الإيمان في قلوبهم وبلغوا ما هانت به عليهم مصائب الدهر مثل هذه الأيام الثلاثة التي كانت مدارس نادرة في الصبر واليقين.

رحم الله زاهر حياً وميتاً وأحسن إليه وأكرم نُزُله، وما أصدق ما قيل:

كفى حزناً بموتك ثم أني
نفضت غبار تربك من يدي
وكانت في حياتك لي عِظَاتٌ
وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وتمكن الشيخ بهدوئه واتّزانه أن يكفَّ صيحات الثأر والطيش التي صرخ بها الشباب الهائج، ودعاهم إلى التعقل والاحتكام إلى القانون، وثبت للناس أنهم أمام نوعٍ فريدٍ من القيادة الواعية المتماسكة، ومضى الشيخ يلملم جراح إخوانه وأحبابه، ويرقأ جرحه الدامي، ويستأنف رسالة البلاغ: **الإسلام باقٍ والأشخاص يزولون**.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأَنبِيَاء : ٣٥]

بعد زاهر:

ومضت محنة زاهر بما خلَّفَتْه في قلبه من جروح وقروح، ولم يسجل عليه خلال هذه المحنة كلمة في التشفي أو الانتقام، واستقبلته عقب ذلك أيام سورية السوداء في مطلع الثمانينيات، وفيها ظهر اتزانه وعمق بصيرته.

وقاد الشيخ نشاطه الإسلامي وخصوصاً في تلك الفترة العصيبة من خلال التركيز على تحقيق التآخي بين العروبة والإسلام، والتوكيد على أن سعي القوميين وخصوصاً الإسلاميين لا ينبغي أن يكون سعياً متناقضاً؛ بل إن ثمة أكثر من سبيلٍ لجعل هذا النشاط متواصلاً متكاملاً يشدُّ بعضه أزرَ بعض.

ولما عصفت بسورية أحداث (١٩٨٠م) و(١٩٨١م) و(١٩٨٢م) أمكنه أن يحفظ للحركة الإسلامية في سورية برزخاً تفيء إليه، وتسلم به كوادرها ومؤسساتها من خلال ما اختَطَّه لنفسه من منهج الحكمة الإيجابي في حديثه الدائم عن وجوب تعاون المؤسسة الدينية مع الحكم الوطني، وتمييز اختصاص كلٍّ في خدمة المصلحة العامة.

وحصدت تلك الفتنة الطائشة كثيراً من الشباب، ووقع في غرورها قيادات إسلامية متعددة، ولكن الشيخ كفتارو بقي حصناً منيعاً لا يطمع في النيل منه إلا أحمق أو طائش، وبقي ملاذاً للعاملين في الحقل الإسلامي من أهل الحكمة والبصيرة، وطعن في هدوئه هذا ناس من أهل الطيش والرعونة، ولكن ما أسرع ما جاءت الأيام بصدق ما قال، وأصبح العقلاء يسمُّون الشيخ كفتارو: **شيخ الحكمة**.

اسمع نصيحةَ مَنْ يكادُ لعِلْمِه بالدَّهر يدري اليومَ ما يأتي غدا

في ألمانيا الديمقراطية:

وفي عام(١٩٨٠م) وجه إليه نائب رئيس جمهورية ألمانيا الديمقراطية دعوةً رسميةً لزيارة ألمانيا الديمقراطية بغرض التعريف بالإسلام، ونظمت له لقاءات متعددة لرجال الثقافة والعلم والسياسة، وخلال الزيارة التقى الرئيس الألماني (آريش هونيكر)، وتمكن من عرض الإسلام بالصورة التي يحب ويتمنى، كما التقى بكلٍّ من نائب رئيس الدولة السيد (كيوزي)، ورئيس جامعة الصداقة بين الشعوب السيد (كوتينكن)، ورئيس اتحاد الكنائس الإنجيلية في ألمانيا الأسقف (بيشوف شين هير).

وكان من أبرز ثمرات هذا اللقاء الكبير جلسة المباحثات الرسمية التي أُقيمت مع رجال اللاهوت في جامعة برلين برئاسة عميد كلية اللاهوت الدكتور (بيرنهارت) التي استغرقت ساعاتٍ طويلة، وخرج الفريقان منها ببيانٍ مشتركٍ يعتبر اختراقاً واضحاً لحدود المجاملات المألوفة؛ إذ أقرَّ علماء اللاهوت المجتمعون –وعددهم مئة وتسعة وعشرون عالماً لاهوتياً– بالحقيقة الخالدة، وهي وحدانية الله ونبوَّة المصطفى ﷺ والالتزام ببشرية السيد المسيح ورسالته.

وعبارة البيان واضحة في ذلك:

لقد اتفقنا في الإيمان بالله الواحد الأحد الصمد خالق السموات والأرض كما نتفق في أنه لا إله إلا هو، ونشهد كأناسٍ تابعين للسيد المسيح رسول الله وللنبي محمد رسول الله بإيماننا بالله وبالرسائل المرسَلَة من قِبَلِ الله التي تحمل الحكمة والحب والإخاء[١].

[١] انظر النص الكامل لهذا البيان المشترك في الملاحق.

ثم تواصلت اللقاءات مع رجال اللاهوت في ألمانيا الديمقراطية، وتبع ذلك قيام السيد الدكتور برنهارت بزيارة دمشق، حيث ألقى في مجمع أبي النور بدمشق نص البيان المشترك الذي تم التوصل إليه بحضور الآلاف من المستمعين.

وأنقل لك هنا بعض تفاصيل هذه الزيارة عن الباحث د. محمد حسن الحمصي:

وألقى الشيخ كفتارو عدداً من المحاضرات في كنائس برلين، أشار فيها إلى تكريم الإسلام للسيد المسيح وأمه العذراء، وذكر من كرامات السيد المسيح ما لم تذكره الأناجيل الأربعة مجتمعةً، حتى إن الإسلام لا يعتبر إسلام المسلم صحيحاً إذا لم يؤمن بالسيد المسيح وبتعاليمه السماوية وكذلك ببعثة الرسل الكرام وبرسالاتهم، فكان الإسلام مؤدياً الدور الذي يترتب عليه في مجال التعاون والتآخي بين الدينَين، ولم يبقَ بذلك إلا أن يقوم الطرف المسيحي باعترافٍ يقابل هذا الاعتراف وتقارُبٍ يقابل هذا التقارب.

ولم يكد سماحة الشيخ ينتهي من إلقاء محاضرته هذه التي ارتجلها في الكنيسة حتى قام أحد الحضور –وهو الدكتور (كونا) عضو لجنة الكنيسة والمجتمع، مدرس مادة اللاهوت التطبيقي في جامعة برلين– فعلق على هذه المحاضرة بقوله: لقد أثَّرَ فيَّ ما ذكرتموه عن حقيقة الإسلام تأثيراً كبيراً، ذلك أنني عندما كنت أنظر إلى التاريخ الذي مر علينا كان هناك مَن يحاول أن يعرض عكس ما فهمتُه منكم، وهذا الأمر هو الذي أدى بنا إلى أن نذهب في طريق التباعد كالأخوين في الصحراء، وبهذا أرى أنه بات لِزاماً علينا أن نتقارب ونتفاهم، وأن نزيد من هذا التقارب والتفاهم.

كما قام سماحة الشيخ بالإجابة على الأسئلة الصحفية التي طُرحت عليه عن الإسلام وموقفه وعن التعاون وسُبُلِه، وعقد مؤتمراً صحفياً، وقدم ندواتٍ في الإذاعة

والتلفزة الألمانية[1]، وكان لها صدىً طيبٌ في نفوس جماهير الشعب الألماني، ولم يقف هذا التأثير عند حدِّ الحاجز السياسي بين شِقَّي ألمانيا؛ بل تجاوزه وانتقل إلى ألمانيا الغربية، وكان من نتائج هذا الإعجاب في ألمانيا الغربية أن سماحته لم يكدْ يعود إلى دمشق ويمضي عليه يومان اثنان حتى وصلته الدعوة إلى ألمانيا الغربية لإلقاء المحاضرات عن الإسلام كما فعل في برلين الشرقية.

زد على ذلك أن رئيس المحكمة الدستورية في برلين الغربية وجَّه دعوةً إلى سماحة الشيخ ومعه وفد من أربعة علماء للتحاور على شاشة التلفزيون، كما أن جلسات الحوار الديني التي قامت بين سماحة الشيخ والوفد الألماني برئاسة الأسقف (ألبريشت شونهير) –والذي ضمَّ (١٢٩) أسقفاً– انتهت باتفاقٍ تامٍّ بين الطرفَين على الإيمان بالله الواحد الأحد، والإيمان بعيسى ومحمدٍ عليهما السلام رسولَين من عند الله[2].

وكما أشرتُ قبل قليلٍ فإن الأثر الطيب الذي تركته زيارة الشيخ كفتارو في المجتمع الألماني لم ينقطع؛ بل تواصل في دمشق عقب ذلك، وقلَّ أن يحضر إلى دمشق وفد ديني ألماني إسلامي[3] أو مسيحي إلا ويعرّج على جامع أبي النور.

ولعل أبرز هذه الوفود وفد رابطة الكنائس البروتستانية الألمانية الذي زار دمشق في تشرين الثاني (١٩٨٢م)، وأجرى حواراً مطولاً مع الشيخ كفتارو في جامع أبي النور بدمشق.

---

[1] انظر: صحيفة تشرين السورية العدد (١٤٨٢) تاريخ ١٩٨٠/٥/١م.

[2] الدعاة والدعوة الإسلامية المنطلقة من مساجد دمشق جـ٢ ص٧٣٣.

[3] أصبح مجمع أبي النور مركزاً أساسياً للألمان من أصل تركي إذا أراد أحدهم التخصص في الدراسات الإسلامية، وقد تخرج من هؤلاء عدد كبير من كلية الدعوة الإسلامية في المجمع وتسلموا عدة مراكز إسلامية في ألمانيا وغيرها من بلدان أوربا.

كذلك فإن الدكتور (بيرنهارت) عميد كلية اللاهوت في ألمانيا الشرقية جاء مرتين إلى دمشق، وكان في كل مرةٍ يؤَكِّد ما تمَّ إقراره في البيان الختامي لزيارة الشيخ كفتارو إلى ألمانيا الشرقية وما نتج عنها.

ولقد شاركت في لقاءٍ خاصٍّ عُقِدَ في منزل الشيخ مع الدكتور بيرنهارت، وطلبت إليه أن يتم تقرير مادة (الدين الإسلامي) ضمن كلية اللاهوت؛ ليتعود المجتمع الألماني على احترام وتفهم مقاصده وغاياته.

في القرن الهجري الجديد:

مع دخول القرن الهجري الخامس عشر (١٤٠٠هـ -١٩٨٠م) فإن الشيخ كفتارو قد أمضى في دعوته إلى الله عز وجل خمسين عاماً بالتمام والكمال منذ حصل على الإجازة من والده، منها سبع سنوات قضاها في ظل والده، وثلاثة وأربعون عاماً وهو يرعى حركته الإسلامية.

والحق أن الجهود الصادقة التي زرعها طوال خمسين عاماً قد أينعَتْ وحان قِطَافها، وهي فترة كافية ليرقب الإنسان نضيج الثمر من مزرعة الخير.

وستجد في القسم الخاص بآثار الشيخ الباقية أن أكثر المؤسسات العاملة التي أسسها الشيخ إنما وجدت طريقها إلى النور في هذه المرحلة.

كذلك فإن اسمه في المحافل الدولية أخذ يتردد كرمزٍ للوعي الديني والإخاء الإنساني، وقد أُحصيت له خلال هذه الفترة أكثر من خمسةٍ وخمسين مؤتمراً دولياً[1] شارك فيها بنفسه، وهذا العدد لا يتجاوز ربع ما دُعِي إليه من مؤتمرات؛ إذ اعتذر عن كثيرٍ منها لظروفٍ مختلفةٍ، أهمها وضعه الصحي الذي كان يتأزَّم من حينٍ لآخر، وكذلك المواقف السياسية لدول الغرب التي كانت تحول دون مشاركته في كثيرٍ من النشاطات في الغرب خلال الثمانينيات.

فإلى جانب ما قدَّمناه من زياراته إلى الشرق الإسلامي والاتحاد السوفياتي فقد توجه إلى حيث أمكنه أن يوصل كلمة الهدى والخير، فقد أصبحت المسأله الإسلامية على رأس اهتمامات رجال القرار في العالم، وذلك بعد الثورة الإيرانية والتوجه الإسلامي في عددٍ من الدول في الشرق الأوسط، وشعرت المراكز العلمية والاجتماعية في العالم بدور

[1] انظر: الملحق الخاص بذلك آخر الكتاب.

هذا الرجل الذي بات يمثِّلُ قطباً حقيقياً للاعتدال والتسامح يندُرُ وجوده، فتهافتت عليه الدعوات من كل جانب، وكان بدوره يلبّي ما استطاع منها، يطير من أُفُقٍ إلى أُفُقٍ، وله رسالة واحدة يتحدث عنها، وهي البشارة بمجد الإسلام الموعود على جناح الاعتدال والحب والتسامح، وكانت تمرُّ به شهور يبيت في الفنادق أكثر مما يبيت بداره، ويتوكَّأ على عصاه أكثر مما يتوكَّأ على أريكته، ويقوم أكثر مما يقعد، ويسير أكثر مما يقوم، في جعبته علبة فيها أدوية متنوعة للصداع والقلب وانضغاط الرقبة ووجع الرجلين وبحَّة الحلق وغير ذلك، تقرأ فيه قول الشاعر:

لا تسلني مَن أنا، ما هدفي، ولماذا أعبر الآفاق وحدي
أنا سر الكون أذرو مهجتي في ربوع الأرض كي تزهر
وعمود للسموات العلا وجميع الكون مفتون بقصدي
مسلم قد بِعْتُ لله حياتي ساخر من كل طاغوتٍ وقيد

توجه إلى بلدان المنظومة الاشتراكية في الثمانينيات: تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية وبلغاريا وبولونيا، وكانت تعيش أيام الدكتاتورية الشيوعية، وكان حكامها يجتهدون في إغلاق سائر النوافذ المطلَّة على العالم الإسلامي، وهناك أمكَنَه أنْ يتحدَّث عن مستقبل الإسلام، وأن محنةَ الصراع بين العقل والدين آيلةٌ إلى اندثارٍ يوم يتجلى الدين الحق الذي يحترم العقل ويبوّئه منزلته.

وكان في زياراته للمراكز الإسلامية يلتقي المسلمين، ويحدِّثهم عن قُرب أُفول الإلحاد، ويطالبهم بالعمل المتواصل، ويحذرهم من العنف والانفعالية، ويتخيَّر من شبابهم أفراداً يصطفيهم للعلم الشرعي، فيمنحهم المنح الدراسية في المجمع الإسلامي بدمشق، أذكر منهم: السيد الشاب الطامح نيديو غندجيف الذي أقدمه معه من بلغاريا، وأسكنه في

داره نحو ستة أشهرٍ حتى تعلَّم العربية بطلاقة، ثم عاد إلى بلغاريا ليصبح مفتياً عاماً للمسلمين البلغار.

وطاف كذلك باليابان وكوريا والصين، والتقى القيادات الإسلامية في تلك البلدان، وكان يقلِّب بصره في تلك الشعوب الصفراء التي فكَّت طوق عُزْلتها عن قريب، وبات العالم الغربي يحسب لها ألف حساب، فهناك يسكن ثُلُثُ سُكَّان هذا العالم بالتمام والكمال، وهم من بعد أن تزول دهشتهم لهذا العالم -إذ لكل داخلٍ دهشة- سيكون لهم أكبر الأثر في مستقبل الكوكب الأرضي.

وفي الصين قدَّم عدداً كبيراً من المنح الدراسية لأبناء المسلمين، وخصَّ الفتيات بمنحٍ أخرى، ولأول مرةٍ تعرف المسلمات الصينيات الهجرة في طلب العلم، وتم تخصيص دارٍ قُرب المجمع الإسلامي لهؤلاء الفتيات، وأصبح مشهداً مألوفاً أن تطوف بالمجمع الإسلامي مهاجرات صُفْر، لهنَّ عيون صغار فيها آمال كبار ستتحدث عنها الأيام بعد حينٍ.

وكان الشيخ كفتارو يخص مهاجرات الصين ومهاجريها بعنايةٍ متميزةٍ، فيسأل عن الأحوال ويتفقد المنازل، وإن نسيتُ فلن أنسى ذلك الزفاف المشهود الذي تم في إحدى قاعات المجمع الإسلامي بدمشق بين شابٍّ وفتاةٍ من طَلَبة العلم، وكلاهما مهاجر صيني يقيم في المجمع، وقد حضر الشيخ كفتارو سائر الحفل؛ بل قام بنفسه بدعوة وجوه الشام وسراتها إلى هذا الزفاف، وتبارى الخطباء في كلمات المحبة، كما تبارى تجَّار الشام بتكريم المهاجر الصيني، وفي قاعةٍ أُخْرى تسابقت سيدات دمشق لتكريم المهاجرة الصينية العروس، وأثقلوا رقبتها بما ألقَوا على جِيْدِها من نفائس الذهب والأحجار الكريمة في مشهدٍ مُثيرٍ يبعث فيك أعمق معاني الأخوَّة الإسلامية.

وطاف كذلك بالبلدان العربية، فزار الجزائر مراراً، وقد عرف له الجزائريون صيحاته الصادقة التي كان يبثها إبان الثورة الجزائرية في وسائل الإعلام السورية، وكذلك المؤتمرات الحاشدة التي كان ينظمها في مساجد يلبغا وتنكز والأموي لنصرة الثورة الجزائرية، والمظاهرات التي كان يقودها مع إخوانه من علماء الشام في شوارع دمشق نصرةً للقضية الجزائرية وتضامناً مع الكفاح الإسلامي في ذلك البلد الصابر.

وإضافةً لمشاركته في عددٍ من دورات ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر فقد التقى مراراً بالزعيم الجزائري هواري بومدين، وأنذره من مغبَّة المضيّ بالحركة الوطنية في اتجاهٍ غير إسلاميٍّ، وهو المحذور الذي تجنبه بومدين وسلفه الشاذلي بن جديد، ثم جاء العسكر بعدئذٍ بسحقه بالبسطار، فسحقوا بذلك أمن الجزائر واستقرارها، وأيقظوا الفتنة، وأهلكوا الحرث والنَّسل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإلى ذلك فقد قدَّم مئات من المنح الدراسية لأبناء الجزائر، وهيَّأ لهم في الشام سبل تحصيل العلم والمعرفة، وأكرم نزلهم وأحسن وفادتهم، وقد تخرج عشرات منهم يحفظون له عواطف الوفاء والمحبة.

ولن يتَّسع هذا الكتاب للحديث عن تفاصيل زياراته الكثيرة التي شملت سائر العواصم الإسلامية ومعظم العواصم العالمية، وبحسبك أن تقرأ منهج هذا الرجل ورسالته في الحياة لتدرك معنى تزاحم مراكز العلم والعمل في العالم على سماع صوته والفرح بلقياه.

وقد بسطتُ لك جدولاً خاصاً[1] يتضمن إحصاء ما قدرت على إحصائه من أسفاره ورحلاته في أصقاع الأرض.

[1] انظر: قسم الملاحق آخر الكتاب.

افتتاح كلية الدعوة بدمشق:

كانت المشكلة التي تؤرّق خاطر الشيخ منذ آخر السبعينيات هي واقع التعليم الشرعي في سورية عامةً وفي مجمع أبي النور خاصة، فقد كانت المعاهد الشرعية في سورية ترتبط عادةً بجامعة الأزهر، وكان الشيخ قد عقد اتفاقاً مع لجنة البعوث الأزهرية يتم بموجبه قبول المتخرجين من جامع أبي النور مباشرةً في السنة الثانية في الأزهر، ولكن القطيعة العربية التي قامت في أعقاب معاهدة كامب ديفيد حالت دون مواصلة ذلك، وبدءاً من عام (١٩٧٨م) فإن خريجي المعاهد الشرعية في سورية أصبحوا بلا مستقبلٍ؛ إذ أُوصِدَت في وجههم أبواب الأزهر، كما أن كلية الشريعة بدمشق لا تعترف بشهادة المعاهد الشرعية الخاصة.

وقد حصل الشيخ على استثناءٍ خاصٍّ من السيد رئيس الجمهورية يتم بموجبه قبول الخريجين من طلاب المعهد الشرعي للدعوة والإرشاد في كلية الشريعة، وبالفعل فقد تم ذلك عامين اثنين، ولكن المسألة بقيت قائمةً في سائر المعاهد الأخرى، وليس من المروءة أن ينهي المرء همه وهموم إخوانه متراكمة متفاقمة، ورحم الله القائل:

فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي ... سحائب ليس تنتظم البلادا

وهكذا فقد انطلق في البلاد العربية والإسلامية، ومن أجل ذلك زار السعودية والسودان وليبيا، وفي عام (١٩٨١م) التقى الزعيم معمر القذافي وتمكَّن من عقد اتفاقٍ مع جمعية الدعوة الإسلامية بشأن إحداث فرعٍ لكلية الدعوة الإسلامية بدمشق، وقد وجه الزعيم الليبي القذافي معاونيه بتقديم كل ما يلزم لنجاح عمل هذا الفرع تقديراً منه لزيارة الشيخ ومنزلته في الوسط العربي الإسلامي.

وكان مما قال القذافي للشيخ: يا شيخ أحمد، إني أعرفك قبل أن ألقاك!

لقد حدثني الرئيس حافظ الأسد مراراً عن فهمك المستنير للإسلام، وأسلوبك الحكيم في الدعوة إليه.

وأعطى السيد الرئيس حافظ الأسد توجيهاته بالموافقة والدعم لهذا المشروع الحيوي على مستوى القطر العربي السوري الذي آوى كافة طلاب العلم الشرعي، والذين أصبحوا بلا رعايةٍ ولا تعليمٍ نتيجةً للقطيعة مع مصر في أعقاب اتفاق كامب ديفيد كما ذكرنا سابقاً.

وكان أول شيءٍ فعله الشيخ لدى افتتاحه كلية الدعوة بدمشق أن أوفد ثلاثةً من خِيرة إخوانه، وهم: الدكتور محمود كفتارو، والدكتور زياد الأيوبي، والدكتور محمد شيخاني، فقاموا بزيارةٍ واسعةٍ شملت كل المعاهد الشرعية في محافظات سورية، وتم إطلاعهم على ما جرى تحقيقه، وفتحت أبواب القبول لكل راغبٍ من أبناء المعاهد الشرعية بسورية ومن مختلف المدارس والمعاهد، وبالفعل فقد تحقق للشيخ ما أراد، وقرَّتْ عينه بمجمعٍ إسلاميٍّ توحيديٍّ يجمع سائر أبناء البلاد من طَلَبة العلم على مقعد الدراسة ليتخرجوا فيما بعد دعاةً عاملين متعاونين.

وعند كتابة هذه السطور عام (١٩٩٥م) يكون قد تخرج في كلية الدعوة الإسلامية في مجمع أبي النور الإسلامي نحو ألف متخرجٍ من مختلف المشارب والمذاهب بدرجة الإجازة (ليسانس) في اللغة العربية والدراسات الإسلامية، وتبوَّءُوا مواقعهم في خدمة الدعوة الإسلامية في المحاريب والمدارس والمنابر داخل سورية وخارجها.

عارض صحّي:

وعرضت للشيخ أزمة صحية شديدة في منتصف الثمانينيات، فقد بلغ الخامسة والسبعين من العمُر وإن همته لفي شباب، وناءت هموم الأمَّة بقلبه الكبير، فاضطرب خفقانه، واشتدت الأزمة، ولكن الله سلَّم إنه عليم بذات الصدور.

واتفق إخوانه وأطباؤه على وجوب تخفيف الأعباء عن كاهله، والاقتصار على بعض النشاط دون بعض، ولكن لم يكن سهلاً أن يقنع الشاهين بترك التحليق في الفضاء وهو في قمة أَلَقه، وكان لا بد مما ليس منه بُدٌّ، ووجد الشيخ نفسه مرغماً على أن يتخلَّى عن بعض مهامه في الدعوة والإرشاد، واقتصر بعد ذلك على درسٍ واحدٍ صباح الجمعة، فقد كان من قبل يقوم بإلقاء خمس محاضراتٍ أسبوعيةٍ منتظمةٍ عَقِبَ المغرب يومَي الثلاثاء والخميس، وعقب الفجر يومَي الأحد والثلاثاء، إضافةً إلى عشرات اللقاءات العامة والخاصة الأخرى.

وقد ساعدته كثيراً خبرته في الطب، فقد كان مولَعاً بالكتب الطبية ودراسة تجارب الحكماء، واستوقفته من بينها عجائب الصوم الطبي[1]، وطلب أن يترجم له كل كتاب يتحدث عن الصوم الطبي، وكان قد بدأ يشجع على هذا النهج منذ الستينيات، حيث تحدث عنه مراراً في الإذاعة والتلفزيون، وأشرف على صيام مئات من إخوانه بغرض معالجة أمراضٍ مستعصيةٍ مختلفة، ثم أمر بعض إخوانه من الأطباء أن يتفرغوا للمعالجة

[1] الصوم الطبي منهج علاجي يتلخص في حمية يتوقف خلالها المريض عن سائر ألوان الأطعمة، ويكتفي بشرب الماء فقط مع بعض العلاج تحت إشراف طبيب مختص، ويستمر أياماً عدة، وقد صام بعض من أعرفه أكثر من خمسين يوماً متواصلة، انظر: الفصل الخاص بتجربة الشيخ في الصوم الطبي في هذا الكتاب.

بهذا اللون، وقد تمَّ بالفعل إنشاء مشفىً خاص للتطبيب بالصوم في منطقة ريف دمشق، وسوف نتحدث بالتفصيل عن نشاطه هذا في فصلٍ خاصٍّ نفرده للصوم الطبي.

في الفاتيكان:

خلال نشاطه الطويل فإن الشيخ كفتارو لم يفتر عن الحديث في إمكانية حوار الديانات، مؤكداً على حوار الدين الإسلامي والمسيحي خاصة، وقد كان هذا المنهج الذي تخيره لنفسه قناعة ارتضاها لم يتلمس فيها رضى أحد، بل إن كثيراً من الإسلاميين والمسيحيين[1]، وقفوا منه موقفاً سلبياً بسبب ذلك الاختيار بدعوى أنه يتضمن الإقرار بصحة عقيدة التثليث! على الرغم من أن الشيخ أكَّد مراراً أن الوفاق بين التوحيد الإسلامي والتثليث المسيحي لايقول به أحد على الإطلاق، ولا يقره عاقل مسلم ولا مسيحي.

ومع أن محاضرات الشيخ في الشام لا يحضرها عادة إلا المسلمون غير أنه لم يكن يتكلم في مجالسه الخاصة والعامة بغير لغة الحوار والمودة والتفاهم، وهو عالم بأن الذين يتحدث عن مودتهم غير موجودين، ولكن ذلك لا يغير من الحقيقة شيئاً، وهي أن المسلم نقطة إشعاع للهدى والحب والخير في العالمين.

وقد أخذ نشاط الشيخ في هذا الجانب بعداً دولياً، وخصوصاً نشاطه في مؤتمرات زاغورسك وموسكو وفيينا وبرلين وغيرها، ولم يعد بوسع حاضرة الفاتيكان التي توجه الشعوب المسيحية في العالم أن تتجاهل هذه الدعوة القوية التي تتضمن نداء التعاون بين أبناء الديانتين السماويتين والعودة إلى الكلمة السواء ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عِمْرَان : ٦٤]

[1] انظر على سبيل المثال: ردود مجلة المسرة والرعية المسيحية على الشيخ كفتارو، ومهاجمته على أساس أنه يدعو إلى الوفاق بين أمتين متنافرتين لا يوجد ما يربطهما، وكذلك الاعتراض الشديد على منهجه في الاستدلال بإنجيل برنابا، أعداد عام (١٩٦٣م-١٩٦٤م).

ومن أجل ذلك فقد وجَّه البابا يوحنا بولس الثاني الحبر الأعظم للنصارى إلى دمشق كلاً من (الكاردينال أرينز) وزير الأديان في الفاتيكان، والدكتور (أنطواني لوكي) نائب رئيس الحزب المسيحي الديمقراطي في إيطاليا للقاءٍ مع الشيخ كفتارو وتوجيه دعوةٍ رسميةٍ له لزيارة الفاتيكان، وذلك في أواخر عام (١٩٨٥م)[1].

ولدى وصول الشيخ كفتارو إلى حاضرة الفاتيكان استُقْبِل استقبالاً رسمياً، وعقب استعراضه حرس الشرف بدأ فوراً نشاطه المكثف من خلال اللقاءات والندوات والمحاضرات في الفاتيكان وفي إيطاليا، حيث التقى الشخصيات الرسمية والدينية في البلدين، وأفاد من هذه اللقاءات في عرض صورةٍ حيةٍ للإسلام وموقفه من القضايا الإنسانية الكبرى.

وألقى الشيخ كفتارو عدة محاضرات في جامعة روما وجامعة ميلانو ومجمع الكرادلة، وفي قمة الشيخ كفتارو والبابا طرحت قضايا مهمة على صعيد تحقيق التفاهم الديني وعلاج التناقضات القائمة بين الدين والعقل، حيث إن ذلك هو السبيل الأمثل لمقاومة الإلحاد الذي راح يغزو أوربا منذ عصر النهضة وانفصال الكنيسة عن الدولة.

ومما تحدث به الشيخ كفتارو عن لقائه بالبابا:

قلت للبابا: هل تدري يا سيادة البابا ما هو سبب نشوء الإلحاد في العالم؟

قال: ما هو؟

قلت: أنت.

[1] بدأ الشيخ أحمد كفتارو زيارته الأولى إلى الفاتيكان في ١٩٨٥/١٢/١١م، انظر: صحف البعث وتشرين والثورة، تاريخ ١٩٨٥/١٢/١١م.

وبعد أن نظر إليَّ مستغرباً مستهجناً قلت له: وأنا أيضاً.

قال لي: وكيف؟

قلت: يا سيادة البابا، حينما نقدم للناس ديناً يتناقض مع العقل، ويصادم الفطرة، ويحاصر الفكر... ماذا سيكون جواب العقلاء الأحرار؟

إننا نقول للثوب الأبيض: إنه أسود، ثم نتجاوز ذلك فنقول: بل قال الله: إنه أسود، وقالت الكتب السماوية: إنه أسود، والعين والعقل يرى أنه أبيض... فماذا ستكون النتيجة؟ إذا لم يقم رجال الأديان بتصحيح معتقداتهم وفق إرادة الله التي لا يمكن أبداً أن تكون مخالفةً للعقل والمنطق فإن علينا أن نتهيَّأ لعرس البوم.

قال لي: وما عرس البوم؟

قلت: يُروى أن أميراً شاباً ورث ملك أبيه بعد موته، وكان مسرفاً مِتْلافاً مبذِّراً، التفت إلى أهوائه وشهواته وسيَّب أمر الملك والمملكة وراء ظهره حتى خربت وفسدت، وكثر فيها نعيقُ البوم الذي يعيش على الخراب.

تقدَّمت بومة إلى أخرى تطلب يد ابنتها لابنها، فقالت: إني لا أقبل لابنتي مهراً أقل من خمسين قرية خراب، فقالت أم البوم الخاطب: هذا كثير! ولم يخرب حتى الآن إلا عشر مدائن، ولكن إن أطال الله عمُرَ أميرنا المسرفِ فإني أسلِّمك خمسين قرية خراب خلال خمس سنين، ونعقد حينئذٍ عرس البوم.

وبعد أن ضحك البابا لما سمع قال له الشيخ: يا سيادة البابا، فإذا لم نغير فهمنا للدين الحق الذي لا يمكن أن يكون مخالفاً للعقل أو مناكساً للفطرة فإنَّ عرس البوم آتٍ لا محالة!

وبمناسبة زيارته للفاتيكان وإيطاليا فإنني أختار أن أورد لك طرفاً من محاضرته التي ألقاها في جامعة ميلانو، حيث تجد فيها خلاصةً لطرح فكر التلاقي والإخاء الذي راح ينشره في سائر نشاطاته ورحلاته، حيث قال:

والحقيقة الثانية أيها السادة أن الأديان على تباينها واختلاف عصورها ما جاءت أبداً لتهدم بعضها وتقوض بنيانها، إنما جاءت من عند الله لتتمم وتجدد ما سبقها بما تقتضيه ظروف الحياة المستجدة والمتطورة دون خروجٍ عن الأسس والمبادئ التي نادت بها، فسيدنا إبراهيم أبو الأنبياء إنما جاء بأمر ربه ليرقى بالإنسان، ويدعو إلى عبادة الله، ويحارب الخرافة والوثنية.

وسيدنا موسى عليه السلام ما جاء ليهدم ما أقامه سيدنا إبراهيم؛ بل جاء ليضيف لبنةً أخرى إلى بنيان مَن سبقه من الأنبياء، وكذلك سيدنا عيسى عليه السلام لم يأتِ بما ينقض فِعلَ غيره من رسل الله؛ بل جاء مجدداً ورديفاً.

وكذلك فإن محمداً ﷺ بعثه الله ليكون اللبنة الأخيرة في صرح البناء الإلهي العظيم الذي عملت فيه جميع أنبياء الله ورسله تشييداً وتجديداً.

قال سيدنا محمد ﷺ مؤكداً هذا المعنى: ((إن مثَلِي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجلٍ بنى بيتاً، فحسَّنه وجمَّله إلا موضع لبنةٍ من زاويةٍ، فجعل الناس يدخلون فيه ويعجبون له ويقولون: هلَّا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا كنت تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين))[1].

إنه التدرج الطبيعي الذي أراده الله للوصول إلى الكمال، وإنه لذلك لمن البديهي أن تستوعب الرسالة الخاتمة أصول الرسالات السابقة وتتحدث عن قدسية رجالاتها،

[1] رواه البخاري، كتاب المناقب، باب ١٨.

وتعد الإيمان بهم أصلاً في الإيمان بها؛ لأنهم جميعاً يأخذون من مشكاةٍ واحدةٍ، قال تعالى في القرآن الكريم:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البَقَرَة : ١٣٦]

ثم قال: أيها السادة الأفاضل: اسمحوا لي أن أُبديَ وجهة نظري في هذا الموضوع بما يسمح به الوقت وضمن النقاط التالية:

أولاً: يجب أن ندرك جميعاً أننا كرجال دينٍ لسنا فيما ندعو إليه أعداءً لأي إنسانٍ ولو ضلَّ أو انحرف، حتى لو ألحد وابتعد عن الإيمان؛ لأن إلحاده وإباحيته لم يكن عن عداءٍ وحقدٍ، ولكن أراد إيماناً يلتقي مع العلم، ويتحالف مع الفكر، ويرضي العقل، ويحقق للإنسان سعادته فلم يجد ما يريد.

إن الذين ألحدوا في العالم لم يلحدوا عداوةً لله الخالق؛ بل لتلك الصور التي رأوها من خلال رجل دينٍ متزمّتٍ أو جامدٍ، أو من خلال فكرٍ رجعيٍّ متخلفٍ، أو من خلال واقعٍ دينيٍّ يصادم العقل السليم والعلم الصحيح[1].

إننا نحتاج إلى رجل دينٍ يتحلى بصفات الشجاعة والحكمة والعلم والإخلاص لينظر إلى الإنسان الملحد أنه أخ لنا في الإنسانية قُدِّم له غذاء غير متكامل النضج

[1] وليسمح لي سماحته أن أتحفظ هنا على هذه العبارة؛ إذ هي قاعدة أغلبية ولا بد من الاستثناء عليها، وهي تتناسب مع طبيعته المتسامحة الطيبة، ولكنها غير دقيقة في وصف الشر الموجود في هذا العالم؛ إذ لا نستطيع أن ننكر أن ثمة عارفين وخبراء يعرفون حقيقة الدين الحق ثم يولون ظهورهم مستكبرين، ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾ [النَّمل : ١٤].

فعافته نفسه، فينبغي أن نجيد صناعة غذاء الروح والعقل ليكون طعامنا شهياً لكل إنسان.

إن مهمتنا أن نعاون إنسانية الإنسان مهما كان وضع هذا الإنسان، وأن نكون معه الأخ المحب والطبيب المداوي، نفتش له عن الدواء، ونقدمه إليه برقةٍ ولطفٍ، لا أن نحكم عليه بالكفر والإلحاد فهذه من خصائص الله، والأعمال بخواتيمها، والتوبة تمحو ما قبلها، ورحمة الله أوسع.

قال السيد المسيح: إن فرح السماء بخاطئٍ واحدٍ يتوب أكثر من تسعةٍ وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة، ويقول سيدنا محمد ﷺ: (إن الله عز وجل يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها)[1].

وقال السيد المسيح أيضاً: (ما جئت لأُهْلِك بل لأخلِّص).

وقال:(أريد رحمةً لا ذبيحة).

وتجد نص المحاضرة كاملة في أرشيف دار القرآن، وقد نشرت في مجلة (صوت العرب) عدد شباط (١٩٨٦م).

[1] أخرجه مسلم برقم (٣٥٣١) في الدعوات، باب التوبة مفتوح قبل الغرغرة، وأحمد في مسنده برقم (٦١٦٠).

في تركيا:

تركيا أقرب الجيران إلى الشام من غير العرب، ولها في نفس الشيخ كفتارو منزلة خاصة، ومع ما كان في خاطره من ذكريات مرةٍ منها فقد كانت بالنسبة له أملاً يرجوه وغايةً يتطلع إليها.

فإنه حين فتح عينيه على الدنيا كانت شوارع الشام تمشي باللعنة الغاضبة على السفاح جمال باشا السفاح الذي فجع عائلات دمشق بشبابها وشيبها وعلمائها، ثم وقف من أوربا موقف العاجز من القادر والذليل من العزيز، وهرب حين هرب لم يخلف للحكم الوطني في الشام إلا بقيةً من سلاحٍ بلا ذخيرة، وذخيرةً بدون سلاحٍ مضى بها الأحرار من أبناء الشام فزرعوها في ميسلون، وزرعوا معها عظامهم ودماءهم، وقدموا عذرهم عند الله، ولا يكلف الله نفساً إلا وُسعها، والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ولم يكن عقوقهم بالشام آخر العقوق، وقد كانت لهم أختاً مواصلة، حتى عقُّوا أمهم تركيا، ومضوا إلى ما تبقى من الخلافة التي تواطؤوا على إفقارها وإذلالها، فأطلقوا عليها رصاصة الرحمة، ومضى أتاتورك الرجل الصنم فأنزل الأيقونات جميعاً، ونصب إلهاً واحداً هو هو، وقطع روابط الأمة التركية بماضيها، وسلخها عن جلدها، وأقامها على رأسٍ بلا قدم، وأرادها أن تسير بلا رِجلين، وحرم النظر في السماء لأنها غربت عنها الشمس، ومضى يلتمس الضياء في قعر المناجم!

يا الله، أيمكن أن يكون في الأرض عقوق كهذا العقوق؟! لماذا تطالب تركيا بالتبرؤ من الإسلام؟ وهل في تاريخها فصل كان لها فيه محل تحت الشمس كما كانت يوم رفعت راية الإسلام؟! وهل نالت ما نالت من مجدٍ تاريخيٍّ إلا يوم قدمت نفسها على

أنها مسلمة؟! ولماذا يكون عبث الخلفاء واستهتارهم وخرفهم هو الصورة التي تعرِّف الإسلام وتظهره؟!

وكانت تدفع بالشيخ إلى تركيا آمال كبار تبعثها أشواق ساخنة، فتركيا بالنسبة إليه مجد التصوف الإسلامي، وفيها يرقد مولانا جلال الدين الرومي، ومنها قدم مولانا خالد النقشبندي رأس الدوحة النقشبندية في بلاد الشام، يحدها غرباً مرقد أبي أيوب الأنصاري سلطان المحبين من الأنصار، ويحده شمالاً بحر عظيم عند طرفه مرقد صفوان بن المعطل صاحب البراءة التي نزلت من فوق سبع سمواتٍ، ويحدها شرقاً آرارات، حيث نزل الخلق لأول مرة يعمرون الأرض بعد الطوفان.

وبين هذه المعالم الصارخة كيف يمكنك أن تشيح بوجهك عن مآذن تركيا السامقة، ومجالس الذاكرين وأصوات المرتلين التي لم تفلح الأتاتوركية الغاضبة في إطفاء نورها وإسكات ترانيمها، وبقي الأذان لحناً عربياً يدق مسامع الملاحدة خمس مراتٍ كل يومٍ رغم تدفق البلاغات التي تأمر بالأذان التركي؟!

وهكذا فقد بقي باب تركيا موصَداً في وجه الشيخ رغم أنه جار قريب وله به رحم ماسَّة، ولكنه مع ذلك كان يتلقى حجاج تركيا إذا ما جازوا بأرض الشام بأشواقٍ لاهبة، وتخير منهم مجموعةً طيبةً من إخوان الشيخ ناظم القبرصي الذي يعتبر في الغرب ظاهرةً فريدةً في الدعوة الإسلامية المنطلقة من تركيا، فقد انطلق الشيخ ناظم من تركيا، وهو من القبارصة الأتراك، ودرس الهندسة في ألمانيا، ثم تفرغ كليةً للدعوة الإسلامية، وحقق الله على يديه نجاحاً عظيماً، وأسفر عنه دخول المئات من الألمان في الإسلام.

ويلزم الشيخ ناظم أسلوباً فريداً في الدعوة؛ إذ يلتزم الطريقة النقشبندية وفق أصولها القديمة، ويأمر سائر أتباعه بالتزام الزيِّ العربي القديم من الشراويل والقلنسوات

والعباءات، وقد تعلق به أتباعه تعلقاً عظيماً، وعلى الرغم مما هم فيه من مواقع اجتماعية متميزة فإنهم يلتزمون في ألمانيا اللباس العربي الذي أصبح غير مألوفٍ حتى في البلاد العربية!

وللشيخ ناظم أتباع في ألمانيا وقبرص والنمسا والولايات المتحدة وغيرها.

وكانت أول زيارةٍ رسميةٍ للشيخ كفتارو إلى تركيا عام (١٩٨٩م)، حيث دُعِيَ لإلقاء محاضراتٍ في بعض المراكز العلمية، وقد أمكنه أن يدرك المخاض الذي تعيشه تركيا بعد أتاتورك، وأدرك أن الغرب مهتم بالمحافظة على خط أتاتورك العلماني الغربي، وأن تركيا لن تستطيع بسهولةٍ التخلّي عن المعونات المالية الهائلة التي تتلقاها جراء سياستها المستأجرة وعضويتها في حلف شمال الأطلسي، ومع ذلك فإن هذا الظرف المؤقت لن يغيّر حقيقة انتماء هذا البلد، ولا بد أن تعود إلى عباءتها الإسلامية ولو بعد حين.

وفي تركيا قدَّم عدداً من المنح الدراسية، وسعدت الشام بفتيانٍ أتراك طيبين جاؤوا هذه المرة على حساب التواصل الإيماني الثقافي وليس على حساب التواصل السياسي الاستعماري.

ويمتاز المهاجرون الأتراك في المجمع الإسلامي بالتربية الصوفية التي لم تفلح وسائل أتاتورك في إطفائها، وكذلك العناية الفائقة بتلاوة وحفظ القرآن الكريم.

كما أسس الشيخ كفتارو صِلَةً طيبةً مع السيد نجم الدين أربكان زعيم حزب الرفاه الإسلامي، وكان يرى في هذه المجموعة بوادر الصحوة الإسلامية الواعية التي ستعيد ولا ريب تركيا إلى وجهها الإسلامي الأصيل.

وقد ظهرت تباشير ذلك على أرض الواقع؛ إذ حقق الرفاه الإسلامي فوزاً طيباً في الانتخابات العامة في تركيا مطلع عام (١٩٩٦م)، حيث تقدَّم على سائر الأحزاب الأخرى، ولكنْ تواطُؤُ الأحزاب جميعاً على مَنْعِه من الوصول للسلطة[١] حالَ دون ذلك، ولا أشكُّ في أن الأيام القادمة ستشهد صعوداً في نجم حزب الرفاه الإسلامي في تركيا.

وقد قام أربكان بزيارة جامع أبي النور في دمشق عام (١٩٩٢م)، وتحدث في المجمع عن منهج الحكمة الذي يتبناه، وهذا ما يجعله على خطٍّ واحدٍ مع الشيخ كفتارو، ثم وجه دعوةً إلى الشيخ كفتارو لزيارة تركيا.

وفي عام (١٩٩٣م) قام الشيخ بزيارةٍ إلى تركيا بدعوةٍ من حزب الرفاه الإسلامي، ضمن جهود الحزب التي يبذلها لإحياء دور تركيا في العالم الإسلامي.

وقد استقبل في حديثه في تركيا قبلةً واحدةً، وهي منهج العودة إلى الإسلام، فقد تبين أن عودة تركيا إلى الإسلام حتمية تاريخية وجغرافية، ولم يبقَ إلا تصويب منهج الصحوة الإسلامية لئلَّا تسقط في مستنقع العنف والانفعالية والأحقاد.

وحتى اليوم فإنه يمكن القول بأن الرفاه الإسلامي تمكن من تجنب سائر الأخطاء التي وقعت فيها الحركات الإسلامية المتطرفة والتي أفقدت هذه الحركات مصداقيتها في أوطانها، وبررت اتخاذ أشكال القمع ضد نشاطها ووجودها.

---

[١] ظهر للعالم أن الأحزاب العلمانية التركية (١٩٩٦م) أسست تكتلاً عماده البغضاء، وتكرر ذلك مرتين لمنع الرفاه من الوصول إلى السلطة رغم ما بينها من عداواتٍ وأحقاد، ويجتهد الساسة الأتراك اليوم في المضي بتركيا إلى أحضان الغرب بخطى متسارعة خشية من الصحوة الإسلامية، ولعل أهون مظاهر ذلك حرب المياه التي يمنعونها عن سورية والعراق رغم الحقوق التاريخية فيها، والأمر الذي لا يمكن تفسيره هو الاتفاق الذي عقدته تركيا مع إسرائيل لتوريد ١٥٠ مليار متر مكعب من المياه التركية لإسرائيل، رغم أنها تقيم السدود وتغلق منافذ المياه عن سورية.

وفي عام (١٩٩٦م) وجَّه إليه حزب الرفاه الإسلامي دعوةً أُخرى لزيارة أسلامبول، وشارك في مؤتمر الجمعية الإسلامية المنعقد فيها، وهناك تحدَّث بالبشارة الطيبة عن الآفاق الواسعة التي تنتظر تركيا إن هي عادت لحمتها بالعالم الإسلامي، محذراً في الوقت نفسه من مخاطر السقوط في تيارات التطرف وردود الأفعال التي تعود بأفدح الضرر على أهل الحق.

في السودان:

السودان بلاد لقمان، بلاد الحكمة، مَهْدُ القلوب الطيبة، عاش فيها الإنسان منذ فجر الإنسان الأول يأكل من أرزاقها ويشرب من نِيلها ويوحِّد الله.

لم يكن للسودان حضور ظاهر في العالم الإسلامي أيام النميري، فقد كان الرجل ماضياً في فرنجة السودان، ولم يكن معنياً بالصحوة الإسلامية إلا بمقدار ما يُكسِبه شرعية التسلط على الناس، وكان شعاره الذي أقام عليه حُكمه: درهم علاقاتٍ مع أمريكا خير من قنطار علاقاتٍ مع العالم الإسلامي، وعلى ذلك فقد جاءه أجل سلطانه وهو أيضاً في أمريكا، يوم قام المشير عبد الرحمن سوار الذهب بحركته التي أطاح فيها بحُكم النميري عام (١٩٨٦م)، وسلم السلطة للمدنيين قبل أقل من عام، وذلك لأول مرةٍ في تاريخ الانقلابات العسكرية في العالم الثالث، فنال بذلك احترام العالم بأسره، وأصبح رمزاً للاعتدال والحكمة.

ومع زوال كابوس النميري تحركت الصحوة الإسلامية في السودان، وانفتحت القلوب الطيبة على الأمَّة الإسلامية، فرأَتْ فيها تكاملها وأَلَقها.

ويعاني السودان من المشكلة الطائفية منذ سنين طويلة؛ إذ كرَّس الاستعمار البريطاني في نفوس نصارى النوبة نعراتٍ طائفيةً وقوميةً ألهبت الجنوب ووضعت الشَّمال على شَفَا بركان، ولا شكَّ أن علاج هذه العقدة الطائفية يحتاج إلى خبراء من نوعٍ خاصٍّ يحافظون على عقيدة الحق من غير أن يبعثوا في النفوس رياح العصبية المذهبية والطائفية، ومن هنا فقد أقامت السودان حواراً دينياً عالمياً دعَتْ إليه علماء النصارى في السودان وطائفة من كبار رجال الكنائس في العالم، ودعت الشيخ كفتارو ليتحدث مع إخوانه من قادة الفكر الإسلامي عن التعايش الإسلامي المسيحي.

ولم تكن المشكلة عقدة المتشددين من النصارى فحسب؛ بل كان ثمة تيار مسلم أيضاً يرفض هذا التعايش، ويرى أن القوم يجب أن يخيروا بين الإسلام وبين السيف، وأنه قد قامت عليهم الحجة، ولا مندوحة من تطبيق كافة أحكام الشريعة الإسلامية عليهم كما تطبق على المسلمين سواء بسواء، وأن أجدى الوسائل معهم إنما هو الحل العسكري.

وخلال خمس زياراتٍ له إلى الخرطوم بعد عام (١٩٨٩م) فإنه وجَّه سعيه في أمرَين اثنين:

الأول: توجيه الصحوة الإسلامية باتجاه الإعمار والبناء.

الثاني: تشجيع التسامح الديني.

ففي الجانب الأول رأى أن شباب الصحوة في السودان مبتهجين بما أعانهم الله عليه من تحقيق الحكم الإسلامي، ولكن فرحهم هذا طغى على رسالة الشباب في الإعمار والبناء، وصرف جهوداً كبيرة في التنظير وبناء مؤسسات حماية الثورة ونشر الدعوة، وهذه المؤسسات لها أمد وغاية، وإلا فإنها يأكل بعضها بعضاً وتصبح عبئاً على الحالة الإسلامية، ولذلك فقد تحدث عن تحويل جهود الثورة إلى بناء الدولة، ودور التوجيه الإسلامي في الإعجاز والبناء، وأن رسالة المسلم في إعمار الدنيا والآخرة جميعاً، وأذكر من كلمةٍ له خلال مؤتمر الذكر والذاكرين في الخرطوم أنه جعل عمود حديثه القصة التالية، وهي تكشف لك عن مقاصده:

دخل رجل على عمر بن عبد العزيز فقال يمدحه:

فقال عمر: يا هذا! أردت مدحي أو ذمي؟

قال: بل أردت مدحك.

قال عمر: فإنك ما زدت أن جعلتني عجوزاً قعيدةَ دارها هملاً من الناس! ولكن هلَّا قلت:

فلا هو في الدنيا مُضــيعٌ نصــيبه ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شاغله

وفي الجانب الثاني أمكنه أن يطرق مسامع العقلاء من أبناء الديانتين، وأن يتحدث بلغة الحوار عن التجارب التاريخية في التعايش بين المسلمين والمسيحيين في البلدان الإسلامية.

وكان يلهمهم خبرته الطويلة في المؤتمرات العالمية والحوارات الدينية مع أكبر زعامات الأديان في العالم، وهو ما قدمنا أطرافاً منه قبل صفحات.

وقد عرفت له السودان نصيحته وغيرته، وقدَّرت وعيه وحكمته، فنظمت له المحاضرات المختلفة في الجامعات السودانية، ثم عقدت الجامعة الإسلامية في أم درمان مجلساً خاصاً لتكريم الشيخ كفتارو، تقرر على إثره منح الشيخ كفتارو درجة الدكتوراه الفخرية في الدعوة الإسلامية، وقد قُدِّمت له في حفلٍ حاشدٍ ضم كبار الشخصيات العلمية في السودان في ١١/٧/١٩٩٤م.

كما قامت منظمة الدعوة الإسلامية العالمية التي يرأسها المشير عبد الرحمن سوار الذهب باختياره عضواً في مجلس أمناء هذه المنظمة العالمية.

كما منحته الطرق الصوفية في السودان أوسمتها وشعاراتها تقديراً لجهوده في خدمة التصوف، وقد شهدت معه ثلاث مهرجانات تكريمية أقامتها له زعامات الطرق البرهانية

والتيجانية والسمَّانية، وخلال لقاءاتٍ متكررةٍ مع الفريق عمر حسن البشير رئيس الجمهورية في الخرطوم وفي دمشق خلال زياراته إليها تم تحقيق خدمة حقيقية لطلبة العلم الشرعي في الشام؛ إذ فتح قسم الدراسات العليا بالمجمع الذي ارتبط أكاديمياً بالجامعة الإسلامية في أم درمان التي هي أعرق الجامعات الإسلامية العربية بعد الأزهر.

وفي لقاءاته مع الدكتور الترابي والمشير عبد الرحمن سوار الذهب كان يتحدث عن الاعتدال في الدين، وضرورة توجيه شباب الصحوة الإسلامية لما فيه المصلحة الحقيقية للإسلام.

وفي عام (١٩٩٦م) التقى بالدكتور حسن الترابي في دمشق خلال زيارته لدمشق، وكان الترابي قد أصبح رئيساً للمجلس الوطني السوداني، وهو مستمر في توجيه النظام في السودان، وخلال اللقاء أكد الشيخ أحمد على ضرورة البحث عن حلٍّ سلميٍّ للمشكلة الطائفية التي تعصف بالسودان، وذلك من خلال توكيد معاني التسامح في الإسلام.

وكان واضحاً حينما طرح له موقف عمر بن الخطاب في استدعاء عمرو بن العاص وولده من مصر إلى المدينة من أجل كرامة رجلٍ قبطيٍّ غير مسلم.

والمأمول أن تفيد السودان من ذلك في معالجة الهم الطائفي، وكبح جماح الصيحات الطائشة من المتطرفين من مختلف الفرق الدينية المنتشرين على التراب السوداني.

في اليابان:

وكان أبرز أثرٍ تركه في مطلع التسعينيات هو نشاطه في اليابان، ذلك العالم الخاص الذي لا يُعرَف فيه أي نشاطٍ في الدعوة الإسلامية إلا ما ندر، فاليابان عموماً عالم مغلق، وقبل مئتي عامٍ كان الاعتقاد الياباني السائد أنه لا يوجد بشر بعد جزائر اليابان، وهذا المعنى ترسخت جذوره في الذِّهنية اليابانية، وإذا كان التقدم الحضاري قد قلب هذه المفاهيم، كذلك فإن انتكاسة اليابان في الحرب العالمية والشروط القاسية التي فرضها عليها الحلفاء جعلت من اليابان بلداً قليل الاهتمام بالمشاكل الخارجية خصوصاً في الجوانب الدينية على رغم التقدم التكنولوجي والصناعي.

وكانت نظرة الشيخ أن مجتمعاً كهذا يمكن أن يكون أسرع المجتمعات استجابةً للإسلام، ذلك أن التفوق العلمي والحضاري مدعاة لنبذ التعصب والاحتكام إلى الحقيقة المجردة، وهذا وحده كافٍ لفهم الإسلام الحق، إضافةً إلى ذلك فإن اليابان أرض بكر ليس لها ماضٍ في النزاع والشقاق مع المسلمين كما هو الحال مع النصارى واليهود.

وتنتشر في اليابان ديانات أربعة: الشنتو والبوذية والكونفوشيوسية والأموتو، والشنتو هي العقيدة الأصلية لليابانيين، وأبرز مظاهرها عبادة الطبيعة، ولكن البوذية هي الدين الأكثر اتباعاً في اليابان، فيما تأتي بعدها الكونفوشيوسية، وهي مجموعة الفضائل الأسرية الاجتماعية التي جاء بها كونفوشيوس في القرن الخامس قبل الميلاد.

وأما الأموتو فهي طائفة يابانية بدأت قبل نحو مئة عامٍ، وهي تشتمل على مجموعةٍ من القيم الاجتماعية واحترام الناس وتقديس الأسرة، ولا يتشكل منها اعتقاد وطقوس كاملة؛ بل إن معظم أتباع الأموتو يكونون في نفس الوقت بوذيين أو كونفوشوسيين.

وفي كانون الثاني عام(١٩٩١م) انعقد مؤتمر دولي في موسكو تحت شعار مؤتمر القيم الدينية والتطور من أجل البقاء الإنساني للبرلمانيين والروحانيين تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة، وقد انتُخب الشيخ كفتارو رئيساً لقادة الأديان الروحيين في العالم، وألقى كلمة في المؤتمر بعنوان: (مسؤولية الإنسان تجاه نفسه)، ركَّز فيها على دور رجال الأديان في العالم على تحقيق الإخاء الإنساني، وقد انعقد المؤتمر تحت شعار: (إنقاذ الكوكب من الفناء).

وقد كتبت مجلة الأفكار اللبنانية عدد (٣٩٤) تاريخ ١٩٩٠/٢/٥م مقالاً مسهباً تحت عنوان: (المفتي كفتارو ممثّلاً لكل رجال الدين في العالم تحت سماء موسكو)، جاء فيه:

(من مؤتمر المنبر العالمي حول البيئة والتطور من أجل البقاء الذي انعقد في موسكو مؤخراً عاد سماحة المفتي العام الشيخ أحمد كفتارو ورئيس مجلس الإفتاء في سورية بعدما مثَّلَ رجال الأديان في العالم بتكليفٍ إجماعيٍّ منهم، وتم انتخابه هناك رئيساً للقادة الروحيين على مدى العامَين المقبِلَين وقد ضم المؤتمر ثلاثمئة مدعوٍّ من القادة الروحانيين والبرلمانيين في الخارج، إضافةً إلى عددٍ مماثلٍ في الداخل.

ويقول الدكتور كفتارو: إن مؤتمر موسكو بعد مؤتمر أوكسفورد في بريطانيا منذ عامين هدف إلى توصيل قادة العالم من زمنيين وروحيين نحو اتفاقٍ أو إجماعٍ دوليٍّ وسياسيٍّ أشمل من حماية الحياة على الأرض والدفع نحو أبوابٍ جديدةٍ لإيجاد وتحقيق استراتيجية دولية للتغلب على الأزمة البيئية).

وفي حوارٍ أجْرَتْه مجلة صوت العرب مع الدكتور أكيوماتسومورا رئيس المكتب التنفيذي في هيئة الأمم المتحدة، سأل المحرر الدكتور أكيوماتسومورا بقوله:

- هل لكم أن تبينوا لنا سبب ترشيح مفتي سورية لترؤس قادة الروحانيين في العالم؟

فأجاب بقوله:

- (اكتسب مؤتمر موسكو أهميةً عن غيره من خلال عدد المشاركين الذي بلغ ٣٠٠ قائدٍ روحانيّ من كافة الأديان، و٣٠٠ رجلٍ برلمانيّ من العالم من ٨٢ بلداً، وكذلك في التغطية الإعلامية التي قمنا بها، حيث بثت وقائع المؤتمر عبر الأقمار الصناعية إلى (١٢٧) دولة في العالم على شكل تقارير عن الجلسات اليومية، وبث كامل لوقائع الجلسة الختامية للمؤتمر، ولقد قابلت المفتي كفتارو عدة مرات في دمشق ونيويورك وموسكو، وأيقنت من خلال مجالسته وما سمعته عنه أنه يتمتع بالعقل الناضج والعلم والتسامح الديني والاهتمام بالشؤون العالمية والإنسانية، ولهذا كان رأي جميع المشاركين في المؤتمر مثل رأيي فيه، وسبب آخر: لقد كانت كلمته في مؤتمر موسكو بالفعل تتويجاً لحكم الأديان السماوية وغيرها حول البيئة)[1].

وعلى الرغم من مسؤوليات رئاسة المؤتمر وواجباتها البروتوكولية فقد كان الشيخ حريصاً كلَّ الحرص أن يحاور الوفد الياباني الذي كان حضوره في المؤتمر متميزاً ظاهراً، حتى إن المؤتمر التالي عام (١٩٩٣م) انعقد في طوكيو.

وفي خلوة خاصة مع أعضاء الوفد الياباني عرض الشيخُ الإسلامَ الحقَّ كما جاء به القرآن الكريم رسالة خير ونور، مصححاً ما ينشر في الغرب من أفكار مضللة عن الإسلام وكان أن لمس الشيخ في الوفد الياباني قلوباً مهيَّئة للإسلام.

[1] انظر: صحيفة صوت العرب، عدد (٤)، نيسان (١٩٩٠م).

وبعد شهورٍ زار الشيخ طوكيو لحضور الاجتماع التحضيري لانعقاد مؤتمر الأديان العالمي تحت عنوان:(تغيير القيم من أجل البقاء الإنساني) بعد عامين (١٩٩٣م)، وكانت فرصةً مناسبةً لمواصلة الحوار والدعوة، وخاصة مع قيادات طائفة الأموتو.

وفي هذه المرة وجد الشيخ تجاوباً أكبر لدى قياداتٍ من الأموتو لتفهم الإسلام والإيمان به، ووجد الشيخ أن السبل ممهدة لدعوة القوم إلى الله أكثر من ذي قبل.

ووجَّه الشيخ دعوةً رسميةً إلى أربعةٍ من زعماء طائفة الأموتو في اليابان، وهم: ديكوشي كياتارو رئيس الكهنة في الطائفة، والسيد جاي توكوشي رئيس مركز طوكيو، والسيد سناكا رئيس القسم الدولي، والسيد نيشينو من علماء الطائفة، واختار الشيخ أن تكون الدعوة خلال شهر رمضان، حيث يكون جامع أبي النور في عرسٍ روحيٍّ وإيمانيٍّ، ويأذن الله سبحانه بسُحب هدايةٍ وفضلٍ تهلُّ بالخير والبركة على قلوب المؤمنين.

وحينما وصل الوفد الياباني في منتصف شهر رمضان (١٤١١هـ) الموافق لـ(١٩٩١م) كان كل شيء قد رُتب على ما يرام، وخُصِّص للوفد مجموعة من خيرة الذاكرين والعلماء يصحبونهم في سائر المجالس، وكان الشيخ يخصُّهم بجلسةٍ خاصةٍ كل مساء، ولم تمضِ أيام حتى شرح الله صدورهم للإسلام، وبدؤوا يُصلون مع الشيخ ويصومون أيام رمضان، وما جاءت ليلة القدر حتى كانت نفوس الإخوة اليابانيين قد أصبحت مهيأةً لتقبُّل الهدي الإلهي على أتمِّ وجه.

وعقب ليلة القدر أعلن أعضاء الوفد الياباني الشهادتَين، وذلك في درس الجمعة في جامع أبي النور بحضور أكثر من عشرة آلاف مسلم.

وفي يوم الجمعة ٥/شوال/١٤١١هـ وبعد محاضرةٍ لسماحة الشيخ أحمد كفتارو مفتي سورية في جامع أبي النور بدمشق ألقى أحد زعماء طائفة الأموتو السيد ديكوشي كيوتارو كلمةً رائعةً جاء فيها ما يلي:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، لقد أتينا إلى هذا البلد كما تعلمون بدعوةٍ من صاحب السماحة المفتي العام للجمهورية العربية السورية الدكتور الشيخ أحمد كفتارو؛ لنشترك في نشاطات رمضان الروحية، ولنحتفل معكم في عيد الفطر، لقد اشتركنا معكم إخوتي المسلمين في صيام بعض أيامٍ من رمضان، واشتركنا معكم بأداء الصلوات، وخاصة صلوات التراويح في رمضان... لقد تعلمنا كيف نهتم بالجائعين والعطاش عن طريق تعاليم رمضان، وكيف نفكر بالفقراء والمساكين الذين هم حولنا، ولقد أعطانا رمضان دروساً عظيمة، لقد استمعنا إلى أحاديث سماحة المفتي بعد العشاء وصلوات التراويح، وتعلَّمنا الكثير منه فكرياً وروحياً، إنني أغبطكم لأنكم مع أستاذٍ عظيمٍ تتعلمون منه كما تعلَّمنا منه، وإن انطباعي أنه بينما هو إنسان عادي ولكنه على صلةٍ روحيةٍ وإلهامٍ كبيرٍ من الله الكبير العظيم خالق الكون، وهو على صلةٍ أيضاً بالنبي محمد ﷺ).

وجاء في كلمةٍ أخرى ألقاها في مسجد أبي النور عقب عيد الفطر:

(لقد أكرمنا الله سبحانه وتعالى بالإسلام، وشهدنا ليالي رمضان في مسجد أبي النور، ثم سمحت لنا فرصة كبيرة بأن نشترك في صلاة العيد مع الرئيس الحكيم رئيس سورية حافظ الأسد، ومع المفتي العام، ومع كبار رجال الدولة، ومع كبار رجال الدين، وذلك في جامع الأموي ولقد تشرفنا بأن قدمنا التهاني للرئيس الأسد شخصياً بمناسبة العيد، وتمنى لنا الرئيس إقامةً طيبةً في هذا البلد، ولقد زرنا خلال العيد عدداً من المدن السورية، واستُقبِلْنا استقبالاً حسناً بكل حبٍّ وترحيب... وعندما نرجع إلى اليابان

سوف نسرد هذه الخبرة الغنية على شعبنا الياباني وعمَّا تعلَّمناه فعلاً ومارسناه من الإسلام الذي هو حقاً دين الحق، ويجب على الأسرة الإنسانية أن تتعرف عليه وتستفيد منه... ولقد وضعنا مع سماحة المفتي برنامجاً من أجل تعاونٍ مستقبليٍّ لمصلحة الإيمان بالله تبارك وتعالى خالق الكون، ومن أجل السلام العالمي والأخوة العالمية، وأيضاً اتفقنا على إجراء تفاهمٍ متبادلٍ، وتبادلٍ ثقافيٍّ في القيم والعلاقات الإنسانية، وفي هذا المجال نحن نسعى لأن يكون هناك تبادل بين الطلاب، بين هذا المسجد وبين الأموتو في اليابان؛ لكي نعمق هذه الأهداف المشتركة بيننا، وقد يأخذ هذا زمناً معيناً لكي يتحقق، ولكننا سنبذل قصارى جهدنا ليرى النور، إننا نصدر صحيفةً شهريةً للأموتو في اليابان، وإننا سنسعى لكي نصدر في كل شهرٍ معلوماتٍ تأتينا منكم لكي تتعرف عليها طائفة الأموتو والشعب الياباني فيما يتعلق بتعاليم الإسلام وقيمه، وكما أخبرتكم سوف نخصص عموداً كاملاً وأكثر من ذلك من أجل تعاليم الإسلام وأخبار المسلمين، وسوف نرسل لكم من طرفنا عن أخبارنا بالتدريج؛ لكي تكونوا على علمٍ فيما يجري عندنا أيضاً، وذلك لتتعرفوا على اليابان وكذلك أسرتنا الأموتو ، ولو بدأنا ببذرةٍ صغيرةٍ ولكننا سنتوقع شيئاً فشيئاً في المستقبل للمزيد والمزيد.

وأخيراً وليس آخراً: نحن نأمل أن علاقاتنا مع بعضنا سوف تزدهر تحت رعاية الله الخالق العظيم من أجل تحسين العلاقات بين الأموتو وبينكم، وبين الشعب السوري والياباني، وأتم حديثي بهذه العبارة المهمة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والحمد لله رب العالمين، والسلام عليكم).

وعقَّب الشيخ كفتارو على كلمة السيد ديكوشي بقوله:

(أنا أشكر من أعماق قلبي أصالةً عن نفسي ونيابةً عنكم جميعاً رجالاً ونساءً ضيفنا وأخانا السيد ديكوشي رئيس الدين الثالث في اليابان على كلمته الرائعة وبيانه

العظيم، كما أني أشكر رفاقه ومساعديه على ما تحمَّلوه من مشاق في سفرهم إلينا، آملاً من الله عز وجل وفي المستقبل القريب أن يكون لهذا اللقاء والتبادل الثقافي فيما بين سورية وبين بلادهم اليابان ما فيه الخير الكثير لبلدَينا وللإسلام وللعالم كله، وختاماً: أسأل الله لهم ولأسرتهم جميعاً كل سعادةٍ وكل صحةٍ وكل توفيقٍ، والحمد لله رب العالمين).

وعقب إعلان الوفد الياباني الشهادتين رتب لهم الشيخ كفتارو عدة زيارات للقيادات الدينية والسياسية في سورية، كما رتب لهم لقاءً مع السيد الرئيس حافظ الأسد صباح يوم عيد الفطر، وكان لقاءً مبهجاً طيباً أدَّى فيه الوفد الياباني صلاة العيد، كما لزموا جامع أبي النور خلال أيام العيد، فعاشوا في ذلك البرزخ الإيماني العارم، حيث يأتي علماء الشام ووجوهها لزيارة الشيخ في المجمع الإسلامي خلال أيام عيد الفطر.

وتعتبر أيام العيد من أكثر الأيام بركةً في المجمع الإسلامي، حيث تتعاقب وفود الشام ولبنان والمحافظات السورية للقاء الشيخ، ويتحدث خطيب كل وفدٍ معرِّفاً بحال الدعوة الإسلامية في منطقته، ويصف تجربته وتجربة إخوانه في الدعوة والبلاغ، ويتبارى الشعراء والخطباء وبراعم الإسلام للحديث عن جوانب عظمة الإسلام في فسيفساءٍ معرفيٍّ متناغمٍ ليس له شبيه، وهكذا فإن الوفد الياباني استمع خلال أيام العيد إلى تجارب إسلاميةٍ غنيةٍ، ورأى طرفاً ظاهراً من أثر الإسلام في السلوك والعمل.

وبعد عيد الفطر أعدَّ الشيخ كفتارو برنامجاً خاصاً للوفد الياباني لزيارة الأراضي المقدسة، وعلى الرغم من وضعه الصحي الحرج فقد آثر أن يصحب الوفد بنفسه لأداء العمرة الشريفة، وهناك انطلق بهم في غمرات النعيم الروحي العارم وقد لبسوا ثياب الإحرام البيضاء في المسجد الحرام وبين الصفا والمروة وعند الملتزم ومقام إبراهيم وتحت

ميزاب الرحمة وعند الحطيم والحجر الأسود، وسُكبت ثمة عبرات يابانية صادقة لها دلالات عظيمة ربما يُقدَّر لها أن تغير وجه ذلك الشرق الأقصى ذات يوم.

وتعاون إخوان الشيخ كفتارو في الحجاز وكذلك الدكتور أحمد زكي اليماني الوزير السعودي السابق، تعاونوا على تحقيق جوٍّ من الأُلْفة والمحبة حول هؤلاء الإخوة الوافدين إلى رياض الجنة.

ثم مضى بهم الشيخ كفتارو إلى المدينة المنورة، حيث ضمت تلك الأرض الطيبة رفات خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعند عتبة روضته الشريفة بكت اليابان بحرقةٍ وألمٍ، إنها مع تقدمها في الحضارة المادية تأخرت في الوقوف عند هذه الأعتاب، وها قد جاء وافدها، فهل يكتب الله لهذا الشعب منزلاً تحت لواء صاحب الشفاعة محمد ﷺ؟ مَن يدري؟! وما ذلك على الله بعزيز.

قال كفتارو لكيتارو عند الروضة المشرفة:

- كيف تجد نفسك؟ أخبرني.

قال كيتارو لكفتارو:

- إنها ليست ساعة أوصاف، إن السماء هنا تتصل بالأرض، ألا ترى معي ضريح محمد ﷺ يعلوه عمود من نور موصول بمجد الله في الأعالي؟!

ثم كفَّنتهما العبرات... والدمع أصدق إنباءً من الكلم، ورُبَّ صمت أبلغ من منطق!

وحينما خلعوا ثياب الإحرام البيضاء كانت نفوسهم قد تطهرت بنعمة الإسلام رجاء أن يصيبهم وعد النبي ﷺ في قوله: (مَن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)[1].

بعد ذلك عاد أعضاء الوفد الياباني إلى طوكيو وعندهم رسالة عظيمة تنوء بها همم الرجال، وجاء في أول رسالةٍ كتبها كيتارو للشيخ عقب عودته:

(إنه ليصعب عليَّ أن أعبر عن فرحي بأن الله تعالى وفقنا لزيارة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، ولولا عطفكم لكان من المستحيل لنا أن نحقق حلمنا بأن نسافر معكم إلى أقدس الأمكنة في الإسلام... وسوف أذكر دائماً شجاعتكم وهيبتكم في مواجهة المشاق وتحملها، ولقد شعرت بالتطهر الكامل والسمو الروحي عندما زرنا مكة والمدينة، ولقد تأثرت كثيراً عندما استطعت أن أؤدي الصلوات لله في أشد الأمكنة قدسيةً له، وأنني استطعت حتى أن أقبِّل الحجر الأسود... وإنني ممتَنٌّ للقاءات التي جرت مع زعماء بارزين، وخاصةً الشيخ يماني الذي تكرَّم وأعطانا من وقته وحُسن ضيافته، وللرئيس الأسد بذكائه الحاد وسعة رؤيته قد ساعدنا على الوصول إلى فهمٍ أفضل للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العالم الإسلامي، ولقد شرفتموني بالترحيب بي في بيتكم وحديقتكم الجميلة في دمشق، ولقد علَّمتموني الكثير من المبادئ الروحية والقصص القرآنية الحية الرائعة، وأشكركم على الهدايا الكثيرة الكريمة التي قدمتموها لنا من كتبٍ قيمةٍ بما فيها القرآن الكريم ومسابح الذكر والعباءات وغير ذلك، وآمل أن هذه الأسابيع التي أمضيناها معاً ستكون بداية تبادل زيارات عدة والتي

[1] أخرجه البخاري وأحمد بن حنبل والنسائي عن أبي هريرة.

ستتطور تدريجياً، وإننا نصلي من أجل أن تكون صحتكم جيدةً، ومن أجل ازدهار وسعادة مسجد أبي النور، ولكم حبنا وأصدق نياتنا... بارك الله فيكم دائما)[1].

كما صرح السيد هياو ديكيوشي رئيس مركز طوكيو بما يلي:

(نشكركم يا سيدي -متوجهاً بكلامه لسماحة الشيخ- لأنكم عرفتمونا بحقيقة الإسلام التي حجبها عنا الإعلام الغربي... إننا سنعود إلى اليابان لننقل إليهم تعاليم الإسلام الرائعة وكل مراحل التجربة التي مررنا بها.

قبل زيارتنا سورية كنا نرى المسافة بين اليابان وسورية طويلةً جداً، أما الآن فإننا نشعر بأننا قريبون من بعضنا كثيراً).

وكما صرح السيد سناكا رئيس القسم الدولي بما يلي:

(نحن نشعر في الأموتو أننا على عتبة عصرٍ جديدٍ وفتحٍ جديدٍ، وأن زيارتنا هذه هي بداية الفتح، أليس مدهشاً أن تقوم عائلة الديكوشي وهي التي أسست الأموتو بعد ألف وأربعمئة عام بالدعوة لأفكار النبي ﷺ في اليابان؟!).

وفي نيسان عام (١٩٩٣م) قام الشيخ بزيارة اليابان للمشاركة في المؤتمر الدولي: (تغيير القيم من أجل البقاء الإنساني) في طوكيو، وهناك انتُخِب رئيساً لرجال الأديان، وألقى خطاباً في المؤتمر بعنوان: (القيم الخالدة).

ومع ذلك فإن حضور المؤتمر لم يكن أكبر همه؛ بل كان همه الأكبر أن يسقي غراسه التي غرسها في طائفة الأموتو قبل عامَين، وكم كان سروره كبيراً حينما رأى القوم على العهد الذي تركهم عليه، يؤدون رسالتهم في التعريف بالإسلام من خلال صحفهم

[1] عظماء ومفكرون يعتنقون الإسلام، تأليف محمد طماشي، ط دار المحبة.

ومراكزهم، ولأول مرةٍ يتوج الحجاب الشرعي الإسلامي رؤوس يابانيات كريمات ينعمن بنعمة الهدى والنور.

غير أن إخوانه في اليابان لم يكتفوا بذلك فوجهوا دعوةً خاصةً للشيخ لزيارة طائفة الأموتو في مقرّ نشاطهم في إيابي، وقد قام الشيخ كفتارو بتلبية الدعوة بالفعل في تشرين الثاني عام (١٩٩٣م)، وكانت هذه الزيارة مناسبةً فريدةً للتعريف بالإسلام في طوكيو والمدن اليابانية على أعلى المستويات وبمختلف الوسائل الإعلامية.

وفاة زوجته:

وفي يوم الثلاثاء ١٩٩١/١/٢٣م توفيت زوجة الشيخ كفتارو (حواء ملي) بعد صراعٍ مع المرض، وهي امرأة صالحة طاهرة، وسائر أولاد الشيخ منها، وقد عاشت في كنفه نحو أربعٍ وستين سنةً في السراء والضراء والعسر واليسر.

وجهز الشيخ امرأته وصلى عليها صلاة الظهر في حرم مسجد أبي النور، وألقى كلمة التأبين عليها الأستاذ مروان شيخو عضو مجلس الشعب، وكانت كلمةً طيبةً مؤثرةً، ثم دفنت إلى جوار ولدها الشيخ زاهر كفتارو في ضريح الشيخ أمين خلف مسجد أبي النور.

وقد كانت وفاة زوجته الصابرة مناسبةً أخرى لفهم عمق التأثير الذي بلغه الشيخ في نفوس الأمَّة بمختلف أوساطها.

وخلال أيام العزاء الثلاثة أمكنك أن تشاهد سائر المجتمع السوري؛ من علماء الدين الإسلامي، ورجال السياسة والجيش والاقتصاد، ورجال الطوائف المختلفة، ورجال الدين المسيحي والتجار والمحامين والفنانين والأطباء والمهندسين وسائر فعاليات سورية، ولو شئت لقلت: بلا استثناء.

وجاءت وفود لبنانية ومصرية وسودانية وليبية وسعودية وأمريكية وبريطانية ومن بلادٍ أخرى.

وهكذا فقد كانت التعزية موسماً أوضح عمق الاحترام الذي تُكِنُّه سورية لتلك الموهبة النادرة التي أوجدت حضوراً حقيقياً للإسلام بجوهره وحقيقته في شتَّى مناحي الحياة.

ومن بين كلمات العزاء والرثاء أختار لك هنا هذه القصيدة اللطيفة التي أعدَّتها حفيدة الفقيدة زوجتي أسماء كفتارو، وهي معلَّقة على ضريحها رحمها الله:

يا أم أهل البيت روضكِ عامرٌ ... هذا الضريح منارة وضياءُ
في الأرض شيخ العارفين بحجرها ... ولها بعدنٍ زاهر وبهاءُ
النقشبنديون أعلام الهدى ... أفواجهم من حولها طفراءُ
نامت هنا سلطانة الصبر التي ... فيها اجتلت أسماء والخنساءُ
ماذا لقيت من الزمان وأنت في ... سفر الزمان قصيدة عصماءُ
قرأ الزمان عليك كل فصوله ... ولهولِها تتفطَّر الصماءُ
وأراك منه سواده وبياضه ... وأتى عليك الضر والسراءُ
فرآك أيوباً على أهواله ... ورآك حاتم حين جد عطاءُ
بيتٌ ضياء الله في أركانه ... والله يعطي الفضل كيف يشاءُ
حواء، دارك لم تزل في مجدها ... هي للمكارم روضة غنَّاءُ
وبنوك مهما الدهر جار عليهم ... هم منك روض وارف معطاءُ
يكفيك في الدنيا (أبو فضل) لها ... ويمينه في السالكات (وفاءُ)
ضمِّي إليك حبيب قلبك زاهراً ... في روضة الحنَّان يا (حواءُ)
أماه! ها أني على الدرب الذي ... كانت أمانيك العظام تشاءُ
أنا عند بابك تسمعين ... أنا بنت محمود أنا أسماءُ
أمَّ المساكين اذكريني دائماً ... مسكينة بالباب يا حواءُ

الدراسات الشرعية العليا:

وخلال نشاط الشيخ في المؤتمرات والرحلات في العواصم المتباعدة فإنه لم ينسَ أبداً مزرعة الدعاة التي أنشأها في الشام في جامع أبي النور؛ إذ هي الأمل الذي سيواصل معه رسالة الإصلاح والتجديد.

لقد كان ينشئهم دعاةً عاملين زادُهم الحب والذكر، والآن أمكنه أن يصون عملهم وجهدهم بالعلم الشرعي، وأكثرهم حصل على الإجازة في الشريعة، والزمان زمان اختصاصٍ فلماذا لا يتخير منهم رجال اختصاصٍ يُسهمون في بناء حركة الاجتهاد والإصلاح على أسسٍ متينةٍ من العلم الشرعي.

ورأى أن أعرق الجامعات الإسلامية بعد الأزهر الشريف إنما هي الجامعة الإسلامية في أم درمان، فقد بدأ نشاطها عام (١٩١٤م)، وتتكون هيئتها التدريسية من ١٦٤ عضواً برتبة دكتور فما فوق، ولها تجربة غنية في تكامل العلم والسلوك، وهي اليوم في بلدٍ إسلاميٍّ كبيرٍ يطرح شعاراتٍ إسلاميةً متميزةً، ولأجل ذلك فقد سافر الشيخ إلى السودان عام (١٩٩١م)، والتقى الرئيس السوداني الفريق عمر البشير، وتبادل معه الأفكار حول رعاية طلبة العلوم الإسلامية والعناية بهم ومراقبة سلوكهم على أسس الشريعة الملتزمة، والتقى مع رئيس الجامعة الإسلامية في أم درمان الدكتور أحمد علي بابكر، وخلال اللقاء اتُّفِقَ على تسجيل الخريجين في المعهد الشرعي في كلية أصول الدين في الجامعة على أن يتم إعفاؤهم من الدوام والسفر، مقابل أن يتكفل الجهاز العلمي في مجمع أبي النور الإسلامي بتدريسهم المواد والمناهج، ويتم امتحانهم في نهاية العام من قبل لجنةٍ ترسلها إدارة الجامعة إلى دمشق.

وعند كتابة هذه السطور فإن عدداً من الطلبة في مجمع أبي النور يكونون قد تحصلوا على درجة الماجستير وبدؤوا بالإعداد لمرحلة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية.

وقد مُنحت بالفعل أول درجة دكتوراه في المجمع الإسلامي بجامع أبي النور آخر عام (١٩٩٣م) للسيد عمر حسين حماده، بعنوان: دراسة في الأدبيات الماسونية في القرن العشرين، وهي تتضمن بحثاً علمياً قوياً يكشف خفايا الحركة الماسونية ونشاط أفرادها في خدمة الصهيونية.

كما مُنحت عام (١٩٩٤م) درجة دكتوراه للسيد محمد عبد الحليم الروسان حول الكفاح الإسلامي في فلسطين، والرسالة الإعلامية في خدمة هذا الكفاح.

ويعمل الآن في مجمع أبي النور أكثر من عشرين مفكِّراً إسلامياً تحصَّلوا على درجة الدكتوراه في المعارف الشرعية من جامعات مختلفة.

الوفود:

وحينما كان يؤوب إلى عشه بين كل سفر وآخر، لم يكن يلتمس في أوبته الراحة والاسترخاء؛ بل إنه لم يكن يجد لذلك سبيلاً، فقد ازدحمت عليه الوفود في داره كما ازدحمت عليه في أسفاره، وأصبحت محاضرة الجمعة التي يلتزمها مؤتمراً إسلامياً حقيقياً؛ إذ لا بد أن يشهدها في كل مرةٍ وفود مختلفة من هذا العالم، إضافةً إلى الألوف المتراصَّة من المريدين.

وكم من مرةٍ تحدث في محاضرته خطباء زائرون من أمريكا والاتحاد السوفياتي رغم ما كانت تشهده بلادهم من واقع الحرب الباردة والتوتر المستمر، كذلك كنَّا نستمع في المحاضرة الواحدة أحياناً لخطيبٍ إيرانيّ وآخر سعوديّ، وخطيبٍ مصريّ وآخر سودانيّ، وزائرٍ عراقيّ وآخر كويتيّ، على الرغم مما تشهده سياسات بلادهم من مواقف متناقضة، وكان يفرح لذلك ويبتهج؛ إذ يرى في المقاصد الإسلامية مرمىً سامياً تذوب فيه تلك التناقضات ولا يبقى فيها مبرر لتأجير العقل لرياح السياسة.

وفي مجلسه تحدث كثيرون عن روح التسامح والمحبة التي وجدوها في دوحته، وكان منهم علماء مسلمون بارزون، وخطباء مشهورون، وشعراء مجيدون، وكاردينالات وقسس وشيوخ عقل وروحانيون، ومفكرون أكاديميون، ورجال دعوة وعمل، ورجال تصوف، ودعاة سلفيون، وأهل رأي وأهل أثر ووزراء عسكريون، وسفراء ورجال إعلام ورجال فن... إلى غير ذلك من دائرةٍ لا تكاد تتأطَّر، وقد قدمتُ لك ثبتاً ببعض ما أذكره من هذه الوفود[1]، ولو أني بسطتُ لك الأسماء وكتمتُ عنك المكان والزمان لم يكن لك أن تتصور أن هؤلاء يقصدون جهةً واحدةً، أو أنهم يمكن أن يجتمعوا على

[1] انظر: الملحق الخاص بالوفود آخر الكتاب.

قصدٍ واحدٍ، ناهيك أن تصدق أنهم كانوا يتحدثون في مسجدٍ واحدٍ في حي الزينبية بين يدي شعائر الجمعة!

إنها إحياء حقيقي لرسالة المسجد التي تكامل أَلَقُها في مسجد النبي ﷺ، حيث كان يجيء إلى تلك الدوحة المباركة وافد المقوقس القبطي، ووافد نجران من نصارى العرب، فيتحدثون ويستمعون ويأكلون ويشربون ويصلُّون في المسجد -الجامعة- صلاتهم ويستقبلون قبلتهم، وفي المسجد كان يأتيه وافد غسان ووافد الأزد ووافد طيء، فيتحدث إليهم ويستمع منهم، ويعظهم وينصحهم، ويشاركهم ويقترض منهم.

وكدلالةٍ باقيةٍ على التسامح لا تنسَ أبداً ما أخرجه البخاري في الصحيح[1]: أن رسول الله ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهوديٍّ بصاعٍ من شعير، وعلى الرغم من أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا متوافرين قادرين، ولم يكن ثمة أي مبررٍ أن يقترض النبي ﷺ من يهوديٍّ ويترك ابن عوف وابن عفان وابن عبادة وغيرهم من الأجواد وهم يفدُونه بأرواحهم وأموالهم، غير أنه ﷺ أراد أن يتركها رسالةً باقيةً يرفع فيها الحرج ويبسط فيها الحجج.

وخلال هذه اللقاءات فقد كانت رسالة البلاغ المبين تستكمل أسبابها ودلالاتها، ولم يكن وفد زائر يقوم من دوحة الشيخ إلا بعد أن يستمع في أوضح بيانٍ إلى رسالة الهدى، وما على الرسول إلا البلاغ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون.

وعلى كثرة ما كان يأتيه من فودٍ إسلاميةٍ سلفيةٍ وصوفيةٍ وشيعيةٍ وغيرها فقد كان اهتمامه الأكبر بالوفود الأجنبية، فهي المقصودة أولاً برسالة البلاغ، وكان يُؤْسِفُه أن

[1] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الجهاد والسير، رقم الحديث ٢٩١٦.

كثيراً من الحركات الإسلامية تتحكَّم فيها السياسة والانفعالية إلى درجةٍ يخفُتُ فيها دور الاحتكام إلى الحقيقة المجردة والقدرة على التغيير.

وهكذا فقد كان يلتقي الوفود الأجنبية الزائرة على اختلاف مشاربها، ويقوم معه تراجمة أَكْفَاء من خيرة إخوانه، لعل أبرزهم الأستاذ فاروق آق بيق الذي أصبح متخصصاً في الترجمة الدينية، وحينما كان يرهق مترجمه الشاب كان الشيخ يعهد إلى إخوان آخرين كالسيد خليل مجدلاوي وعبد الوهاب المصري وإبراهيم مطر والدكتور محمد طاهر اسماعيل وغيرهم.

وكان الشيخ يرسل لهذه الوفود مَن يدعوها ويتألفها، حتى إذا استمعت إلى كلمة الإسلام رصد لها مَن يراسلها ويتصل بها حتى يحفظ جذوة الحب والتسامح التي زرعها في تلك القلوب.

وفي مراحل لاحقة صارت الوفود الزائرة هي التي تبحث عن مجالس الشيخ لتشهد بنفسها –بعد أن سمعت من غيرها– دوحة التسامح والانفتاح التي تبسط أفياءها في الشام، وأصبحت الكلمة التي يُتَلَقَّى بها الزائرون إلى الشام بعد عودتهم:

Have you met keftaro?

هل التقيت كفتارو؟ كما يسأل العائد من مصر: هل رأيت الأهرام؟!

ولم تقتصر الوفود الزائرة على البعثات الصحفية والدينية فحسب؛ بل جاءت وفود علمية وسياسية وأكاديمية واستكشافية، حتى إن بعض الوفود كانت في مهام فنية وسياحية ولكن وجدت طريقها إلى جامع أبي النور، وكان السفراء الغربيون يتولَّون ربط

المواعيد لرعايا بلادهم مع الشيخ كفتارو؛ ليشاركوا في إسماع ذلك الصوت الصادق إلى الآفاق بعد أن وجدوا فيه معنىً فريداً في طرح الإسلام كقوَّة وفاقٍ عالميٍّ وإخاءٍ إنسانيٍّ.

بعد الثمانين

وعلى الرغم من تجاوزه الثمانين من العمر فإن همته وآماله ما زالا في شباب، فما زالت محاضرته كل جمعةٍ تفيض حيويةً ونشاطاً، ويختلط فيها المرح والفكر والأمل والعمل، ويزدحم فيها الشيوخ والشباب تماماً كما كانت قبل ستين عاماً، غير أن آماله اليوم أكبر، وآراءه أكثر انفتاحاً وإشراقاً.

وفي رمضان فإن الألوف المؤلفة تفد إلى جامع أبي النور كل ليلةٍ لتصغيَ إلى حديث الشيخ الذي يلقيه كل ليلةٍ عقب أدائه صلاة التراويح التي لم يتركها يوماً على رغم تقدم سنِّه وحَرَجِ صحته.

وإذا كانت النفوس كباراً

تعبتْ في مرادها الأجسام

وحتى اليوم فإنه لم ينقطع عن زيارة إخوانه وتلامذته في نشاطهم وبرامج دعوتهم، ولستُ أنسى تلك العشيَّة من أيام تموز (١٩٩٣م) حيث كانت مجموعة من تلامذة الشيخ من الناشئة تقوم بأداء رحلةٍ تربويةٍ في شاطىء طرطوس حين فُوجئ التلامذة بقدوم الشيخ، حيث جلس إليهم وأكل معهم وسامرهم وألقى عليهم جملةً من الأحاجي والألغاز العلمية، ونصحهم وأرشدهم، ثم ارتدى ثوب السباحة ونزل معهم إلى البحر يؤانسهم ويلاطفهم وهو في الثانية والثمانين من العمر، وهم يتحلَّقون حوله تحلُّق الكواكب حول البدر، لا يدرون وهم ترقص قلوبهم من حوله بأي المشاعر هنا يمكنهم أن يصحبوه، فقد اختلط في نفوسهم الحب والخوف، والهيبة والمودة، والفخامة والبساطة، والجد والمرح، فهو لهم أخ وأب وجدٌّ، وأنيس وجليس، ووارث لرسول الله ﷺ!

ومع اقترابه من التسعين فإنه لا يزال يقوم بنشاطٍ كبيرٍ في مجال الدعوة الإسلامية، ويتصدر مجالسه العامرة بالنصح والإرشاد، وتتلهف إليه القلوب العاشقة التي تزدحم ازدحاماً عظيماً في جامع أبي النور كل يوم جمعةٍ إلى درجةٍ ألجأت إدارة المرور في دمشق إلى تنظيم سيرٍ خاصٍّ حول مسجد أبي النور يوم الجمعة، إضافةً إلى السيارات والباصات الكبيرة التي تنتشر مئات الأمتار حول المسجد، وفيها محبون ومريدون قادمون من مختلف القرى والمدن في محيط الشام.

ويُقدَّر عدد المؤمنين الذين يتوجهون كل جمعةٍ إلى جامع أبي النور بنحو عشرين ألف مصلٍّ ما بين رجال ونساء يتوزعون في طوابق المجمع الإسلامي الكبير الثمانية بملاحقها، حيث تبلغ المساحة الطابقية التي تفرش لحضور الدرس ويزدحم فيها الناس يوم الجمعة حالياً بنحو ٤٩٠٠م٢، وستُضاف إليها قريباً توسعة في مثل حجمها، وهي أكثر سعةً من حرم المسجد الأموي المفروش الذي يبلغ نحو ٦٠٠٠م٢، وتتولى كاميرات التصوير نقل سائر المحاضرات بالصوت والصورة إلى سائر مرافق المجمع الإسلامي، ويمكن القول هنا بموضوعية: إنه لا يوجد في الشرق الأوسط محاضرة أسبوعية منتظمة يحضرها هذا العدد من الناس بدون انقطاع.

ويتم نقل الدرس بالصوت والصورة إلى كافة ملحقات المجمع المفروشة عبر نظامٍ صوتيٍّ ومرئيٍّ متطورٍ.

ومع كل ما عرض له من أزمات صحية فإنه بحمد الله في عافية، يزداد نضجاً ووعياً وعلماً، ولا يزال إلى اليوم مرجعاً أكبر في القضايا الإسلامية الكبرى على المستوى المحلي والعربي والدولي.

ومَن يدري؟! فلعل ما هو آتٍ أكثر مما فات، ورُبَّ عطاء يومٍ أكثر من جهاد سنين، ولا يعلم أحد ماذا كتب الله في لوح الغيب، ولعله يطول به زمان تبصر فيه عيناه عزة الإسلام الذي عاش لأجله، وما ذلك على الله بعزيز!

في حياته الشخصية

أراني هنا بعد أن فصَّلت القول في نشاط الشيخ في المجالات العامة قد ذهلت عن أخبار الشيخ في داره وأهله، وقصرت في الحديث عن شمائله وسجاياه.

ويجب ألا تعاتبني على هذا التقصير، فقد كان الشيخ بالفعل مائدةً عامةً أخذت عليه الدعوة إلى الله نشاطه كله، حتى ضاق في الحقيقة وقته عن أن يتسع لحظوظ نفسه من الراحة والاستجمام والخلود إلى الأهل والولد.

ولكن ثمة كلام كثير يمكنني أن أخبرك به عن طباع الشيخ وسجاياه من خلال ما رأيته وسمعته في نشأتي وفتوَّتي في جامع أبي النور، ثم صلتي القريبة به بحكم القرابة والمصاهرة.

مقام القدوة:

وفي الحقيقة فإن الشيخ أعدَّ نفسه منذ طفولته لموقع الإرشاد والتوجيه وتربية المريدين، وهو اختيار صعب ودقيق، ولا يتيسر النجاح فيه إلا لمن استوى ظاهره وباطنه ولم يخالف الناس إلى ما ينهاهم عنه، وهو معنىً لا يتفطَّن إليه إلا مَن أدرك طبيعة العمل في الحقل الإسلامي، ولا سيما في تربية الشباب وإعدادهم.

فالداعية الحق لا تنتهي رسالته عند إلقاء خطبته أو محاضرته، ثم انصرافه بعد ذلك إلى قضاء حياته الخاصة في برزخٍ يحول بينه وبين هموم الناس وآمالهم ومعاناتهم، فهذا شأن المدرِّس المحترف الذي ينظر إلى عمله التعليمي كوسيلة رزق شريفةٍ لا غير.

أما الداعية القدوة فإنه حين يقوم في سدة التربية فإن عيون إخوانه ترقبه حيثما توجه، وتتكلف السبل لمعرفة نومه ويقظته وخفيِّ أحواله، وفي كل هذه القضايا فإنها تعرض أحواله على أقواله بدون تكلفٍ أو قصدٍ، فإن لم يكن ظاهره كباطنه وخفيُّ فعلِهِ كظاهرِ قوله فإنَّ الناس تُولِّي ظهورها عن وجهه، وما أسرع ما يتحول هؤلاء المقربون إلى سعاة صدودٍ يحولون بين الناس وبين هذا الدعي برصيدٍ من الحجة والدليل.

وإني أجزم لك أن هذا هو أهم الأسباب التي يُفسَّر بها سقوط كثيرٍ من حركات الإصلاح بعد طفرة نشاطٍ لاهبٍ، وذلك حينما تكتشف الجماهير أن قياداتهم تطلق شعاراتٍ مثالية، ولكنها أبعد ما تكون عنها في السلوك الشخصي.

وأذكر حينما كنا طلاباً في الصف السابع كلاماً حدثناه الشيخ أسامة الخاني – وكان حينئذٍ مدرس السيرة في المعهد الشرعي– عن تجربته في معرفة الشيخ، فقد صرَّح بأنه قضى شهوراً طويلةً يراقب الشيخ في سلوكه العام والخاص، ولازمه عامَين اثنَين من غير أن يسلم قياده للشيخ أو يستجيب لتوجيهاته، حتى إذا راقبه في داره وراحته ظاهراً

وباطناً، وأيقن أن هذا الرجل عارف بالله طاهر السريرة صادق القول؛ حينئذٍ مضى إليه وعاهده على الطريق، والتزم دروسه ومجالسه.

وأنقل لك هنا عن المفكر الإسلامي الداعية الشيخ أحمد الملا: (لقد مثل سماحة الشيخ بحقٍّ المعنى الموضوعي للعلماء الأمناء ورثة الأنبياء، فقد جمع بتوفيق الله بين النظرية والممارسة والعلم والعمل)[1].

وقد سجل الشيخ أسامة الخاني هذا المعنى في قوله بعدئذٍ:

(لا بدَّ من التزام أحد الشيوخ العارفين بالله العلماء المربين، وقد التزمت سماحة المفتي العام للجمهورية الشيخ أحمد كفتارو الذي فتح لنا صدره بأخلاقه وحلمه، فعاملني معاملة الوالد لأولاده تربيةً وتهذيباً وصحبةً ودفعاً؛ لكي نكون دعاةً إلى الله وقدوةً صالحةً للناس، فكان يدعونا لأن نكون للمتقين إماماً، ولا يرضى بنا متقين في أنفسنا فحسب)[2].

وخلال حياة الشيخ الطويلة فإن ألوف الشباب نذرت حياتها في سبيل رسالة التجديد التي قادها الشيخ، ودارت في فلكه وجهاده، وكثير منهم تحولوا من أعداء مبغضين إلى سالكين محبين بعد أن تجلَّت لهم الحقيقة على وجهها.

وثمة أفراد قلائل تحلَّقوا حوله أياماً، فلم ينهض لهم ذلك بمطامعهم وأمانيهم، فتحولوا ساخطين، وغامروا بما لهم من رصيدٍ في المسجد، ولكنهم فوجئوا وهم يبرحون فردوس الجماعة أنهم يخرجون بجلودهم، لا ينصرف معهم إلا زائغ القلب مائع السلوك.

---

[1] دراسة في علم العقيدة الإسلامية على ضوء الكتاب والسنة، تأليف الشيخ أحمد علي الملا ص١٩٠.

[2] انظر: كتاب يحدثونك عن آبائهم، ط دار الخير – دمشق – (١٤١١هـ-١٩٩٠م) ص٥٤.

كناطحٍ صخـرةٍ يومــاً ليُوهنهـا

فلم يَضِرْهَـا وأوهى قَرْنَهُ الوَعِــلُ

ورحم الله مَن قال:

يا ناطح الجبـل العالــي ليوهنـه

أَشْفِقْ على الرأس لا تُشْفِق على الجبـلِ

مع الحاسدين:

وإذا كان الشيخ كفتارو قد أُوتِيَ القَبول والتوفيق على المستوى المحلي والعربي والإسلامي والعالمي فإنه لم ينجُ من غرض المغرضين وحسد الحاسدين، وكان لا بدَّ له من خمسة أعداء جاء بهم نص الحديث الشريف: (لا بدَّ للمؤمن من خمسة أعداء: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وكافر يقاتله، ونفس تغويه، وشيطان يضلُّه).

وقد لقي من الحاسدين من الأذى والصدود ما لا نكاد نعرفه لأحدٍ إلا لمن هو فوقه في رتبة الولاية والاستقامة الذين كان لهم أسوة حسنة بصبر الأنبياء من قبلهم وما أصابهم في سبيل الله.

وهذا الأسلوب الآثم في الإساءة إلى القيادات الدينية بالإشاعة والإرجاف ونشر الأباطيل طريقة دأب عليها الأشرار، وإن من المؤسف أن ينخرط في تيار الدهماء هذا طائفة من الذين يعرفون قول الله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحُجُرَات : ٦] .

وهذا الكيد تعاقب على المكر به الأشرار من أعداء الرسل، فلقي موسى من أذى الناس وكلامهم ألواناً مختلفةً، حتى كان مما قالته بنو إسرائيل: إن موسى رجل آدر[1]؛ أي: عظيم الخصيتين، يا ويلهم! أيمثل هذا يواجَه المصلحون؟ وفي براءته من ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩﴾ [الأَحْزَاب : ٦٩] .

ثم ما لنا نُغْرب في ضرب الأمثلة وإن أظهر منها وأقرب خبر الإفك الذي أرجف به المنافقون، حيث طعنوا في الطاهرة بنت الصديق زوج النبي ﷺ عائشة، حتى أنزل الله

[1] صحيح البخاري، كتاب الغسل.

براءتها في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النُّور : ١١]

وهكذا فقد لقي الشيخ كفتارو قدراً غير قليلٍ من أذى المرجفين، ولكن هذا الإرجاف كان ينقمع بمجرد أن يصل المرء إلى مجلسه ويستمع إليه، ورحم الله القائل:

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر

ولعل أصدق وصفٍ لِمَا لقيه الشيخ كفتارو من المرجفين هو ما حرره المفكر الإسلامي اللواء محمود شيت خطاب[1] في مجلة الأزهر عام (١٩٧٦م)، فقد قام اللواء محمود شيت خطاب بزيارة دمشق، والتقى مطولاً مع الشيخ أحمد كفتارو، وأدهشته نشاطات الصحوة الإسلامية التي يؤسسها الشيخ في جيل الشباب، وقد شارك السيد شيت خطاب بنفسه فيها، وأذكر أنه كان يزورنا في الرحلات التربوية وخصوصاً في مخيم الحنفي بالزبداني؛ بل كان يبيت معنا في خيام المعسكر، ويشهد حفلاتنا ويبتهج لهذه النشاطات، وحينما غادر دمشق كتب في مجلة الأزهر الشريف مقالاً ضافياً تحت عنوان: (إعداد علماء الدين)، وأرسله عقب نشره إلى الشيخ كفتارو بدمشق مع رسالة خاصة، وهأنا أنقل لك بعض ما جاء في المقال المنشور:

(وقد كنت في الديار المقدسة قبل شهور معتمراً، فسمعت إشاعات عن الشيخ الجليل –وهو شيخ العلماء وعالم الشيوخ– يرددها مسلمون متدينون ملتزمون بسذاجةٍ

[1] اللواء محمود شيت خطاب: من ألمع المفكرين الإسلاميين المعاصرين، شغل مناصب عدة في العراق، تفرغ للتأليف، وصدرت له مجموعة كبيرة من المؤلفات حول استراتيجية النبي ﷺ في الحرب، وله نشاط كبير في العمل الإسلامي، صدر له من المؤلفات: (الرسول القائد، بين العقيدة والقيادة، قادة فتح الشام ومصر، قادة فتح العراق)، وعدد آخر من المؤلفات.

وغفلةٍ تمزقان نياط القلب بمكة المكرمة في البيت الحرام... والحق أن المتدينين بصورةٍ عامةٍ يتميزون بالسذاجة والبساطة والغفلة وطيبة النفس والقلب، فيصدقون ما لا يصدق، ويتبعون كل ناعق، وقد كشفت للذين سمعتُ منهم حقيقة الشيخ[1]، فاستغفروا الله كثيراً وتابوا، وقلتُ كلمة الحق، وهو واجب كل مسلم، وأطلعت أولئك على الدوافع والأهداف، فغيروا أفكارهم وكذبوا ما صدقوه، ومن واجب كل مسلمٍ حقاً أن يُحِقَّ الحقَّ ويُبْطِلَ الباطلَ، وصدق الله العظيم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحُجُرَات : ٦] [2].

ومع ذلك فلم يكن الشيخ أحمد لينثني في جهاده أمام المرجفين، وقد أوتي رضيً عجيباً عن الله في كل ما كان يلقاه في سعيه لتجديد شباب الإسلام، ولم يكن يتذمر

---

[1] حدثنا اللواء محمود شيت خطاب: أنه هو أيضاً كان ممن ضللتهم هذه الشائعات، فقد صادف أن الشيخ أحمد زار العراق أيام عبد الكريم قاسم، وكان اللواء شيت خطاب حينئذٍ في السجن، وقد لقي من التعذيب ألواناً، وحينما علم بحضور الشيخ أحمد إلى بغداد ولقائه بعبد الكريم قاسم وجد في نفسه موجِدة شديدة عليه، وحينما تولى عبد السلام عارف حكم العراق أفرج عن اللواء محمود شيت خطاب وعينه وزيراً، وكانت تربطه به صداقة وثيقة، وحينما حضر عبد السلام عارف إلى دمشق أيام أمين الحافظ اصطحب معه اللواء محمود شيت خطاب، وفي الطريق قال عبد السلام عارف لمحمود شيت خطاب: إني أفكر بزيارة الشيخ كفتارو في سورية، فاعترض اللواء محمود شيت خطاب اعتراضاً شديداً على الفكرة، وقال له: جاء كفتارو إلى العراق والتقى بعبد الكريم قاسم، وسمعت أنه أيَّده في استبداده وجبروته، ثم قال اللواء خطاب: ولم يطل الوقت حتى حطت بنا الطائرة في دمشق، وحينما أقيم لنا حفل غداء وقف أمين الحافظ مع ضيوفه يصافح المدعوين، وكان من بينهم شيخ مهيب تقدم بعمامته وعكازه، وصافح أمين الحافظ وحدثه طويلاً، فنصح له واشتد عليه، ثم رفق به وحنا عليه، وما زال يقلب الموعظة في موقف مؤثر يذكرك بمجد العلماء أيام السلف الصالح، وحينما قال أمين الحافظ لضيفه: إنه شيخ الشام الشيخ أحمد كفتارو؛ التفت عبد السلام عارف إليَّ وقال: (يا محمود، لقد كذب الخَبَرَ الخُبْرُ)، وقد كانت هذه بداية معرفتي بالشيخ وصلتي به، من لقاء مع اللواء محمود شيت خطاب عام (١٩٧٦م) في مرج الحنفي بالزبداني.

[2] مجلة الأزهر – الجزء التاسع – السنة الثامنة والأربعون، عدد نوفمبر، سنة (١٩٧٦م) – ذو القعدة، سنة (١٣٩٦هـ)، ص١٣٤٩.

لكثرة الحاسدين؛ بل كان يرى في ذلك ضريبة النجاح، وما أكثر ما كان يستشهد بقول عليٍّ رضي الله عنه: (اللهم أَكْثِرْ حُسَّادي).

وحينما سئل الإمام علي رضي الله عنه عن دعوته تلك قال: إن الحاسد لا يحسدك إلا لنعمةٍ فيك، وإن كثرة الحساد علامة على كثرة النعم، والمؤمن راضٍ عن ربه في كل حال.

أيـا حاســداً لي على نعمــتي

أتدري علـى مَن أســأتَ الأدبْ؟

أســأت علـى الله في ملكــه

لأنــك لم ترض لــي ما وهــبْ

وإني أعرف كثيراً من الذين ناصبوه العداء ذات يوم، وقنَّعوا عداوتهم بغطاء من الفكر والمنهج، حتى إذا تيسَّر لهم ذات يومٍ أن يبلغوا ما لم يكونوا بالغيه من قبل وثبوا إليه وتناسَوا كلامهم الأول، وهو عليهم حجة قاطعة بيِّنة.

ويمكنك أن تسرد بذاكرتك إن كنت من المطَّلعين عشرات الأسماء التي كانت ذات يومٍ تتهمه في صلته برجال الحكم، فلما تيسر لهم طرف من هذه الصلات تركوا ما كانوا يقولون، وركبوا ما كانوا يستفظعون، والتمسوا لأنفسهم من الأعذار ما لم يكونوا به يعذرون.

وثمة ألسنة كثيرة طعنت فيه ذات يومٍ لما كان بين يديه من مالٍ وفقه الله لتحصيله، حتى إذا أُوتوا بعض ما أوتيَ تركوا ما كانوا يرددونه من تلازم الزهد والفقر، وتحولوا إلى الحديث عن زهد الأغنياء.

قبل أربعين عاماً كان في قيادته السيارة، أو تعرضه لمصوّرٍ يصوره، أو جلوسه أمام شاشة التلفاز في نظر كثيرٍ من أقرانه يأتي كبيرةً من الكبائر التي لا يُلْتَمَسُ لها تأويل، وعلامة واضحة على قلَّة الدين ورقة اليقين، حتى إذا ما أجلت الفكر سارحاً لم تعد تجد فيهم اليوم مَن لا يتجاوز ذلك ويلتمس له الأدلة والبراهين.

إن عقد مثل هذه المقارنات يكشف لك بداهةً أن الذي ابتُلِيَ به هذا الرجل كان في أغلب الأحيان حسداً يتاجر به خصومه ما له ظل من الحقيقة، وأما أخطاؤه التي يحتمل أنه أخطأ فيها إذ هو بشرٌ لم يُؤتَ العصمةَ فإن حاسديه لا يؤدون إليه واجب النصيحة، وإنما يجعلون منها قضايا في المنهج والصميم لا يُقبَل فيها اعتذار ولا يُلتَمَس لها تأويل، فيعاملونه فيما أصاب فيه معامله الهمل، ويعاملونه فيما أخطأ فيه معاملة الأنبياء.

في صلته بالمعرفة:

وفي عالمه الخاص الذي صنعه لنفسه فإنه لم يكن أبداً يدخره لاسترخاء البدن وراحة البال؛ بل إنه كان يقتنص الوقت اقتناصاً، ويجزم كل مَن صحبه ولازمه أنه لم يكن يخلو إبطه من كتاب، فقد كان يرى نفسه طالب علمٍ في كل حال، ولم يغير طريقته التي درج عليها منذ نشأته في إضافة الحواشي المفيدة على كل كتابٍ يقرؤه، وبوسعك أن تطَّلع على مئات الكتب من قديمٍ وحديثٍ وقد زين حواشيها بملاحظاتٍ مفيدةٍ، ولا يعسر عليك وأنت تقلِّب واحداً من تلك الكتب أن تحدد الفصول التي قرأها من الفصول التي أهملها، وأصبح له أسلوب خاص في المطالعة والقراءة وطريقة متميزة بفهرسة الموضوعات المهمة لسهولة الرجوع إليها عند اللزوم[1].

وقد كان الجد والاجتهاد دأبه منذ صباه، حدثنا مرةً أنه كان مع والده الشيخ أمين في مزرعة بعض إخوانه في ريف دمشق، وحينما انقضى المجلس استأذن بالانصراف فأذن له الشيخ، وقدم له الإخوان خيلاً نجيبةً ليركبها في عودته، ولكنه ترك ذلك وأصر أن يعود ماشياً، حيث حفظ في طريق عودته لامية ابن الوردي في الآداب والأخلاق، وما زال كلما حدثك بذلك يزداد بهجةً وسروراً وقرةَ عين.

[1] خلال إحدى زيارات العلامة الشيخ إبراهيم الوزير إلى منزل الشيخ كفتارو –وهو من كبار علماء اليمن الشقيق، وعضو مجلس الأمة، وصاحب جريدة البلاغ اليمنية– سأله عن مسألة فقهية معقدة تعددت فيها الاجتهادات والآراء، وكان يتناول طعام العشاء على مائدة الشيخ المتواضعة، فأجابه مباشرة: تجد جانباً هاماً حول هذه المسألة في كتاب: (نيل الأوطار) بعد أن حدد له رقم الجزء والصفحة، وقد تكلم الشيخ إبراهيم مبدياً دهشته لهذه الموهبة التي لم تضعفها الأيام ولم يوهنها المرض والتعب وكثرة المهام.

وكان تحصيله للعلم الشرعي على أساس حفظ المنظومات، وقد تيسر له في صباه أن حفظ القرآن الكريم أولاً، وضم إليه نحو عشرة آلاف بيت من الشعر من المنظومات في اللغة والفقه والأصول وغيرها من العلوم.

ولكن صلته بالكتاب لم تنقطع يوم تصدَّر للتدريس؛ بل إنها تواصلت وتعاظمت، وأدرك أن الكتاب زاد الدعاة، وأن الداعية بلا علمٍ واعظ فارغ، وهكذا فإنه لم يُرَ في سفرٍ ولا حضرٍ و لا ليلٍ ولا نهارٍ إلا وعن يمينه كتاب يقرؤه.

وعلى الرغم من تقدُّم سنِّهِ اليوم فإنه لا يزال طالب علمٍ ممتاز، يُعْنَى بقراءة الجديد والمفيد، وهذا سر من أسرار نجاحه؛ إذ لم يحبس نفسه على قراءة القديم فيخرج بذلك من ثقافة عصره؛ بل إنه يباكر إلى قراءة الجديد، وله إخوان متخصصون بالنشر والتوزيع يلتقيهم كل أسبوعٍ ليطَّلع على ما يصدر من جديدٍ في مجال الثقافة الإسلامية والمعارف العامة والشبهات حول الإسلام.

وكان مشهداً مألوفاً أن يستمع مطولاً إلى تلامذته من الشباب والناشئة يُلقون خطبهم بين يديه، فيُخرج من جيبه ورقةً وقلماً يكتب ما يسمعه من جديد الأفكار وطرائف الحكمة.

وربما أُرهقت عيناه من طول النظر في الكتاب، فكان يتخذ من إخوانه مَن يقرأ له وهو يستمع إليه، ويكلفه أن يعلِّق على الحواشي ما يراه مفيداً وجديداً في الباب.

ومن الطريف أن الشيخ لا يُهمل صغيرةً ولا كبيرةً، حتى لتجد أنه صنع لنفسه في سيارته جيباً خاصاً مزوداً بسحابٍ لوضع الكتب والحفاظ عليها، كما ثبَّت مكاناً خاصاً للقلم، وربط القلم بخيطٍ حتى لا يضيع وحيث يجده كلما أراد، وكذلك إضاءة

خاصة على يمينه لإعطاء الضوء الكافي للقراءة، ولعلك تعجب أنه يحسب بشكل علمي زاوية الإضاءة ومكان القلم وتفصيلات أُخرى لا تخطر لك على بال.

ومَن رآه اليوم وهو يخطو نحو التسعين لا يركب سيارته إلا وكتابه بين جنبيه يُطالع فيه تذكَّرَ فيه قول الإمام الشافعي: لو أُخبرت أن أجلي بعد ساعةٍ لاخترتُ أنْ أُمضِيَها في طلب العلم، فإن رسول الله ﷺ يقول: (مَن جاءه أجلُه وهو يطلب العلم لقيَ الله تعالى ولم يكنْ بينه وبين النبيين إلا درجة واحدة)[1].

[1] الطبراني في الأوسط عن ابن عباس.

في رعاية الوقت:

الزمن بُعد الحياة الرابع، فالموجودات بأسرها ذات طولٍ وعرضٍ وعُمقٍ وزمنٍ، والوقت من أهم عناصر النجاح؛ إذ يُعوِّض الإنسان كثيراً مما فاته من متاع، ولكنه يعجز عن تعويض جزءٍ من الزمان، وفي الأدب العربي فإن أغنى بابٍ تجده فيه باب بكاء الشباب، وما بكت العرب شيئاً كما بكت الشباب؛ إذ لا سبيل على الإطلاق للعودة بالزمن إلى الوراء.

وفي سلوك الشيخ دروس نادرة في رعاية الزمن، وقد كان يكثر أن يقول:

(الزمن قسم أقسم به الرحمن، والعظيم لا يُقسم إلا بعظيم، فقد أقسم سبحانه بالعصر وبالفجر وبالضحى وغير ذلك، وكلها دعوة للإنسان أن يتفكر في قيمة الزمن الذي جعله الله معيار كل نجاحٍ وفشلٍ).

وحين تراقب حياة الشيخ فإن من العسير أن تجد فيها ما يمكن تسميته بالوقت الضائع، فقد اتخذ لنفسه نمطاً من الحياة يملأ عليه سائر أوقاته، بين تعلُّمٍ وتعليمٍ ودعوةٍ ونُصْحٍ، وإرشادٍ وتوجيهٍ ورعايةٍ لبعض شؤونه الخاصة.

ويعرف القائمون على مساعدته في داره مواقيت طعامه جيداً، فقد رتبها بحيث تُوافق ساعة نشرة الأخبار، وهكذا فإنه يُصيب عصفورين بحجرٍ واحدٍ، ويتناول طعامه وهو يرقُبُ أخبار الأمة.

وفي مرحلةٍ من مراحل علاجه بعد الخامسة والسبعين خُصِّصت له ساعتان يومياً للسباحة في قاعةٍ مغلقةٍ في أحد نوادي دمشق، فكان يمضيها بنشاطه وحيويته، ويقرأ

في كل يومٍ ثلاثة أجزاءٍ من القرآن الكريم يدارسها مع الشيخ رجب ديب، وهو أحد إخوانه القُدامى الذين صحبوه عشرات السنين ونفع الله بهم خَلْقاً عظيماً.

وأذكر أنه خَصَّنا حينما كنا طلبةً في المعهد الشرعي بجلسةٍ توجيهيةٍ في كل أسبوع، كنا نأنس بمجالسته وقُرْبِه، ولما ازدحمت عليه أوقاته كان يفيد من تلك الساعة فيَحلقُ فيها رأسه وهو يحدثنا ويوجِّهنا وينصحنا، ونحن مسرورون مغتبطون نتعلَّم أوفى درس عملي في صيانة الوقت وحفظ الزمن.

في الحكمة:

يُجمِع كل مَن يعرف الشيخ خلال دعوته الطويلة بأنه (**رجل الحكمة**)، وقد اشتُهِرَ هذا اللقب فيه حتى كاد يصبح علماً عليه يتحدث به كل مَن يراقب حركة الدعوة الإسلامية المعاصرة في سورية.

ولدي كلام كثير أقوله في حكمته القيادية، ولكني أدَّخره في الفصل الخاص بنشاطه في الجانب الوطني، وأُورد هنا طرفاً من أخباره يظهر لك بها مقدار ما منحه الله سبحانه لهذا الرجل من حدَّة الذكاء والذهن المتوقِّد والحكمة والتوفيق...

تواطأ بعض الأشرار على الإساءة إلى الشيخ في شبابه، فعمدوا إلى شقيٍّ معتوهٍ، فدفعوا إليه مالاً وأمروه أن يتصدَّى للشيخ وهو قادم في سيارته، وأغروه بإظهار السفاهة والقحة والطيش، يريدون بذلك السخرية والاستهزاء.

وحينما جاء الشيخ بسيارته قفز هذا المجنون في وسط الطريق يصرخ ويزعق ويزبد ويرعد، ولم يكن في الطريق ما يكفي لتجاوز هذا المعتوه، وأدرك الشيخ ماذا يُراد منه، فأي جدالٍ مع هذا الأبله مهانة لمقام الشيخ ولن يجديَ ذلك نفعاً إلا شماتة الأشرار المتربّصين، وهكذا فإن الشيخ أوقف محرك السيارة، وأخرج بهدوءٍ صحيفةً كانت معه وجعل يقرأ منها بعنايةٍ وأَنَاةٍ يُعلِّق على حواشيها غير عابئٍ ولا مُبالٍ بصراخ هذا المعتوه ونعيبه.

بعد قليلٍ وصلت سيارة أُخرى فيها شاب طائش على عجلةٍ من أمره، تذمَّر من الوقوف فنزل مغضباً فرأى المعتوه، فلطمه لطمتَين، وناول أصحابه أقذع الشتائم والسُّباب، وطرحه جانب الطريق، وتقدم بأدبٍ إلى الشيخ وقال: شرِّفْ يا مولانا، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾

[الأَحْزَاب : ٢٥] ! وبحكمته وذكائه المتوقد أمكنه أن يدفع غائلة كثيرٍ من الشرور، فقد تعلَّم أن لا يكون رد فعله كما يريد له خصمه؛ بل كان يتصرف بما يهديه عقله وتكشفه له حكمته، وكان يُعْرِّف الحكمة بقوله: الحكمة فعل ما ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، على الشكل الذي ينبغي.

كتبت صحيفة (اللوفيغارو) الفرنسية الواسعة الانتشار في مقالٍ مسهبٍ لها عن الشيخ كفتارو: (بين العمامة البيضاء على رأسه واللحية البيضاء في وجهه يبدو في عينيه وميض داهيةٍ دبلوماسيٍّ حَذِر).

وثمة خبر طريف تدرك به مبلغ إرادة الرجل وحكمته وثاقب نظره، وأثره في الحياة العامة: لما قام حسني الزعيم[1] بانقلابه وتولَّى رئاسة البلاد أغضبه ما رأى من إعراض الشيخ أحمد عن زيارته والتبريك له، وقد كان الشيخ أحمد يُعتَبَر منذ ذلك الوقت من القيادات الشعبية الظاهرة رغم أنه كان حينذاك في السابعة والثلاثين من عمره، وإعراضُهُ عن تهنئة الرئيس طَعْنٌ في مصداقيَّته، والأمر كذلك بالفعل، فإن الشيخ أحمد لم تعجبه هذه الطريقة في الوثوب على الحكم بالبطش والعنف، وسَحْقِ الشُّورى والديمقراطية.

ولما انقضت أيام التبريك وجَّه حسني الزعيم أمراً مباشراً للشيخ بالحضور إلى القصر الجمهوري، وهناك دارت هذه المقابلة، أنقلها لك عن كتاب سراج الصالحين:

(دخل سماحته إلى مكتب الرئيس وفُوجِئَ باستقباله له بطريقةٍ لا تتناسب مع مقام شيخٍ مثله؛ إذ لم يتحرك من مكانه واقفاً لاستقباله بل استدار إليه بكرسيه المتحرك

[1] حسني الزعيم (١٨٩٧-١٩٤٩م) ضابط حربي في الجيش السوري، تعلم في المدرسة الحربية في إستنبول، وخدم بالجيش التركي ثم الفرنسي أيام احتلال سورية، وتولى رئاسة الأركان، قاد انقلاباً عسكرياً في ٣٠/آذار/١٩٤٩م، وحل البرلمان، وتلقب بالزعيم، قُتل رمياً بالرصاص في انقلاب عسكري آخر قاده سامي الحناوي في تموز (١٩٤٩م).

الدوار، وقال له مغضباً: يا شيخ أحمد، سأفعل في هذا البلد كما فعل مصطفى كمال أتاتورك في تركيا، وسأُحضر جميع المشايخ وأفحصهم، فمَن وجدتُه حقيقياً تركتُه، ومَن وجدتُه غير ذلك حلقتُ له لحيته ونزعتُ عمامته عن رأسه، وسأُجبر الناس على خَلْعِ الطرابيش عن رؤوسهم واستبدالها بالبرانيط...).

كان استقبالاً مزعجاً يطفح بالجبروت والعجرفة والتهديد، امتصَّ الشيخ الموقف بهدوءٍ ورويَّةٍ، وابتسم في وجه الرئيس بمودةٍ ووداعةٍ وقال:

(يا فخامة الرئيس، أمَّا قولك: إنك ستفحص جميع رجال الدين، وتُبْقِي مَن صَلُحَ منهم شيخاً عالماً، وتُقْصِي الذين لا يصلُحُون عن هذا الدرب القويم؛ فهذه أعظم وأشرف خدمةٍ تقدِّمها لدين الله تعالى، وستَشْكُرُ لك البلد صنيعَكَ هذا إلى يوم الدين، فنحن كعلماء نرفض أن يتستَّرَ أحد بالدين، أو يدَّعي العلم وهو من الجاهلين.

وأمَّا قولك: إنك ستُجبِرُ الناس على خَلْعِ (الطرابيش) ولبس (البرانيط)؛ فافعل إن شئت، خاصةً إن كنت ترى أن (البرنيطة) ستحقق عند الناس التقدم والحضارة، وإنك إن وضعتَها على رأس جاهلٍ فسيصبح عليماً، وعلى رأس أبله فسيصبح فهيماً!

وأمَّا قولك: إنك ستفعل كما فعل مصطفى كمال أتاتورك؛ فأنا لا أرضى لك ذلك لأنك ابن عائلةٍ مشهورةٍ بدينها وعقلها وشرفها، أبوك فلان، وأخوك فلان، وجدك فلان، وإن كان هناك قدوة مناسبة لشرف عائلتك ودينها فهي عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز، أو أمثالهما من الصفوة المختارة في تاريخ الإسلام...).

انفرجت أسارير الرئيس وتحوَّل عن غضبه، واتخذ الحديثُ منهجاً آخر من الهدوء والتعقل والحديث الإيجابي)[1].

لقد أمكنه أن يحوِّل كثيراً من الخصوم الموتورين إلى أصدقاء ودودين بالهدوء والحكمة.

ومراراً كان يؤكد أن الحكمة ثلث الإسلام، فقد وصف الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ بأنه بُعِثَ معلِّماً للحكمة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجُمُعَة : ٢].

وكان يجتهد في طلب الممكن من كل مرغوب، وهذا سر نجاحه، فلم يشأ أن يقود مطالبه من الحياة وفق ما يتمنى؛ بل وفق ما يرى أنه الممكن القابل للحصول، وعلى أساس هذه القاعدة تمكَّن من تمرير عشرات المشاريع الإسلامية النافعة.

وكان بأسلوبه المحبب العذب يتجنب التصادم والمخاصمة، يقول ما يريد أن يقول من غير أن يجعل من أعدائه خصوماً ظاهرين، فلا يزال بهم في رفقٍ وأناةٍ حتى يؤمّنوا على دعائه، ويستمعوا إلى نصيحته.

في عام (١٩٩٣م) عقد مؤتمر المنبر العالمي من أجل البقاء الإنساني بإشراف هيئة الأمم المتحدة، وذلك في طوكيو، وكانت تلك الفترة تشهد أبشع صور المعايير المزدوجة التي دأبت على انتهاجها الأمم المتحدة منذ أن منح حق الفيتو للخمسة الكبار.

فبينما كانت القوات الدولية تضرب وتحاصر وتحرق في العراق وليبيا كانت تقف متفرجةً على المجازر البشعة التي تُرتكب في البوسنة وأذربيجان.

[1] سراج الصالحين، ط مؤسسة الإيمان – بيروت – السيد أنور وردة، ص٢٦٤.

في كلمته في ذلك المؤتمر وبحكمته المعهودة تمكَّن من توجيه أعنف اللَّوم وأدقِّ التوجيه للأمم المتحدة، وعلى منبر الأمم المتحدة شرع يقول:

(ولكي لا تغرق سفينة البشرية ولننقذ العائلة الإنسانية لا بد من العمل بقانون السماء الذي لا يتحيز لأحدٍ سواء أكان نبياً أم قوياً؛ بل للحق حيثما كان، لا بد من التحرر من الجهل ورذائل الأخلاق، ولا بد من العمل بكل إخلاص وتضحية ولمصلحة الجميع، فلا سلام طالما أنه يوجد ظالم ومظلوم ومُتخَم وجائع، ولا بد من العودة إلى جوهر القيم السماوية في الأديان والتي اكتملت بمبعث محمدٍ ﷺ رسول الإسلام الذي يقول: "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كقومٍ بنَوا داراً، فأكملوها إلا موضع لَبِنةٍ، فكان الناس يمرُّون بها فيقولون: ما أحسن هذه الدار لولا موضع هذه اللبنة! فكنتُ أنا تلك اللبنة، وأنا خاتم النبيين"[1].

إنها القيم التي تأخذ الناس بالعقلانية والعلم والحكمة والتزكية، سواء كانوا على دينه أم على غير دينه، أم كانوا لا يدينون بأي دينٍ، ومنع الإسلام أن يُظلَم إنسان بسبب لونه أو جنسه أو دينه، ونادى باحترام كل أديان السماء، وأمر أتباعها أن لا ينحرفوا عنها، كل ذلك ليُوجد الأسرة الإنسانية السعيدة التي لا تَفاضُل فيها إلا بأداء الواجبات ورعاية الحقوق واجتناب المنكرات، فهلَّا قامت المنظمات الدولية برعاية هذه الحقوق والقيم على أتم وجهٍ، فلا تكون كالقاضي الجائر الذي تروي الحكايات عنه بأنه عندما جاءه قوم وقد عاث ثوره فساداً في مزروعاتهم، فقالوا: يا سيادة القاضي، قد هجم ثورنا على مزروعاتك فأفسدها، وعلى شجيراتك فحطَّمها، وعلى دجاجاتك فقتلها، فما كان منه إلا أن استشاط غضباً وأمر فوراً بإيقاف هذا الثور الغاشم، وردعه عن غيّه وتخريبه، ودفع الأضرار المادية له فوراً، ولما قالوا له: يا سيادة القاضي، لقد أخطأنا، إن

[1] رواه البخاري في كتاب المناقب، باب خاتم النبيين، رقم الحديث (٣٣٤١).

ثورك هو الذي أفسد مزروعاتنا وغلاتنا وحيواناتنا... هنا صمت القاضي قليلاً ثم قال: هلمَّ إليَّ بكتب القانون والنظام الدولي كي ندرس الملابسات والأسباب ونسأل المحامين والمختصّين فلعلَّنا نجد تفسيراً لِمَا فعله ثورنا!)[1].

وهكذا فقد كان يوصل كلمته التي يريد بأسلوبٍ لطيفٍ محرج، يدفع الخصم إلى الخجل مما كان يتبجح به، ويجعله من حيث أراد أو لم يرد مؤيداً لرأيه، مصلّياً على سبقه، مصداقُ قوله سبحانه:

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فُصِّلَت : ٣٤]

[1] صحيفة الاعتدال الأمريكية العدد (٢١٢)، تاريخ ١٨/٦/١٩٩٣م.

في التواضع:

قلة من الدعاة في هذا العالم الإسلامي الذين يحظون بالتبجيل والاحترام من إخوانهم كما يحظى به الشيخ، فمشهد دخوله وخروجه من المساجد مشهد تتمناه الملوك، يذكرك بمنزلة عبد الله بن المبارك يوم كانت تغار منه أم هارون الرشيد فتخاطب ولدها قائلة: أنت الملك ببغداد أم هناك سلطان غيرك؟ وكان هارون يجيبها بصدقٍ قائلاً: أنا ملك الأجساد وهذا ملك القلوب!

ولو رأيته في كل يوم جمعة وهو يدخل إلى مسجده، ورأيت ألوف الشباب تتطاحن لِلَمْسِ بعض عباءته أو طرف يده لَعلمت أي مكان في القلوب يسكن ذلك الرجل الذي كسته الأيام هيبةً واحتراماً.

ولكنه مع ذلك كله لم يكن من الذين يحبون أن يتمثل لهم الناس قياماً، ولم يكن يرى في احترامهم هذا إلا تقديراً من الناس لشعائر الدين ورموزه، وكان يقول مراراً: أما نفسي فما أراها أهلاً لشيءٍ من ذلك، وقد تركتها عند رفوف الأحذية.

ذات يومٍ قبل نحو خمسة وعشرين عاماً استيقظ في داره يتهيأ لدرس الجمعة، ووضع له الطعام في طرف المطبخ، وجلس على كرسيٍّ من القش القديم المنخفض حيث اعتاد أن يأكل ببساطته المعهودة مما يسر الله.

وقبل أن يبدأ طعامه سأل إن كان ثمة ضيوف أو زوَّار، فقالوا: لا يوجد أحد، ولكنه أبصر طفلاً لأحد العاملين في داره، فدعاه إلى مائدته، وبدأ يباسطه ويؤانسه، ثم شرع يحدِّثه عن آفاق الدعوة وآمال الأمَّة في الأجيال الآتية، وطال الحديث حتى كاد يتأخر عن موعده وهو مشغول بجليسه عن طعامه، وكأنما كان يخاطب ألف رجل،

ولم يرَ أصحابه أعجب من تلك المائدة، عليها شيخ الإسلام مفتي سورية وطفل صغير، ثم هي مائدة طعام ومجلس علم وحلقة تربية!

ومن أخبار طفولتي أذكر أنه دفعني حبي ذات يومٍ من أيام رمضان أن أصلي الفجر في مسجد أبي النور وأنا طفل دون العاشرة، وقد قطعت في سبيل ذلك مسافةً طويلةً من ساروجة حيث كنا نسكن إلى جامع أبي النور، وهي مسافة غير يسيرةٍ بالنسبة لطفلٍ دون العاشرة يمشيها وحده في جوف الليل، وحين وصلت كان الشيخ قد بدأ بإلقاء محاضرةٍ على الإخوان الموجودين، وهم عدة مئات.

وحانت منه التفاتة فأبصرني مهتماً مشغوفاً بما يقول، فقطع محاضرته والتفت إليَّ وقال: مَن أنت يا بني؟ ومَن أبوك؟ وحينما أخبرته أثنى على والدي أطيب الثناء، ثم سألني: أأتيت وحدك؟ قلت: نعم، وكان يعرف دارنا جيداً، فدعا لي بخيرٍ وابتسم إلي مِلْءَ قلبه، ثم ترك ما شرع فيه من حديثٍ وجعل كل خطابه إليَّ، وكان بين الحين والآخر يقول: أتعلمون من أين جاء هذا الطفل؟ من حي ساروجة... إن من حقه عليَّ أن أخاطبه بما يفهم... وجعل يتحدث عن نواقض الوضوء وأحكام الطهارة بكلامٍ في غاية التبسيط، أجزم لك بأنني لم أسمع منه ولا من غيره في مجلس علمٍ تعابير أوضح ولا أصرح من ذلك اليوم، وكان يقول بين الفينة والفينة: هذا جاء من مكانٍ بعيدٍ، وحقُّه أن يفهم كل شيء.

وفي عشيةٍ رمضانيةٍ قبل نحو خمسة عشر عاماً تحركتُ إلى صلاة التراويح في مسجد أبي النور بعد المغرب مباشرة لأدرك الصلاة في الصف الأول، وبالفعل تجمعنا في الصف الأول وكنا عدة أطفالٍ يشوقهم ما شاقني من حبِّ إدراك الجماعة في الصف الأول، وصادف أن إدارة المسجد هيأت جهاز تصوير -فيديو- ولم أكن أعرفه من قبلُ، من أجل تصوير صلاة الشيخ في فيلمٍ وثائقيٍّ، وحينما حضر الشيخ جاء مَن يدفعنا إلى

الصفوف الخلفية ليقيم مكاننا أصحاب الكرافتات والوجوه المعتبرة ليبدو المشهد لائقاً بفيلمٍ وثائقيٍّ، وهكذا فإننا لم نجد بُدّاً من العودة (بالحسنى) وخواطرنا مهيضة جريحة.

وفجأةً التفت الشيخ من المحراب وقال لمن ينظم الصف: ما لك ولهم؟ دعهم! قال: يا سيدي، نؤخرهم من أجل حسن التصوير، قال الشيخ: هم جاؤوا مبكرين وهم أولى بالصف، ولا أظنك أنت إلا جئت متأخراً... والآن خذ متاعك وارجع إلى آخر الصفوف.

ولا أذكر أني صليت صلاةً بلغت فيها مقام العزة بالله والذلة بين يديه أكثر من تلك الصلاة!

في بيت الشيخ:

وعلى الرغم من مسؤولياته الكبيرة في الدعوة على مختلف المستويات فقد كان زوجاً وأباً، وقد عاش حياته الزوجية الطويلة بحلوها ومُرِّها من غير أن يكون لوضعه العائلي أثر على واجبات دعوته ورسالته، وقد تزوج الشيخ زوجته الأولى عام (١٩٣٠م) تقريباً، وذلك استجابةً لرغبة أبيه، وعمره حينئذٍ نحو سبعة عشر عاماً، وأنجب منها تسعة ذكور وثلاث بنات، توفي منهم الشيخ زاهر عام (١٩٧٩م) وما زال الباقون على قيد الحياة، ونسأل الله أن يمتعهم بالصحة والعافية.

وقد اجتهدت في هذا الفصل أن أرسم لك صورة متميزة عن الشيخ في بيته فلم أصل إلى نتيجة مرضية، ذلك أن شخصية الشيخ من الجد في الحياة ومقام القدوة والريادة لم تكن تفارقه في حال، وكانت تدخل معه إلى داره وأولاده، وأجدني يعسر علي أن أجد في سلوكه مع أولاده ميزةً يتميز بها عن سلوكه مع إخوانه، فقد كان في بيته أيضاً شيخاً مربياً، وكان ينتظر من زوجته وأولاده أن يكونوا مريدين سالكين، وهو أمر لم يُكتب لبعضهم للأسف، ولكنه على أي حالٍ لم يغير شيئاً من منهجه معهم.

وباستثناء الحقوق الشرعية الظاهرة التي ألزم نفسه بها على أتم وجه، فإني لا أظن أنهم وجدوا أي ميزة أخرى تميزهم عن سائر المريدين في علاقتهم بوالدهم، فقد أخذت عليه دعوته سائر حياته، شغلته عن هموم كثيرة، وكان رائده في ذلك قول النبي ﷺ: (من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله ما أهمَّه من أمر الدنيا والآخرة).

ومنذ أن بنى داره في غوطة دمشق فقد كان يسكن في طابقٍ مستقلٍّ، وزوجته وأولاده في طابق آخر، وما بينهم جفاء، ولكن:(تجد المؤمن غريباً، الناس في حالٍ وهو في حال).

وبعد اقتراني بحفيدة الشيخ فقد كنت ألاحظ أن زوجة الشيخ لا تكاد تلقاه إلا على مائدة الطعام، هذا إذا لم يكن ضيفاً عند أحدٍ ولم يكن عنده ضيوف، فتجلس إليه نحو ربع ساعة أو نصف ساعة، ثم يعود بعدها إلى الكتاب وتنصرف -رحمها الله- إلى شؤونها.

وعلى رغم همومه الآسرة المتواصلة فإنه كان يعرف الحب والود لتلك الزوجة الوفية التي عاشت معه أكثر من ستين عاماً على السراء والضراء وأنجبت له سائر أولاده، ومراراً كنت أراه يودعها إذا سافر بأشواقٍ لاهبةٍ وتودعه بدموعٍ سخيةٍ، حتى إذا ما عاد لقيته على أحرَّ من الجمر، فكفكفت له دموع عينيه.

وقد شهدته يوم وفاتها حزيناً كسيفاً كمَن عاد من دفن والديه، عينه تدمع وقلبه يحزن ولا يقول إلا ما يرضي ربه: إن لله ما أخذ، وله ما أبقى، وكل شيءٍ عنده إلى أجلٍ مسمى.

وحين أكرمه الله بزوجةٍ طاهرةٍ ذكيةٍ مثقفةٍ -وهي السيدة صباح جبري- رقأت له ما كان نكأ منه، وأدخلت في حياته من البهجة والسرور ما هوَّن عليه حزنه وأساه بفراق شريكة عمره وأم أولاده.

وخلال ذلك كله فإنه لم يشأ وربما لم يقدر أن يخلع ثوب المشيخة خارج الدار، ويدخل إلى بيته محض أب، وهذا شأن كل رجلٍ يحمل على عاتقيه مهمة إصلاحٍ كبرى، يشترك في خدمتها قلبه وعقله ووجدانه.

الباب الثاني

﴿ منهجه في الدعوة إلى الله ﴾

من العسير أن تتحدث في فصلٍ مستقلٍّ عن منهج الشيخ كفتارو في الدعوة إلى الله، ذلك أن سائر نشاطاته لم تكن في حقيقتها إلا جهاداً في الدعوة إلى الله؛ بل إنه لم يكن في نشاطه شيء آخر إلا الدعوة.

ويمكن رسم ملامح دعوته إلى الله عز وجل من خلال إطارين اثنين:

١- داخل كيان الجماعة المسلمة:

وهو ما يسميه علماء التشريع الإسلامي (**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**)، ويتمثل في بعث الإيمان في نفوس المسلمين، ورعاية جذوته في القلوب، ومداومة إحياء العاطفة الإسلامية في المجتمع، ذلك أن جذوة الإيمان تخبو بالإهمال، وتتراكم عليها نفثات الشيطان ودواعي الهوى، فلا بد لها بين الحين والآخر من إيقاظٍ وذكرى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذَّارِيَات : ٥٥].

وفي هذا الجانب يندرج نشاط كثير قام به الشيخ كفتارو من عقد المحاضرات والخطب والأحاديث الإذاعية والتلفزيونية ومجالس الذكر وحلقات القرآن الكريم.

وكذلك فإن المعاهد الشرعية والكليات الإسلامية التي أسسها قامت بدورٍ كبيرٍ في هذا الجانب.

٢- خارج المجتمع الإسلامي:

وهو ما يمكن تسميته (البلاغ المبين)، وهو التوجه بالدعوة الإسلامية إلى شعوب الأرض من غير المسلمين؛ لبيان مزايا الشريعة الإسلامية ودور الإسلام في قيادة الحياة والمجتمع.

في هذا الإطار يندرج نشاطه في حوار الأديان، ومشاركاته في المؤتمرات العالمية المختلفة، حيث كان لا يترك فرصةً للتعريف بالإسلام إلا ويطرح فيها فكره التجديدي في عرض الإسلام كما هو في جوهره وحقيقته: **سعادة الدارين**.

ومراراً كان يتدخل فيما يُعَدُّ له من برامج الزيارات في العواصم المختلفة، فيلغي منها ما هو مخصص للراحة والاستجمام والسياحة؛ ليكسب أكثر الوقت في أداء رسالته في البلاغ المبين.

وأما منهجه في الدعوة وأسس ذلك وأركانه فأنا أحيلك هنا على ما كتبه المفكر الإسلامي محمد شيخاني في كتابه القيِّم: التربية الروحية بين الصوفيين والسلفيين، كتب يقول:

أسس الشيخ أحمد كفتارو مدرسةً علميةً روحيةً مليئةً بالمعاني السامية، وعاش حياةً روحيةً فكريةً قرآنيةً متكاملةً، مؤكداً على الأصول والمرتكزات الأساسية في دعوته طوال أربعين سنة من الدعوة المستمرة، فكانت أسسها ما يلي:

١- القرآن الكريم:

كان المنهج الأول في مدرسته الفكرية والروحية الذي اعتمد عليه للوصول إلى تكوين شخصية المسلم تكويناً متكاملاً، أقام المحاضرات المتعددة في تفسير كتاب الله عز وجل فكانت موئلاً للدارسين والباحثين والدعاة والعلماء والعاملين، كلُّ ذلك بواقعيةٍ رائدةٍ

وعُمقِ الفهم، والفكر المتطلّع والبحث الجادّ، والعلم الشامل والروح المتفائلة، ففسر القرآن الكريم ثلاث مراتٍ تفسيراً عصرياً يتعايش مع النور الذي يشعُّ من القرآن.

تفسيره كان جامعاً للمعاني المطروحة مع مقارنةٍ علميةٍ جديدةٍ وتحليلٍ عقائديٍّ لغويٍّ على ساحة الواقع، لينتقل من الفكرة إلى الواقع، من المثالية النظرية إلى التطبيق العملي، فاستطاع أن يخاطب المسلمين بواقعيةٍ تجسد معاني القرآن الكريم في المجتمع الإسلامي المعاصر لتتعايش معه سلوكاً ودعوةً والتزاماً، وكل ذلك تم بأسلوبٍ رائعٍ يفهمه المتعلم، ولا يستغني عنه العالم العارف.

٢- السُّنَّة الشريفة:

كانت السُّنَّة هي المصدر الثاني في مرتكزات دعوته لإقامة الحياة الإسلامية في مدرسته الروحية والفكرية، فهي الموضحة لمعاني القرآن، وهي الشارحة للمُشكِلِ فيه، والمخصِّصة لعمومه والمبيِّنة لمجمله.

فالأحاديث الصحيحة هي المورد الثاني بعد كتاب الله في معرفة الحقائق الإسلامية، والتي تجسد المعاني النبوية في تكوين القدوة والأسوة الحسنة، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأَحْزَاب : ٢١].

فالسنة هي النبراس المضيء في مدرسته الروحية الفكرية القرآنية، والمنهج العام بعد القرآن في تكوين الدعاة والعلماء في معاهده وكلياته العلمية.

٣- الفقه الإسلامي:

اعتبره الدليل لمعرفة الشريعة بأحكامها، فكانت مدارس الفقه شموليةً، وليست ضيقة المنطلق، فلم يؤكد على مذهبٍ محددٍ على الرغم من كونه شافعي المذهب، وحصل

على أعلى درجات الإفتاء في سورية، فصار الرئيس لمجلس الإفتاء الأعلى، ولم يصلْ إلى هذا المنصب الديني الكبير إلا بالانتخاب المباشر من العلماء.

فأكد على أصول المذاهب وطرق اشتقاقها واستنباطها من الكتاب والسُّنَّة، فحيثما قوي الدليل فهو القول الذي يفتي به، فكان متفتح الذهن متوقد القريحة دون تزمُّتٍ أو تعصُّبٍ أو تعنُّتٍ لمذهبٍ معيَّنٍ، فدعا إلى فقه القرآن وفقه السُّنَّة الشاملة لجميع أقوال المجتهدين دون تعصبٍ لمذهبٍ دون آخر، فحيث جاء الدليل فهو مذهبه، وحيثما كانت المصلحة في حق المستفتي كان رأيه وفتواه دون خللٍ في الأصول العامة للشريعة المطهرة.

٤- التربية الروحية:

التربية الروحية في مدرسته هي المرتكز الأساسي لتمثل العقيدة، والقوة المساعدة لنقل الفكر والعقيدة إلى حيّز التطبيق والالتزام المباشر، فالفقه الروحي المستنبط من الكتاب والسُّنَّة هو المنطلق في مدرسته الروحية القرآنية الفكرية، فجمعت مدرسته آيات الذكر وأهميتها، وآيات القلب وإمكانية الحصول على القلب السليم والنفس المطمئنة وطرق المجاهدة، فأكد على أهمية التربية الروحية المتقيدة بالكتاب والسُّنَّة، وكرر مطالباً بإلغاء كلمة التصوف والمصطلحات الصوفية، والعودة إلى مصطلحات القرآن الواضحة.

فتزكية النفس وذكر الله والقلب السليم والإحسان والمراقبة والإخلاص ومحبة الله ورسوله، والحب في الله والزهد والتوكل والتوبة والإنابة... كل ذلك واضح بيّن في الكتاب والسنة، فالتربية الروحية واجبة للوصول إلى حقائق الإسلام الكلية، وقال: (إن بعض أهل التصوف قعدوا على الأحوال ولم يتجاوزوها إلى الشريعة، فكانوا سبباً في ضياع المسلمين لفترةٍ طويلةٍ من الزمن)، وقال: (نريد التصوف الخلقي، وهو فريضة على كل

مسلم، وأما التصوف التحققي –وهو البلوغ إلى مرحلة الحقيقة المطلقة– والتي تتجلى في مقام الإحسان فهذا ليس حتماً على كل مسلم؛ بل هو حق على العلماء والدعاة، واجب التحقيق ليدركوا حقيقة العبودية والألوهية ليؤثروا بمن يسمع منهم، وفاقد الشيء لا يعطيه!

ولا ننسى تأكيده لدراسة واقع التصوف والتعايش مع المعاني الصوفية المتفقة مع الكتاب والسُّنَّة، وترك المعاني المخالفة لهذه الأصول الثابتة، واعتبر التصوف والتربية الروحية القرآنية وسيلةً لا غايةً، فهو وسيلة تربوية تساعد المسلم على تزكية النفس وتطهير القلب وقوة الإرادة، ثم ينتقل منها إلى الدعوة الإسلامية والعمل على إقامة الإسلام الحضاري في المجتمع الذي نتعايش معه.

وبذا فقد استطاع أن يجدد المنهج التربوي الروحي في مرحلة تكوين الشخصية الإسلامية، فإذا نضج فكره وسَمَتْ روحه، وتسامَتْ نفسه، وطهر قلبه، ووصل إلى مقام الإحسان؛ بدأ العمل لإرساء قواعد الشريعة المطهرة سلوكاً وعملاً، فالتربية الروحية القرآنية وسيلة معينة لتمثل القرآن والسُّنَّة في أعماق النفس.

لقد قسم سماحته التصوف إلى قسمين:

١. التصوف القرآني.

٢. التصوف الرهباني.

فالتصوف القرآني: هو التصوف المعتدل، والمتوافق مع أغراض الشريعة وتكاملها بحكمة التنزيل للوصول إلى إسلام الحياة بكل جوانبه المادية والروحية والفكرية.

والتصوف الرهباني: هو الذي ساهم في إضعاف كيان العالم الإسلامي الفكري والاجتماعي، واقتصرت المعاني الروحية على الذات، وعاش المسلمون آنذاك في الزوايا والتكايا دون انطلاقٍ إلى مرحلة تكوين المجتمع الإسلامي.

وفي تحليلٍ رائعٍ في مقدمة تفسير سورة الكهف أكَّد على أهمية الكهف في إعداد الفئة المؤمنة والفتية الذين آمنوا وزادهم الله هدىً، فقال في سياق المقدمة ولربط السورة بما قبلها، وهي سورة الإسراء: (فرقٌ شاسعٌ بين الإسراء والمعراج وبين المكوث في الكهف، فلماذا جمعا؟ ولماذا تجاورا؟ لأنه لا إسراء ولا معراج إذا لم يكن كهف، ولا خطاب ولا مكالمة ولا قدسية إذا لم يكن كهف وخلوة عما سوى الله عز وجل، والكهف هو الذي يوجد المعراج، والمعراج يحصل في الصلاة الحقيقية كما جاء في الحديث: (الصلاة معراج المؤمن)، فالتربية الروحية هي إحدى المرتكزات الأساسية في تكوين مدرسته الإسلامية الروحية الفكرية القرآنية، فمنطلقه الأساسي عمل رسول الله ﷺ وسُنَّته والآيات الموضحة للمعاني الروحية العظيمة، فذكر وفكر، وروح وعقل، حكمة وإخلاص، علم وعمل، وقلب ونفس، دنيا وآخرة... كل ذلك بأدلةٍ شرعيةٍ واضحةٍ لا غبار عليها[1].

وقد آتت هذه المنهجية أُكُلَها على صعيد الدعوة الإسلامية، وحافظ الشيخ كفتارو على المنهج ذاته خلال أكثر من خمسين عاماً أمضاها في سدَّة الدعوة الإسلامية، وإذا كانت الأمور بمقاصدها فإن هذا المنهج قد أثمر ثماراً عظيمةً على الصعيد المحلي والصعيد العالمي.

[1] التربية الروحية بين الصوفيين والسلفيين ص٢٧٧.

وأنقل لك هنا نصاً كتبه المفكر التونسي فتحي الطيب خماسي في كتابه: إشكالية الأصالة وأخلاقيات المجتمع العربي في الفكر المعاصر، كتب يقول:

إنه لا يتم إصلاح اجتماعي إلا بالعودة إلى قراءةٍ جديدةٍ لمعرفة مفاهيم الإسلام الصحيحة التي بمقتضاها استطاع الشيخ المفكر أحمد كفتارو أن يغرس أسسها في هذا العالم الإسلامي وخصوصاً في بلاد الغرب، وقد استطاع بفضل حكمته واتساع تفكيره أن يحقق إسلام الألوف المؤلفة من اليابانيين وفي شتى بقاع الأرض، حتى لُقِّب بالأب الروحي ورائد إسلام هذا العصر، وإن هذه التسميات ليست سهلة المقال لا يلفظ بها إلا عاقل واعٍ بالواقع الذي تعيشه المجتمعات اليوم.

وإن النهج الذي انتهجه في الدعوة إلى الله وإصلاح الناس وتربية القلوب على حب الله لهو النهج الذي يقارب نهج النبوة رغم اختلاف الأزمان والأحداث في خضمِّ هذا العالم المتسع الذي يعيش في أرقى حضارةٍ تكنولوجيةٍ علميةٍ ماديةٍ معاصرةٍ.

ومن خلال تتبُّعنا لأفكاره وحكمته في معاملاته وأخلاقه وعِلْمه تبيَّن لنا أنه رجل هذا العصر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنىً، حيث ثبت لدينا اقتناع بنجاح هذا المفكِّر في نزعته التوفيقية الإيجابية بين التراث والحضارة، بحيث إن إسلام الماضي هو إسلام الحاضر والمستقبل.

في الجانب الوطني

الأمة هي التعبير الإسلامي التاريخي لاصطلاح المجتمع، وبوجه الإجمال فإن كل سعيٍ في خدمة المجتمع هو سعي في خدمة الأمة، وهو سعي مبرور وجهد مشكور يشمله قول النبي ﷺ: (الخَلْقُ كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)[1].

الخلق كلهم عيال الله تحت ظلاله وأحبهم طراً إليه أبرهم بعياله

ولأبي العتاهية:

عيال الله أكرمهم عليه أبثهم المكارم في عياله

ولم نر مثنياً في ذي فعال عليه قط أفصح من فعاله

والوطن اصطلاح حديث يُراد به عادةً مصالح الأمة الكبرى في الأرض والاقتصاد والوحدة وغير ذلك[٢]، ثم غلب إطلاقه على الأرض على أساس أنها الأم الجامعة لتلك المعاني، وفي أحشائها يضطرم السعي المبرور لخدمة الناس وتحقيق مصالح الأمة.

وإذا كان في التاريخ الإسلامي مَن اختار جانب العزلة عن الخلق وتفرغ للعبادة وأعرض عن الناس ابتغاء نعيم الآخرة فإن هؤلاء لا يمثلون موقفاً إسلامياً رشيداً؛ بل إن

---

[1] الطبراني في الكبير عن ابن مسعود.

[٢] من الغريب أن يشمئز بعض الناس من تعبير الوطن، ويرون فيه دخيلاً على الثقافة الإسلامية أو بديلاً عن تعبير الجماعة المسلمة، وقد قرأت لبعض الكتاب في الحجاز مقالة يناقش فيها القول المأثور: (حب الوطن من الإيمان) ويثبت بطلان إسناده، ونحن لا ننازعه في هذا، ولكنه مضى إلى القول بأن مثل هذا الاعتقاد يصادم انتماء المسلم إلى الإسلام، وأنه سبب لتمزق المسلمين وفرقتهم وشتاتهم، وراح يتباكى على واقع الأمة الذي تحكمه مثل هذه الاعتقادات؛ أي: حب الوطن، والحق أن حب الوطن وخدمته والنضال من أجل قضاياه ليس إلا جزءاً من الجهاد في سبيل خدمة الأمة، ولا خلاف أن من جاءه أجله وهو يسعى في خدمة وطنه فإنه مشمول بقول النبي ﷺ: (ومن قتل دون أرضه فهو شهيد).

المسلم بطبعه مشارك اجتماعي، يَأْلَفُ ويُؤْلَفُ، ويخالط الناس ويصبر على أذاهم، ومَثَلُ المؤمن كمَثَلِ الغيث أينما وقَعَ نفَعَ.

ولعل أوضح مثالٍ تتجلى فيه هذه الحقيقة هو تلك المخاطبة العنيفة التي تلقاها الفضيل بن عياض –وكان قد جاور في المسجد الحرام بغرض العبادة والاعتكاف– من التابعي الجليل عبد الله بن المبارك الذي كان قد اختار المرابطة على ثغور المسلمين، وفيها قال ابن المبارك:

يا عابدَ الحرمَين لو أبصـرتنا ... لَعَلِمتَ أنك بالعبادة تلعبُ
مَن كان يخضبُ خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضَّبُ
أو كان يتعب خيله في باطلٍ ... فخيولنا عند الصبيحة تتعبُ
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رَهَجُ السنابك والغبار الأطيبُ
ولقد أتانا من كلام نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذبُ
لا يجتمعْنَ غبارُ خيلِ الله في ... أنفِ امرئٍ ودخانُ نارٍ تلهبُ

فلما قرأ الفضيل ذلك بكى وقال: لقد نصحَ أبو عبد الرحمن وصدق.

وخلال التاريخ الإسلامي فإن أبرز رجال الدعوة كانوا في الاصطلاح الحديث مناضلين وطنيين، ناصحين للحاكم، مرشدين للناس، مرابطين على ثغور الإسلام، وليست تلك الخانقاهات والرباطات التي كان ينشئها الصوفية على أطراف المدن الإسلامية إلا شاهداً على رباطهم في الدفاع عن الأمَّة.

خُذْ على سبيل المثال مدينة دمشق وما ينتشر على جوانبها من رباطاتٍ، أشهرها: رباط الشيخ أرسلان الدمشقي[1] الذي كان شيخ طريقةٍ صوفياً، ولكنه مع ذلك اتخذ رباطاً له خارج أسوار دمشق، فكان ينشط مع مُريديه وإخوانه في المرابطة على هذا الثغر وحراسة المدينة مما يحدق بها من خطر، وقد اشتُهر الشيخ أرسلان بذلك حتى صار مثلاً يتغنَّى به أهل الشام في مواقف البطولة والحماسة، حيث تسمع في عراضاتهم دوماً: (شيخ رسلان يا شيخ رسلان يا حامي البر والشام).

وكذلك فإن الثورات العربية التي قامت في وجه الاستعمار الأوربي كانت تحت رايات الشيوخ العاملين من رجال الدعوة الإسلامية، وهل ينسى أحد دور الشيخ بدر الدين الحسني[2] في الثورة السورية، وعمر المختار[3] في الثورة الليبية، وعبد الكريم

---

[1] أرسلان الدمشقي (٦٩٩هـ/١٣٠٠م): هو أرسلان بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الرحمن الجعبري، أحد الزهاد والصالحين المشهورين من أهل دمشق، وقبره فيها معروف، يقال له: (الشيخ رسلان) تخفيفاً، وفي ظاهرية دمشق رسالة في ترجمته.

[2] الشيخ بدر الدين الحسني (١٢٦٧-١٣٥٤هـ/١٨٥١-١٩٣٥م): هو محمد بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب المغربي المراكشي السبتي الحسني، محدث الشام، ولد بدمشق ونشأ تنشئة علمية إسلامية، وأخذ عن شيوخ عصره حفظ المتون حتى أجيز بها وأذن له بالتدريس، وأخذ في التأليف حتى طار صيته في الآفاق حتى أصبح أشهر مشايخ الإسلام في عصره، توفي في دمشق ودفن فيها.

[3] عمر المختار (١٨٦٠-١٩٣١م): زعيم ليبي، ولد في البطنان ببرقة وتلقى علومه الدينية في جغبوب مركز الدعوة السنوسية، ولما حفظ القرآن وأتم دروسه عين شيخاً على زاوية القصور، وحينما احتل الإيطاليون بنغازي تولى قيادة الحركة الوطنية ضد الإيطاليين، وباشر الجهاد عدة سنين حتى تغلب عليه الإيطاليون وأسروه وقدموه لمحاكمة صورية، حكم عليه بالشنق (١٩٣١م).

الخطابي[1] في الثورة المغربية، والشيخ عبد القادر الجزائري[2] وعبد الحميد بن باديس[3] في الثورة الجزائرية، وغيرهم في طول هذا العالم الإسلامي الكبير وعرضه.

أما الحركة الإسلامية فكان ينتظرها دور آخر، وهو معالجة واقع الجهل والتخلف الذي كان يحيط بالشام من كل وجه، فقد مضى على الشام نحو سبعمئة عام، وإنها عاصمة غائبة عن النشاط الحضاري في العالم الإسلامي لا يتناسب واقعها مع تاريخها، وتظل مآذن بني أمية السامقة أطلالاً يُستَنْشَد عندها تاريخ المجد من غير أن يكون له

[1] عبد الكريم الخطابي (١٨٨٢-١٩٣٦م): هو محمد بن عبد الكريم الخطابي، التحق في بدء حياته بخدمة الإسبان ولكنه ناصبهم العداء، وقام للجهاد في سبيل استقلال وطنه، فشنَّ ضدهم حرباً حامية فأباد عام (١٩٢١م) جيشاً إسبانياً من ٢٠ ألفاً، طارد عام (١٩٢٢م) الإسبان حتى تطوان وتقدم إلى المنطقة الفرنسية، وبسبب الانقسام الذي دب في صفوف القبائل المواليه له اضطر إلى التسليم للفرنسيين فنفوه، ولكنه تمكن من الفرار من سجانيه الفرنسيين عام (١٩٤٧م) ولجأ إلى مصر، حيث أقام بها مجاهداً في سبيل استقلال الأقطار العربية بشمال أفريقيا.

[2] عبد القادر الجزائري: هو الأمير عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى الجزائري، وينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنه، حفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ الحادية عشرة من عمره وأصبح فارساً يُشار إليه، وبرع في تلقي العلوم التاريخية والفلسفية والفقهية، أدهش الجميع بمهارته القتالية ضد الفرنسيين التي دامت ستة عشر عاماً، ولم يتوانَ عن ضرب الأعداء وإنزال الهزائم المتوالية عليهم حتى وافته المنية في دمشق ودفن فيها سنة (١٨٨٣م)، وقد كان -رحمه الله- منفاه في دمشق مرجعاً لكبار العلماء، ولا شك أنه ألهمهم فقه الجهاد والصبر في مجالسه العظيمة في دمشق.

[3] عبد الحميد بن باديس: سيد المجاهدين وإمام المصلحين رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، له شعر منه:

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب

من قال: حاد عن أصله ... أو قال: مات فقد كذب

وهو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس، ولد في قسنطينة سنة (١٣٠٧هـ/١٨٨٩م) وتلقى بها تعليمه الأول، ثم توجه إلى تونس لإكمال تعليمه، ثم تنقل بين المناصب وتأليف المجلات كمجلة الشهاب في ١٥ مجلداً، وترأس الوفود حتى وافته المنية سنة (١٣٥٩هـ) في الجزائر.

ظِلٌّ على واقع البلاد الذي حيَّدته السياسة منذ أُفُول نجم الدولتين النورية والصلاحية قبل نحو سبعة قرون، وهي آخر الفترات المضيئة في تاريخ الشام.

ومع أنه ظهرت في آفاق العالم الإسلامي قيادات إسلامية على مستوى المرحلة؛ كالشيخ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومحمد إقبال، فإن الشام لم تحظَ بدورٍ فاعلٍ على المستوى العربي والإسلامي، وبقيت جهود علمائها منحصرةً في الإطار المحلي، حيث كان للشام في همها الداخلي شؤون وشجون، وكان عليهم مواجهة الواقع الجديد الذي نشأ من تفكُّك الدولة العثمانية، وزوال المؤسسة الرسمية التي كانت متكفلةً بشؤون العمل الإسلامي على ما كان عليه من ضعفٍ وفوضى، وهكذا فقد ألقيت على عاتق قيادات الحركة الإسلامية مهمة لملمة شمل الحركة الإسلامية، واتجهت جهود العلماء فيها إلى إحياء دور دمشق كمركزٍ علميٍّ نهضويٍّ لا كثقلٍ سياسيٍّ وقياديٍّ.

ومع أن علماء الشام شاركوا مشاركة مباشرة في الثورة ضد الفرنسيين (الكفار) غير أنهم اختاروا الترفع عن المناصب السياسية عقب خروج فرنسا، وتوجهوا إلى الجانب العلمي والتربوي والإصلاح الاجتماعي عن طريق التصوف والإرشاد.

ويمكن قراءة منهج الشيخ كفتارو في خدمة القضايا الوطنية الإسلامية من خلال أُطُرٍ ثلاثة: جهاد العدو، والعلاقة مع الحاكم، وخدمة المجتمع.

جهاد العدو:

مع أن الشيخ كفتارو لم يدرك أيام الثورة السورية من (١٩٢٠م-١٩٢٥م) حيث كان طفلاً، غير أنه قام بنشاطٍ ظاهرٍ في الجانب الوطني خلال فترة الانتداب (١٩٢٥م-١٩٤٧م) وبعد الجلاء أيضاً، حيث رأى أن الجهاد ضد المستعمر لا ينتهي بخروجه من الأرض؛ بل بقَلْعِ جذوره وأثره الذي تركه فيها.

ومنهجه في ذلك واضح، وهو أن الاستعمار لم يأتِ يوماً لخدمة الشعوب المغلوبة؛ بل كان دوماً سيفاً مسلطاً على رقابها، يمتصُّ خيراتها ويستعبد شبابها، ومراراً عقد المقارنة بين الفتح الإسلامي والاستعمار الأوربي، وكان يقول:

الحكم الفصل للتاريخ والشعوب؛ إذ هي صاحبة المصلحة الحقيقية فيما يقوم على ترابها من نشاط، وهي قد قالت كلمتها بالفعل، فبينما تجد قبور الفاتحين المسلمين، أمثال: خالد وأبي عبيدة وضرار مزارات مُكرَّمة، وهو قرار الناس ورأيهم لم يُرغمهم عليه أحد، فإنك ترى أن غورو وديغول وأمثالهم من رموز الاستعمار لم يحظَوا بأي شكلٍ من أشكال الاحترام، وظلوا تصيبهم اللعنات كل حين.

وبينما تجد أن أكثر الأسماء الشائعة في بلاد الشام هي أسماء الفاتحين المسلمين؛ كخالد وسعد وعامر فإنه يستحيل أن تجد أحداً يتسمى بأسماء المستعمرين من الروم أو الفرنجة وأشباههم، مثل: غورو أو هولاكو أو جنكيز أو نسطاس أو لذريق وغير ذلك من هذه النكرات التي لم نسمع أحداً من أهل الشام مهما كانت ملَّته اختار أن يُسمي ولداً من أولاده بها، وما قلناه عن الشام ينسحب على أية أرضٍ نزلها ذات يومٍ مستعمر دخيل.

ولم يكن الشيخ كفتارو يجهل دوره في مثل هذا الجهاد؛ إذ كان يدرك أن رسالته تتمثل في توجيه الرأي العام واستنفار طاقات الناس لتأييد الاتجاه الوطني الذي يقوده خبراء متخصصون في السياسة، ولم يتجاوز يوماً اختصاصه إلى اختصاص سواه، فلم يقم بتأسيس الكتائب المسلحة لتصدر عن أمره وتلزم خطته، وإنما ترك ذلك لأولي الأمر، ووقف في خط التوجيه والإرشاد يبين حرمة موالاة أعداء الله، ووجوب التعاون في الخيرات والنصح للمؤمنين، وضرورة تحقيق مقام: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

ومع خروج الجيش الفرنسي من سورية كان الشيخ كفتارو في منتصف الثلاثينيات من عمره، وهي بداية ظهوره على مسرح الدعوة العام، وبدأت بذلك مرحلة الحكم الوطني، وتحول الشيخ كفتارو مباشرةً من خصمٍ شديدٍ للنظام الاستعماري إلى ناصحٍ شفيقٍ للنظام الوطني وفق سياسته التي اختطَّها لنفسه، وهي التعاون والنصيحة لكل حكمٍ وطنيٍّ شريفٍ.

ولكنه لم ينسَ أن الاستعمار ليس مجرد جيوشٍ جرارةٍ تنسحب فتخلي الأرض لأصحابها ويخرج الشر من الدار مثلما دخل؛ بل أدرك أن الاستعمار له ذيول تركها، وأفكار بثَّها، ومفاسد نشرها، وذلك كله يحتاج من بعده إلى تطهيرٍ وإصلاح.

كذلك فإن الاستعمار وإن رحل عن سورية فإنه لم يرحل عن سائر بلاد المسلمين، وإنه ما زال يستعبد المسلمين في المغرب والجزائر وباكستان وغيرها من أجزاء هذا الوطن الإسلامي العزيز الذي لا يجوز أن تنفصم وحدته أو تنهدَّ أركانه.

ولذلك فإنه راح يتعقب الاستعمار في كل أرض، يعيش مع آلام الأمَّة الإسلامية وأمانيها، يجتهد في ربط قضايا العالم الإسلامي وهمومه برباط الوحدة والهم المشترك، ليحدث بُعْداً إسلامياً ظاهراً لكل محنةٍ تعرض للمسلمين في الأرض.

ولعل من المناسب أن أشير هنا إلى بعض ذلك النشاط، ففي محنة الثورة الوطنية الجزائرية في أيلول (١٩٥٥م) لما اشتدت وطأة المستعمر الفرنسي على الثورة هناك نهض الشيخ كفتارو منادياً بعقد مؤتمرٍ شعبيٍّ عامٍّ في (١٩/٩/١٩٥٥م) حضره عدد كبير من علماء دمشق ومفكّريها ورجال السياسة فيها[١].

وقد صدرت عن المؤتمر نداءات عديدة إلى شعوب العالم الإسلامي وحُكّامها لمقاطعة فرنسا اقتصادياً وثقافياً، كما صدرت عن المؤتمر فتوى وقّع عليها كبار علماء الشام تنص على تحريم التعامل شرعاً مع الاقتصاد الفرنسي والثقافة الفرنسية.

ومن كلمة الشيخ كفتارو التي أذاعتها إذاعة دمشق كاملة عقب المؤتمر قوله:

(أيها العربي: هل تعلم أنكَ بشرائك السيارة الفرنسية أو الأدوية الفرنسية تمدُّ فرنسا بالسلاح والمال ليستعين بهما على إخوانك في الجزائر؟! هل تعلمين أنكِ بشرائك الأقمشة والعطورات الفرنسية ترمّلين أخواتك في الجزائر، وتيتّمين أطفالاً فيها كالورود؟! هل تعلم أنك باستيرادك البضائع الفرنسية إنما تغذّي الجيش الفرنسي بالمال، وتعين بعملك هذا فرنسا على استباحة أعراض الجزائريات وعلى إزهاق الأرواح، أرواحِ إخوانك الجزائريين العرب المسلمين؟!

هل تعلم –أيها الوالد العربي– أن إرسال ولدك إلى معهدٍ فرنسيٍّ لينتزعوا منه عروبته وإيمانه باسم العلم والثقافة، هل تعلم أنك بعملك هذا قد انحزتَ والتحقتَ بالجيش الفرنسي المقاتل لإخوانك في الجزائر؟! ألستَ ترسل ولدك وابنتك ليعلّمه سفاحو الجزائر وليثقفه مصاصو الدماء في الجزائر العربية؟! هل فُقِدَت المدارس والمعاهد في دنيا العروبة

[١] راجع تقارير المؤتمر ووقائعه في الصحف السورية التي صدرت أواخر أيلول (١٩٥٥م)، نعد منها: (المساء) العدد (٩١٩)، تاريخ: ١٩٥٥/٩/٢٢، (الأيام) تاريخ: ١٩٥٥/٩/٢٠، (الاتحاد) تاريخ: ١٩٥٥/٩/٢١.

إلا المدارس الفرنسية؟! أتظنُّ أنك إن لم ترسل ولدك إلى مدارس فرنسا أنه سيُحْرَم العلم والثقافة وينشأ جاهلاً أمّياً؟!

أيتها الأم العربية... هل تصوَّرْتِ أزيزَ الطائرات الفرنسية وهي تُغِيرُ على مُدُن الجزائر وقُراها تمطرها بقنابلها المدمِّرة الحارقة كالوابل المِدْرار؟!

أيتها الأم العربية... هل تصوَّرْتِ المدافع الرشاشة بيد السفاحين الفرنسيين المجرمين وفي رأس بنادقهم الحراب وهم يُدخلونها في صدور عرب الجزائر، وفي بُطُون العربيات الحوامل؟! هل تصورت أيتها الأم آلاف الأطفال والنساء وقد اصفرَّتْ منهم الوجوه من الجوع في معسكرات الاعتقال، وقد امتلأت قلوبهم من الفزع والرعب من الجنود الفرنسيين الأنذال؟!

أيتها الأم العربية... إنك إذا تصوَّرْتِ ذلك فكيف تجمعين بين هذا المشهد ومشهد أولادك وهم يحملون كتب دراستهم إلى المدارس الفرنسية يتلقَّون منها عطف المدرِّسة وحنانها ورعايتها وإخلاصها؟! كيف تجمعين أيتها الأم العربية بين هذَين المنظرَين وبين عروبتك وإسلامك، وبين إيمانك وقرآنك؟! أم كيف تقدِّرين الفرنسيين السفاحين لدماء العرب والعروبة سينظرون إليك وإلى العرب وحالُ الجزائريين دموع ودماء وحزن وبكاء، وفي كل بقعةٍ جزائريةٍ أرامل وثكالى وأيتام وشهداء؟!

أيتها الأم العربية... هل إرسالك أولادك إلى المدارس الفرنسية حرب على فرنسا ونصرة للجزائر، أم نصر لفرنسا وحرب على الجزائر؟ العروبة ليست نطقاً بلغة الضاد، ولكن العروبة نصرة أبنائها ومحاربة أعدائها وظالميها، والإسلام ليس صلاة في مسجد تؤدى فقط... والمسيحية ليست إنجيلاً في كنيسةٍ يُتْلَى فحسب، ولكن الدين الحق الذي يقبله الله نصرة الحق وأهله، ومحاربة المؤمن للظالم وإن كان من بين أهله.

أيها الإخوة، الاستعمار الغاشم يحاربنا بإجماعٍ فلنحاربه بإجماع، الغرب يحاربنا بكل الوسائل فلنحاربه بكل الوسائل، وبالقليل والكثير والعظيم والحقير)[١].

ثم واصل نشاطه من الإطار الشعبي إلى الإطار الرسمي وأسهم في عقد مؤتمرٍ خاصٍّ لعلماء سورية وزعماء السياسة فيها، حيث عُقد في المسجد الأموي في القاعة الملحقة بالمسجد، حضره علماء دمشق الأعلام، أمثال: الشيخ أبو الخير الميداني، والشيخ إبراهيم الغلاييني، والشيخ حسن حبنكة، والشيخ سعيد البرهاني، والشيخ بهجة البيطار، والسيد المكي الكتاني[٢]، كما حضره من السياسيين: الدكتور معروف الدواليبي، والشيخ مصطفى الزرقا، وعصام العطار، وصبري العسلي، وصلاح البيطار، وعدد من المجاهدين الجزائريين المنفيين إلى الخارج، ومن أبناء الجالية الجزائرية التي وصلت إلى دمشق مع الأمير عبد القادر الجزائري.

وقد تبنى هذا المؤتمر قراراً مهماً، وهو إقرار استقلال الجزائر ودعوة المجاهدين لإعلان حكومةٍ مؤقتةٍ في دمشق، وقد كان لذلك أكبر الأثر في تعجيل رحيل فرنسا من الجزائر، وتحقيق حرية الشعب الجزائري[٣].

وحينما تحقق الاستقلال الجزائري عام (١٩٦٣م) فإن الشيخ كفتارو عقد مجالس الأفراح والشكر، وتوالى الناس إلى جامع أبي النور يهنئ بعضهم بعضاً، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر مَن يشاء وهو العزيز الرحيم.

---

[١] الشيخ أحمد كفتارو: محاضرات إذاعية ص٨-٩.

[٢] مجلة التمدن الإسلامي المجلد ٢٣، الصفحات ٧٧٠-٧٧٥.

[٣] الدعوة والدعاة، د.حسن الحمصي ص٣٩٩.

وقد أسهم الشيخ كفتارو بعد ذلك في توجيه الثورة الجزائرية لدى انطلاقها من الثورة إلى الدولة، وقام بزيارةٍ إلى الجزائر عدة مرات، وشارك في مؤتمر الفكر الإسلامي في الجزائر عام (١٩٧٦م)، وألقى كلمة مهمةً بعنوان: **(الإسلام وحتمية انتصاره)**.

ولكن الجهد الأبرَّ في سعيه لخدمة الجزائر كان يوم قدره الله عز وجل، وقدم من خلال مجمع أبي النور منحاً دراسيةً للعشرات من أبناء الجزائر؛ ليتخرجوا فيه علماء عاملين بالحكمة والموعظة الحسنة.

العدوان الثلاثي على مصر:

وفي عام (١٩٥٦م) قام جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس، وردَّ بذلك حقاً عربياً مسلوباً تواطأت على طمسه قوى الاستكبار العالمي، وكان قرار التأميم ضربةً حقيقيةً للمصالح الفرنسية والإنكليزية والإسرائيلية، الأمر الذي جمع الثلاثة تحت مظلة العدوان، حيث قاموا بشنِّ حملة العدوان الثلاثي على مصر، وضرب بعض مواقع الثورة في مصر.

وعقب ذلك ارتفع صوت الشيخ كفتارو يدعو الأمَّة الإسلامية للجهاد من أجل ردِّ كيد المعتدي وإزهاق مقصده، وهكذا فقد قاد حملةً مكثفةً للتدريب على حمل السلاح، وشارك مع علماء سورية في تدريباتٍ خاصةٍ على القتال[١] أراد بها التوكيد على حقيقةٍ قرَّرها الفقهاء قديماً، وهي: إذا دخل العدو شبراً من أراضي المسلمين فقد وجب الجهاد على كل صغيرٍ وكبيرٍ ورجلٍ وامرأةٍ وحُرٍّ وعبدٍ.

وكان لهذه المشاركة أبلغ الأثر، حيث تم تصويرها سينمائياً وعُرِضت في المسارح القومية والمدرسية، وذلك قبل أن يظهر التلفزيون، وكان مشهد العمامة والجبَّة مع السلاح الحديث صورةً عمليةً يتجسد فيها قول الله عز وجل: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ [الأنفال : ٦٠] وكذلك فقد وجَّه خطاباً باسم جماعة الأنصار الإسلامية إلى السفير الأمريكي

[١] جريدة (المنار) تاريخ: ١٣/٨/١٩٥٦م، وانظر: صحيفة (بردى)، تاريخ: ١٣/٨/١٩٥٦م.

بدمشق[1] يحذِّره من مغبَّة المضيّ في العدوان على مصر، ويؤكد فيه تضامن الشعوب المسلمة مع محنة مصر.

ومضى يوجّه نشاطه لجهاد الاستعمار في أي أرضٍ إسلاميةٍ حلَّها، وكانت أشد المحن إيلاماً في نفسه محنة فلسطين، وقد تحدثنا عن ذلك بشيءٍ من التفصيل في دراستنا حول حياة الشيخ، حيث أوردنا خطبته الشهيرة في المسجد الأقصى وهو يُنذر العرب والمسلمين بالمآل الذي ينتظرهم إن هم لم يوحِّدوا قواهم ويعودوا إلى إسلامهم.

وحينما وقعت النكسة وجاء المحذور عاد يستنفر الناس للجهاد، وجعل يقود العلماء في جولاتٍ إلى الجبهة السورية، حيث يشهد المرء غبار المعركة، ويلتقي المقاتلين يبث فيهم روح الجهاد والاستشهاد، ويبعث فيهم ريح الجنة.

ويمكن إجمال موقف الشيخ كفتارو من خلال ما نشرته الصحف السورية لدى انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي في الرباط (١٩٦٩م)، حيث أشارت إلى برقية الشيخ كفتارو إلى المؤتمر، وفيها أربع توصيات صارت بالفعل منهاجاً للعمل العربي والإسلامي[2]:

١- بذل كل الطاقات والجهود، لإنقاذ فلسطين والمسجد الأقصى من الصهيونية والاستعمار وقوى الشر والعدوان.

[1] صحيفة المنار عدد رقم (١٣٥١)، تاريخ: ١٣/٨/١٩٥٦م.

[2] انظر: صحيفة البعث السورية، تاريخ: ٢٥/٩/١٩٦٩، وصحيفة الثورة، تاريخ: ٢٥/٩/١٩٦٩م.

٢- مطالبة رؤساء وفود الدول الأعضاء في المؤتمر ممن تقيم دولهم علاقاتٍ دبلوماسيةً مع إسرائيل باتخاذ قراراتٍ عمليةٍ وحاسمةٍ بمقاطعة إسرائيل مقاطعة شاملة سياسية واقتصادية، وسحب الاعتراف بها، وطرد خبرائها.

٣- العمل على دعم العمل الفدائي بالمال والسلاح والرجال.

٤- العمل على وحدة الصف أمام الخطر الإسرائيلي الاستعماري الذي يهدد مقدسات المسلمين، ويعتدي على الحرمات الإنسانية والشرائع الدينية والمقررات الدولية.

وقد كان الشيخ واسع الصلة بالسيد أمين الحسيني رائد الثورة الفلسطينية ومراراً قام الشيخ كفتارو بزيارته إلى بيروت، كما أن السيد الحسيني كان يعرّج مراراً على الشيخ كلما زار دمشق، وقد كانت عمامة الشيخ أمين الحسيني رمزاً للنضال الإسلامي في القضية الفلسطينية، وهو النضال الذي بدأه رشيد عالي الكيلاني الذي كان أمين الحسيني أبرز أعوانه، ثم بعثه عملاق الثورة الفلسطينية المجاهد عز الدين القسام، وتؤكده اليوم المقاومة الإسلامية في فلسطين ولبنان.

وفي المجاهد أمين الحسيني اشتُهرت هذه الأبيات:

ألقى على القبة الغراء نظرته ... فعاد بالدمع في العينين رقراقا
لكنه ذكر الإيمان فابتسمت ... له الحياة وزاد الوجه إشراقا
لا تجزعنَّ على الإسلام إنَّ له ... مستقبلاً بيد الرحمن برَّاقا

كما طالب الدول العربية باستخدام سلاح النفط في الضغط على إسرائيل وحلفائها، منوهاً أن النفط شريان الحضارة الغربية وعمود اقتصادها، ومن الممكن أن يؤدي رسالةً بليغةً في كفِّ شرور أعداء المسلمين[١].

وبالفعل فقد استعمل العرب هذا السلاح بعد ذلك بأربع سنواتٍ خلال حرب تشرين، وكان له أبلغ الأثر في كسر الكبرياء الإسرائيلي، كذلك فقد قاد حملةً كبيرةً للتبرع بالدم في أعقاب عدوان إسرائيل عام (١٩٦٧م)، وقد كان لهذه المشاركة أثر خاص في إحياء الروح المعنوية لدى المقاتل السوري على جبهة القتال، خاصةً بعد أن نشرت الصحف صور طوابير العلماء عند بوابات بنك الدم[٢].

وفي حرب رمضان-تشرين (١٩٧٣م) أدى الشيخ كفتارو رسالته في التوجيه الديني من خلال وسائل الإعلام ومنصة التدريس، يحثُّ على الجهاد ويبشِّر بالجنة، وقد عرفت الجبهة السورية إقدام شباب جامع أبي النور واستبسالهم، وأشير منهم إلى ثلاثة شهداء سميت باسم كلٍّ منهم مدرسة في دمشق، وهم: الشهيد غالب الرفاعي، والشهيد محمد حسن الملا، والشهيد مصطفى الترك، وما زالت مساهمات الشهيد غالب الرفاعي في العمل الإسلامي بدمشق حاضرةً ظافرةً، وقد ألَّف الدكتور حسن الحمصي كتاباً خاصاً في تخليد جهاده أسماه: مهد البطولات.

[١] صحيفة الثورة، تاريخ: ١٩٦٩/٢/٣م، وانظر: البعث، تاريخ: ١٩٦٩/٢/٣م.

[٢] انظر صحيفة الثورة، تاريخ: ١٩٧٠/٣/٧م.

وفي عام (١٩٨٥م) قام يستنفر جهود الناس لدفع محنة السودان المسلم حين نزلت به كارثة المجاعة، وكان يعقد اللقاءات والندوات مع الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية لهذه الغاية[١].

ويضيق بنا المقام لو شئنا أن نتحدث عن مساهماته المستمرة في نصرة القضايا العربية والإسلامية، وبحسبك أن تعلم أنه على الرغم من مسؤولياته الدينية والتوجيهية فإنه كان حاضراً في كل نشاطٍ اجتماعيٍّ ووطنيٍّ على مستوى بلده وعلى مستوى العالم الإسلامي.

ولا بد أن نتحدث في خاتمة هذا الباب أن الشيخ كفتارو أخذ يتحدث عن جهاد الكلمة والدعوة سبيلاً مجدياً في حرب الاستعمار، خاصةً بعد أن بلغ سباق التسلح حداً جعل أي حربٍ قادمة محض انتحار، فهو يرى أن جهاد الدعوة والبلاغ توافرت وسائله، وأن الوصول إلى عقل الغربيين وبث روح الهدى فيه كفيل بأن يطفئ نار الأحقاد التي تشتعل في نفوسهم، وهذا بالتالي سيجعل الأشرار الذين يقودون الحرب ضد الحق بلا سندٍ حقيقيٍّ من شعوبهم، ويلجئهم في نهاية المطاف إلى الكف مرغمين عن منازع الشر التي يبتغون؛ إذ لن يجدوا تأييداً لسياستهم الاستعمارية من نواب الشعب إذا تمكَّنَّا من نشر الفكر الإسلامي الصحيح في عقولهم.

ولكن ذلك لا يعني بحالٍ تعطيل الجهاد الذي أخبر النبي ﷺ أنه ماضٍ إلى يوم القيامة، فقد نصَّ القرآن الكريم مراراً على وجوب أَخْذِ الحذر والحيطة والاستعداد للقاء العدو في أي وقتٍ، فهذا قدر أصحاب الحق أن ينام الناس وهم ساهرون على حراسة ما اؤتمنوا عليه، يدرؤون كيد الطامعين وعدوان المعتدين.

---

[١] انظر: صحيفة تشرين السورية، تاريخ: ١٩٨٥/١٢/٣١م.

وهكذا فإن الحديث عن جهاد الكلمة ما هو إلا سعي حكيم في توهين قوة العدو، وإفشال لسعيه في استجرار الأحقاد وبعث الضغائن لحرب الإسلام.

في العلاقة بالحاكم:

شهد الشيخ كفتارو نحو ثلاثة عشر وضعاً سياسياً مختلفاً كان يلزم فيها منهجه الواضح لا يحيد عنه، فقد اختار التعاون مع الحكم الوطني من موقع النصيحة بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يتجاوز يوماً دروه كقائدٍ دينيّ وناصحٍ اجتماعيّ، تاركاً مسألة التنافس السياسي على مقاعد الحكم لرجال الاختصاص في ذلك.

إنه لا بد للناس من إمام، والحكم مسؤولية تكليف أكثر مما هو مغنم تشريف، والحاكم إنما يصلح بتعاون الشرفاء من حوله على إسداء النصيحة وبذل المودة، وفي الحديث: (صنفان من أمتي إذا صلحوا صلحت الأمة: الأمراء والفقهاء)[1].

وكان الحسن البصري يقول: (لو أُوتيتُ دعوةً مستجابةً لجعلتها لمن يَلِي أمرَ المسلمين).

وهكذا فإنه اختار التعاون بإيجابيةٍ مع كل حكمٍ وطنيّ، والبحث عن مكامن الخيرات في الحاكم، وإقداره قدره، ومنحه احترامه وحبه، والسعي في إصلاح ما يظهر نقصه وخلله بالنصيحة المشفقة.

ولكن الدهماء من الناس لا يروقهم هذا السلوك، ولا يعجبهم هذا الاتزان، ويخلطون بين المداراة والمداهنة، وبين الجرأة والتهور، وبين كلمة الحق وكلمة الهوى، وتعجبهم من الخطيب الفضيحة دون النصيحة، والمقال دون الفعال، والهدم دون البناء، ويضنون على حُكَّامهم بدعوةٍ صالحةٍ رجاء صلاحهم ورشادهم، وما صلاحهم ورشادهم على الله بعزيز!

[1] رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس.

وقد غرَّت الدهماء قياداتٍ إسلاميةً كثيرةً، فمضت بالجماهير في غير مصلحة الإسلام ورشاد الأمة مخدوعةً بالتصفيق والتهليل، غافلةً عن حقيقة ما ينتهي إليه هذا السعي الطائش، فأربكت الحركة الإسلامية في نزاعٍ غبيٍّ لا يُرجَى منه رشد ولا يُؤمَّل منه خير، وفتَّتَتْ جهد الأمَّة في صراعٍ داخليٍّ مشؤوم.

وراجت في ذلك نصوص فاسدة أو نصوص واهمة تُحمَلُ على غير معناها، وتوجَّه في غير تأويلها، وتُساقُ في غير مُرادها، تدعو إلى السلبية والشقاق بسببٍ وبدون سببٍ، وبموجبٍ وبدون موجبٍ، حتى أصبح مجرد لقاء العالم بالحاكم تهمة يترفَّع عنها الأتقياء كما في الكلمة السائرة: (بئس العالم على باب الحاكم)[1]، ولستُ أدري أي خيرٍ للأمة إذا أعرض علماؤها عن حُكَّامها، فحلَّ محلهم أهل الهوى والجهالة يزينون الباطل ويُسفِّهون الحق، وهل وُفِّقَ الحُكَّام إلا عندما كانت العلماء عن أيمانهم وشمائلهم تنصحهم وتنصح لهم، أليس مُقتضى مثل هذا الكلام الواهم أنه: بئس موسى على باب فرعون؟!

وكان الشيخ كفتارو يأسف غايةَ الأسف للسبيل الذي مضى فيه بعض الإسلاميين في مصر وتونس والجزائر وغيرها، حيث اصطدموا بالحكم الوطني، ودفعوا بشبابهم في أتون صدامٍ خاسرٍ تقرُّ به أعين أعداء الإسلام والعروبة، ويمنح الحجج الكاملة لسائر الأنظمة في المنطقة لتقييد النشاط الإسلامي بدعوى الخوف من الأصولية.

[1] يروي الناس هذا الكلام حديثاً عن النبي ﷺ، والحق أنه ليس حديثاً ألبتة وليس له أي إسناد، وذكر الكناني في تنزيه الشريعة المرفوعة جـ١ ص٢٩٧ حديثاً قريباً منه، ونصه: (العلماء أمناء الرسل على العباد ما لم يخالطوا السلطان ويدخلوا في الدنيا، فإذا دخلوا في الدنيا وخالطوا السلطان فقد خانوا الرسل فاعتزلوهم)، وذكر أنه مرفوع إلى أنس بن مالك برواية متروك عن مجهول عن كذاب.

وكثيراً ما بذل جهده الحثيث لتحقيق صلحٍ ما بين هؤلاء وبين حكوماتهم الوطنية، فكان يُوفَّق حيناً ولا يفلح أحياناً، وثمة أسماء ووقائع كثيرة في هذا السبيل لم يحن الوقت لكشف تفاصيلها بعد.

ولو كنت أكتب هذا الكلام قبل عشرين عاماً لأعوزتني الحجج من الواقع؛ إذ كان كثير من العلماء في الشام يرون أن مقتضى عزة العلم ومصلحة الإسلام أن لا يكون ثمة أي لقاءٍ أو تعاونٍ بين الحاكم والمحكوم، حتى يتحول الحاكم كليةً إلى انتهاج مذهبٍ من المذاهب الفقهية الأربعة المعتمدة، ويفوض القضاء والتعليم والتربية والإعلام وغيرها من المرافق الحيوية إلى رجال الدين.

ولكن اليوم ونحن في منتصف التسعينيات فإن سائر علماء سورية على سبيل المثال وزعاماتها الدينية بلا استثناءٍ سارت في الخيار الذي انتهجه الشيخ قبل أربعين عاماً، وهو الخط ذاته الذي كانوا يلومونه عليه قبل سنواتٍ ويشيعون عليه الأقاويل.

ولا شك أنه مرت بالبلاد أيام ساد فيها اتجاه قانط للمضي بالبلاد ماركسياً في اتجاهاتٍ ناقمةٍ على الحركة الإسلامية، ولست تدري أي (أتاتوركية) كانت تُراد بسورية لولا كفاءة الرئيس الأسد وحكمة الشيخ كفتارو.

في خدمة المجتمع:

نشأ الشيخ كفتارو في مدرسةٍ صوفيةٍ نقشبنديةٍ، قوامها الاستغناء عن الخلق والالتجاء إلى الخالق، يتعاقب فيها السالكون يرشفون رحيق الأنس وينعمون بوصال القرب.

واستغنِ بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدُنياهم عن الدين
إن الذي أنت ترجوه وتطلبه من البرية مسكين ابن مسكين

ولكن هذه التربية الصوفية في التخلي عن الخلق قادته إلى مقام التسليم لأمر الخلاق سبحانه، فإذا هو سبحانه يأمر بخدمة الخلق ومخالطتهم وإيلافهم، والسعي في هداهم ومصالحهم، وهو لا شك تكليف ثقيل على مَن أَنِسَ بلذة الاستغراق، وسعد برحيق الأشواق.

وقد نهج في خدمة المجتمع على أساس بذل الحب والود والنصيحة في هداية الناس إلى الله عز وجل وفق صراطه المستقيم، ولكنه سعى أيضاً في تحقيق إيلافٍ ووِدٍّ بين أبناء المجتمع على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم وأديانهم في سبيل وحدةٍ وطنيةٍ عامةٍ تعود خيراً على سائر أبناء الوطن.

لقد كان يجتهد في بذل النصيحة خطاباً ومحاضرةً، إذاعةً وتلفزيوناً، كتاباً وصحافةً، فيستجيب له خَلْقٌ كثير، لكنه كان فيمن لا يستجيب له ملاطفاً يكرر النصيحة ويعذر، ثم لا يحمله إعراض أو سَفَه على أن يغيِّر من سلوكه الرباني وأخلاقه القرآنية.

ولأجل ذلك فقد دعا إلى الحوار والإيلاف بين المسلمين والمسيحيين، وقام مراراً بزيارة جبال العلويين في اللاذقية، وجبل العرب في السويداء؛ بل إنه نصب جسوراً من

التفاهم مع زعماء اليسار واليمين في جهده لتحقيق وحدةٍ وطنيةٍ اجتماعيةٍ تخلق جواً من الود يسهم في نشر الحقيقة الإسلامية، ورفع الغواشي عن العيون.

وكم تعرَّض له السفهاء يلومونه في هذا السعي من الانفتاح والتقريب، فكان في ذلك كله يبتغي رضاء الله ووحدة الأمة، ثم لا يبالي بعدئذٍ قَالَةَ الناس، وتجد تفصيل ذلك في باب منهجه في حوار الديانات.

وكذلك فإنه نهج سبلاً كثيرةً لخدمة الخلق، وجعل نصب عينيه قول النبي ﷺ: (إن لله عباداً اختصَّهم لحوائج الناس يفزع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله)[1].

وقول النبي ﷺ: (مَن بلَّغ ذا سلطانٍ حاجة مَن لا يستطيع إبلاغها ثبَّت الله قدميه على الصراط يوم تَزِلُّ الأقدام)[2].

وكم من سجينٍ مظلومٍ كتب الله فِكاكَ سجنه على يدَيه، وكم من معدمٍ ضائعٍ كتب الله كفايته عن طريقه، وكم من أسرةٍ خَرِبةٍ أجرى الله على يدَيه صلاحها ورشادها.

ومَن يطيق حصر ذلك أو عدَّه؟!

إن بوسعك أن تمكث ساعةً في دارته (دار الشيخ أمين كفتارو لتحفيظ القرآن الكريم)؛ لتشاهد المظلومين والمكروبين يسعى في حوائجهم بقدر ما يؤتيه الله من طاقة.

---

[1] أخرجه الطبراني عن ابن عمر.

[2] أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده.

ولم يكن يرى في سعيه ذلك مَنّاً على المساكين، أو يداً لازبةً على المكروبين إنْ هم فُكَّ كربهم على يديه؛ بل كان يتمثل بكلمة سيد الناس علي زين العابدين: (مَن أمكنني أن أجعل معروفي عنده كانت يدُه عليَّ أمنَّ من يدي عليه).

فقد آتاه الله جاهاً وكلمةً مسموعةً، وآتاه مالاً وكفاية، وآتاه في قلوب الناس محبةً ورضىً وطمأنينةً، فكان لما في جيوب إخوانه –وما أكثرهم– أقرب مما في يده، وكان ذلك في قلوبهم سعادةً وسروراً.

وكم من طالب علمٍ فقيرٍ كان زواجه وإسكانه وموردِه بتدبيرٍ من الشيخ وإرشادٍ منه!

وكم من نكبةٍ حلَّتْ بأسرةٍ جعل الله فرجها على يديه!

وكم من عالمٍ أثقلت كاهله الديون حتى جعل الله لها عنده سداداً وأداءً!

وذلك إن لم نشأ أن نذكر بالأرقام ما تؤديه الجمعية التي أسسها من خيراتٍ وعطايا في جوانب المعروف الكثيرة.

وإنه يمكن بهذا الصدد أن نذكر على صعيد الخدمات العامة بعض ما وُفِّقَ إليه:

ففي عام (١٩٤٧م) وُفِّقَ من خلال صلته بجميل مردم إلى إلغاء البغاء الرسمي في سورية، حيث لم تقم له من بعدُ قائمة.

وفي عام (١٩٦٢م) قام رئيس الوزراء السوري السيد مأمون الكزبري بزيارة الشيخ أحمد في داره، وخلال ذلك تمكن الشيخ أحمد من إقناعه بإصدار مرسومٍ يشمل إعفاء المساجد من رسوم الماء والكهرباء، وبالفعل صدر المرسوم وما زال سارياً حتى اليوم.

وفي عام (١٩٦٣م) أصدر مجلس الثورة قراراً يقضي بختم سائر المحالِّ التجارية بالشمع الأحمر تمهيداً لتصفيتها وتوزيعها في خزينة الدولة، ويعلم تجار الشام جيداً أنه لم يُدفع هذا الضرر الماحق عنهم إلا بواسطة الشيخ كفتارو وجرأته على حاكم البلد يومذاك أمين الحافظ[1].

وفي عام (١٩٨٢م) تمكَّن من إيقاف سعيٍ كان يهدف إلى إلغاء سائر المعاهد الشرعية في سورية، وذلك من خلال صلاته الطيبة ودأبه وجده على الرغم من أن مشروع القرار كان قد استثنى معاهد الشيخ كفتارو من الإغلاق.

وليس هذا موضع استقراء نشاطه في الخيرات أو مساهماته في المجال الاجتماعي التي أصبحتُ أُوقنُ أن الخفيَّ منها يفوق المعلَن أضعافاً مضاعفةً، ولكن المقصود هنا أن نشير إلى منهجه الثابت في الانفتاح على المجتمع والحياة بسائر تياراتها واتجاهاتها، وإدراكه مبدأ التكامل في الجهد الاجتماعي بين مختلف المشارب والشواكل، ونختم هذا الفصل بقول الله سبحانه: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ [الإسْرَاء : ٨٤] .

[1] شمل الإغلاق حينئذ أسواق الحميدية – الحريقة – وشارع فيصل ومدحت باشا، وأسواق أخرى كثيرة.

﴿ منهجه في الوحدة الإسلامية ﴾

وأما الوحدة الإسلامية فهي أغلى الأماني التي نذر لها الشيخ كفتارو حياته ووجوده، فقد نشأ في حلقة أبيه على فقه الجماعة، حيث كان الشيخ أمين يقرأ في دروسه كتاب (بداية المجتهد) للقاضي المالكي ابن رشد الحفيد، وهو كما أشرنا كتاب فقهٍ مقارنٍ كانت تتنكَّر له في ذلك الحين الحلقات الفقهية التقليدية؛ إذ كان شيوخ المذاهب حينئذٍ يرَون فيه خروجاً على قواعد التقليد.

ومع انطلاق الشيخ في دعوته تفتحت له آفاق الحركات الإسلامية، فالتقى السيد المكي الكتاني مفتي المالكية، كما اتصل بآل الشطي الحنابلة، وكوَّن من صداقاته في هذا السبيل فهماً شمولياً لمبدأ الوحدة الإسلامية على أساس المذاهب الأربعة المعتبرة.

ولكن الشيخ كفتارو لم يقف عند حدود المذاهب الأربعة، فقد أدرك أن هذا الفقه الإسلامي لم يكن محصوراً تاريخياً بسوار المذاهب الأربعة؛ بل ثمة فقهاء كثيرون لهم منزلة محترمة في الفكر الإسلامي لم يندرجوا في إطار المذاهب الأربعة؛ كالإمام الأوزاعي، وجعفر الصادق، والليث بن سعد، وسفيان الثوري، وابن جرير الطبري، ثم ابن حزم الظاهري وسواهم.

فهؤلاء وغيرهم أئمة كرام ما انطلقوا في اجتهادهم إلا من الكتاب والسُّنَّة، فما هو المسوغُ لهدر آرائهم والاستغناء عنها؟ وهي ثروة فقهية حقيقية تفخر بها المكتبة الإسلامية.

وفي الإطار الصوفي السلفي فما هي جدوى هذا الخصام، وعلامَ يختصم الفريقان إذا كان مقصود الفريقين البحث عن مرضاة الله واتِّباع أمره؟!

ومع أن الشيخ كفتارو صوفي النشأة نقشبندي الطريق غير أنه من الصعب أن تتصور أنه لم يكن سلفياً ملتزماً.

فالصوفية ما هي إلا تزكية النفس بذكر الله، وهذا مفهوم لا ينازع فيه مسلم، ويمكن اختصاره بقول الله عز وجل: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ [الأَعْلَى : ١٤ - ١٥]

ولعل خير تعريفٍ للصوفية كما يفهمها أهل الحق أنها مقام الإحسان، وقد ورد هذا التعريف في حديث جبريل المشهور، حيث سأل النبي ﷺ عن الإيمان، ثم عن الإسلام، ثم عن الإحسان، فقال ﷺ في تعريف الإحسان: (الإحسان أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

فهل ينازعك أحد في مشروعية الإحسان؟

وهكذا فأي جدوىً تفيدها الأمة من شطر الناس إلى شطرين؛ صوفية وسلفية؟!

ومع أن الشيخ كفتارو أسس دعوته على أساسٍ صوفيٍّ غير أنه لم ينزعْ بها منزع الشَّطْح، ولم يُؤثَرْ عنه ذات يومٍ عبارة انتقاصٍ أو ازدراءٍ لأئمة الاتجاه السلفي في الفكر الإسلامي.

بل إنه قرر في مواقفَ كثيرةٍ أن السلفية في الجزيرة العربية قامت بما يجب أن يقوم به أي مصلحٍ في مكافحة الاختلاط والفساد، والشرك والانحراف، والجهل والجاهلية.

كذلك فإن الصوفية أدَّت رسالتها العظيمة في جمع الناس على الله والحفاظ على دينهم وعقيدتهم، حيث إن انتشار الإسلام في أفريقيا وقفقاسيا وآسيا الوسطى وما حولها على سبيل المثال كان رهناً بنشاط الحركات الصوفية العاملة.

وهكذا فإن جهاد الصوفية وجهاد السلفية ينبغي أن يجد سبيلاً للتكامل؛ إذ كلاهما ضروريٌّ لتكامل الأمَّة وحيويتها، فبينما يمنح التصوف رحيق الأشواق ومعارف الأذواق تأتي السلفية بوضع الضوابط الملتزمة بهدي الكتاب والسنة[1].

وهكذا فإن روحاً جديدة من الوئام والتفاهم يجب أن تُبعث في قادة هذين التيارين الإسلاميين الكبيرين؛ لنبذ أسباب الفرقة وإتاحة عوامل الوئام.

وخلال دعوته الطويلة فإنه لم يسجِّلْ موقف خصامٍ مع أيٍّ من التيارين، وتمكن من صنع صداقات متينة مع كبار رجال السلفية والصوفية، ولم يكن يقف في سعيه عند حدود المجاملة واللياقة؛ بل كان يسعى فعلاً في رفع أسباب الخلاف، فدعا إلى إجراء تقريبٍ في المصطلحات، وبدأ بذلك من مجمع أبي النور، فأمر برفع المصطلحات الصوفية واستبدالها بمصطلحاتٍ اتفاقيةٍ من نصوص الكتاب والسنة، فجعل المحبة في الله بدل الرابطة، والإحسان مكان التصوف، والتزكية مكان الطريق، والعلم والسلوك مكان الصحو والمحو.

ولم يكن في نهجه راضياً عن سائر اختيارات الصوفية، فقد ميز تماماً بين ما هو أذواق مشروعة، وبين ما هو شطحات مرفوضة، ومن بين أكثر من ثلاثة آلاف محاضرةٍ مسجلةٍ صوتياً فإن من العسير أن يقع سمعك على قصةٍ يرويها أو خبرٍ ينقله يتضمن شطحاً أو غلواً تأباه نصوص الشرع الظاهرة.

وقد تمكن من خلال منهجه هذا من بناء صلةٍ طيبةٍ مع قياداتٍ مختلفةٍ من التيار السلفي، أمثال: الشيخ محمد بهجة البيطار، والشيخ محمد أمين المصري على المستوى

[1] انظر: المقابلة المطولة مع الشيخ كفتارو في صحيفة (الجزيرة) السعودية، العدد (٨١٥٠) تاريخ: ١٩٩٥/١/٢١م.

المحلي، وأمثال: الشيخ العلَّامة أبو الحسن الندوي[1] رئيس جماعة العلماء في الهند، والشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر، والشيخ محمد علي الحركان رئيس رابطة العالم الإسلامي[2]، أما القيادات الصوفية فكان بالطبع وثيق الصلة بها في الداخل والخارج.

ومع ذلك فلم يكن منهجه المتوازن هذا ليرضي سائر الطائفتين فقد ظلت في الصوفية بقية من أبناء الطريق لم يعجبهم تحرر الشيخ من بعض قيود الطريق،كما رفض بعض أتباع السلفية منهجه في الاعتدال، وبدا أنه لن يبلغ رضاهم حتى يطال السادة الصوفية بالقدح والجرح.

إنه على كل حالٍ لم يكن معنياً بكلام العامة، وهو حينما اختار نهجه التجديدي كان يعلم تماماً أنه يسير في عكس رغبات الدهماء، ولم يفكر ذات يومٍ أن يركب رغباتهم ليبلغ رغبته، فما بين المنهجين أبعد مما بين المشرقين، وقد وضع في حياته شعاراً دثاراً لا يحيد عنه، وجدته ذات يومٍ وقد علقه بخطٍّ بارزٍ فوق غرفة نومه:

أولاً: أحسب حساب الله، وما سواه لا أرجوه ولا أخشاه.

فهو حينما يتكلم عن وحدة السُّنَّة والشيعة في محاضرةٍ يشهدها عشرة آلاف سنّيٍّ، ربما ليس فيهم شيعي واحد فإنه لا يسعى لاستعطاف أحدٍ من جُلاسه؛ إذ ليس فيهم مَن يريد استعطافه بهذا المنهج، ولكنها قناعة لديه راسخة بـ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبيَاء : ٩٢].

---

[1] انظر ما كتبه العلامة أبو الحسن الندوي عن لقاءاته المتواصلة مع الشيخ في كتابيه: مذكرات سائح في الشرق العربي، ومن نهر كابل إلى نهر اليرموك.

[2] محمد علي الحركان: من رجال العلم والعمل في السعودية، تقلب في عدة مناصب في الدعوة والعلم، وعين رئيساً لرابطة العالم الإسلامي في مطلع السبعينيات، بقي في منصبه إلى وفاته أواسط الثمانينيات.

وحينما يتكلم في بلدٍ كالإمارات العربية المتحدة مثلاً، وخلال مؤتمر الفقه المالكي (١٩٨٦م) عن الحوار الإسلامي المسيحي فهو حتماً لا يقصد إلى كسب ودِّ أحدٍ؛ إذ الحاضرون عموماً مشحونون بالكراهية للغرب إلى أبعد مدى، ولكنه يريد أن يوصل إلى الناس صوت الحقيقة الذي يصطرع في داخله كرسالة حقٍّ لا يطيق أن تبقى مكتومةً.

إن القيادات الإسلامية الحقَّة خُلِقَت لتقودَ الجماهير، لا لتنقاد إلى عواطفها ورغباتها، ولتعلِّم الدهماء لا لتجاملها وتسترضيها، وإن على الداعية الحق أن يفرق جيداً بين الولاء لله والولاء للناس، بين الولاء للشرع وبين الولاء للشارع، ومراراً كان الشيخ ينهانا عن الانسياق لهوى الناس واتباع رغائبهم إلا بعد عرضها على أصول الشرع المحكمة، ومصلحة الإسلام العليا.

في عام (١٩٧٦م) عُقِدَ لقاء كريم في الرياض وضمَّ عدداً من كبار رجال السلفية، وشرع القوم يتعاقبون الحديث في إلقاء الدليل على وجوب محاربة الصوفية، وكفِّ نشاطهم، ومكافحة أفكارهم، يؤيد بعضهم بعضاً، ويُثني اللاحق على قول السابق.

وعند ذاك تكلم الشيخ كفتارو بكلمةٍ موجزةٍ تضمنت كلاماً كثيراً، فكان فيما قال: إن هذه الصوفية التي ترَون فيها خطراً داهماً حافظت على الوجود الإسلامي في أمصار كبيرة من العالم الإسلامي امتحنت بالمد الشيوعي والتسلط الاستعماري، كما أن انتشار الإسلام في أفريقيا وقفقاسيا وآسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا مدين للحركات الصوفية.

وكان بوسعي أن أفصل الحجج في ذلك، ولكنني أعتبره على كل حالٍ جهاداً في ذمة التاريخ.

أما اليوم فثمة أخطار حقيقية تواجه الإسلام من إلحادٍ وتبشيرٍ واستعمار، وهذه الأخطار هي التي ينبغي أن توجَّه إليها الجهود وليس الحلقات الصوفية التي غايتها إحياء ذكر اسم الله في القلوب والنفوس.

ثم قال: إن الذي تبكون منه يا سادة أنا أبكي عليه! إن المسلم الذي كان يتحير بين الشافعية والحنفية قد ضاع اليوم وعلينا أن نبحث عنه بين الماركسية والوجودية.

والمسلم الذي كان يتردد بين الصوفية والسلفية أصبح اليوم يتردد بين الإلحاد والضياع بعد أن أسلَمَتْه النزاعات الفارغة بين دعاة الإسلام إلى بؤرة الشكِّ والحيرة.

ولم ينهج الشيخ كفتارو في جدال القوم مبدأ البينة والدليل، فهذا منهج قتله الأولون بحثاً، وكلما جاء الصوفية بدليلٍ نهض السلفية بإبطاله، وكلما قدم السلفية حجةً قامت الصوفية بإنكارها، حتى أصبح الجدل في هذه المسائل معروفاً محفوظاً، وسُوِّدت في تحقيق ذلك الصحائف، وجمعت فيه القراطيس التي لم تثمر في النهاية إلا فرقةً في الأمَّة وتمزقاً في صفوفها.

ترك أمر الجدل بالكلية، ولم يكن يعنيه أن ينتصر لأهل التأويل ولا لأهل التفويض، ولم ينذر حياته لنصرة فكر الأشاعرة، ولا لرد مقالات الجهمية والمرجئة، وكان يرى في ذلك مضيعةً للوقت مضناةً للكدِّ والجدِّ، وكان يعجب لهذه المزالق التي حشر الخَلَف فيها أنفسهم ولم تكن من شأن أصحاب رسول الله ﷺولا شأن القرون الخيرية الأولى.

وبدلاً من ذلك كله فقد نهج منهج السعي إلى الوحدة والجماعة، وجعلها قِبلته وغايته في أي جدلٍ فكريٍّ أو نقاشٍ اعتقاديٍّ.

لقد صدرت في عام (١٩٩٠م) رسالةً صغيرةً وزعت على حجاج بيت الله الحرام بعنوان: (**الرد على مَن تأول الصفات**)، قدم لها أحد أعلام السلفية الكبار، وفي مقدمته تلك كتب: (إنه لا بدَّ من الرد على عقيدة الأشاعرة؛ لأن الأشاعرة ليسوا من الفرقة الناجية).

فإذا علمت بأن المدارس والجامعات الإسلامية في العالم الإسلامي من موريتانيا إلى أندونيسيا تدرس العقيدة وفق اختيار الأشاعرة باستثناء دولةٍ واحدةٍ أو دولتين، وأن المدرِّسين والطلَبة وعلماء القوم في غالب بلدان العالم الإسلامي وكتبهم كلها تتحدث في العقيدة على اختيار الأشاعرة، أقول: إذا علمتَ ذلك أدركت أي معنى خطير تومئ إليه مثل هذه الفتوى العجيبة.

وحينما راجعت أحد طلبة العلم في الحجاز حول هذه الفتيا وما يمكن أن توجده من شرخٍ في الجماعة الإسلامية قال لي بثقةٍ وبالحرف الواحد: (إنكم أيها الأشاعرة مسلمون ولكن لستم من الفرقة الناجية؛ أي: تُعذَّبون ولكن لا تخلدون في النار).

فالحمد لله الذي جعل أصحاب النار ملائكةً وجعل عدَّتهم فتنة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

ومن آرائه في سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية في مجال العقيدة والفقه أنقل لك طرفاً من الحوار الذي أجرته معه صحيفة اللواء الإسلامي الصادرة في: ٢٧/ ربيع الثاني/ ١٤٠٨هـ:

اللِّواء: يُعرَفُ عنكم أنكم تحاربون التعصب المذهبي، فهل يعني ذلك عدم اتباع مذهب بين المذاهب؟

الشيخ كفتارو: أصحاب المذاهب –وهم الأئمة المجتهدون– الذين نسبت المذاهب إليهم ما قال أحد منهم: تمسكوا باجتهادي ودَعُوا اجتهادات العلماء الآخرين؛ بل إن كل واحدٍ منهم يقول: إذا صح الحديث فهو مذهبي؛ أي: الحديث النبوي، وإذا عارض كلامي كلام رسول الله ﷺ فاضربوا بكلامي عرض الحائط، فإذا كان الأئمة رضوان الله عليهم هم يقولون: لا تتمسكوا بأقوالنا، والنبي ﷺ يقول: تمسَّكوا بكتاب الله، فيجب أن يكون كل مسلمٍ مذهبه القرآن واتباع النبي ﷺ، ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النَّحل : ٤٤]، فهذا الخطاب للنبي ﷺ، فهو المبين وكل الأئمة والعلماء وإلى قيام الساعة ملزمون بالقرآن والبيان النبوي.

وهناك أمور اجتهادية باختلاف الزمان والإمكان وحاجات الناس، فالتعصب المذهبي يكون دائماً من شأن قصار النظر، وضعاف البضاعة العلمية بحقيقة الإسلام وحقيقة ما كان عليه أصحاب المذاهب والأئمة رضوان الله عليهم، والتعصب المذهبي في الإسلام يتنافى مع جوهر الإسلام وهدف الإسلام.

والقرآن يقول: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ [الأَنبِيَاء : ٩٢] ، ويقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ [الأَنعَام : ١٥٩] أي: أنت بريء منهم يا محمد ﷺ، فإذا كان الله يقول: يا محمد، تبرَّأ ممن يفرقون دينهم ويصبحون شيعاً وأحزاباً، أفلا نتبرأ من ذلك؟! فالقرآن واضح: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ [الأَنعَام : ١٥٩] ، فالقرآن صريح وواضح لا يوجد فيه مذاهب ولا شِيَع.

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ [الحُجُرَات : ١٠]، ففي القرآن مذهب واحد وهو الإسلام، ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي

هَذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ [الحج: ٧٨] لم يسمِّكم لا سُنَّةً ولا شيعةً ولا شافعيةً ولا حنفيةً، فهذه تسمية القرآن لنا، فإذا أردنا أن نعدِلَ عن هذه التسمية إلى تسمية أهوائنا وأنانياتنا وتقاليدنا الخاطئة التي كانت سبب تخلفنا وضعفنا وتمزقنا نكون خرجنا من الإسلام.

اللِّواء: هل هناك تناقض بين الطريقة الصوفية والمذهب السلفي؟ وهل يجتمعان في سلوككم العملي؟

الشيخ كفتارو: بكل حزنٍ وتأثُّرٍ أسمع مثل هذه الألفاظ التي هي حقيقة واقعة بين المسلمين الذين جعلهم الله أمةً واحدةً، لكن واقعنا أننا أمم وليست متحدة؛ بل متنازعة ومتقاتلة ومتعادية، وكلٌّ منا يدير ظهره للآخر.

كلمة صوفي، هذا اللفظ لم يكن زمن النبي ﷺ، كما أنه بزمن النبي ﷺ لم يكن هناك شيء اسمه: علم أصول الفقه، البلاغة، النحو، كل هذا كان من الترف اللغوي والتقدم في المصطلحات العلمية، فكما جعلوا في اللغة مصطلحاتٍ لعلومها كذلك التربية فإنهم جعلوا لها اسماً، وهو (التصوف)، وكل معلمٍ كان له مدرسة، فكان تلامذته ينتسبون إلى مدرسته باسمها كما انتسبوا للشافعي والحنفي فقهاً.

فمع مرور الزمن صارت هذه المذاهب كأنها أديان منفصلٌ بعضها عن بعضٍ، لكن الحقيقة أن التصوف هو التربية الإسلامية وإعداد المسلم لينتقل من إسلام الاسم إلى إسلام العلم والعمل والخلق والسلوك على ضوء القرآن وضوء السُّنَّة الصحيحة، فإذا كان التصوف هو هذا المعنى فهو التربية الإسلامية الصحيحة، وأنا لا أمانع برفع هذه الأسماء؛ بل أنا أدعو إلى هذا منذ ١٥ سنة، كما أن من مطلبي أن نرفع اسم المذاهب

ونكتفي باسم مسلمٍ فقط، نرفع اسم سلفي، لم يكن بزمن النبي ﷺ شيء اسمه: سلفي، صوفي، سنّي، شيعي، شافعي... لنرفع كل هذه الأسماء لأجل واقعنا المَرَضِيّ وواقعنا التمزقي، ولنلغي هذا الواقع بأن نرجع إلى تسمية الوحي والقرآن، ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحَج : ٧٨] نرجع إلى كلمة مسلمٍ، وإذا قال أحدهم: سلفي، فنحن نحترم سلفنا الصالح، وإذا قال: صوفي، فالصوفية تساوي تزكية النفس التي ذكرها القرآن: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البَقَرَة : ١٢٩] ، ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾ [الأَعْلَى : ١٤].

الصوفية هي مقام الإحسان: (أن تعبدَ الله كأنك تراه)، وكل شيءٍ يخرج عن المصطلح القرآني الذي هو التزكية أو عن التسمية في الحديث الذي هو مقام الإحسان فهذا خارج عن التصوف الإسلامي ودخيل عليه، فكما دخل على تفسير القرآن دخائل كثيرة شوهت معاني القرآن، ودخل على الأحاديث النبوية من الأكاذيب والتي هي الأحاديث الموضوعة، ودخل في الفقه أشياء كثيرة يخجل الإنسان بعض الأوقات من قراءتها أو روايتها، كذلك دخل على التصوف دخائل، فكل العلوم الإنسانية الآن تحتاج لتنقيةٍ وتصفيةٍ، وإذا أردنا أن نختصر الطريق نعود للقرآن مباشرةً وإلى الصحيح من السُّنَّة، ونترك كل هذه الألفاظ فلا سلفي ولا صوفي ولا سني ولا شيعي، وإذا قلنا: صوفي فنعني به القائم بتزكية النفس إما أن يكون مزكياً أو أن يكون مزكىً، وما خرج عن هذا نحن نحاربه سواء تسمَّى بصوفيٍّ أو بغير صوفيٍّ، فنحن مرجعنا إلى القرآن وإلى السُّنَّة الصحيحة.

اللواء: يلاحَظ من خلال محاضراتكم أنكم تحاربون كلمة سني وشيعي، فهل لكم أن تبينوا وجهة نظركم علماً وعملاً ودعوةً وألفاظاً وألقاباً؟

الشيخ كفتارو: أنا أعلنت مئات المرات في كل محاضراتي التي يحضرها الألوف من الناس: يحرم أن نتلفظ بكلمة سُنةٍ وشيعةٍ؛ لأن السنة في اللغة: الطريقة، وهي طريقة النبي ﷺ، فهل هناك أحد من المسلمين سواء تسمى بالسنة أو الشيعة يستطيع أن يرفض سنة النبي ﷺ؟

وكلمة شيعيٍّ بالمعنى المفهوم؛ أي: شيعة أهل بيت النبي ﷺ وأنصارهم، فهل هناك أحد من المسلمين لا يحب أهل البيت ولا يُناصر أهل البيت في عصرنا الحاضر؟

كل المسلمين في كل العالم مناصرين لسُنة النبي ﷺ، لكن هذان اللفظان أصبحا الآن كنايةً عن اسمٍ قبائليٍّ لتمزيق وتفريق المسلمين وإلقاء العداوة بين المسلمين وقسمهم قسمين وجيشين، وبأيدٍ خفيةٍ واستعماريةٍ حتى تفرق وحدة المسلمين بهذه الألفاظ والعناوين، ولذلك يجب تحطيم هذين العنوانين، ونرجع للإسلام الذي سمانا الله به في القرآن العظيم:

ولم يسمِّكم سُنَّةً ولا شيعةً، فهذه طريقتي التي أدعو إليها وأنشئ طلاب العلم في المعهد عندي وفي الكلية على هذا، وبرأيي يجب على كل المعاهد الدينية في كل العالم الإسلامي أن تنحوَ هذا المنحى ونخلص من هذه البلية التي لا نزال نتحمل شُؤْمها قريباً من ثلاثة عشر قرناً.

ثم خطا الشيخ خطوةً نحو الشيعة فهم الشق الثاني للأمَّة الإسلامية، والمسلمون عموماً شيعة عليٍّ رضي الله عنه، لا يختلفون أنه كان على رأس بيعةٍ صحيحةٍ، وهم

جميعاً يذوبون عشقاً لأهل بيت النبي ﷺ، وإن كان خمسهم فقط يتمذهب بمذهب الإمام جعفر الصادق.

ثم ما جدوى هذا الخصام الذي يرتكز أصلاً على نشدان الخلافة؟ وهي قد صارت اليوم محض ذكرى مؤسفة في التاريخ ليس لنا فيها إلا استجلاء العِبَر.

وقد كان الشيخ كفتارو هُيِّئ مبكراً لمثل هذه الدعوة من الوحدة؛ إذ كانت الأُسَر العلوية في جبل قاسيون تلقى غمزاً ولمزاً من سفهاء الناس، ولم يكونوا يجدون ملجأً أو ملاذاً إلا في شخص الشيخ أمين كفتارو الذي أفسح لهم صدره ووسَّع لهم فؤاده، وجعل يخصُّهم بزياراته ويتولاهم بمحبته، وكان قد فتح مدارك ولده على ما في هؤلاء من جوانب الخير، وإن تبارى الناس في تصريف فنون الطعن والتجريح بهم.

وكان بعض السفهاء من أهل المحلة قد شيَّعوا تسميةً قبيحةً للحارة التي يسكنها العلويون في جبل قاسيون، وهو تنابزٌ قبيح بالألقاب نهى عنه الشارع العظيم، فمشى الشيخ أمين بنفسه ومعه خطاط وحداد، وصنع لافتةً كبيرةً كتب عليها: (شارع الشرفاء) سمى بها هذه الحارة إشارةً إلى شرف أنساب سُكَّانها، ولا تزال تلك الحارة في قاسيون تسمى إلى اليوم حارة الشرفاء، كذلك فإن الشيخ أحمد لم يكن يجهل أن الإمام جعفر الصادق أستاذ الفقهاء جميعاً، فقد كان أبو حنيفة تلميذاً له، وكان مالك تلميذاً لأبي حنيفة، وكان الشافعي تلميذ مالك، وكان أحمد تلميذ الشافعي.

وكذلك فإن ختم السلسلة النقشبندية الذي كان يقرؤه كل يومٍ يتصدره ذكر: (وإلى روح الذي هو بالحق ناطق الإمام جعفر الصادق قدس سره).

وأتيحت له فرصة خاصة لتفهم مقاصد القوم من خلال صلته بالسيد محسن الأمين شيخ الشيعة الجعفرية بدمشق، تلك الشخصية الفذَّة التي لا تزال تحظى بأعظم احترامٍ من رجال الطائفتين على السواء.

وقد سبقت في كتابنا هذا الإشارة إلى السيد محسن الأمين اللبناني الدمشقي الذي كان أبرز وجهٍ معادٍ للتعصب في بيئته، لقد وقف السيد محسن الأمين بعقليته المنفتحة، موقفاً حازماً من التعصب المذهبي، وحارب المذهبية الضيقة حين رفض وجود محاكم شرعية خاصة بالشيعة، باعتبار أن المحاكم الشرعية الإسلامية ترعى شؤون جميع المسلمين، مفوتاً بالتالي الفرصة على الفرنسيين الذين اعتقدوا أن بإمكانهم خلقَ صراعٍ مذهبيٍّ في دمشق كالذي زرعوه في بيروت، وعلى الرغم من مواقف المتشنجين المتعصبين من الشيخ محسن الأمين فقد ظلَّ يدعو إلى ما يعتقده من أمر الوحدة الإسلامية حتى جاءه الأجل عام (١٩٥١م).

وكان الشيخ كفتارو يدرك أهمية هذا التقريب، فإلى جانب كونه واجباً دينياً إسلامياً نص عليه القرآن الكريم: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ [آل عِمْرَان : ١٠٣]. فإنه أيضاً مصلحة حتمية للأمة المسلمة لا تملك أصلاً أن تتجاهله أو تتولى عنه[1].

[1] كتبت صحيفة الشراع اللبنانية عنواناً كبيراً على غلاف عددها الصادر في ١٩٨٩/٣/١٦م: مفتي سورية يقول: حرام علينا القول: هذا سني وذاك شيعي بعد أن قرأنا قول الله عز وجل: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ [الحَج : ٧٨]

فالمجتمع السوري فيه أكثر من ١٥% طوائف شيعية، ولبنان توأم سورية يزيد عدد المسلمين الشيعة فيه على عدد سائر المسلمين السنة، وهم في العراق نحو نصف السكان، وهم في إيران أكثرية واضحة، إضافةً إلى بلدان أخرى في العالم الإسلامي، فكيف يمكن لحركةٍ إسلاميةٍ تنشأ في دمشق أن تتجاهل هذه الأرقام التي تؤكدها حقائق التاريخ والجغرافيا.

وليست هذه القضية مسألة هامشية يمكن تحييدها وتجاوزها؛ بل هي همٌّ حاضر يعيش في عمق هموم العالم الإسلامي، وقد اصْطَلَتْ بلاد الإسلام بنارٍ من الحقد الطائفي الأسود يوم عمد بعض الجهلة إلى إحياء فتاوى قديمةٍ لابن تيمية أفتى فيها بكفر طوائف مسلمة وإباحة دماء أبنائها وأموالهم، فثارت فتنة نائمة لعن الله مَن أيقظها، وهُدرت دماء كثيرة، وزهقت أرواح بريئة بجناية فتاوى طائشة لا تُعرف ظُروفها وضَوابطها ولا دَوافعها، وإذا كانت الأمور بعواقبها فإن لنا أن نقول: إنه ليس في الفقه الإسلامي أشأم من هذه الفتاوى التي تُبيح دماء الناس وأموالهم وأعراضهم بالجملة دونما تمييز.

وعلى الرغم من كل ما جاءت به هذه الفتاوى من سعيٍ مشؤومٍ في الثمانينيات عاد في مطلع التسعينيات مَن يتولَّى كبرها ويبعثها من رمادها، وقد كان بالإمكان أن تشتعل فتنة طائشة أخرى لولا أن قيَّض الله لهذه الأمة مَن يرد عنها غائلة السوء، وقد بيَّن ذلك كثير من رجال الفكر والإعلام، وأنا أنقل لك هنا رأي أحدهم: (عزاؤنا الوحيد في هذه الظلمة الحالكة وجود قياداتٍ دينيةٍ مستنيرةٍ، خاصةً في سورية ولبنان، وقفت بحزمٍ ضد هذه الفتاوى التي لا تفيد إلا في تحطيم جدار الوحدة الوطنية العربية،

وكان على رأس هؤلاء سماحة مفتي سورية الجليل أحمد كفتارو الذي كان له موقف لا يُنسى)[1].

ولم تكن قضية التقريب عند الشيخ كفتارو شعاراً أدبياً تفرضه المجاملة واللباقة عند حصول اللقاءات العلنية؛ بل كان التقريب مبدأ يسعى إليه ويدل عليه، تقوده إلى ذلك حقيقتان اثنتان: حب أهل البيت، ووحدَةُ المسلمين.

ذات مرةٍ كنا مع الشيخ كفتارو في بستانٍ في الغوطة، وكان ثمة منشد يشدو بالمدائح النبوية، والمجلس مجلس أُنْسٍ وسرور، والشيخ رجل طَرُوب في حب الله ورسوله، وكل كريمٍ طَروب، فكان مما أنشده المنشد:

حب الحسين وسيلة السعداء وضياؤه قد عمَّ في الأرجاءِ

سِبطٌ تفرَّعَ منه نسْلُ المصطفى فأضاء مصرَ بوجْهه الوضَّاءِ

فهو الكريم ابنُ الكريم وجدُّه خير الأنام وسيِّد الشفعاءِ

إلى آخر القصيدة، وهي قصيدة مؤثرة من ألحان المرحوم طه الفشني، لا يملك المرء أن يستمعَ إليها إلا وهو يكفكفُ دموعَ عينيه.

وفجأةً استوقفه الشيخ، ثم سأل الحاضرين: هل هناك أحد من الإخوة الشيعة الجعفرية؟!

[1] هو الكاتب اللبناني نبيل فياض في كتابه حوارات حول المرأة والتراث، وللأسف فإن الكاتب لم يلزم نفسه بهذا الخط التوحيدي الذي يثني عليه، وقد طلع علينا مؤخراً بكتاب: (يوم انحدر الجمل من السقيفة)، وفيه اتخذ طابعاً تحريضياً، أهون أهدافه إيقاع الطوائف الإسلامية في خصامٍ مشينٍ لا يخدم إلا أعداء الأمة.

قالوا: لا.

قال: فإذن إنني مغتبط لأن حبَّكم لآل بيت النبي ﷺ حقيقة تنطق بها أرواحكم لا تدفعكم إليها المجاملة والمداراة، وإنما يحملكم عليها مبدأ قرآني كريم: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ [الشُورَى : ٢٣] ، وأستأنف المنشد يقول:

مَن مثلكم لرسول الله ينتسب؟! ليت الملوك لها من جدِّكم نَسَبُ!

من نَسْلِ فاطمة أنعِمْ بفاطمة... من أجل فاطمة قد شرفَ النَّسَبُ

وقد نهج في بعض مسائل الفقه نهجاً توفيقياً يمكن أن يقرّب بين الأمة من غير أن يقفز فوق قواطع النصوص، فكان يأمرنا أن نصلي وراء الشيعة، ونأخذ باجتهادهم فيما تحتمله النصوص، وقد نهانا مرةً أن نصلي ببعض سورةٍ بوجودهم؛ لأن القوم لا تصح عندهم القراءة إلا بسورة كاملة، وذلك أجمع للقلوب وأدعى للخروج من الخلاف.

وقد صليتُ ذات يومٍ إماماً في مسجد أبي النور وكان ثمة ضيوف من الشيعة، فأمرني أن أسبل يدي مراعاةً لمذهب المقتدي، حيث لا يصح عندهم عقد الأيدي، وهي عندنا هيئة يمكن تركها من غير أن تفسد الصلاة؛ بل إن المالكية يسبلون أيديهم في الصلاة ولا يعقدونها أصلاً.

كذلك فقد أمر فمُدَّ الحصير فوق السجاد حتى لا يباشر جباهَهم عند السجود صوفُ السجادة؛ إذ لا يصح عندهم السجود على ما يُلبس أو يُؤكل، في حين لا يؤثر ذلك على صحة الصلاة في المذاهب الأربعة، ولكنه يفيد كثيراً في جمع شتات القلوب ودرء الفرقة والخلاف، وهذه قاعدة فقهية عملية جرى عليها العمل وتداولها الفقهاء

تحت شعار: (**سنة الأحناف الخروج من الخلاف**)، وكم من مباحٍ كرهوه خروجاً من الخلاف، وكم من مُستَحَبٍّ تركوه خروجاً من الخلاف، فإذا جاز هذا لدى فقهاء المذاهب الأربعة فلِمَ لا يصحُّ في الفقه الشيعي الجعفري الذي وضع أسسه أستاذ الأئمة جعفر الصادق؟!

وفي مرحلةٍ لاحقة اختار موقفاً أكثر تقارباً حين كف عن إطلاق أي اصطلاح يرمز إلى وجود طائفتين، فكان يقول: لا سنة ولا شيعة، والمنهج الحق هو العودة إلى اصطلاح القرآن الكريم: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج : ٧٨]، وإذا ما اضطررت لإيضاح دلالة ما فحسبك أن تقول: المسلمين في إيران، أو المسلمين من أتباع الإمام جعفر، وفي محاضراته في الثمانينيات والتسعينيات فإنه من النادر أن تسمع اصطلاح سُنَّةٍ أو شيعة خلال محاضراته.

وفي تصريحٍ لجريدة الراية العربية التي تصدر في أمريكا قال: (المدارس الإسلامية والاجتهادات الإسلامية بمعنى الولاء لمدرسةٍ فقهيةٍ أمر محبَّب، وإذا كان التشيع ولاء لأهل بيت الرسول ﷺ فالسُّنَّة والشيعة يصلُّون على الرسول وآله في كل صلاةٍ، وهذا ما يفعله الشيعة أنفسهم، وإذا كان التسنن ولاءً لسُنة الرسول ﷺ فإن الشيعة هم أول السنة، والإمام عليٌّ أول مَن آمن بالسُّنة وأوصى بها، ومشى على هديها حباً بالنبي ﷺ والتزاماً بسنته[1]).

[1] مقالة في جريدة الراية الأمريكية، العدد (٢٣٦)، تاريخ: ١٩٩٤/١٠/٢٥م.

ولا تحسبْ أن نهجه التوحيدي هذا كان ناشئاً عن عدم معرفته ببواطن الأمور، أو عدم اطِّلاعه على خفايا ما يعتقده القوم من أمر التقية والإمامة والعصمة وردة بعض الصحابة وغيرها من المسائل؛ بل إنه كانت لديه النصوص الظاهرة التي صرح قائلوها بالقول بتحريف القرآن الكريم!

لقد كان تحقيق ذلك كله في متناول يده، ولكنه انطلق من موقفٍ واضحٍ، وهو أن الشيعة ليسوا سواءً، فيهم المعتدل وفيهم المغالي، وفيهم المتسامح وفيهم المتعصب، تماماً كما أدرك ذلك من قبل في زعامات أهل السنة والجماعة، فرأى فيهم مَن يجزم بكفر الأشاعرة جميعاً، وفيهم مَن يجزم بكفر السلفية جميعاً، فأي فائدة تُرجى في مواجهة التعصب بالتعصب، ولماذا لا نشجع ذلك التيار المتسامح الواعي بما يناسب من التسامح والوعي، حتى يدخل ذلك المتعصب العنيد في شرنقته فيخنق نفسه.

وهكذا كان، فقد أمكنه أن يوجِدَ إيلافاً حقيقياً مع قياداتٍ شيعيةٍ بارزةٍ، وأصبح أمراً مألوفاً أن تجلس في دروسه جلابيب سود فيها قلوب بيض، وأن يتوالى على زيارته قيادات الشيعة في سورية ولبنان والعالم الإسلامي.

ولقد حضرت معه لقاءاتٍ مطوَّلةً مع زعماء الشيعة في العالم الإسلامي كانت جميعها تنتهي إلى مشاريع عملية في العلم والعمل، ومن أبرز الذين زاروه في دمشق: آية الله العظمى الشيرازي، وآية الله الأردبيلي رئيس مجلس القضاء الأعلى في إيران[1]،

[1] قام السيد آية الله موسوي الأردبيلي رئيس السلطة القضائية في إيران بزيارة دمشق، وألقى محاضرة في جامع أبي النور، كما استمع إلى محاضرة سماحة المفتي في جامع أبي النور يوم الجمعة ١٩٨٤/١١/٢٣، انظر: صحيفة تشرين – الثورة – البعث الصادرة يوم ١٩٨٤/١١/٢٤.

وحجة الإسلام هاشمي رفسنجاني رئيس جمهورية إيران الإسلامية[1]، والسيد محمد حسين فضل الله[2]، وسماحة الشيخ محمد مهدي شمس الدين، وغيرهم كثير...

وقد كتبت مجلة الشراع اللبنانية تحقيقاً خاصاً عقب استشهاد مفتي لبنان الشيخ حسن خالد، أشارت فيه إلى جهود الشيخ كفتارو في تحقيق الوحدة الإسلامية بين السنة والشيعة، جاء فيه:

(وقد ظلت الدعوة لإنشاء مجلسٍ إسلاميٍّ موحَّدٍ تتفاعل فيه ضمائر المسلمين اللبنانيين، حتى إنني خلال زيارةٍ قمت بها إلى مسجد أبي النور في دمشق بدعوةٍ من مفتي الجمهورية العربية السورية الشيخ أحمد كفتارو أعلن أمام ألوف المحتشدين تحية للمناضلين المسلمين في جبل عامل الذين قاموا خلال سنتين فقط بأعمالٍ ضد إسرائيل عجز عن القيام بها جميع العرب خلال الأربعين سنة الماضية، ثم تحدث عن ضرورة توحيد المسلمين اللبنانيين، وأعلن عن استعداده للمشاركة الشخصية بأي جهد يبرز لإنشاء مجلسٍ موحدٍ يمثل جميع المسلمين في لبنان، وكان الشيخ كفتارو قد زارنا في لبنان بعد عودته من زيارةٍ قام بها إلى الولايات المتحدة بدعوةٍ من الجامعات السبع، وحل فيها لرؤية الجالية الإسلامية في ديترويت، والتقى رئيس المركز الإسلامي فيها، وقد رددنا له الزيارة في مصيف بلودان برفقة المفتي الجعفري السابق المرحوم السيد حسين الحسيني –وهو غير رئيس مجلس النواب اللبناني حسين الحسيني– ثم اغتنم الشيخ كفتارو

[1] قام السيد هاشمي رفسنجاني رئيس جمهورية إيران والرئيس السابق لمجلس الشورى بزيارة إلى دمشق ألقى خلالها محاضرة في جامع أبي النور، وكان لزيارته هذه أطيب الأثر على مستوى الوحدة الإسلامية، وقد ألمحنا إلى هذه الزيارة في حديثنا عن إيران وزيارات الشيخ إليها.

[2] قام السيد محمد حسين فضل الله بزيارة جامع أبي النور، وذلك بمناسبة عيد الهجرة (١٤١٤هـ)، وقد ألقى محاضرة قيمة حول الوحدة الإسلامية بحضور الألوف من تلاميذ الشيخ.

الفرصة بعد انتخاب الإمام الصدر فزاره في الحازمية، حيث تبادلا إهداء العباءات بحضور نخبةٍ من أعيان الشيعة في لبنان، وكان تعليق أحد الحاضرين بأن مشهد العناق وتبادل المودة الحارة بين الشيخ كفتارو والسيد موسى يذكرنا بتعاون الشيخ محمد عبده مع السيد جمال الدين).

ولديَّ حكاية طريفة أظن أنها تكشف لك جانباً من لهفته الشديدة للمشاركة في أي عملٍ تتحقق به خدمة الوحدة الإسلامية:

في عام (١٩٨١م) تسلمت الخطابة والإمامة والتدريس الديني في جامع الزهراء بدمشق الجديدة، وهو مسجد كبير ومهمٌّ تعاقب على الخطابة فيه كبار العلماء، أمثال: الشيخ عبد الله الغلاييني، والشيخ نايف العباس، وقد نشأ بحمد الله في جامع الزهراء أول معهد رسمي لتحفيظ القرآن الكريم في سورية، وظهر له نشاط طيب ظاهر في دمشق.

ومنذ تسلَّمت المسجد توجَّهت إلى سماحة الشيخ عشرات المرات أرجوه فيها زيارتي في المسجد ولقاء الطلبة والمدرِّسين والمصلِّين في المسجد، وقد نظمت عدة لقاءات ونداوت واحتفالات رسمية، ولكن خلال أربعة عشر عاماً لم تقدَّر له أي زيارةٍ بسبب مشاغله وظروفه الصحية، وقد كنت مقدِّراً ذلك راضياً على الرغم من أن في النفس غصَّة.

وفي عام (١٩٩٤م) رغبت السفارة الإيرانية أن تقيم احتفالاً خاصاً بعيد المولد النبوي في مسجد الزهراء، وكان ذلك مدعاةَ سعادةٍ وسرورٍ لي، وأخبرني حينذاك الشيخ حسن أختري سفير الجمهورية الإسلامية بدمشق عن رغبته بدعوة سماحة المفتي العام

الشيخ كفتارو، وقلت له كالآيس المحزون: إنه لا يستجيب، وقد سبق أن دعوتُه عشرات المرات فلم يحضر.

فقال لي: ولكنه وعد بالمجيء.

قلت له: إن حصل ذلك فإنني سوف أتشيَّع! وكانت لحظة أُنسٍ ضحكنا فيها، وقال لي: سنرى إذاً.

وكم كان عجَبي كبيراً حينما حضر سماحته وألقى كلمةً كريمةً في الحفل، وتكلم أيضاً السيد الدكتور عبد المجيد الطرابلسي وزير الأوقاف، والعلَّامة السيد محمد حسين فضل الله المفكر اللبناني الكبير.

وحينما انفضَّ الحفل ودخل الجميع إلى قاعة الاستقبال قال لي الشيخ أختري مداعباً: ها قد حضر سماحة المفتي، فماذا ستصنع بوعدك الذي وعدت؟! وذكر للحاضرين ما قلتُه له من قبل.

فقلت على الفور من الجناس الكامل:

ما الذي تنكره شرعاً عَلَي إن تشيَّعت بفقه شافعي؟!

رب فارحمني بحبي لعلي واجعل الصدِّيق يأتي شافعي

وكان تخلصاً لطيفاً فرح له القوم وطربوا، وفتح شجون الحديث حول تجارب هذه القيادات الإسلامية الرائدة في تحقيق بنيان الوحدة الإسلامية.

ولم يقتصرْ نشاط الشيخ في إطار الوحدة الإسلامية في حدود السُّنَّة والشيعة؛ بل قام بجهدٍ آخر في سبيل إيلاف الإسماعيلية والدروز، فزار الهند مراراً، وفي أواخر

الثمانينيات قام بزيارة الهند، وذلك للمشاركة في مؤتمرٍ خاصٍّ للمصالحة بين الجماعات الإسلامية في الهند[1]، وكان له في هذا المؤتمر دور كبير نظراً لما اشتُهِر به من اتجاهٍ تصالحي، وعلى هامش المؤتمر قام بزيارة البهرة الإسماعيليين وتعرَّف إلى قياداتهم وطرح أسساً عمليةً للتقريب والتعاون، ونشأت بينه وبين زعماء الطائفة صلات تقديرٍ واحترامٍ دفع بها كثيراً من الجفاء الطائفي الذي كان الناس يتلمَّسونه في المجتمع السوري.

وتوجه أيضاً إلى الدروز في معاقلهم الجبلية، فبسط لهم حبال الودِّ مقدراً جهادهم ووطنيتهم في أيام الثورة السورية الكُبرى، وقام بعدَّة زياراتٍ إلى جبل العرب في سورية وجبال الشوف في لبنان، وأوفد عدداً من إخوانه للدعوة في جبل العرب، وتوسط لدى جمال عبد الناصر في تحصيل ستين منحة دراسية لأبناء السويداء في الأزهر الشريف[2]، ولكن ما دخلت السياسة في أمرٍ إلا أفسدته، فما إن دقَّت طبول الانفصال بين سورية ومصر حتى وجد هؤلاء المساكين أنفسهم بدون أزهر، ولو قُدِّرَ لهذا السعي الشريف أن يمضي إلى غايته لَكانت خريطة الإيلاف والود على غير ما هي عليه اليوم.

وخلال زيارته لجبل الدروز صيف (١٩٩٤م) التقى سائر شيوخ المذهب في السويداء، ودعا إلى توحيد كلمة المسلمين وفق هدي الكتاب والسُّنَّة، وإزالة أسباب الفرقة والشقاق في الجوهر، وقد أوجدت هذه الزيارة ودّاً حقيقياً، حيث قام شيوخ

---

[1] أشرنا إلى ذلك في آخر حديثنا عن زياراته للباكستان.

[2] كان الشيخ يرى في هذا الأمر أنجح الوسائل لتحقيق حركة توحيد وتصحيح؛ إذ لا تدفع الفرقة إلا بالجماعة ولا يهدم الجهل إلا بالعلم، ومن كلامه في محاضرة له في إذاعة دمشق بتاريخ ١٩٦١/٨/١٩م: وها نحن نشهد إخوتنا شباب العرب وإخوتنا شباب السلمية في حدائق الجامع الأزهر يتنزهون في رياضه، ويتنعمون برحيقه وأزهاره، فما علينا إلا أن نكون روحاً واحدةً في أجسادٍ متعددة، ونقدم مصلحتنا العامة على المصالح الخاصة، ونؤثر على أنفسنا ولو كان بنا خصاصة، وأن نسأله تعالى أن يتم علينا إيماننا وإسلامنا الذي يجمع لنا قوة العقل والعلم إلى جانب قوة الإيمان والإسلام.

العقل في السويداء بزياراتٍ متعددةٍ إلى جامع أبي النور، وصرحوا على الملأ بانتماءٍ واضحٍ إلى القرآن الكريم وهدي النبي محمد ﷺ.

ومن بين الكلمات والقصائد التي أُلقيت في هذه الزيارات اخترتُ لك هذه الأبيات من قصيدةٍ للشاعر نجيب أبو خيال، وقد نشرتها كاملةً صحيفة (الضحى) اللبنانية:

هَبَّتْ تصافح بشراً ضيفَها الـــدارُ ... سماحةَ الشيخ مفتي القطرِ كفتـــارو
أهلاً سميَّ رســـولِ الله عمدتَنـــا ... وصحبـــك الغـــر نِعْمَ الأهل زُوَّارُ
أهلاً بكم من ســـويداء القلوب ... ومن قلب الســـــويداء فالأحياءُ
سماحةَ الشيخ لم ننسَ مواقفكـــم ... ولا مواقفَ مَن في ســيركم ســاروا
سماحة الشيخ إن أســـهبتُ معذرةً ... هذا اللقاء له وزنٌ ومقـــــــدارُ
سماحةَ الشيخ ما زالت تؤرّقنـــــا ... مذابحٌ وكأن النـاس أبقـــــــارُ
وما جرى بخـــليـــل الله أكلمـــنا ... وفي سواه لعارٌ دونـه العـــــــارُ
سماحة الشيخ أهلاً فالديارُ بكـــم ... طابت فطاب الهنـا وازدانـتِ الدارُ
حياكم الله ما زالت تصافحكـــم ... منا القلـوب وإجلال وإكبـــــارُ
خير الصلاة على المختار والشُّهدا ... وألف أهلاً بكم يا شيـخ كفتارو[1]

لقد انطلق في ندائه بالوحدة الإسلامية من شعار: ﴿ثيثنثثثثثثثر﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وعلى الرغم مما كان يعلمه ويشعر به ويوقنه من انحرافاتٍ هائلةٍ لبعض الطوائف عن جادة الحق غير أنه لم يكن ينفخ في نار هذا الشطط والغلو؛ بل اختار أن يتحدث عن الإسلام كما هو في الكتاب والسُّنَّة مفترضاً أن محاوريه لا يخالفونه في شيء،

[1] مجلة الضحى اللبنانية، عدد (٣٤)، كانون الأول (١٩٩٤م).

فبحسبه هذا الإقرار الظاهر الذي سيحملهم بالتأكيد إلى الدراسة والاستبصار، وبالتالي إلى مراجعة النفس بهدوءٍ واختيار الحقيقة بدون ضجيج.

وكان يعجب لهذه الحملات المسعورة التي تثور بين الحين والآخر وتدعو لتكفير طوائف من المسلمين؛ لمواقف سياسية، ولاعتبارات عصبية أحياناً أخرى، وبدون أدنى مبرر في أحيان كثيرة.

ولعلي أستطيع أن أوجز لك منهج الشيخ في الوحدة الإسلامية حين أذكر لك أمنيةً من أمانيه العزيزة على قلبه والتي تمناها مراراً، ولعل الأيام تأتيه بتحقيق هذه الأمنية حين قال:

أتمنى أن يوفقني الله لعقد مؤتمرٍ إسلاميّ جامعٍ يكون شعاره قول الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [النِّسَاء : ٩٤].

﴿ منهجه في جانب حوار الديانات ﴾

لقد أدرك الشيخ مبكراً أن هذا العالم الذي نسكنه يعجُّ بأديانٍ وطوائفَ كثيرةٍ لا يَسَعُ العاقل تجاهلها، وأن بعض هذه الديانات أقرب مودة للإسلام من بعض، وهذه حقيقة أكَّدها القرآن في مواضع كثيرة، منها قوله سبحانه:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَاۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [النِّسَاء : ٨٢ - ٨٥] .

وأدرك أيضاً أن دعاة التقريب ودعاة الانعزال موجودون في كل دينٍ وكل مذهبٍ، وأن النصارى وهم يشكِّلون الديانة الأكثر أتباعاً في العالم ليسوا سواء كما عبَّر ذلك القرآن الكريم بقوله:

﴿ * لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [آل عِمْرَان : ١١٣ - ١١٥] .

وهكذا فإن سبيلاً من التفاهم والتعاون على القواسم المشتركة بين الأديان ينبغي أن يجتمع عليها العقلاء لمصلحة الإنسان والخير ولدرء ما يمكن درؤه من الأذى والشر.

والحوار بين الأديان منبر مهم لإيضاح حقيقة مبادئ الشرع الإسلامي الحنيف لكثيرٍ ممَّن وضعوا أصابعهم في آذانهم واستغشَوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً، ولإيصال كلمة البلاغ المبين لِمَن لم تصلْ إليه، ومعذرةً إلى ربكم ولعلَّهم يتقون!

كذلك فقد أدرك أن الشرق الأوسط الذي نعيش فيه مهد الديانات الثلاثة، وهذه حقيقة لا يمكن تجاهلها، وأن وجود أبناء الديانات الأُخرى فيه حقيقة لا وهم، وعلى الحكماء أن يكتشفوا خيوط ما يجمعهم وينبذوا وسائل الفرقة والبغضاء، وهذا المعنى ضرورة حتمية قد لا يدركها المسملون في الجزيرة العربية أو المغرب أو تركيا وإيران، حيث يكاد وجود غير المسلمين معدوماً لا أثر له، ولكنها ليست كذلك في بلدان الشرق الأوسط مثلاً، حيث تظهر للعيان مسألة التوزع الطائفي في كل مدينةٍ؛ بل وكل قرية، وقد تلمَّس الشيخ منطلق هذا الحوار ومنطقه من نصوص الكتاب العزيز:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عِمْرَان : ٦٤].

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [آل عِمْرَان : ١٩٩] .

ورأى في سلوك النبي ﷺ مع النجاشي ملك الحبشة ما يضيء سبيل الحوار والتفاهم ويرسم أصوله ومنهجه.

ولم يكن هذا المنهج المنفتح لِيروقَ بالطبع لسائر الناس، فثمة أشخاص لم تتسع آمالهم لفكر التعاون والحوار، ورأَوْا فيه اختراقاً لما تعوَّدوه من روح الانغلاق والجمود، ولم يجدوا في المسيحيين إلا بقايا حملات الفرنجة على المشرق، وتأوَّلوا ما جاء في القرآن

الكريم والسُّنَّة المشرفة من أمر الحوار بأنه خاصٌّ بجماعةٍ من النصارى آمنوا واتَّبعوا الرسول، مع أن البداهة تقضي أن مَن آمن واتبع الرسول مؤمن كامل الإيمان لا يوجد لديه ما تحاوره وتجادله فيه.

وليس ما لقيه الشيخ من عَنَتٍ من الجامدين في المجتمع الإسلامي أقل مما لقيه من هجومٍ على صعيد الحركات المسيحية المتطرفة[1] التي رأت في هذا الحوار اختراقاً لعزلةٍ ضروريةٍ من الواجب أن لا يفرط بها النصارى؛ لئلا يذوبوا في تيار الأغلبية المسلمة.

ولكن الشيخ كفتارو لم يُبالِ بهذَين التيارَين، واختطَّ لنفسه تيار الحوار والتفاهم مهتدياً بهدى القرآن الكريم:

﴿ * وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧﴾ [العَنكَبُوت : ٤٦ - ٤٧] .

وقد ظهر هذا الاتجاه في سلوك الشيخ في سائر محاضراته وأحاديثه وخطبه، وكأنه كان يبصر بعين المستقبل ما ستفرزه تلك الأحقاد والضغائن فيما بعد من حروبٍ ظالمةٍ اصطَلَتْ لبنان بنارها أكثر من سبعةَ عشرَ عاماً، وزرعت الموت والخراب في ربوع لبنان الأخضر.

[1] اقرأ مثلاً: إنجيل برنابا شهادة زور على القرآن الكريم، كتاب أصدره بعض النصارى المتعصبين للرد على مسعى الشيخ إلى إيجاد فهم تصالحي من خلال إنجيل برنابا، وانظر كذلك المقالات المتتابعة التي كتبتها مجلة المسرة المسيحية في عام (١٩٦٣م).

ويمكن لكل مراقبٍ مُنصِفٍ أن يدرك الأثر الكبير للشيخ كفتارو في تجنيب سورية شؤم تلك الأيام السوداء التي عصفت بأختها لبنان حين اتخذت بعض المنابر وبعض المنائر أبواقاً لتغذية البغضاء في نفوس شبابٍ غُرٍّ من المسلمين والنصارى، وكانت العاقبة ركاماً من الأحزان والآلام ليس يجهله أحد.

ومن أول نداءاته العامة في هذا السبيل كلمته المشهورة التي ارتجلها على مائدة رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي عام (١٩٥٥م)، وذلك أن السيد شكري القوتلي أقام مأدبة غداءٍ رئاسيةً دعا إليها عدداً من رجال العلم والدعوة الإسلامية، كما دعا عدداً من رجال الدين المسيحي، وبعد أن تكلم الشيخ بهجة البيطار كلمةً جامعةً نافعةً في وجوب التلاقي الإسلامي المسيحي قام البطرك الأكبر في سورية حينئذٍ وألقى كلمةً شديدةً ضمَّنها كثيراً من اللَّوم للمسلمين على عدم تلاقيهم مع مواطنيهم المسيحيين، وعندما انتهت كلمته شعر الحاضرون بغصَّةٍ لهذا اللوم غير المحق الذي وُجِّه إليهم، ونظرت الوجوه بعضها إلى بعضٍ كلٌّ منهم يريد من الآخر أن يتصدى لإزاحة الغمة، وتلفَّت الرئيس القوتلي يبحث في الوجوه عن حكيمٍ يتكلم، فانبرى فضيلة الشيخ كفتارو وكان لا يزال في سن الشباب ليلقي كلمةً استعرض خلالها إقبال الدين الإسلامي نحو الجميع، وبيَّن أن الإسلام قد مدَّ يده منذ وجوده، وهو لا يزال يمد يده، ولكن لم يكن من الطرف الآخر مَن يقابل هذه اليد بمثلها!

وختم سماحته كلمته هذه بقوله: متى نرى الوقت الذي يتم فيه التلاقي والتعاون؟! أَمَا آن الوقت لكي ننبذ الخصام؟! أَمَا آن الوقت لنتلاقى على كلمةٍ سواءٍ؟!

وما كان من البطريرك الذي سمع هذه الدعوة المخلصة إلا أن هبَّ من مقعده يصيح: نعم، لقد آنَ الأوان... ومد يده لتلاقي يد الشيخ كفتارو ويتصافحا عن بُعدٍ، وتهز اليدُ اليدَ وسط تصفيق الجميع وإعجاب الجميع.

ومنذ ذلك اليوم فإن الشيخ كفتارو عُرِفَ في المؤسسة الدينية في بلاد الشام كأبرز اسمٍ يدعو إلى المصالحة والحوار والتلاقي.

ومضى الشيخ يؤكد هذا الاتجاه الذي لم يكن في موقفه ذاك محض كلمة مجاملة وإنما كان قراراً واعياً قادته إليه دراسة النصوص الشرعية منذ بداية دعوته، وهو في الثلاثينيات من عمره[١].

وقد دأبت عدة صحفٍ يوميةٍ سوريةٍ على نقل مقتطفاتٍ من محاضراته التي كان يخصِّصها لغرض الحوار والتفاهم، وكان يختار لمحاضراته الجامعة أسماءً تدل على مقاصد الحوار، منها مثلاً: مصافحة المسيحية والإسلام في ظلال القرآن، ومنها: التعاون الإسلامي المسيحي، وهل يمكن أن يتغلبَ على الإلحاد[٢].

وكان شريكه في هذا اللون من الجهاد فضيلة الشيخ محمد بهجة البيطار المحقق والمحدث، فقد أكثر مجالس الحوار مع المسيحيين، وتحدَّث بنَفَس الإخاء والتعاون، وسافرا مراراً إلى لبنان بغرض المشاركة في ندوات الحوار التي كانت تُقام هناك بين وقتٍ وآخر.

وقد لقي الشيخ بهجة البيطار عليه رحمة الله أذىً كثيراً في سبيل المضيّ في هذا السبيل الذي كان في ذلك الحين درباً مرهقاً مضنياً غير مألوفٍ، يترصده الجامدون والمتعصبون، وأختار لك هذه الفقرات من كتاب **الدعوة والدعاة:**

---

[١] الدعاة والدعوة الإسلامية المنطلقة من مساجد دمشق، د. محمد حسن حمصي جـ١ ص٥٢٤.

[٢] صحيفة الأيام – يومية سورية، تاريخ: ١٩٦٢/١١/١٠م، وانظر: مجلة التمدن الإسلامي، عدد (١٤و١٥)، آذار (١٩٤٧م).

(ومن هذا المنطلق المتعاون البنَّاء راح فضيلة الشيخ أحمد كفتارو يُعلن خلال حديثه الإذاعي الديني على رؤوس الأشهاد تهانيه للعالم المسيحي في ذكرى ميلاد سيدنا عيسى، ذاكراً نُبذةً عن تعاليمه، مُبيّناً أن هذه الوصايا الخيِّرة التي أتى بها السيد المسيح تشير إلى أنه لم يبعثه الله برسالته السماوية إلى البشر إلا لينشر بينهم المحبة والسلام، والتسامح والوئام، والرحمة وعطف الإنسان على أخيه الإنسان في ظلال عبادة الله وطاعته، ولا ينسى فضيلته أن يبيّن أن هذه الأهداف الخيِّرة هي غاية الأديان السماوية وأهدافها، فلا اختلاف في الجوهر ولا تبايُن... ويستشهد على ذلك بقول الصحابي الجليل المغيرة بن شعبة للمقوقس ملك مصر: نحن –المسلمين– لا ننهاك عن النصرانية ولكن نأمرك بها، ويختتم حديثه هذا بالإعراب عن الأمل ببزوغ فجر التعاون الإسلامي المسيحي.

كما راح فضيلته في حديثٍ إذاعيٍّ آخر يستفيد من مناسبة مولد المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام؛ ليبينَ للجميع موقف الإسلام ونبي الإسلام من المسيحيين والمسيحية، وموقف القرآن من رسالة السيد المسيح وإنجيله، وموقف دولة الإسلام إبان قوتها وحكمها في تعاملها مع المسيحيين، ثم لا ينتهي من حديثه هذا إلا وقد رمى ببصره إلى المستقبل القريب إلى عودة شهر ربيع شهر المولد؛ ليرى مولد فجر وحدة الأمَّة وزوال ظلمات الجمود والتعصب، فيقول:

(إني لأرى وأشهد نور الإخاء العربي والإنساني من خلال سحب الجمود والتعصب يخرق ظلام الوهم والتزمت، فأجد تسامحاً ينبعث، وتعصباً يموت، أجد تقارباً يتمثل بين أبناء سيدنا عيسى وأبناء سيدنا محمد... أجد تجاوباً وتعاوناً صادقاً يتحقق بين أبناء الإنجيل وأبناء القرآن).

ثم يلتفت فضيلته مخاطباً شهر الربيع شهر المولد، فيقول: (فقُرَّ عيناً يا ربيعنا الأول بما ترى وتشهد من مناظر المحبة والائتلاف ودفن الضغائن والاختلاف، لقد صار ربيع ميلاد الرسولين الكريمين عيداً مقدساً عند المسلمين والمسيحيين).

كما راح فضيلته في حديثٍ إذاعيٍّ آخر يتتبَّع النقاط التي تدلُّ على سماحة المسيحيين الأولية تجاه الإسلام، ومن ثَمَّ يعلِّق على ذلك كله بقوله: (إذاً فليمت التعصب والجمود والجهل والجحود، ولتحيَ الألفة والإخاء والتقارب والصفاء).

ثم يوجه خطابه إلى مستمعيه قائلاً: (إنَّ دينين يؤلفان أكثر من نصف سكان الأرض، إذا تحقق بين معتنقيهما التسامح والاحترام المتبادل، ونُصِرت مبادئهما بكل نزاهةٍ وإخلاصٍ؛ لَجَديرٌ بأبنائهما وأبناء البشرية حينئذٍ أن يعيشوا في ظلِّ السلم والسعادة والرفاهية، وأن يقضوا على إرهاصات الدمار والهلاك ومسبِّبيهما).

ولقد كان لهذه الجهود الحثيثة والمستمرة التي بذلها فضيلة الشيخ كفتارو الصدى الطيب الكبير لدى رؤساء الطوائف المسيحية، فهذا هو صاحب الغبطة (أغناطيوس الرابع) يقول في حوارٍ أجرته معه مجلة (الجمهورية) اللبنانية:

(أعتقد أن التعايش الإسلامي – المسيحي ليس مشكلةً؛ بل يجب أن يكون له تاريخ وله واقع، وكل تاريخٍ يجب أن يتطور، وكل واقعٍ يجب أن يطمح إلى الأفضل، وبالأمس تماماً كنت أقرأ محاضرةً لسماحة مفتي الجمهورية العربية السورية الشيخ أحمد كفتارو يستغرب فيها عدم تنظيم الاجتماعات بين المسلمين والمسيحيين على أعلى المستويات، ويستغرب كيف أن السياسيين على اختلاف آرائهم يتوصَّلون إلى الاجتماعات في حين أن المسؤولين الروحيين على تقارُب أفكارهم لا يجتمعون! وهذا سؤال شريف جداً بنظري، وهو يطرح القضايا أمام أعيننا، وهو تجديد كبير ومستمر لا

نستطيع إلا أن نستجيب له؛ لأننا نعيش سوياً، لقمة الخبز التي نأكلها تعجنها وتخبزها وتوزعها أيدٍ من كل الطوائف...).

ومن هذا المنطلق أيضاً راح فضيلته يتطرق إلى هذا الموضوع من خلال ما كتبه في الصحف اليومية بمناسبة رمضان، حيث راح يذكر المسيحيين والمسلمين على حدٍّ سواءٍ بموقف الإسلام من السيد المسيح وأمِّه، فيشير إلى سورة (آل عمران) التي مجَّدت المسيح وأمَّه، ويستعرض قدسية مريم العذراء فيقول: إن سورة آل عمران لم تنتهِ من تمجيد مريم العذراء حتى ثنَّت بمولد المسيح الوجيه في الدنيا والآخرة، تبين معجزاته وآياته للناس.

ثم يخلص من ذلك كله ليبين أن الأديان كلها من مصدرٍ واحدٍ، ثم يتوجه بخطابه إلى مواطنيه المسيحيين فيقول لهم: فهل حيَّت الأمم المسيحية الغربية الشعوب الإسلامية بمثل تحيتها أو أحسن[1]؟!

وقد لقيت دعوته إلى الحوار والتفاهم مع المسيحيين تجاوباً كبيراً في الأوساط المثقفة من الجانبين، في حين قاومتها شرائح أخرى من الناس.

ولكن ذلك لم يكن ليثنيه عن عزمه في خلق حسٍّ وطنيٍّ مشتركٍ لدى أبناء الديانتين قائم على الجذور المشتركة للديانتين.

وفي مطلع الستينيات ومع بداية البث التلفزيوني السوري مضى الشيخ في تقديم برنامجٍ تلفزيونيٍّ أسبوعيٍّ بعنوان: **(من وحي الهداية)** لقي نجاحاً هائلاً، واختار الشيخ أن يوجِّه هذا المنبر الإعلامي المهمَّ لبثِّ روح الوحدة الوطنية، وراح يطرح فكر الحوار والتآخي والتعاون، وهو ما جمع عليه قلوب الحكماء وألَّب عليه الجامدين.

[1] الدعاة والدعوة، د. الحمصي، ص٥٢٦.

وكان في طرحه لأي خطابٍ يوجهه إلى المسيحيين يُصدِّره بقوله: (إخواننا المسيحيون) وكان لهذه العبارة فعل السحر في تقريب القلوب الواعية، كما كان له الأثر ذاته في تأليب الجامدين من مسلمين ومسيحيين على السواء، وكتب بعضهم رسائل مطوَّلةً في الرد على الشيخ واتهامه بما هو إفك وباطل.

ولم يشأ الشيخ أن يجيب بأكثر من نشرةٍ صغيرةٍ وزَّعها في دمشق، أورد فيها قول الله عز وجل:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هُود : ٥٠]

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [هُود : ٦١]

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هُود : ٨٤]

ثم دعا أولئك الجامدين إلى قراءة القرآن الكريم بتدبُّرٍ ويقظةٍ.

ومع ذلك كله فلم يكن يتحدث يوماً عن تطابقٍ بين عقيدة المسلمين وعقيدة النصارى؛ بل أشار مراراً إلى أن التوحيد والتثليث عقيدتان مختلفتان، ولكن اختلاف العقائد لا ينبغي أن يقود إلى تدبير المكائد، وإشعال ريح البغضاء والفتنة والعداوات، وإن القول بأن العقيدتين سواء ما هو إلا تملُّقٌ ونفاق يرثي له أبناء العقيدتين جميعاً، ولا يخدم الإخاء والتلاقي؛ إذ لا يمكن أن ينشأ الوفاق على قواعد كاذبة.

وهكذا فقد توضحت لدى الشيخ أُطُر الحوار وآفاقه، ومضى يدعو إلى هذا اللون من التفاهم والإخاء، وعلى الرغم من أن الطريق إلى تحقيق هذا الاستقرار لم يكن معبداً سهلاً، ولكن قُدِّرَ للشيخ أن يجد صدىً جيداً لهذه الدعوة الواعية في عواصم الحضارة الغربية، حيث بدأ منذ أواخر الخمسينيات رحلاته المتواصلة إلى البلدان الأوربية.

ففي عام (١٩٥٩م) زار عدة بلدانٍ أوربيةٍ ابتداء من سويسرا فإسبانيا فألمانيا فإيطاليا، وخلال هذه الزيارات نُظِّمت له عدة محاضرات في المساجد والمراكز الإسلامية، كما قابل عدداً من رجال الكنائس وتحدَّث إليهم عن آفاق الحوار ومتطلَّباته، وتحدَّث بالتفصيل في توضيح ما يُثار في الغرب عن الشريعة الإسلامية.

وقد جُمِعت بعض هذه المحاضرات والندوات في دراسةٍ صدرت عن مؤسسة WQS[١] في سورية تحت عنوان: THE WAY OF TRUTH، ثم تواصلت زياراته إلى العواصم الغربية المختلفة للغرض ذاته، فزار الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا والنمسا وهولندا وإسبانيا وألمانيا...

ومن خلال هذه اللقاءات المتواصلة تجذَّرت تجربته في فائدة الحوار والتلاقي، فقد أمكنه أولاً أن يوصل صوت الإسلام إلى كل أرضٍ زارها، وأن يكشف من الغواشي التي ألقاها الاستشراق على العقل الغربي ما كان عندهم بمنزلة الحقيقة المسلَّمة، وقد بلغ مجموع المحاضرات التي ألقاها في الجامعات الأمريكية خلال زيارةٍ واحدةٍ أربعاً وأربعين محاضرةً، وذلك في عام (١٩٦٦م).

ولك أن تتصوَّر مدى ما يمكن أن تحققه مثل هذه المحاضرات من أثرٍ في مجتمعٍ غربيٍّ منتهى ثقافته عن الإسلام ما قدَّمه الاستشراق من قبل، وما تقدِّمه وسائل الإعلام الغربية المسيَّرة من قِبَلِ أجهزة السياسة الاستعمارية[٢].

---

١ عنوان المؤسسة: WQS - BOX: 12104 DAMASCUS, SYRIA

٢ انظر: صحيفة الاعتدال الصادرة في الولايات المتحدة الأمريكية، العدد (١٧١)، تاريخ: ١٩٩٢/١/٤م.

ولكن هذا الاتجاه في محاورة الغرب لم يخلص أيضاً من مقاومة الجامدين، على الرغم من أن أبسط آثارِه الظاهرة التعريف بالإسلام ونشر الحقائق الإسلامية في الغرب[1]، وراح بعض مَن قَصُر نظره يتحدَّث عن مكيدةٍ صليبيةٍ تبشيريةٍ وراء هذه المؤتمرات، وأنها تُستخدم لصرف نظر المسلمين عن حملات التنصير المستمرة في الشرق والغرب.

ولا شك أن هذا الفهم ناشئٌ من تعميم الحكم على سائر الخلق من دون النظر إلى ما يمكن أن يكون في هذا الشرق والغرب من عناصر إيجابيةٍ باحثةٍ عن الحق ساعيةٍ في الفضائل.

وهذه الحقيقة أكَّدها القرآن الكريم غير مرةٍ في حديثه عن أهل الكتاب، فمع أن الله عز وجل قال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البَقَرَة : ١٢٠] عاد فاستثنى منهم طوائف كثيرةً إيجابيةً، ففي الآية التالية مباشرة: **ژججج** ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البَقَرَة : ١٢١].

وفي آيةٍ أُخرى قال:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عِمْرَان : ١٩٩].

[1] انظر مثلاً: الاعتراضات التي أثارها بعض المتشددين على كلمة الشيخ كفتارو في الحوار الإسلامي المسيحي في مؤتمر الفقه المالكي الثالث في أبو ظبي (١٩٨٦م)، واشتغلت بها صحافة الخليج لعدة أسابيع بين مؤيّدٍ ومُعارِضٍ، انظر: جريدة الاتحاد الإماراتية ٩/٤/١٩٨٦م.

ونصَّ على هذا المعنى بعينه؛ أي: خطأ التعميم بالحكم في قوله:

﴿لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عِمْرَان : ١١٣ - ١١٥].

وأخبر على وجه العموم بأن النصارى أكثر إيجابية من اليهود، وأن فيهم عناصر طيبة، فقال: ﴿* لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المَائِدَة : ٨٢ - ٨٥].

وهكذا فإن مَن جعل كتاب الله تعالى نُصْبَ عينَيه لم يكنْ له أن يؤمن ببعض الكتاب ويتنكَّبَ عن بعضٍ، وليس في نصوص الكتاب ما ينهى عن محاورة القوم أو يَحُولُ دون اللقاء والحوار مع العناصر الإيجابية منهم بغرض إيصال كلمة البلاغ المبين إلى من لم تصلْ إليه، وهذا واجب إسلامي مهمٌّ وأمانة عظيمة تقع مسؤوليتها على المسلمين عامةً، وعلى علماء المسلمين وفقهائهم خاصةً.

نعم... في القرآن الكريم نهيٌ عن موالاة أعداء الإسلام:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المَائِدَة : ٥٧].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ﴾ [المَائِدَة : ٥١].

ولكن الموالاة أمر آخر غير الحوار والتعاون فيما ينفع الناس عامةً والمسلمين خاصةً، ولم يؤسس الشيخ حواره على أساس الموالاة، فالموالاة هي الاتباع والانقياد والخضوع، وهو أبعد المفاهيم عمَّا نحن بصدد الحديث عنه، ومع ذلك فإن الآية الأولى جاءت ببيان علَّة عدم الموالاة، وثبوت معاداة القوم للإسلام واتخاذه هزواً ولعباً، ومن أجل ذلك فقد جاء النص هنا مخصصاً لعموم الآية الثانية، فقد خصت من اليهود والنصارى أولئك الذين اتخذوا ديننا هزواً ولعباً، ومعلوم أن العام يُحَمَلُ على الخاص سيما إذا لم يُعلَم المتقدم منهما، مع أن المخصِّص هنا مؤخَّر في السياق عن العام، ولا يخفى أن لفظ (من) الوارد هنا إنما هو للتبعيض، وهو وجه ظاهر في توطئة التخصيص.

ورأى بعض هؤلاء المعترضين أن أقرب سبيلٍ يردون به هذه الحجج الواضحة الصريحة في محاورة أهل الكتاب والتعاون معهم يتمثَّل في إنكار وجود أهل الكتاب بالكلية على أساس أن أهل الكتاب في الماضي كانوا طائفةً موحدةً لا تُشرك بالله ولا تُغالي في شأن عيسى ابن مريم، ولا شك أن هذا فهم غير مستقيمٍ؛ إذ إن الله سبحانه وتعالى سمَّاهم أهل الكتاب وهو أعلم بما يقولون، وأحلَّ لنا نساءهم وذبائحهم وهو أعلم بما يقولون، وهي عبارة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عندما سُئِلَ عن ذبائح أهل الكتاب.

وقد أخبر القرآن الكريم بوضوحٍ أن أهل الكتاب الذين تحدثت عنهم الآيات لم يكونوا أهل توحيد، فإنهم إن آمنوا واتبعوا النبي ﷺ فهم صحابة كرام ومهاجرون وأنصار؛ كتميم بن أوس الداري، وأُبَيّ بن كعب الأنصاري، وعبد الله بن سلام وغيرهم، فهؤلاء

صحابة كرام لا مُسوغ لتسميتهم بأهل الكتاب، ولكن جاءت الآيات واضحةً في الحديث عن أهل الكتاب بأن منهم طائفة أهل توحيدٍ ومنهم طائفة أهل إشراكٍ:

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَـٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النِّسَاء : ١٧١] ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣﴾ [المَائِدَة : ٧٣] .

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَـٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَانَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢﴾ [التَّوْبَة : ٣٠ - ٣٢].

ومع ذلك كله فلم يغير هذا الاعتقاد الباطل الذي يعتقدونه ما أخبر به القرآن عن وجود وشائج قربى ورحم بين المسلمين وأهل الكتاب، وعلم أهل التفسير أن آخر ما نزل في شأن أهل الكتاب قوله سبحانه في سورة المائدة:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَـٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَـٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَـٰسِرِينَ ٥﴾ [المَائِدَة : ٥].

وانصرف بعض المعترضين إلى التقليل من فائدة الحوارات؛ بل زعم بعضهم أنها هالات فارغة نتوهَّم تأثيرها في الغرب والقوم عنها غافلون غارون، وفي هذا المقام فأنا

أختار أن أنقل لك ما أورده الدكتور محمد حسن الحمصي في كتابه: الدعاة والدعوة الإسلامية المنطلقة من مساجد دمشق، فهو تعقب هذه المسألة بحثاً واستقراءً، وذلك فيما يخص الزيارة الأولى للشيخ إلى أمريكا عام (١٩٦٦م):

(وإذا ما ادعى محرر في مجلة (الإصلاح) تعليقاً على ما طرحه أحد علماء دمشق عن الحوار الإسلامي – المسيحي أن هذا الحوار لا يعلم عنه أحد شيئاً إلا ما نشر في بعض بلاد المسلمين فإن دعواه هذه مردودة بالوقائع والأرقام، ولن نطيل في استعراض جميع ما قيل في هذا المجال؛ بل إننا سنكتفي بالحوار الذي طرحه سماحة الشيخ كفتارو في الولايات المتحدة الأمريكية، والذي أجراه في سنة (١٩٦٦م)، حيث وقعت تحت يدنا بعض الصحف الأمريكية التي تناولت هذا الموضوع بعناوين رئيسة مزودة بالصور.

١- تعرض صحيفة KALAMAZOO GAZETTE الصادرة بتاريخ ١٩٦٦/٥/١م جانباً مما دار بين الشيخ كفتارو وأساتذة وطلاب (منظمة الكليات الجامعية للبحيرات الكبرى)، وخاصةً كلية (كالامازو) وكلية (ألبيون)، حيث ألقى محاضرات عن التفاهم الإسلامي المسيحي من أجل السلام، وتُسهب المقالة في شرح الأرضية المشتركة والأفكار المشتركة لإمكانية اللقاء.

٢- إن صحيفة THE DENISONIAN GRONVILLE الصادرة بتاريخ ١٩٦٦/٥/١م تبيّن في مقالةٍ خاصةٍ أن المفتي الأكبر الشيخ أحمد كفتارو تكلم في محاضراته عن العقيدة الإسلامية من خلال المواضيع التي طرحها عن (العلاقة بين الإسلام والأديان الأخرى)، (فعالية الإسلام ومستقبله)، (الصراع العربي الإسرائيلي).

٣- وتشير صحيفة THE HASLIN STAR الصادرة تحت رقم (١٢) - عدد خاص- إلى الترحيب بالمفتي العام للجمهورية العربية السورية في (ديترويت)، وتبيّن أنه أجرى لقاءً مع المجلس العربي الأمريكي.

٤- وتشير الصحيفة المسمَّاة NIAJARA FALLS GARETTE عدد يوم الجمعة ١٩٦٦/٤/٢٩م إلى الترحيب الكبير بالشيخ كفتارو الذي تصفه تحت عنوان: (زائر دولي).

٥- وتشير صحيفة أخرى صادرة بتاريخ الأحد ١٩٦٦/٥/١م تحت عنوانٍ بارزٍ إلى زيارة سماحة الشيخ المفتي السوري إلى جامعة (إيرلهام)، وتعلن أنه سيُلقي محاضرةً في قاعة (دينيس) أيضاً في اليوم التالي.

٦- وتنشر صحيفة أُخرى صادرة بتاريخ ١٩٦٦/٥/١٣م يوم الجمعة تعريفاً بالشيخ الذي يزور جامعة (دينيسون) ضمن جولةٍ لإجراء محاوراتٍ في الجامعات الأمريكية تعريفاً بالإسلام.

٧- أما صحيفة THE EARLHAM POST في ريتشموند بتاريخ ١٩٦٦/٥/٢٨م يوم الخميس فقد أوردَتْ تعريفاً بالمفتي السوري، وتنشر برنامج زيارته الذي يحوي محاضراتٍ في ثماني جامعاتٍ أمريكيةٍ، وتقول على لسان عميد كلية إيرلهام: (لقد سمعنا الرأي اليهودي في مسألة فلسطين، وقد حان الوقت لنسمع الجانب الآخر)، وذلك في تعليقٍ على إحدى المحاضرات التي تدور حول الصراع العربي - الإسرائيلي.

٨- وتبين صحيفة أُخرى صادرة بتاريخ ١٩٦٦/٤/٢٨م كيفية التحضير لزيارة سماحة الشيخ، كما تعطي لمحةً موجزةً عن كيفية دعوته لزيارة الجامعات الأمريكية،

ساردة جدول محاضراته فيها، وكلها تدور حول الحوار الإسلامي – المسيحي، وحول قضية فلسطين.

٩- وتعلن صحيفة ALBION PLEIAD الأسبوعية والصادرة بتاريخ ١٩٦٦/٥/٦م عن الكلمة التي سيُلقيها سماحة الشيخ في جامعة (ألبيون).

١٠- صحيفة THE WASHINGTON POST في عددها الصادر بتاريخ السبت ١٩٦٦/٤/٣٠م تبيّن بخطوطٍ عريضةٍ الهدف من الزيارة التي يقوم بها الشيخ كفتارو، وهو تحقيق التعاون العالمي الإسلامي المسيحي، وذلك ضمن مقالةٍ مسهبةٍ.

١١- وكذلك صدرت نشرة مفصَّلة عن منظمة (inc East, Of Middle Friends American) من مدينة نيويورك، وبتاريخ ١٩٦٦/٦/١٧م موجهة إلى الصحافة الدولية تنشر تحت عنوان (Friends): المفتي الأكبر لسورية يدعو للوحدة تجاه الإلحاد.

وتذكر النشرة أخبار اللقاء مع زعماء أمريكيين دينيين من الكاثوليك والبروتستانت تحت شعار: (الأصدقاء الأمريكيون للشرق الأوسط).

وعلى مدى ست صفحات من الحجم الكبير تذكر النشرة تفاصيل محاضرةٍ ألقاها الشيخ أحمد كفتارو في نيويورك، وتبين رأي سماحته بالنظرة السامية للإسلام حين يستشهد بقول الرسول محمدٍ ﷺ: (الخَلْقُ كلُّهم عِيالُ الله، وأحبُّهم إلى الله أنفعُهُم لعياله)[1].

[1] الطبراني في الكبير عن ابن مسعود.

وتعلِّق النشرة بأن أبناء الدينين يشكِّلون أكثر من نصف سُكَّان الأرض؛ لذلك يجب أن يفهم أحدهما الآخر بهدف جعل الأرض جنةً للسلام والرخاء والسعادة، ثم تبرز كلمة الشيخ: (إن التعاون والحوار يحققان رخاء العالم كله).

١٢- وتصدر كذلك منظمة (مجمع القادة والشخصيات الهامة) (Council of Lead and Specialists (C.L.S) النشرة رقم ٦٠٠ في واشنطن العاصمة، متضمنة ٤ صفحات من الحجم الكبير، وموجهة إلى الشخصيات والمكاتب ذات العلاقة بالحوار الإسلامي - المسيحي، وهي تفصل برامج رحلة الوفد السوري، وتشير إلى لقاءٍ مع سيناتور، ومع عضوٍ في مجلس الكونغرس، وذلك في (النادي الدولي) وفي مكتبة الكونغرس الأمريكي هذه المنظمة يرمز لها بـ(C.L.S)، وهي عادة تهتم بشؤون التعايش الدولي: كما تذكر المنظمة نفسها برنامج محاضراتٍ ولقاءاتٍ مع رؤساء الكنائس والجامعات، وكذلك اللقاءات الإعلامية وزيارة إلى مبنى هيئة الأمم المتحدة في نيويورك، والمجلس القومي للكنائس.

١٣- وهذه صحيفة (Cincinnate Enquirer) الصادرة بتاريخ ١٩٦٦/٤/٢٩م تتحدث عن محاضرات الشيخ كفتارو الثلاث في كلية إيرلهام، وذلك تلبيةً لدعوةٍ من البروفسور (جوايلمور) الذي سبق أن زار دمشق ليتعرف على دين الإسلام.

١٤- وكانت الصحيفة السابقة نفسها في تاريخٍ سابقٍ ١٩٦٦/٤/٢٥م قد نشرت خبر اقتراب قدوم (المفتي الأكبر لسورية) والذي ينظم له (مجلس القادة والشخصيات الهامة) برنامج زياراته ومحاضراته ولقاءاته في الولايات المتحدة.

١٥- وهذه صحيفة (The Washington Post) تاريخ الثلاثاء ١٩٦٦/٤/٢٦ تعلن عن محاضرة المفتي السوري القادم من دمشق في النادي الدولي بواشنطن داعيةً إلى التقارب (من أجل لقاء العقول جميعاً).

١٦- وكذلك تنشر صحيفة (Daytime Journal Herald) تاريخ ١٩٦٦/٤/٣٠م عن زيارة الشيخ كفتارو لمدينة (ريتشموند) وفق دعوةٍ رسميةٍ لإلقاء محاضراتٍ من (مكتب الشؤون التعليمية والثقافية) في الخارجية الأمريكية (برنامج الزوار الدوليين).

وليس هذا التوثيق الذي أورده د. محمد حسن الحمصي إلا غيضاً من فيضٍ مما كتبت الصحافة العالمية عن رحلته عام (١٩٦٦م)، ولو أردنا أن نستقصي سائر ما كتبته الصحافة العالمية عن رحلاته جميعاً لاحتاج ذلك إلى سفرٍ خاصٍّ أكبر من عملنا كله.

وعمد الشيخ كفتارو في مؤتمراته اللاحقة إلى إصدار بيانٍ مشتركٍ مع المحاورين، وكان لهذه البيانات المشتركة التي صدرت عن عشرات المؤتمرات التي شارك فيها أثر كبير في تصحيح نظرة الغرب إلى الإسلام.

وكان يحرص في هذه البيانات أن ترد في النص بوضوح شهادة التوحيد: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ويحرص أن يضيف إليها عبارة: (عيسى رسول الله)، وبذلك فإن جسوراً كبيرةً نحو فهم الإسلام نصبت أمام الأحرار من رجال الفكر والمعرفة في المجتمعات الغربية.

إن مثل هذه البيانات المشتركة لا تضيف جديداً إلى عقيدة المسلمين؛ لأن الإسلام يُلزمك بالاعتقاد بوحدانية الله ونبوة السيد المسيح، ولكنها تفتح آفاقاً كبيرةً أمام

الفكر المسيحي لدراسة الإسلام الحق، وإعادة النظر في موضوع ألوهية المسيح، ويمكنك أن تطالع بعض هذه البيانات المشتركة في ملاحق الكتاب[١].

وفي كلمته المهمة التي ألقاها في مؤتمر الحوار الإسلامي – المسيحي الذي أقامته الحكومة النمساوية بين ٣/٣٠ و ١٩٩٣/٤/٢م صرح الشيخ كفتارو بما يبتغيه من هذه المؤتمرات بوضوح، فكتبت صحيفة الشاهد التي تصدر عن المجلس الإسلامي لشرق أوربا:

ختم الشيخ كفتارو كلمته التي اعتُبرت بمثابة ورقة عمل المؤتمر قائلاً: والسؤال الآن: ما هو المطلوب من المسيحيين اليوم تجاه الإسلام والمسلمين؟

والجواب: إن المسيحية كانت طوائف ومذاهب شتى، فتنادت في النصف الثاني من هذا القرن إلى جمع الكلمة والاتفاق فيما بينها على الرغم من خلافاتها العقائدية الكبيرة

فلماذا لا تضم الإسلام إليها في حركتها التوفيقية، وتعتبره الدين الذي يجمع هدي الرسالات طالما أنه يؤمن بالمسيح وأمه، ويُقرُّ أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم[٢].

وهذا المنهج الملتزم في محاورة أهل الكتاب والتعاون معهم هو ما اختاره الشيخ منذ الخمسينيات ومضى عليه في سائر مراحل دعوته، وقد أتينا على تفصيل الحديث بشأن زياراته المختلفة في القسم الخاص برحلاته في هذا الكتاب.

---

[١] انظر: البيان المشترك مع أساقفة أوربا ملحق رقم (١١).

[٢] انظر: مجلة الشاهد عدد (٣)، تموز (١٩٩٣م).

ولم يقف الشيخ عند حدود حوار (أقرب الناس مودة)؛ بل إنه توجَّه بعد ذلك إلى حوار أديانٍ أخرى، فقد التقى زعامات بوذية وكونفوشية وسيخية ومونية[1] وهندوكية وأموتيةٍ (الأموتو) وأرواحية، وتمكن من طرح صورة الإسلام الحق ورسالته إلى العالمين، ولم يجد غضاضةً في زيارتهم في معابدهم والحديث هناك عن رسالة الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد يخيل إلى البعض أن مثل هذه الأنشطة ليست ذات بال؛ إذ لا يُتَصوَّر لهؤلاء أن يصبحوا مسلمين، ولكن ألا ترى أن في الإعراض عن هذه اللقاءات يعني إعراضاً عن رسالة البلاغ التي أخذ الله ميثاق العلماء على أدائها؟ فمَن من رجال الدعوة الإسلامية يقدر أن يدخل هذه المداخل ويحظى باحترام رجالها واستعدادهم للإصغاء إليه؟! ثم أليس إنجازاً أن ترفع غاشية العداوة على أقل تقدير من قلوب لا مصلحة حقيقية لها في حربك ومعاداتك؟

ثم إن تصوُّر قلوب هؤلاء عطلٌ من الهدى خاوية من الخير فيه سوء ظنٍّ بالخلَّاق سبحانه، ثم هو بعد ذلك منقوض بأمثلةٍ كثيرةٍ من الواقع لعلَّ أوضحها وأصرحها إسلام زعماء طائفة الأموتو على يد الشيخ كفتارو، وقد عرضنا إلى ذلك قبل قليل[2].

وخلال التاريخ الإسلامي كان دعاة الحق يغشَون الناس في عواصمهم ومعابدهم ومجامعهم يبشِّرون بالإسلام، وبغير ذلك فإنه لا يمكن تفسير تحوُّل شعوبٍ كثيرةٍ إلى الإسلام، فعلى سبيل المثال: الزحف المغولي الكاسح الذي تسرَّب من جبال الهمالايا وراح يأكل هذا العالم، حتى خُيِّلَ للناس أن القيامة قامت، ولو قرأت ما كتبه المؤرِّخون

[1] المونية: ديانة جديدة انشقت عن الكنيسة، مؤسسها هو صن مون من كوريسا، تنتشر في الولايات المتحدة واليابان وكوريا.

[2] انظر: قسم الملاحق والصور.

المعاصرون لتلك الفترة أمثال القرطبي وابن الأثير عن هذه الغزوات لَعرَفْتَ أي مآسٍ مذهلةٍ كان يعيشها العالم الإسلامي إبان هذا الغزو الهمجي الرهيب.

ومع أن جيوش المسلمين قد تكسرت أمام الزحف المغولي غير أن كتائب الهداية من رجال التصوف قاموا بغزو أولئك المحاربين بالفكر والدعوة، وأمكن بالفعل تحويل تلك الأمَّة الهائجة إلى أمَّةٍ مسلمةٍ هادئةٍ، وإنك ليأخذك العجب حين تطوف بين باكستان والهند وأفغانستان وأوزبكستان حينما تشاهد أن أعظم آثارها وأوابدها الإسلامية إنما هي من صنع المغول، وفي ذلك يقول محمد إقبال:

بغت أمم التتار فأدركتها ... من الإيمان عاقبة الأماني

وأصبح عابدو الأصنام قِدْماً ... حماةَ البيت والركن اليماني

ومن أنضج الآراء الواعية فيما يتعلق بالحوار الإسلامي ما سطَّره فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه: (أولويات الحركة الإسلامية) تحت عنوان: الحوار الديني الإسلامي المسيحي، أنقله كما هو لأهميته:

(ليكن هناك حوار ديني بين الإسلام والمسيحية يهدف إلى عدة أمور:

١- الوقوف في وجه تيار الإلحاد الذي يُعادي كل الرسالات السماوية ويسخَرُ من الإيمان بالغيب ولا يؤمن بألوهيةٍ ولا نبوةٍ ولا جزاءٍ ولا قيمٍ روحيةٍ، وكذلك تيار الإباحية والانحلال الخلقي الذي يكاد يدمر خصائص الإنسانية وفضائلها التي كسبتها من هداية النبوات.

٢- تأكيد نقاط الاتفاق بين الدينين التي أشار إليها القرآن في قوله في جدال أهل الكتاب: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العَنكَبُوت : ٤٦].

٣- تنقية العلاقات من رواسب الروح العدائية التي خلفتها الحروب الصليبية قديماً والاستعمار حديثاً، وإشاعة معاني الإخاء والإنسانية والمرحمة، وفتح صفحة جديدة لعلاقات أنقى وأصفى، ومن مظاهر ذلك: أن تكفَّ الكنيسة عن تأييد النصارى ضد المسلمين في كل معركةٍ تقوم بين الطرفين كما في جنوب السودان والفلبين وغيرهما؛ بل إنها قد تؤيد الشيوعيين والوثنيين ضد المسلمين.

وأنا أعلم أن كثيراً من الإسلاميين سيّئو الظن بكل حوارٍ من هذا النوع؛ لاعتقادهم أنه حوار مشبوه، وأن وراءه أيدٍ خفية تحركه وتستثمره لأهداف خاصة، وأن المسلمين هم الطرف الضعيف الذي يستخدمه الطرف القوي وهو لا يشعر، ولهذا يغدو كل مَن يشارك في مثل هذا الحوار موضع تهمةٍ عندهم، فهو إما مستغفل أو عميل.

ورأيي أن هذا التَطَيُّر لا داعي له، وما قالوه يمكن أن يكون صحيحاً ولكنه ليس بلازمٍ دائماً، ولماذا نفقد الثقة بأنفسنا إلى هذا الحد؟ لماذا نعتبر أنفسنا الطرف الضعيف ونحن أقوياء بما عندنا؟ ولماذا نعتبر كل محاورٍ لهؤلاء مفرطاً في حق عقيدته مستسلماً للطرف الآخر؟ إن المهم أن ندخل الحوار ونحن واقفون على أرضٍ صالحةٍ واثقين من أنفسنا وممن يتكلمون باسمنا، مؤمنين بأن الحوار أولى من الشِّجار ومن الفرار.

والواقع أن الحوار من وسائل الدعوة التي بدأها رسول الله ﷺ في رسائله التاريخية إلى هرقل والمقوقس والنجاشي وغيرهم من قادة أهل الكتاب، والتي ختمها بالآية الكريمة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عِمْرَان : ٦٤].

والواقع أنه وقع شيء من هذا الحوار وكان له نتائج إيجابية)[1]، اهـ.

ولديَّ حكاية طريفة يمكنك أن تفهم من خلالها كيف توجه سعي الشيخ كفتارو إلى هدم البغضاء والأحقاد بين الطوائف.

قامت كندا بتعيين سفيرٍ جديدٍ لها في سورية عام (١٩٩٢م)، وتوجه هذا السفير إلى القيادات السياسية والدينية في سورية ليكوّن صورةً دقيقةً عن المجتمع السوري كما هي عادة السفراء، ولدى لقائه بالشيخ كفتارو كان هذا الحوار:

- **السفير الكندي**: أخبرني يا سماحة الشيخ كم عدد المسيحيين في سورية؟
- **كفتارو**: خمسة عشر مليوناً.
- **السفير الكندي** (بتعجب): ولكن هذا هو عدد كل المواطنين في سورية، أنا أريد أن أعرف عدد المسيحيين فقط؟
- **كفتارو**: إنهم بالضبط خمسة عشر مليوناً.
- **السفير الكندي** (باستغراب): بالتأكيد هذا غير دقيق... لقد سألت عدداً من المتخصصين فأخبروني بأن عددهم ١٣% فقط!
- **كفتارو**: من هم هؤلاء المتخصصون؟ أنا المتخصص هنا... إنني المفتي العام للبلاد!
- **السفير الكندي** (بقلق): اسمح لي يا سماحة المفتي، أنا لا أفهم شيئا!
- **كفتارو**: استمع إذاً.

[1] أولويات الحركة الإسلامية للدكتور يوسف القرضاوي.

إن الإسلام لا يعترف بأحدٍ من رعاياه حتى يؤمن إيماناً جازماً برسالة السيد المسيح عليه السلام، وبراءة أمه وطهارتها، وما أكرمه الله سبحانه به من الإنجيل المنزل والبشارات الظاهرة، وهل المسيحية الحقة إلا ذلك؟!

وهكذا فإن الشعب في سورية مؤمن أعظم الإيمان برسالة السيد المسيح، وبغير ذلك لن يكون مسلماً ولا مسيحياً[1].

وفي تصريحٍ آخر لمجلة الأفكار اللبنانية قال الشيخ: (نبينا محمد والسيد المسيح عليهما السلام كانا منذ النشأة وحتى النهاية ينبوعَين يصبَّان في إطار مبدأ التقوى والإيمان الواحد، وما أحوجنا اليوم للعودة إلى السير في ركبهما والاعتصام بهُداهما)[2].

وفي تصريحٍ آخر لمجلة القومي العربي قال الشيخ:

(نحن كمسلمين لا يُقبل إسلامنا ولا يكتمل إيماننا الإسلامي؛ بل نكون كفاراً إذا لم نؤمن بسيدنا عيسى وبكلمته ورسالته، ومن هذا المنحى فإننا لا نمد يداً واحدةً لإخواننا المسيحيين؛ بل نمد أيدينا جميعاً)[3].

---

[1] سمعت ذلك مشافهة من سماحة الشيخ مراراً، ولكني قرأت في صحيفة الحياة البريطانية عدد (١٠٧٨٢) تاريخ: ١٩٩٢/٨/١٧م أن السائل هنا ليس السفير الكندي، وإنما هو الصحفي الإنكليزي إيان ويليامز الذي يعمل في الأمم المتحدة، ومن العجيب أن نشرة ظالمة وزعها بعض السفهاء عقب ذلك في المؤسسات المظلمة بعنوان: الشيخ كفتارو يتنصَّر!

[2] مقابلة صحفية مع مجلة الأفكار اللبنانية عدد (٢٥٦) تاريخ ١٩٨٩/٤/١٧م، عنوان الغلاف: «مفتي سوريا: إسرائيل تريد مصادرة المنطقة من خلال محنة لبنان».

[3] مقابلة صحفية مع مجلة القومي العربي، العدد (١٦) تاريخ: ١٩٨٨/٧/١٦، عنوان الغلاف: «كفتارو: مقدسات فلسطين تفرض التعاون الإسلامي المسيحي».

تُرَى... لو أن رجال الدين أُوتوا مثل هذا الوعي والتسامح فهل كان بالإمكان قيام الحرب الصليبية، ثم هذه الحروب الطائفية التي تشتعل في بلدان العالم الثالث يوماً بعد يوم، وتحصد عشرات الآلاف من الضحايا؟!

ثم ما الذي يمكن أن يكون جواب المجتمع المسيحي المنصف حين ينصت إلى مثل هذه المبادرة الجريئة، والتي لا تتجاوز في الحقيقة ما أخبر به القرآن الكريم في قوله:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشُّورَى : ١٣] .

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ [الأَنبِيَاء : ٩٢] .

﴿ منهجه في التجديد ﴾

التجديد فكرة ورسالة وَضَعَ أسسها النبي ﷺ في قوله: (إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنةٍ مَن يجدد لها دينها)[1]، وفي رواية: (يرث هذا العلم من كل خلفٍ عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)[2].

والتجديد مركب جَموح لا ينبغي أن يوطَّأ ظهره لكل أحدٍ؛ إذ لا يكون المجدد إلا مجتهداً ملتزماً بصيراً بأصول الشرع ومصادره وضوابطه، محيطاً بالكتاب والسُّنَّة، عارفاً بدلالة النصوص، مدركاً لمقاصد الشريعة ومراميها.

وبغير ذلك فإن التجديد لون من العبث، وقد قاد كثير من الزنادقة نشاطهم وانحرافهم على أساس أنهم مجدِّدون.

وهذه هي القاعدة التي يتميز بها كل سعيٍ تجديديٍّ، فلا يحكم له بالتوفيق إلا إذا جاء ملتزماً بالنصوص الشرعية الثابتة.

وهكذا فإن الشيخ كفتارو قد رفع لواء التجديد على بصيرةٍ وهُدىً، وأظهر أن تجديد الدين لا يتضمن تغييره؛ بل هو اجتهاد في إعادة نضارته وإشراقه على الوجه الذي كان عليه في أصل الهدى الذي جاء به المعصوم ﷺ قبل أربعة عشر قرناً.

وحدد تماماً وجهته في التجديد، وهي محاربة تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وهي الأركان الثلاثة التي نصَّ عليها النبي ﷺ، وبذلك فإنه ميَّز ما لا يصح التجديد فيه عما هو محلٌّ للتجديد والاجتهاد، فنصوص الكتاب قطعية الثبوت

---

[1] رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المئة، رقم (٤٢٧٠).

[2] أخرجه الحاكم وابن عساكر عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري.

من جهة التنزيل، غير أنها ليست محل اتفاقٍ من جهة التأويل، فثمة تفسيرات أطلقها مفسرون محترمون لبعض نصوص الكتاب العزيز، ثم هي لا يمكن أن تكون مراداً إلهياً؛ إذ تتعارض تعارضاً صارخاً مع راسخ النصوص ومع المعارف العلمية اليقينية.

من ذلك مثلاً ما أورده الإمام الجليل القرطبي وغيره إبان تفسيره لسورة (ص) من أن داوود عليه السلام وقع في جريمة الزنا بامرأة أوريا بن يوحنا، وحينما أراد أن يستر الفضيحة لم يجد سبيلاً إلا إرسال هذا المسكين إلى الجبهة في كتيبة التابوت في قصدٍ واضحٍ منه إلى إعدامه، فارتكب بذلك جريمة الزنا وجريمة التخطيط للقتل، وهو لا يتفق بداهةً مع عصمة الأنبياء[١].

أو ما أورده وانتصر له من شروع يوسف بموافقة الفحشاء والزنا، وعبارته في ذلك: وحل تكته وقعد منها مقعد الرجل من امرأته[٢].

أو ما أورده الإمام الجليل ابن كثير وغيره في تفسيره لسورة (ن) نقلاً عن البغوي وجماعة من المفسرين: أن النون حوت عظيم تحت الأرض السابعة على ظهره صخرة عظيمة على ظهرها ثور له أربعون ألف قرن وعلى متنه السموات والأرض وما فيهن وما بينهن[٣]!

---

[١] انظر: تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تفسير الآية ٢٣ من سورة ص، وقد نقله عن الثعلبي وعن الحكيم الترمذي في نوادر الأصول.

[٢] انظر: تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تفسير الآية ٢٤ من سورة يوسف، وقد نسب القرطبي هذا القول إلى معظم المفسرين وعامتهم، وخص منهم النحاس والماوردي من المتأخرين، ومجاهد وسعيد بن جبير وابن عباس من المتقدمين.

[٣] انظر: تفسير ابن كثير للآية الأولى من سورة (ن)، وقد سمعت من الشيخ –حفظه الله– بياناً في تفسير مطلع سورة (ن) جزم فيه بأن وسائل المعرفة محل لقسم الله سبحانه وتعالى، فقد أقسم عز سلطانه بالنون الذي هو الحبر

وهذا بعض ما يمكن أن يجده المرء في أعمال كثير من المفسرين، فذلك كله مما لا يجوز شرعاً تصديقه ولا الركون إليه بعد أن دلَّت النصوص المتواترة القطعية الثبوت القطعية الدلالة على عصمة الأنبياء، وبعد أن جاءت المعارف اليقينية بصور الأرض من الفضاء.

وتقرير هذه الحقيقة لا يجوز أن يَغُضَّ من أقدار هؤلاء الأئمة؛ إذ إنهم كانوا ينقلون عن سواهم، أو يثبتون ثقافة عصرهم بما يجتمع بين أيديهم من نُقول، وهذه الروايات قليلة في جنب ما أوردوه من علمٍ نافعٍ غزيرٍ.

ولن يخاف العارف إذا وقعت بين يديه مثل هذه النصوص؛ إذ إن سبيل الحسم والجزم في هذه المسائل واضحة، وهي العودة إلى المصادر الاتفاقية التي يعتمدها علماء الأصول وتتلخَّص في الكتاب والسُّنَّة والإجماع والقياس، فلهذه الوسائل ضوابط وقيود جامعة مانعة يمكن من خلالها تمييز الأصيل من الدخيل، والصحيح من السقيم، والحق من الباطل.

وهذه تماماً هي مهمة المرشد المجدد؛ إذ يُعمِل هذه الضوابط في تجلية ما لحق بالدين من غواشٍ، وما طرأ على الفهم الديني من شروحٍ سقيمةٍ، ويعود بالناس إلى الأصل الذي جاء به المعصوم ﷺ.

والقلم وما يسطرون، وهذه الثلاثة هي وسائل المعرفة والثقافة أراد سبحانه أن ينبه إليها، فجعلها محلاً لقسمه الشريف.

ويجب القول بأن هذه المصادر الاتفاقية وإن كانت منضبطةً محددةً غير أنها مرنة مستوعبة تساير تطور الأحداث وتبدل الأزمان ضمن أصولٍ فقهيةٍ حكيمةٍ أثبتت صلاحيتها وجدواها خلال قرونٍ طويلةٍ.

وهكذا فإن التجديد الذي أراده الشيخ كفتارو لم يكن إلا إطلاقاً ليد النصوص المعصومة لتصيب مواقعها تماماً في مناحي الحياة المتجددة والمتطورة.

وأكد أن بعض المفاهيم القرآنية والنبوية فُهِمَت على غير مرادها، وجرى عمل بعض الفقهاء والعامة على تقليد اختيارات الأولين دون مراجعةٍ أو تصويبٍ.

لقد رأى الإمام الشافعي في العراق رأياً، فكوَّن هناك مذهبه في كتابه الذي أسماه: (الحجة)، ثم مضى إلى مصر فعاش فيها زمناً توسَّعت فيه معلوماته ووقع على نصوصٍ وأدلَّةٍ لم يطَّلع عليها من قبلُ، وظهرت له اجتهاداتٌ لم يكن قد أُلْهِمَها من قبلُ، فكتب كتابه الجديد: (الأم)، ولم يجد حَرَجاً أن يصرّحَ في الناس بأنه رجع عن كثيرٍ من اختياراته، وصرح بأنه ليس في حلٍّ ممن يفتي على مذهبه القديم، وجرى اختيار الفقهاء الشافعية وفق الجديد من مذهبه باستثناء اثنتَي عشرة مسألة.

وهكذا فقد ضرب الإمام الشافعي أروع الأمثلة في تحرر العالم واحتكامه إلى الحق وحده، ومَن يدري فربما كان لدى الإمام الشافعي رأي آخر لو أنه رأى بلداناً أخرى أو عاش أياماً أخرى أو اطلع على أدلةٍ كانت عنه غائبة؟

وقد أمضى الشيخ كفتارو وهو مفتٍ عامٌّ للجمهورية العربية السورية أكثر من ثلاثين عاماً، وهي فترة طويلة نسبياً لم يحظ بها أي مفتٍ آخر منذ خمسمئة عام[1]،

(1) انظر: (عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام) للمرادي، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق، إذ أورد في الذيل الأول أسماء المفتين منذ عام (٩٢٢هـ)، وهو عام دخول السلطان سليم إلى الشام، وبمقارنة التواريخ يظهر

وخلال هذه السنوات أمكنه أن يصحح كثيراً من المفاهيم الخاطئة التي استقرت في أذهان المسلمين خلال عصور الضياع والانحطاط، حيث ابتعدت الأمة عن كتاب ربها وهدي نبيها وعصور المجد الإسلامي.

وإنه لَيَحْزُنُني أن أخبرك أنه ليس لهذه الفتاوى التي تتابع صدورها خلال ثلاثين عاماً كتاب يضمها لينتفع منها الناس، ونأمل أن تقوم الأوقاف أو دائرة الفتوى بمثل هذا العمل في الأيام القادمة.

وسأجتهد في هذا البحث في تقديم بعض ما سمعتُه منه من آراء تجديدية، وذلك ضمن نصوصٍ مختارةٍ مما صدر له من كتبٍ أو محاضراتٍ.

لك أن أطول من وُلّيها هو الشيخ قطب الدين محمد بن عمر بن سلطان الدمشقي من عام (٩٢٢هـ) إلى (٩٥٠هـ)؛ أي: ثمانية وعشرين عاماً، وعند كتابة هذه السطور فإن الشيخ كفتارو يكون قد أمضى أكثر من واحدٍ وثلاثين عاماً في الإفتاء العام، نسأل الله أن يمتعه بصحته وعافيته.

العلم الشرعي:

شاع اصطلاح العلم الشرعي على ألسنة الناس قديماً على أساس أنه جملة من الدراسات الفقهية في مجال العبادات والمعاملات والمناكحات وأحكام تلقِّي النصوص وروايتها وفروع أخرى تتصل بهذه الجوانب، فهذه وحدها هي العلوم التي يُؤجَرُ بها المتعلم.

وذهب بعض الناس إلى أكثر من ذلك فجزموا بتحريم غير هذه العلوم، واعتبارها مُشغِلةً عن القرآن، ومدعاةً للشكوك والأوهام، ورأوا أن من الواجب أن يصدَّ عنها طالب العلم الشرعي لئلا تفسد عقيدته.

كل العلوم عن القرآن مَشْغَلةٌ إلا الحديث وإلا الفقه في الدين

العلم ما كان فيه: قال حدَّثنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وهذا الفهم وإن لم يستعلن به صراحة[1] إلا أنه يفسِّر منهج كثيرٍ من المدارس الشرعية التي تحجب عن طلَّابها المعارف العصرية والكونية ابتغاء ثواب العلم الشرعي، وتنال بالغمز واللَّمز جهود رجال المعرفة في فنون الحياة المختلفة.

وفي هذا الجانب فقد دعا الشيخ كفتارو إلى احترام المعرفة النافعة، وإتاحة السبيل أمام طالب العلم للاطلاع على كل جديدٍ ومفيدٍ في المعرفة، على أساس أن العلم المحمود في القرآن الكريم غير مقيدٍ بجوانب دون جوانب؛ بل هو كل علمٍ ينفع الناس في معاشهم ومَعَادهم.

[1] قد صرح به جماعة من العلماء بالفعل، انظر على سبيل المثال: المنقذ من الضلال للغزالي.

ويمكنك قراءة فكره في بيان العلم المحمود خلال هذا النص، انتقيتُه لك من كتابه: (من هدي القرآن)، وهو يتضمن محاضرةً ألقاها الشيخ في الإذاعة السورية عام (١٩٦١م):

(أيها الإخوة: ولئلا يفهم الناس أن المقصود من العلم هو علم الطهارة والصلاة والعبادات والمناسك فقط؛ بل مقصود الدين في العلم، وهو أهم من ذلك وأشمل؛ لئلا يفهم الناس ذلك ذَكَر القرآن في سوره علم النبات وطبقات الأرض، وعلم الأجنَّة والفلك، والسياسة والحرب، والاجتماع والمعاملات في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فَاطِر : ٢٧ - ٢٨].

لقد أشار القرآن في هذه الآية إلى أن مَن يدرس علوم الطبيعة والنبات والجيولوجيا، ومَن يتتبع سبب اختلاف ألوان حياة الناس في إنتاجهم وأخلاقهم وتكوينهم، فالدارس لذلك والمتفهم لأسرار ودقائق صنع الله في اختلاف طبائع البشر والحيوان أشار القرآن إليه أنه الجدير أن يكون من العلماء الفاهمين العارفين المقربين إلى رب العالمين، أشار إلى ذلك القرآن في تتمة الآية بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فَاطِر : ٢٨]. ليدلَّ على أن العلم بالكون وأسراره لا يباعد عن الله والإيمان به؛ بل الأمر على العكس، فالعلم يجعل صاحبه يرتقي إلى أعلى ذُرا الإيمان بالله والخشية له عندما تنكشف للعالِم العاقل والمنصِفِ المفكّرِ قواعد سير النجوم في أفلاكها، ودقة تركيب العظام البشرية في قواعدها، وغرائب تأليف أعصاب العين والأذن وبقية الأعضاء واتصالها ببعضها، وعندما يرى العالم تلك العلبة الصغيرة التي تمركز فيها مخ الإنسان وعقله يخرج منها علوم الطائرات

والصواريخ المحلِّقة في السماء، والبواخر والغواصات الماخرة في عُباب الماء، عندما يرى الإنسان علوم الكهرباء وتفتيت الذرة وغيرها تخرج كلها من تلك العلبة وهي مخ الإنسان، عندما تنكشف للإنسان العالِم هذه العجائب والغرائب لا يستطيع إلا أن يخضع ويخشع لعظمة الخالق الصانع والبارئ المبدع.

أيها الإخوة: لقد حثَّ القرآن في آياته على تتبُّع علوم الكون كله عُلويِّهِ وسُفليِّهِ، أرضهِ وسمائِهِ، واستنباط خفاياه وأسراره، قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأَعْرَاف : ١٨٥].

وقال أيضاً: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يُونُس : ١٠١].

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٩١].

ولقد فهم المؤمنون قيمة العلم الكوني وقدره، ووجوبه ومكانته في الإسلام، فطفقوا يتتبعونه ويهاجرون إليه على طريقة موسى عليه السلام: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ [الكَهْف : ٦٠].

وفي ظل فهم قيمة العلم بحقيقته وفروعه (من القرآن) نبغ المسلمون في العلوم كلها وتتبعوا كتب المعارف فترجموها، حتى كان الخليفة المتوكل يعطي (حنين بن إسحاق) – أشهر المترجمين– وزنَ ما يترجمه ذهباً، وترجم المسلمون العلوم واستوردوها من الخارج، ولم يقتصروا على الترجمة؛ بل تابعوا البحث والدراسة، وزادوا في العلم حتى أصبحوا علماء الدنيا، وتفوَّقوا على مؤلِّفي العلوم وواضعيها، وكان المسلمون خير حلقةٍ لحفظ العلوم بين القديم والحديث، ومنهم أخذ علماء أوربا وتلقَّوا العلوم، فزادوا فيها ما وصلت إليه العلوم والمعارف في عصرنا الحديث مما يشهد به رجال العلم والمعرفة في العالم اليوم.

في ظل فهم القرآن والإسلام اخترع الخوارزمي علم الجبر، واختص جابر بن حيان دون العلماء كافةً بأسرار الكيمياء، وفي ظل فهم القرآن والإسلام نبغ العرب، فكانوا أول بناة المراصد الفلكية في العالم، وأول صانعي التلسكوبات... في ظل دولة الإسلام تمَّت المباحث الروحية والنفسية والفلسفية، ومن علمائها: ابن سينا والغزالي وابن رشد والفارابي وابن مسكويه وغيرهم، وفي ظل دولة الإسلام قامت فنون الهندسة المختلفة، وحاول المسلمون الطيران في السماء، وأولهم عباس بن فرناس.

هذه الحضارة والعلوم منشؤها تعليم القرآن، وفهم الإسلام الذي يأمر أهله باستعمال العقل والفكر في الاستدلال على وجود الله ودراسة أنفسهم، ودراسة الظواهر الجوية والطبيعية، كما أن القرآن الكريم أول مَن ذكر للإنسان أطوار تخلُّق الجنين قبل أن يعرفها أي عالمٍ في الأرض)، اهـ.

وإذا كانت هذه الحقائق محل اتفاقٍ اليوم فإنها لم تكن كذلك قبل أربعين عاماً، وإنها لا تزال كذلك في بعض مؤسسات التعليم الشرعي، حيث يبلغ طالب العلم درجاتٍ بعيدةً في معارف العبادات والمعاملات وهو شبه أُمِّيٍّ بمعارف العصر ولغاته.

ولا يشفع لهؤلاء قولهم بأن الحياة اختصاص، فالاختصاص لا يُغني عن الاطلاع، ومنطق الاختصاص يُختصر وفق القاعدة المشهورة: (خذ شيئاً من كل شيء، وخذ كل شيءٍ من شيء)، فكيف يمكن لطالب العلم الشرعي أن يفهم هذا العالم الإسلامي وهو غريب عن المعارف الجغرافية الضرورية؟ وكيف يمكنه فهم إشارات القرآن الكريم في الفلك والفيزياء وهو لا يعلم بدهيات هذه العلوم؟

إن علم القراءات مثلاً علم شريف وكريم يمكن من خلاله ضبط كثيرٍ من لهجات العرب ووجوه التحمل والأداء في النص القرآني، ولكن هل من الحكمة أن تُدفع إليه

أعداد كبيرة من طلَبة العلم حيث تنقضي الأعمار وهم يشتغلون بالروايات والطرق والشذوذ والتفردات؟!

ثم ما هي جدوى هذه المعارف في معركة الدعوة إلى الله التي رُصد لها أصلاً طالب العلم الشرعي؟ إنه يكفي في هذا السبيل نذرُ جماعةٍ من الطلَبة الذين يُؤتون مواهب من الذاكرة القوية، في حين يتوجه الدعاة إلى ما هو أشد إلحاحاً في بناء شخصيتهم الإسلامية كدعاة عاملين.

ولماذا يبقى الحديث عن المعارف العامة نظرياً يتناوله طالب العلم يالإطراء والثناء ثم يقف من قضاياه موقف المتفرّج الحائر؟!

وإذا تقرر هذا التكامل بين علوم الرواية وعلوم الحياة المختلفة فإنه أدرك تماماً أن الحياة اختصاص، وهو ما أشرنا إليه قبل قليل، وأنه لا يمكن لطالب العلم (الشرعي) أن يتفوق أيضاً في الهندسة والجغرافيا والطب، ولا يُراد كذلك للطبيب والمهندس أن يحيط بسائر المعارف الشرعية؛ إذ ذلك غير ممكنٍ لكل أحد، ولا يتحصل المرء على شيءٍ إلا على حساب شيءٍ، وجلَّ مَن وسع كل شيءٍ علماً.

غاية الأمر أن طالب العلم يجب أن يحيط بشيءٍ من المعارف العامة، ويسخِّرها في خدمة الخلق وحركة الدعوة الإسلامية، وأن يشعر بقيمة هذه المعارف[1] وثواب مَن عمل فيها ابتغاء مرضاة الله وخدمة عباده.

ولم يكن ذلك الاختيار الذي أراده الشيخ ليحول بينه وبين بناء منهجٍ متينٍ للعلم (الشرعي) في مؤسساته التعليمية والدعوية، فقد عمد إلى مناهج الجامعات الإسلامية

[1] لقد أدركت من بعض أشياخي –رحمهم الله– مَن إذا ذكر له شيء من المعارف العامة كاللغات والفلك والطبيعيات، تمثل بقول الأول: اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع.

المتخصصة؛ كالأزهر وأم درمان والجامعة الإسلامية بالمدينة وكلية الشريعة بدمشق، فاستخلص منها منهاجاً متيناً قامت باختياره لجنة خاصة تم تكليفها لهذا الغرض، وقد تم إعداد منهجين مستقلَّين:

الأول: منهج الدراسة المنتظمة، **والثاني**: منهج الدراسة المفتوحة.

وقد أمر بتدريس **المنهج المنتظم** في المعاهد الشرعية القائمة في المجمع الإسلامي بدمشق، والفروع الملحق بها أكاديمياً في الجمهوريات الإسلامية التي كانت تتبع للاتحاد السوفياتي السابق، وستجد تفاصيل ذلك في القسم الخاص بالمؤسسات في هذا البحث.

وأمر بتدريس **المنهج المفتوح** في سائر حلقات الدعوة والتربية، كما أعد نظام امتحاناتٍ خاصاً لهذا النوع من الدراسة تحت اسم: (الجامعة المفتوحة للدراسات الإسلامية).

وقد مضى الشيخ كفتارو في هذا السبيل باتجاهٍ أكثر عملية وواقعية، ففرض أصول العلوم الكونية إلى جانب الدراسة الشرعية، ووجَّه كثيراً من طلَبة العلم لدراسة اللغات الأجنبية والعلوم الحيَّة.

وجرى أيضاً في اتجاهٍ آخر، حيث أمر أبناء المسجد من مختلف الاختصاصات بدراسة العلوم الشرعية، ولأجل ذلك فإنه أعدَّ لهم أكثر من نظامٍ تعليميٍّ يمنحهم المعرفة بالعلوم الشرعية، واليوم في كلية الدعوة وكلية أصول الدين وكلية الدراسات الإسلامية المفتوحة (لغير المتفرغين) عدد كبير من الأطبَّاء والمحامين والمهندسين وغيرهم يعكفون على دراسة العلم الشرعي، ويكتشفون التكامل الحقيقي بين سائر فروع العلوم في الإسلام.

ويمكنك الاطلاع على نشاط الشيخ في هذا الجانب من خلال مطالعة الفصل الخاص بالمؤسسات التي أسسها الشيخ عقب هذا البحث.

ونستطيع قراءة أهم أفكار الشيخ في تجديد العلم الشرعي ضمن هذه الفقرات:

١- الفقه اسم لكل معرفةٍ تسهم في بناء الإيمان في النفس وتنشر الخير على الأرض، ولذلك فإنه ليس من الصواب أن تنحصر مباحث الفقه الإسلامي في جوانب محدودةٍ من العبادات والمعاملات والمناكحات؛ بل إن المباحث التي أكد عليها القرآن الكريم من تزكية النفس، وتقويم السلوك، وبناء عزة الأمَّة الإسلامية وقوتها وكفايتها... كل ذلك من مباحث الفقه الإسلامي التي لا يجوز الإعراض عنها[١].

٢- المذاهب الفقهية دليل ثراءٍ فقهيٍّ وحريةٍ فكريةٍ في الإسلام، فلا يجوز أن تُفهَمَ على أنها مدارس متشاكسة متعاندة، ووجودها -في الإطار الصحيح- ليس خطراً على وحدة الأمَّة وكيانها؛ بل إن هذا التعدد يفيدنا في إيجاد الحلول الحقيقية لسائر مشكلات الأمَّة في مختلف الظروف[٢].

ولذلك فقد أعلن مراراً أن التعصب المذهبي هو آفة الآفات، وأن المطلوب هو الإفادة من اجتهاد الأئمة دون التعصب للهوى والانتماء.

---

[١] اقرأ في توكيد هذا المعنى ما صرح به الشيخ كفتارو لصحيفة (المسلمون) السعودية عدد (٣٧)، ١٩/١٠/١٩٨٥م.

[٢] صرح الشيخ كفتارو في لقاء مع صحيفة الشراع اللبنانية ١٦/٣/١٩٨٩م: (الاجتهاد في الماضي كان موجوداً، قد تطرأ في باكستان أمور تحتاج للاجتهاد، ومجتهدها وحده يبدي رأيه، قد نكون في سورية نحتاج لرأي غير رأي المجتهد في باكستان أو في أندونيسيا أو إيران أو في أي بلد آخر، معنى هذا: أن لكل بلد ظروفها الاجتماعية الخاصة).

٣- التأكيد على وجوب الجمع بين العلم والسلوك في أي منهجٍ علميٍّ؛ إذ ليس من الحكمة منح درجةٍ علميةٍ لطالب علمٍ لم نتحقق من التزامه في السلوك مع ما يسطِّره في أوراق الامتحان.

٤- ضرورة تطوير أساليب دراسة العلوم الشرعية، وضرورة كتابتها بلغةٍ معاصرةٍ، وهذه آفة ابتُليت بها أكثر المدارس التعليمية، فأنت ترى مثلاً أن المناهج التعليمية تخضع للتعديل بشكلٍ مستمرٍّ، فتجد مثلاً مقرر الرياضيات يقرَّر في المدارس عام (١٩٨٠م)، ثم يعدَّل عام (١٩٨٥م)، ويعدَّل تعديلاً آخر عام (١٩٨٧م)، ثم يُستبدَل بمقررٍ جديدٍ عام (١٩٩٠م)... وهكذا دواليك، حتى لا يشعر الطالب بغربة معارفه عن عصره، ولكن ذلك الأسلوب ما زال خجولاً في مناهج التعليم الشرعي.

وسأضرب لك مثالاً يكشف بعض ما أريد قوله، فقد درسنا مثلاً نصاب الزكاة من ألفية العمريطي على الشكل التالي:

ثم النصـــاب خمســـة من أوســـقٍ ... والفرض عشر ما بسيلٍ قد سقي
وكـل وســـق كيلـه بالصـــــاع ... ســـتون أي في ســـائر البقاع
وقـدر هـذا الصـــــاع بالأمـداد ... أربـعـة في ســـــائـر الـبـلاد
ووزن هـــذا المـد بالـعـــراقـي ... رطـل وثـلـث وهـو باتـفـاق
والخلف في رطـل العراق قـد سما ... في وزنـه أي كم يكون درهما
قـال الـنـووي: مـئـة وربـعـهـا ... وبـعـدهـا ثـلاثـة تـتـبـعـهـا
واجمع لها أربـعـة الأســـبـاع ... مـن درهـم أيضـــــاً بـلا نـزاع

فانظر يا رعاك الله إلى هذه المعادلة المعقدة التي تقدر بمكاييل غائبة بائدة لا يمكنك تقديرها ولا ينفعك تقريرها!

أليس من المطلوب أن ينص منهاج الدراسة الشرعية اليوم على كلمةٍ واحدةٍ كافيةٍ هي: (نصاب الزكاة في الزروع والثمار = ٦٥٥ كغ)؟!

٥- ضرورة عكوف الفقهاء والباحثين على استنباط أحكام المستجدات في الفقه من مصادر التشريع الأصلية وفق المعايير الاتفاقية.

الاجتهاد:

الاجتهاد في الدين أبرز ما يميز الفقه الإسلامي، ولا يحتاج المرء لكبير جهدٍ حتى يدرك أن الإسلام أعتق أبناءه من قيود التقليد، وخلق فرصاً حقيقية للاجتهاد ضمن الكتاب والسُّنَّة، وجعل الاجتهاد عبادة مبرورة، وقد اتفق السلف على قاعدة: (من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر)[1].

وقد ظهر أعظم المجتهدين من خلال التاريخ الإسلامي في عصر الصحابة الكرام الذي كان أكثر العصور ضياءً في التاريخ، وهؤلاء المجتهدون العظام سُجِّلَت آراؤهم، ودُوِّنَت أفكارهم، وأصبحت نبراساً يقتدي به ملتمسو الاجتهاد في كل زمان.

وتجد في أعلام السلف الصالح أسماءً كبيرةً في الاجتهاد يدرسها العلماء تحت اسم: (فقه عمر، وفتاوى علي، واستدراكات عائشة على الصحابة، وآراء ابن عباس)، فقد كان كل واحدٍ منهم مدرسةً كاملةً في الاجتهاد.

وشهد القرن الثاني عصر المجتهدين الكبار، أمثال: أبي حنيفة والشافعي ومالك ثم أحمد رضي الله عنهم وإخوانهم وتلامذتهم.

ولكن العجيب أن حركة الاجتهاد الهائلة التي انطلقت في القرنين الأولين توقفت منذ مطلع القرن الثالث، وخلال أحد عشر قرناً لم تسعد الأمَّة بأعلامٍ من الفقهاء في منزلة تلك النخبة الممتازة، مع أن الحاجة للاجتهاد في أيامهم دون الحاجة للاجتهاد في أيامنا، وهكذا فإنك ترى أنه مع تعاظُم الحاجة للاجتهاد تضاءلت الجرأة على الاجتهاد.

---

[1] هذه قاعدة اتفق عليها السلف، مستندها ما أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وأصحاب السنن إلا الترمذي من حديث عمرو بن العاص أنه سمع رسول اللهﷺ يقول: (إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر).

وأصبح الآخِرون بين جامدٍ لا يرغب أن يضيء جديداً أو يضيف مفيداً، وبين قانع بضرورة الاجتهاد ولكنه مُكبَّلٌ بألف قيدٍ لا يمكن معه تحرير حُكمٍ على مسألة.

وكم من مسألةٍ عرضت للأمة في دينها أو دنياها لها فيها مصلحة ورشادٌ صادمها اجتهاد قديم، فوجد الناس أنفسهم حيرى حيالها، ولم يجدوا في عامة علمائهم مَن له جرأة الفاروق أو هدي علي أو علم ابن عباس أو تحرير عائشة!

ومع أن الاجتهاد في عصر السلف أدى إلى اختلافٍ غير أنه اختلاف محمود؛ لأنها وجهات نظر تتسع لمصالح الأمة، وكان عمر بن عبد العزيز يقول: (ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لو لم يختلفوا لم تكن توسعة).

وقد علمتَ أن مالكاً رحمه الله كره أن يحمل الناس على رأيه وفقهه، وحين أراد أبو جعفر المنصور أن يجعل موطَّأ مالك مرجعاً اجتهادياً مطلقاً للأمة ويمنع الفتوى بسواه أنكر ذلك الإمام مالك رحمه الله وقال: إن أصحاب رسول اللهﷺ تفرقوا في الأمصار، وكلٌّ حدَّث بما سمع، فليس ما لديَّ أَوْلى بالقَبول مما لديهم.

وهكذا فإن عصور الاجتهاد المشرقة هي العصور الدانية من عصر النبي ﷺ، ولو أن موكب الاجتهاد مضى على النسق ذاته الذي كان عليه عهد السلف وأُتِيحَ للعقل أن يمضي حيث أنزله الإسلام لَأَمْكَنَ بذلك دفعُ كثيرٍ من الغُربة التي أصابت سعي بعض الشعوب الإسلامية[1].

[1] قال الشيخ كفتارو: لا يجوز أن يطبق أصحاب هذا المذهب أو ذاك أمراً فقهياً على قضية محصورة في زمان معين ومكان معين وحالة معينة في كل زمان ومكان، إن هذا الأسلوب ساهم في إضعاف الفقه الإسلامي عبر العصور... إن المذاهب دائماً في حاجة إلى تنقيح من علماء مجتهدين غير تعصُّبيين، تصريح لصحيفة النور الصادرة في بريطانيا، شباط (١٩٩٥م)، عدد (٤٥)، موضوع الغلاف.

واليوم فإن كثيراً من معطيات العصر الحديث وإفرازاته قد لا نجد حلولها في أعمال الفقهاء المتقدمين، فهل يتوجب علينا أن نقف على ما وقف عليه الأولون، فإنهم عن علمٍ وقفوا، هكذا بإطلاقٍ ودون قيود؟!

ولماذا لا نلتمس الحلول الجديدة من هدي الكتاب القديم؟ وهل نفدت صيدلية القرآن والسنة من إيجاد الحلول الصحيحة لمشاكل العصر الحديث؟!

وهكذا فقد أمضى الشيخ كفتارو أكثر من اثنين وثلاثين عاماً في سدَّة الإفتاء العام السورية، ودمشق من أعرق العواصم الإسلامية فقهاً واجتهاداً، وهي فترة كافية تضمن خروج الاجتهاد من مصدره الصحيح وعلى أصوله المعتبرة في القضايا المتلاحقة.

ومن خلال الحوار الآتي يمكن أن تطلع على طرفٍ من الآراء التجديدية للشيخ كفتارو في مجال الاجتهاد:

خلال فترة الغزو العراقي للكويت برز تيار فكري ضائع يشكِّكُ بالعروبة كرمزٍ وحدوي، ويشكِّك بالإسلام كمنهجٍ صالحٍ للتطور الاجتماعي، ولم يكن ذلك بالطبع إلا رد فعلٍ هائج للشعارات التي أطلقها المتحاربون في ذلك الغزو العبثي، وكان من صدى ذلك التيار أن أوفدت الكويت اثنين من كبار مفكِّريها ليحاوروا الشيخ كفتارو في سبل مكافحة ذلك التيار الضائع، والعودة بالأمة إلى جذورها وعقيدتها.

وبعد جلسةٍ استغرقت ثلاث ساعات كتبت عشرات الصحف المحلية العربية طرفاً من ذلك الحوار الهادئ الذي دار بين الشيخ كفتارو والمفكرين الكويتيين: الدكتور محمد الرميحي رئيس تحرير مجلة العربي، والسفير أحمد الجاسم سفير الكويت بدمشق.

وأنا أنقل لك هنا طرفاً مما كتبه الدكتور محمد الرميحي في جريدة صوت الكويت الدولي، عدد (٢٧٥)، تاريخ: ١٩٩١/٨/٢م، تحت عنوانٍ كبيرٍ: (**جلسة على امتداد ٣ ساعات مع مفتي الجمهورية السورية الشيخ أحمد كفتارو**):

- **السفير الجاسم**: بعض المفكِّرين يقولون: إن الفكر الإسلامي توقف عن تقديم حلول القضايا الكبرى؛ كالحرية ودور المرأة والنظام الاقتصادي واستيعاب المستحدثات العصرية والتكيف معها؟!

- **وردَّ سماحته**: في الحقيقة ليس الإسلام هو الذي توقف وإنما نحن الذين توقفنا، عقولنا هي التي توقفت في الأمكنة والمطارح نفسها التي أرادها لنا أعداؤنا أعداء العرب والمسلمين، فالإسلام لا يمنعك من الإفادة من كل ما يعطيه العقل ويفيدك.

الإسلام لا يمنع أو يعطل شيئاً مفيداً، ولا يمنعك أو يمنعني أو يمنع أحداً من التكيُّف مع منجزات العقل، ولا مع طروحاته التي تخدم الحياة والإنسان في كل مجالٍ وميدانٍ، وتاريخنا مليء بالشواهد على حرية العقل، لكننا الآن من تقهقرٍ إلى تقهقرٍ، وهذا ناشئ عن الجهل فقط، الجهل بالقرآن وبأعطيات هذا القرآن الكريم الذي هو الحياة، الحياة الحسنة، الحياة الجيدة، الفكر المتفتح وحسن السلوك، ألم يقل ربنا جلَّ جلاله **ژئو ئۇئۇئۆئۆژ** [القصص: ٧٧]، ما هي الدنيا؟ إنها هذه التي يجب أن نعيشها جيداً ونجعلها لائقةً ومُفرِحةً وغنيةً ومُزدهيةً، والعرب ذوو حضارة، فهم عملوا من صحاراهم جنات، والآن تُكتشَف في صحارى الجزيرة العربية شبكات المياه والسدود وتنظيم الري، لكننا فهمنا القرآن على عكس جوهره وتعاليمه، وإني أسألك: هل وحدة العرب تحتاج إلى

اجتهادٍ؟ وهل قيام العدل والحرية يحتاج إلى اجتهاد؟! لماذا نقول: إن هذه الأمور تحتاج إلى اجتهاد؟ فيما الذي تتعلمه أجيالنا الحالية من فسقٍ وفجورٍ وتغريبٍ لم يحتج إلى أي اجتهاد، إننا نستطيع أن نجلب أعظم الخبراء في كل ميدانٍ إلى ديارنا من دون أن نرسل أبناءنا إلى الخارج ليعودوا مغسولي العقول ويتنكَّرون للإسلام، يتنكَّرون له لأننا –قادةً ومسؤولين– نقدِّمه إلى أبنائنا وإلى العالم بصورةٍ مفرَّغةٍ.

وسألته عن الممارسة الديمقراطية، قال:

- إن الإسلام على حقيقته أعظم من كل الديمقراطيات، هناك يشتري المتمولون وأصحاب النفوذ النوابَ وأعضاءَ البرلمان، ويفرضون عليهم مصالحهم ونزواتهم أحياناً، ألم نسمع بمقولة عمر حين جادلته امرأة في شأنٍ مهمٍّ؟ لقد قال: أصابت امرأة وأخطأ عمر!

واستطرد قائلاً:

- لديهم في اليابان وفي كورية معتقدات غريبة، لكنهم الآن يضاهون أعظم النهضات الصناعية في الغرب.

واستمر الحديث طويلاً، فالمفتي كفتارو هو أحد الدُّعاة الكبار المعاصرين، ويتحرك في شتى أصقاع العالم داعياً للإسلام وداعياً إلى عقلنة العالم من خلال القرآن والإسلام، ثم فاجأنا سماحته بأن مائدة العشاء وُضعت على السطح، مائدة على الطريقة العربية، وللمناسبة فسماحته لا يرتدي إلا اللباس العربي، ويضع عمامته البيضاء مرتدياً دشداشته البيضاء، وصعدنا مع سماحته في المصعد إلى السطح المكشوف في جلسةٍ عربيةٍ صيفيةٍ تخللها الكثير من الحكايات والنوادر الظريفة التي يجيد سماحته الحديث

فيها، فأنت إلى جواره لا تشعر بالوقت يمضي، رغم أنك تجد أنك جلست لثلاث ساعات تستمتع وتحاور، وودَّعنا سماحته شاكرين على أمل اللقاء على أرض الكويت[1]، اهـ.

[1] صوت الكويت الدولي، عدد (٢٧٥) تاريخ: ١٩٩١/٨/٢م.

الزهد والفقد:

شاع بين الناس أن الفقر علامة من علامات الصلاح، وأن اختيار الآخرة لا يتم بدون خصامٍ مع الدنيا، ورسخ في اعتقاد الناس أن العالِمَ لا يجوز أن يجتمع في يده شيء من حُطام الدنيا.

قلت للفقر: أين أنت مقيمٌ؟ قال: في عمائم العلماءِ

إن بيني وبينهم لإخاء وعزيز عليَّ ترك الإخاءِ

واستقرت في أذهان الناس هذه المعاني، حتى صار الفقر مدحةً والغنى مذمَّةً، وخلطوا بين الفقد والزهد، وأصبح الزاهد لا يُسمَّى زاهداً إلا إذا كان فاقداً، مع أن حقيقة الزهد لا تكون إلا فيمَن ملك المال، فلم يكن لهذا المال سلطان على إيمانه وسلوكه، مصداق قول سيدِنا عليٍّ كرم الله وجهه: (ليس الزهد أن لا تملك الدنيا؛ بل الزهد أن لا تملكك الدنيا).

وفي بيانه لموقف الإسلام الحق من الثروة والمال أختار لك طرفاً من محاضرةٍ إذاعيةٍ له وجدتها في كتاب: (من هدي القرآن الكريم):

أيها الإخوة: يقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البَقَرَة : ٢٨٢]، إلى أن يقول: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ [البَقَرَة : ٢٨٢] ، ويقول أيضاً: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النِّسَاء : ٥]. إلى جانب آياتٍ كثيرةٍ في القرآن، كلها دلالة وبيان لمكان الثروة في الإسلام، وجميعها تحبيذ وترغيب في اكتساب المال الذي هو من أقوى دعائم الأعمال، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجُمُعَة : ١٠] .ولخطاب

الله للإنسان حيث يقول: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ [القَصَص : ٧٧].

أيها الأخوة: إن القرآن الكريم جعل في بعض آياته الغنى والثروة شعار عباد الله الذين أحبهم ورضي عليهم، وجعل الوسعة المادية والبحبوحة واليسار في الدنيا علامةً ومكافأةً لكل مَن استقام على شريعة الله، وحرص على طاعة ربه، وابتعد عن معاصيه، تقديراً من الله لإحسان المحسن، ومكافأةً من الرب جل جلاله لكل مستقيمٍ على جادة الهدى والصواب، فقال تعالى في سورة نوح: ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نُوح : ١٠ - ١٢] .

فها نحن نرى أيها الأخوة في نص كلام الله تعالى الخصبَ والرخاء والقوة بالثروة والمال، إلى جانب هبة الله للإنسان الأولاد والأحفاد مع الحدائق والرياض المزينة بأنواع الثمار والورود والأزهار، حيث الأنهار العظيمة والعيون الغزيرة المتدفقة بالماء والحياة.

أيها الإخوة: إن وجود هذه الأنواع المنوعة من النعم والخيرات هي من مستلزمات المؤمنين المستغفرين، وإنها لا تفارق ولا تجانب التائبين المنيبين والفاهمين العالِمين.

أيها الأخوة: لقد أعطى الله من نفسه وعداً صادقاً وسجَّل على ذاته عهداً قاطعاً لعبده المؤمن التقي الفاهم عن الله إرشاده وتوجيهه، أعطاه صكاً على ذاته العلية أن يهبه العيشة الرضية، وأن يحييه الحياة الهنية في هذه الدار وعند لقاء الله في الدار الخالدة الباقية، فقال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠﴾ [النَّحل : ٣٠].

أيها الأخوة: كما نصَّ القرآن الكريم على أن مكافأة الله لعباده الذين اهتدَوا بهدى ربهم، وطبَّقوا قوانينه في حياتهم وأعمالهم، والذين تحلَّوا بالأخلاق، وقاموا بأداء الواجبات والأعمال التي طلبها الله منهم، ينص القرآن العظيم على أن مكافأة الله للمتقين هؤلاء تكون في الدنيا بما يُسدي إليهم من خيراتٍ لا تنقص مقامهم عنده في الدار الآخرة، ولا تحد من مكانتهم العالية في جنات الخلود، فقال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العَنكَبُوت : ٢٧].

أيها الأخوة: كما رَوَتْ لنا الأخبار عن هبة الله لخليله ونبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام الأولاد الأنبياء والذرية المرسلين، إلى جانب تخليد الله لذكر سيدنا إبراهيم والثناء عليه على مر الدهور والعصور.

أيها الأخوة: إن كل مَن ينظر بدقةٍ وعُمقٍ إلى القرآن العظيم، وإن كل مَن يتلوه بتدبُّرٍ وفهمٍ يجد هدى الله في كتابه يتجه بالإنسان ويأخذ بيده إلى ميادين الحياة، إلى ميادين الإنتاج والكفاح، إلى ميادين العمل الشريف النافع المثمر، على العكس تماماً بالنسبة لما يفهمه بعض القاصرين والمتعنِّتين والمتزمِّتين من أن التدين عزلة عن ميادين الحياة، وابتعاد عن جادة الكسب والإنتاج، وزهد وإعراض عن اكتساب أسباب القوة المادية والمعنوية، يسترون بهذه المدعيات عجزهم وكسلهم وخورهم وضعفهم، ويروِّجون بضاعتهم الكاسدة المزْجاة على فقراء العلم وضعيفي الثقافة القرآنية، وينشرون بذلك الفقر والعجز هنا وهناك، وينشرون ذات اليمين وذات الشمال الخمول والضعف والكسل؛ بل يزيدون على ذلك الغمز واللمز والتلويح أو التصريح بنقد كل مجتهد، والتعرض لكل مكافحٍ منتج، ويجعلون من علامة الكمال في الدين والورع فيه والتمكين الفقر والإفلاس والجوع والحاجة إلى الناس، ونسُوا أن نبي الله يوسف عليه السلام طلب

بلسانه من عزيز مصر أن يتولى وزارة المال والتموين كما قال الله عنه: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يُوسُف : ٥٥]، ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾ [يُوسُف : ٥٦ - ٥٧] إلى أن قال الله في حق يوسف وقد تبوَّأ عرش الملك وصارت كنوز الذهب والفضة بين يديه، وقد رفع أبوَيه على العرش وخرَّ له إخوته سُجَّداً، قال الله تعالى على لسان نبي الله يوسف: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يُوسُف : ٩٠] .

أيها الأخوة: إن الدين الحق والإسلام الحقيقي لم يقف مع المتدين عند حد أداء فرائض العبادات، ولم يرضَ للمؤمن أن يكون ذا أخلاقٍ عالية مع الناس والخلق مُجِدّاً مجتهداً في أمر آخرته، معتنياً جاهداً بأمر روحه وقلبه فقط، في وقتٍ يتركه الإسلام مهملاً لأمر دنياه بعيداً عن ميادين الحياة، لم يرضَ الدين أن يكون المؤمن فاقداً أو زاهداً في اكتساب الثروة والمال، قاعداً متقاعساً عن الكفاح والنضال، صديقاً للفقر حليفاً للجوع والعري، جليساً للفاقة والحاجة، قعيد بيتٍ وجليس ظلامٍ، عدواً لنعم الله إذا وجدها عند عباده؛ بل جعل الإسلام المؤمن الصادق والدَّيِّنَ المخلص هو مَن وعى عن الله دينه، وتدبَّر كلامه وهديه، واستصحب في هذه الحياة إلى ميادين الكسب والعمل عقله وفكره.

ومَن درس تاريخ العرب قبل الإسلام وجد أنهم كانوا فقراء تعساء جياعاً عُراةً جهلةً أذلَّةً مستعمَرين، ثم لما أكرمهم الله بنزول وحيه وفَهْمِ قرآنه، وتدبُّرِ أحكامه وتنفيذ أوامره، والعمل بوصاياه كيف أغناهم الله وأعزَّهم، وكيف جعل خزائن الدنيا بين أيديهم وتحت أقدامهم تحقيقاً لوعد الله الصادق حيث يقول: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ

يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝﴾ [الطَّلَاق : ٢ - ٣].

ومكافأة من الله لهم وثواباً منه على حسن فهمهم لدين الله وشريعته التي منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝﴾ [المُلْك : ١٥].

وقول النبي ﷺ: (نعمَّا بالمال الصالح للرجل الصالح)، وقوله: (نعمت الدنيا لمن تزود منها لآخرته حتى يرضي ربه، وبئست الدار الدنيا لمن صدَّته عن آخرته وقصرت به عن رضا ربه، وإذا قال العبد: قبح الله الدنيا، قالت الدنيا: قبح الله أعصانا لربه)[1] الحاكم في المستدرك عن طارق بن أشيم، اهـ.

ومن أدلَّته التي توضح اختياره هذا: إن أركان الإسلام الخمسة يتعطل منها اثنان بفقد المال، فالزكاة فرض على الأغنياء، والحج على المستطيعين، وقد قال الله عز وجل في وصف المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝﴾ [المُؤْمِنُون : ١ - ٤] فمدحهم بأنهم يؤدون الزكاة، ولم يقل: الذين هم للزكاة آخذون.

وإلى ذلك فإنه فرَّق جيداً بين الفقر والفقير، فالإسلام حرب على الفقر، ولكنه ليس حرباً على الفقير؛ بل هو معين له ونصير، لا يخدش كرامته لفقره، ولا يحاسبه على قلة ذات يده، ولكنه يدعوه للضَّرب في الأرض، وبذل الجهد في تحصيل الحلال، مع الإيمان القاطع بأن الله هو الرزَّاق ذو القوة المتين.

[1] من كتاب: من هدي القرآن، ص٧٣ وما بعدها.

الكفر والجاهلية:

هل العالم اليوم في حالة كفر؟ وهل خلق الأمريكيون والأوربيون والأستراليون وكثير من الآسيويين والأفارقة حطباً لنار جهنم تتلقاهم زبانية العذاب عند الآجال، فتقدم إلى ما عملوا من خيراتٍ فتجعله هباءً منثوراً؟

إن بعضاً من المشتغلين في الحقل الإسلامي يجيب على هذا السؤال ببرودة أعصاب: نعم، غير عابئٍ بما يمكن أن يقذف مثل هذا الجواب من شكوكٍ في نفوس الشباب وقد تفتحت عقولهم وتحررت أفهامهم، إضافةً إلى ما يؤجّجه من نار البغضاء والعداوة في نفوس غير المسلمين تجاه الإسلام.

أما الشيخ كفتارو فقد كان له رأي آخر، لقد صرح مراراً بأنه لا يكاد يجد في هذا العالم كافراً.

غاية الأمر أن ثمة طرحاً غير مقنعٍ للدين يتزامن مع واقعٍ مؤسفٍ لعالمٍ إسلاميٍّ متخلف، ينتج عنه حكماً فتور في إقبال الناس على فهم الإسلام، فمن يتحمل إصر هذا الواقع؟

لقد حدد القرآن مراراً غايات الرسل ومهماتهم بأنها تتلخص في البلاغ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [المَائِدَة : ٩٩]

ولكن هذا البلاغ الذي هو غاية الرسل وإن جاء مطلقاً في هذا المقام فإنه ورد مقيداً في مقامٍ آخر بقيد البيان: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ [العَنكَبُوت : ١٨].

فالبلاغ المطلوب هو البلاغ المبين، البلاغ المقنع المستند إلى الحقائق الذي تطمئن له النفوس، وتركن له الأفئدة، وتمتلئ به الأعين وتتوق إليه، وتطمح لبلوغه أماني العقلاء[1].

فأين تجد ذلك كله في واقع المسلمين اليوم؟ وأين تجده في كثيرٍ من الأفكار الإسلامية التي يقدمها متحمسون بشكلٍ معكوس منكوس يسيء إلى القضية أكثر مما يحسن، ورحم الله مَن قال: ما يبلغ الأعداء من جاهلٍ ما يبلغ الجاهل من نفسه.

الكفر لغةً هو الستر، والستر هو كتم الشيء، وسُمي الفلاح كافراً لأنه يستر البذر تحت التراب، قال الله عز وجل: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحَدِيد : ٢٠] أي الزرَّاع.

فالكافر إذاً رجل عرف الحق على وجهه، وأتته البينات الواضحات المقنعات بالحجج الدامغات، فآثر هواه على هدى الله، فأدبر واستكبر، فحق فيه قول الله عز وجل: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النَّمْل : ١٤]

وأخبر القرآن الكريم أن أحداً لا يُقاد إلى النار حتى تقوم عليه الحُجَّة الساطعة، كما في قول الله عز وجل: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ [غَافِر : ٧١].

وقال: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا

[1] انظر: تصريح الشيخ كفتارو لصحيفة (الراية) المغربية، عدد (١٠٥)، تاريخ: ١٩٩٤/٨/٢م، وقد تضمن التصريح آراء جريئة في ترشيد الصحوة الإسلامية.

نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ [المُلْك : ٨ - ١١].

ومثل ذلك في القرآن كثير وكله يدل على الحقيقة ذاتها، وهي أن الحساب منوط بحصول البلاغ المبين، وهذا البلاغ مسؤولية قصَّر فيها المسلمون تقصيراً عظيماً.

ولهذا فإنه يختار أن يسمى الواقع الإنساني اليوم واقع جاهلية لا واقع كفر، فالإنسان عدو ما يجهل، وهل يُلام المرء إذا قدمت له عجوز شوهاء على أنها ملكة جمال فأعرض عنها؟ وهل يُلام على إعراضه إذا ما دُعِيَ إلى مائدة طعامٍ وهو جائع فأتاها فإذا هي طعام فاسد قد انقضت أيامه؟!

والمتأمل في واقع المسلمين اليوم يجد فيهم أسوأ مظهرٍ للشقاق والنزاع والتخلف والفرقة، مما يبعث في النفوس أشد الشكوك اضطراباً حول جدوى وغايات مثل هذا الانتماء.

وهكذا فإن على الدعاة أن يتعاملوا مع واقع الناس اليوم تعامل العالم مع الجاهل، والطبيب مع المريض، وليس تعامل القاضي مع المجرم، فالداعية الحق طبيب يعالج وليس قاضياً يعاقب، غاية الأمر أن ثمة حاجة أكبر لجهاد الكلمة والدعوة[1].

وليس هذا الفهم المتفائل يقتضي أن الأرض تخلُو من الأشرار والفجَّار وأنها مسرح للملائكة، ولكن لا ينبغي تعميم الحُكم على الناس بالشر وإنكار جوانب الخير فيهم؛ بل إن هذا المنهج من التفاؤل هو وحده الذي يبعث في نفوس الدُّعاة الآمال ليحملوا على كواهلهم مهمة الرسالة لا على أساس أنهم محض مبلغين قضائيين؛ بل على أساس

[1] انظر: تصريحات الشيخ كفتارو لمجلة (الخليج) الإماراتية في ١٩٩٥/٢/١٣م.

أنهم معلمون مرشدون وأطباء معالجون، يطلب إليهم الرفق والأناة، والعلم والحلم حتى يؤدُّوا دورهم على أكمل وجه.

الدين والحياة:

يرى الشيخ كفتارو أن الإسلام لا يمكن أن يناهض أي تقدُّمٍ حضاريٍّ يُسهِمُ في سعادة الناس وحسن تواصلهم، وقد دأب أنصاف المتعلمين على التشنج من هذه الحضارة، وتكلُّف إظهار المفاسد فيها بغرض تنفير الناس من الإقبال عليها حرصاً على سلامة دينهم واعتقادهم.

ولذلك فإنه عادةً ما تروج شائعات مضحكة محزنة عندما يفد أي جديدٍ حضاريٍّ يكون مصدره الغرب، كما شاع مثلاً عند وصول الهاتف أنه صوت الشيطان، كما ندد آخرون بالسيارة على أنها مركب الكفار وإعراض عن الخيل المحمودة بالسُّنَّة والإبل المحمودة بالقرآن.

وعندما جاء الراديو لم يتورع كثيرون عن الحكم بتحريمه على أساس مضاهاة خلق الله وغلبة المفاسد فيه، كذلك فإن كثيراً من الناس لا يزال يقول: إن التلفزيون هو الأعور الدجال الموعود، ويتورعون من إدخاله منازلهم، وأن أشد الناس عذاباً المصورون الفوتوغرافيون والمتصورون[1]، والأمر ذاته يُقال عند قدوم أي جديدٍ لم يألفه الناس من قبل.

والعجيب أن الناس سرعان ما تتغير آراؤها حينما يصبح الأمر ضرورةً لا مفرَّ منها، لكن بعد فوات الأوان وبعد أن تصبح هذه الوسائل في أيدي من لا يهتم أصلاً بهذا التحريم والتحليل الأرعن الذي لا يستند إلى منطقٍ ولا عقلٍ سليم.

[1] انظر كتاب: أحكام التصوير في الفقه الإسلامي للمؤلف، ط دار الخير بدمشق (١٩٨٦م).

ولا ينسى الناس تلك الفتاوى المحزنة التي صدرت عن مشايخ كبار عام (١٩٦٩م) يفتون فيها بتحريم الصعود إلى القمر، وإنكار كروية الأرض!

أما الشيخ كفتارو فقد كان بالفعل رجلاً حضارياً واضحاً، فهو أول شيخٍ في الشام يركب السيارة، وقد باكر إلى وسائل الإعلام من إذاعة وتلفزيون حين كان الخطباء على المنابر يعدونها مراكب الشيطان؛ بل دفع إليها إخوانه وتلامذته، فكان لهم أثر كبير في الحفاظ على بقيةٍ من البرامج الدينية النافعة في هذه الوسائل الإعلامية، ولا يزال يرى في التصوير الفوتوغرافي وسيلةً لتوضيح الحقائق وتوصيل المعارف ونقل الأخبار الصادقة، وقد أدخل التوجيه من خلال السينما والمسرح منذ أيامٍ معهد الأنصار في مطلع الستينيات[١].

ولقد كان إعراض الإسلاميين عن وسائل الإعلام خطأً فادحاً وغفلةً عن الوعي بالمستقبل، وإن من المؤسف أن كثيراً من رجال المنابر رصدوا خطبهم وعظاتهم لتحريم وسائل الإعلام، ووقفوا منها موقفاً سلبياً متشدداً، الأمر الذي أدى إلى خلوِّ الساحة الإعلامية من الصوت الإسلامي.

---

[١] كان من أبرز الأعمال المسرحية التي شهدتها مدينة دمشق عرض مسرحي كبير قام به مجموعة من إخوان الشيخ بالتعاون مع وزارة الثقافة في عام (١٩٧٠م)، وهو مسرحية يوسف عليه السلام التي تولى إخراجها وإعدادها الشيخ الشهيد محمد غالب الرفاعي، وقد صدرت عن مطبعة العلوم والآداب بدمشق، ويقول الشيخ الشهيد غالب الرفاعي في المقدمة: (لقد كان شيخنا –حفظه الله– مدركاً تمام الإدراك لهذا الأمر، ومدركاً أن بُعد الناس عن الإسلام إنما هو نتيجة لسوء الأسلوب الذي يُعرَض فيه الإسلام، فجدد أسلوبه، وطلب من المثقفين أن يعرض كلٌ منهم للإسلام من ناحية اختصاصه بأسلوب يتناسب مع عقلية القرن العشرين، وكان من نصيبي أن طلب مني تقديم قصة يوسف في شكل مسرحي؛ لأن ذلك أدعى إلى استرعاء انتباه الناس وإلى تثبيت العبرة في نفوسهم، (انظر كتاب: يوسف... ص٧)، أما مخرج هذه المسرحية وبطلها الأستاذ محمد غالب الرفاعي فقد لقي الله شهيداً عام (١٩٧٣م) خلال حرب رمضان، وقد ظهر منه صمود فريد على الجبهة، وقامت وزارة التربية بإطلاق اسمه على إحدى مدارس القابون، كما صدر كتاب خاص لترجمة حياته بعنوان: مهد البطولات ط دار الرشيد (١٩٧٤م).

لهذا فإن الشيخ كفتارو أَوْلى اهتماماً كبيراً لهذا الجانب، وخاض غِماره بنفسه، حيث قدم مئات الحلقات الإذاعية والتلفزيونية في القضايا الإسلامية الكُبرى، وقد جمعت عشرات من هذه الحلقات في كتابين اثنين: (محاضرات إذاعية) و(من هدي القرآن الكريم)، وكلاهما مطبوع ينتفع به الناس، وقد كانت الصحف تتولى نشر أحاديثه على صفحاتها المختلفة[1]، ومن خلال المنبر الإعلامي طرح الشيخ كفتارو أفكاراً عظيمةً في التسامح والتقارُب والإخاء، وفي مفهوم الدين الحق للحياة والتطور، وفي الوحدة الوطنية، وكانت كلماته دوماً محلَّ اهتمام الشارع السوري، يتلقاها المثقفون والمستنيرون بفرحٍ وغبطة، فيما يتناولها الجامدون بالجدل والاعتراض.

وأدرك الشيخ كفتارو أن الإعلام اختصاص، وأن من أوجب الواجبات إعداد الكفاءات اللازمة لهذا الواجب، فراح يبعث في أصحاب المواهب من إخوانه روح هذا الواجب، وقد دفع بالفعل إلى وسائل الإعلام عشرات من أبناء مسجد أبي النور، أذكر منهم اثنين مع التقدير الوافر لسائر العاملين المخلصين، وهما: الأستاذ زهير الأيوبي الذي كان خطيب جامع أبي النور، والأستاذ مروان شيخو عضو مجلس الشعب.

وقد قدم الأستاذ زهير الأيوبي عدداً من البرامج الإسلامية المتميزة في إذاعة دمشق والتلفزيون العربي السوري، ثم استأنف عمله ونشاطه في السعودية، حيث عمل مشرفاً على البرامج الدينية، ثم مديراً عاماً للإذاعات السعودية، ثم رئيساً لتحرير مجلة (المسلمون) أقوى المجلات الإسلامية طيلة فترة صدورها، وقد تحولت بعد ذلك إلى صحيفة (المسلمون) الواسعة الانتشار، وما زال –حماه الله– واحداً من ألمع الإعلاميين في مجال البرامج الدينية في العالم العربي.

[1] انظر مثلاً: صحف: الأيام – ريدرزدايجست إسلاميك.

وأما الأستاذ مروان شيخو –عضو مجلس الشعب السوري– فقد نبَغَ في إذاعة دمشق والتلفزيون السوري، وأفاد من موقعه النيابي في خدمة قضايا إسلامية إعلامية، ولا أبالغ إن قلت لك إنه قدم في الإعلام السوري وحده أكثر من ثلاثة آلاف حلقة دينية بين برامج إذاعية وتلفزيونية، كما قدم برامج إذاعيةً كثيرةً في الجزائر والكويت والإمارات والسعودية.

على سبيل المثال: فإن برنامج (تحية الإفطار) وهو برنامج ديني توجيهي متألق، يُبَثُّ عند الإفطار في رمضان في الإذاعة السورية، بدأ بتقديمه الأستاذ زهير أيوبي، واستأنفه الأستاذ مروان شيخو، وعند كتابة هذه السطور فإن إذاعة دمشق قد بثَّتْ منه ما يقرب من ألف حلقة.

وفي الإشارة إلى هذا النشاط كتب الباحث منذر الموصلي في كتابه (عرب وأكراد)[1]: (وهناك مروان شيخو من تلامذة كفتارو منفتحٌ نسبياً على حقائق العصر، وغير معممٍ، يلقي الأحاديث الدينية من الإذاعة، ويتلقى أسئلة المواطنين المتعلقة بأمور الدين، فيُجيب عليها بأسلوبٍ مبسَّطٍ متحررٍ من أساليب التعقيد والتقعير والترهيب، وابتكر أسلوباً متطوراً في تلقِّيه الأسئلة عبر الهاتف، مما أكسبه ثقةً وصلةً مع جمهوره الديني، وقد أصبح عضواً في مجلس الشعب عام (١٩٧٣م) وعام (١٩٧٧م)، وعام (١٩٨١م)، وحصل على نسبةٍ عاليةٍ من الأصوات بسبب شهرته الدينية).

وهكذا فإن الشيخ كفتارو يرى أن توافر هذه الوسائل مكسب إسلامي حقيقي؛ إذ أتاح لنا وسائل غير متوقعة للدعوة إلى الله وتبليغ الإسلام بالصوت والصورة إلى هذا العالم الكبير الذي أصبح كقريةٍ صغيرةٍ بفضل وسائل الاتصالات.

[1] كتاب عرب وأكراد، رؤية عربية للقضية الكردية، تأليف: منذر الموصلي، الطبعة الثانية (١٩٩١م).

فلماذا نتصور أن كل ما هو آتٍ من الغرب مؤامرة على الإسلام؟ ولماذا نتصور أن الفن عدو نهائي للإسلام؟ لماذا نفهم أن الرفاهية نقيض مطلق للتربية الإسلامية[1]؟!

إن الحضارة الغربية عرجاء، تشبه إنساناً بلا مشاعر، طورت المادةَ وأهملت الإنسان، جعلت من الشمعة مصباحاً، وحولت الحمار إلى سيارةٍ ثم إلى طائرة، واستبدلت الحمام الزاجل بالتلفون ثم بالفاكس، وطورت السكين فصارت رصاصةً ثم بندقيةً ثم مدفعاً ثم قنبلةً نوويةً مُهلِكةً، ولكنها لم تصنع شيئاً بالإنسان؛ بل ارتَدَّت به إلى انتكاسةٍ ماديةٍ مخيفةٍ، فأصبح يعيش أهمج أيامه على الأرض من تسلُّطٍ وظلمٍ وقهرٍ وشرٍّ، وليس في التاريخ قرن طافح بالدماء والحروب والمآسي كالقرن العشرين.

ولكن ذلك كله ليس مدعاةً لترك التمييز بين ما هو نافع وما هو ضار في هذه المدنية، وقد كان على الأمَّة الإسلامية لو أدركت رسالتها في الحياة أن تبادر هي إلى توظيف المعرفة في خدمة الإنسان، فما هذه المكتشفات إلا وسائل، وإن الكأس التي تشرب بها البرتقال هي ذاتها يشرب بها الخمر من دون أن تطلق على عين الكأس أنها حرام أو حلال.

---

[1] اقرأ في توضيح ذلك تصريح الشيخ كفتارو لصحيفة (المسلمون) السعودية، عدد (٣٧)، تاريخ: ١٩٨٥/١٠/١٩م، وفي تصريح آخر لمجلة (الشرق الأوسط) عدد (٢٤٧)، تاريخ: ١٩٩١/٣/٢٠م، قال الشيخ كفتارو: لو كنت أملك الطاقات لفتحت مشروعاً سينمائياً ومعهداً لتدريس السينما وإنتاجها، السينما وسيلة رائعة مسموعة ومنظورة، إنها تستطيع المساهمة في حمل رسالة الإسلام، وتقديمه للعالم بالشكل اللائق به، إنها دعوة أطلقها لأصحاب رؤوس الأموال لإقامة شركة مساهمة إسلامية يشارك بها العلماء المسلمون لإنتاج أفلام سينمائية تربوية تحمل روح الإسلام وعظمته، وفي تصريح آخر لصحيفة (السودان الحديث) السودانية، تاريخ: ١٩٩٤/٧/٣١م، نشرت الصحيفة على الغلاف نداءً قوياً وجهه الشيخ بعنوان: أطالب الأمة الإسلامية بإنجاز قمر صناعي إسلامي.

وإن الحربة التي قُتل بها حمزة بن عبد المطلب هي ذاتها التي قُتل بها مسيلمة الكذاب، وبها فعل وحشي بن حرب غاية القبح وغاية الحسن، وما ذلك إلا من تدبير المدبر، ووجهة نيته ومقصده.

وقد تميز نشاط الشيخ كفتارو بهذا الجانب، وبذلك فقد قاد كثيراً من المثقفين المستنيرين إلى حقل العمل الإسلامي، وتحلَّق حوله آلاف من الشباب المثقف يساهمون في الدعوة الإسلامية من خلال مواقعهم التنموية والعلمية على هدىً من الكتاب ونورٍ من السُّنَّة.

وبوسعك أن تلخص موقفه المستنير من النشاط الحضاري والعلمي من خلال كلمته الشهيرة التي قالها للرئيس الباكستاني أيوب خان، والتي أصبحت شعاراً إسلامياً ملهماً: أريد أن أرى أمام كل مئذنة مسجد مدخنة مصنع!

وفي بيان ذلك أنقل لك ما كتبته صحيفة المختار الإسلامية (ريدرزدايجست إسلامك) في عددها المختار الصادر في رمضان (١٣٨٦هـ) تحت عنوان: (**إن صنع الطائرات فريضة إسلامية كما أن الصلاة فريضة إسلامية**)، كتبت تقول:

طرح الشيخ أحمد كفتارو المفتي العام لسورية خلال زيارته لباكستان كثيراً من الأفكار على مائدة البحث أمام المسلمين، ولقد حلل في أحاديثه في كراتشي ولاهور سبب انحطاط المسلمين في القرون الأخيرة، وكان مما قاله:

لقد بدأ انحطاطنا منذ بدأنا بتقسيم الإسلام إلى شؤون دينية وشؤون دنيوية، وذلك أن الإسلام لا يقسم الحياة إلى حقول متفرقة لا تربطها رابطة؛ بل إنه يعتبر الحياة كوحدةٍ لا تتجزأ، وهو يدعو إلى تطويرٍ شاملٍ لكل مظاهر الحياة الدنيوية والروحية، وقد قال سماحته مخاطباً العلماء بشكل خاصٍّ بأن واجبهم ليس فقط أن يعلِّموا الناس

الصوم والصلاة والحج والزكاة، مع أنها بالطبع أساسية جداً، إنما يجب على العلماء أيضاً أن يؤكدوا على الدعوة إلى الإحاطة بالعلم في كل نواحي الحياة، سواء أكان علم اقتصاد أم اجتماع، نبات أم حيوان، تعدين أو صناعة... كما يجب اعتبار ذلك كله فريضةً دينيةً أيضاً، وأن على الإنسان الذي هو خليفة الله في أرضه، أن يدرس ويلمَّ بكل مظاهر خلق الله.

وتابع سماحته حديثه مشيراً إلى ما كان عليه المسلمون وما آلو إليه فقال:

إن المسلمين الأولين عندما كانوا يقومون بواجباتهم إنما كانوا يرسمون طرق الحياة للآخرين، فكانوا قادة فكرٍ وعلم، ولكنهم في العصور المتأخرة عندما تخلَّوا عن قيادتهم الفكرية للعالم، وعندما اعتبروا أن هذه أمور دنيوية وغير إسلامية، في ذلك الوقت بالذات دقَّ ناقوس الخطر.

وأشار المفتي العام أنه يوجد في القرآن الكريم ما يزيد عن ستة آلاف آيةٍ، منها ٥٠٠ آية فقط تبحث في الأحكام، وأقل من نصف هذه تبحث في شؤون التشريع والفقه، وبلا شكٍّ إننا حصرنا الإسلام كله في هذا الجزء الأخير فقط، بينما يوجد ما يُقارب ٤٠٠٠ آية تدعو باستمرارٍ إلى استعمال العقل والفكر، وإلى استنباط الحقائق التاريخية في نجاح الأمم والشعوب والحقائق العلمية من الطبيعة، كتغير الفصول ومظاهر الحياة والطبيعة المتعددة، فالقرآن الكريم لا يأمر المسلمين بأن يواظبوا على الصلاة والصوم فحسب؛ بل إنه يفرض عليهم أيضاً أن يستفيدوا من كل شيءٍ في هذا العالم.

ثم يشير سماحته إلى أن المسلمين كانوا في العصور المتأخرة يعملون بجزءٍ من القرآن متناسين الجزء الأخير، فيقول:

يجب علينا أن نبدأ بإدراك أن صنع الطائرات فريضة إسلامية كما أن الصلاة فريضة إسلامية، كما يجب عليك أيها المسلم أن تفهم أن تحسين أرضك من الإسلام كما أن الصوم من الإسلام، ويجب علينا جميعاً أن نرجع إلى ما كنا عليه عوضاً عن أن نبقى في جمودٍ فكريٍّ عِشْنا فيه منذ عصر انحطاطنا، يجب علينا أن نصبح مرةً أخرى عمالقة فكرٍ وفقاً لما يطلبه منا القرآن، وإننا لنأمل أن يصبح العلماء دعاة إسلام حق كما كان سلفهم الأول في عصور المجد الإسلامي[1]، اهـ.

ومن كلامه في تشجيع الصناعة:

القرآن الكريم دستور الأمة الإسلامية يقرؤه المسلمون كل يومٍ وفي كل مكان، ولكن هذه القراءة حجة عليهم حتى يفقهوا أحكامه وأسراره، فأين هي الأمة المسلمة التي تفهم معنى أسماء سور القرآن؟

حين نقرأ في القرآن الكريم سورة سبأ مثلاً، ألا ينبغي أن نتساءل لماذا سُميت هذه السورة بهذا الاسم؟

إنها دعوة إلهية لإقامة السدود في الأرض واستصلاح الأراضي، حيث جعلتها الآيات أمارةً ودليلاً على رحمة الله ورضاه، فيما أخبرت أن خراب السدود صورة من صور الغضب الإلهي.

[1] مجلة (ريدرز دايجست إسلامك) العدد الممتاز – صدر في رمضان (١٣٨٦هـ) عن السفارة الباكستانية بدمشق، وقد نشرت صحيفة الراية الأمريكية عدد رقم (١٦٦)، تاريخ: ١٩٨٧/١/١م تصريحاً مماثلاً لسماحته بعنوان: تصريح لسماحة مفتي سورية إن صنع الطائرة هو واجب إسلامي.

سورة الحديد: أليست مظهراً من مظاهر عناية القرآن بالمعادن الطبيعية وخيرات الأرض؟ وقد أوردت ذكر الحديد في الصناعات المدنية والصناعات الحربية، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحَدِيد : ٢٥].

وفي خبر نبي الله سليمان وداود أنت تجد أن أخصَّ نشاط هذين النبيين الكريمين كان في ميادين الصناعة، فكان داود رجل صناعات عسكرية: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾ [سَبَإ : ١٠ - ١١]

وكان سليمان رجل صناعة مدنية وعمرانية: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سَبَإ : ١٣][1].

أيها الإخوة: وللمقارنة والتنظير أقدِّم إليكم الآن شاهداً بسيطاً صغيراً، ودليلاً واضحاً بيّناً، ذلك أن أمم العالم ودولها في كل أقطار الأرض تحتفل بالشجرة في آخر شهرنا الميلادي هذا، احتفاءً بها وتشجيعاً للشعب على غرسها للقضاء على صحراوية الأرض، ومبادرةً إلى تجميل السهول والجبال بالأشجار الباسقات الزاهيات، وجلباً للأمطار وزيادة في الإنتاج، ويلقي المحتفلون في عيد الشجرة المحاضرات في هذا الموضوع، ويضعون اللافتات هنا وهناك مكتوباً عليها (ازرع ولا تقطع، إن الشجرة ثروة ومال).

أما برنامج الإسلام في تشجيع الزراعة وغرس الأشجار فإليك عزيزي المستمع بعض ما جاء به الإسلام من أحكام العناية بالشجرة، فإنه قد كساها حلية الدين وقدسيته، وأعطى للشجرة فيها حرمته وجلاله، ففي حقل القرآن الكريم نجده قد نوَّه بعظيم قدر

[1] عن كلمته في مؤتمر القرآن الكريم الذي أقامته المستشارية الثقافية الإيرانية في مكتبة الأسد بدمشق (١٩٩٤م).

الشجرة، حيث جعلها قبلة البهجة والجمال، ومتعةً وجلاءً للبصر والعين، وجعلها آيةً ناطقةً بالدلالة والبيان على مهندسها وبارئها رب العالمين الذي فلق النواة والحبة، وأخرج منها ملكة جمال الثمر اللذيذ والزهر المنعش البديع، فقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأَنْعَام : ١٤١].

وفي آيةٍ أخرى يقول: ﴿مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأَنْعَام : ٩٩].

ومن كلامه في تشجيع الزراعة أنقل إليك هذا المقطع من محاضرةٍ ألقاها في إذاعة دمشق:

أيها الإخوة: أما الحفاوة بالشجرة وتفصيل العناية بها في الأحاديث النبوية فهي أكثر من أن تحصر، ومَن يتأمل عناية النبي ﷺ بالشجرة، وحثه على جعل البلاد العربية والإسلامية غابات كثيفة من الأشجار الحراجية والمثمرة يعرف عند ذلك ويتيقَّن أن الإسلام ليس كما غرس الاستعمار في عقول مَن تبناهم وأوحى إليهم بأنه دين جمودٍ وتأخُّرٍ ورجعيةٍ وتقهقرٍ؛ بل عند الاطلاع والبيان يعلم أولئك المغرر بهم والمبعدون مكراً وخديعةً عن أبيهم وحصنهم الإسلام، يعلم أولئك أن تشويه الإسلام في أفكارهم والتزهيد فيه واستبداله بمبادئ أجنبية شرقية أو غربية إنما هو إبعاد للمسلمين وللعرب عمَّا به عزتهم وأمجادهم، وعمَّا به وحدتهم وسلامهم وقوتهم.

أيها الإخوة: فأصيخوا السمع معي إلى إرشاد الإسلام للعرب والمسلمين للعناية بالزراعة بشكلٍ عامٍّ وبالشجرة بشكلٍ خاصٍّ: يقول النبي ﷺ مرغِّباً ومحفِّزاً للعرب

والمسلمين في استصلاح الأراضي، وتحويل البُور فيها إلى أراضٍ زراعيةٍ إنتاجيةٍ، يقول في ذلك: (مَن أحيا أرضاً ميتةً فهي له، وما أكلت العافية منه فهو له صدقة)[1].

ويقول بشكلٍ أوضح وأصرح: (ما من مسلمٍ يزرع زرعاً أو يغرس غرساً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة أو سَبُعٌ أو دابة إلا كانت له به صدقة) أخرجه البخاري ومسلم.

ويقول أيضاً: (ما من مؤمنٍ يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه فهو له صدقة، وما سرق منه فهو له صدقة، وما أكل السَّبُعُ فهو له صدقة، وما أكلت الطيور حتى النملة والذرة فهو له صدقة، ولا يرزؤه -أي: لا يأخذ منه- أحد إلا كان لغارسه به صدقة)[2].

أيها الإخوة: إن الإسلام دين عملٍ وإنتاج، دين العقل والعلم، دين القوة والدولة، دين الأمل والرجاء، يحارب اليأس والقنوط والانهزامية، دين يوجب العمل على المسلم حتى ولو لم يَرْجُ الحصاد والثمر، يغرس في قلب المسلم أن الحياة علم وعمل، وأنه لا يجوز أن تضيع دقيقة بل ثانية على المؤمن من غير عملٍ، يقول النبي ﷺ: (إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة -أي: غرسة شجرة- فإن استطاع أن يغرسها فليغرسها)[3].

وروي أن رجلاً دخل على عثمان بن عفان وهو يغرس الغراس، فقال له: يا أمير المؤمنين، تغرس الغرس وهذه القيامة قد جاءت؟ فقال له عثمان: لَأَنْ تأتي القيامةُ وأنا من المصلحين خيرٌ وأحبُّ إليَّ من أن تأتيني وأنا من المفسدين.

---

[1] العافية: كل طالب رزقٍ من إنسان أو دابة أو طائر أو غير ذلك، والحديث رواه أحمد وابن حبان.

[2] رواه مسلم والبغوي.

[3] رواه أحمد والبزار.

لم يكتفِ الإسلامُ بالتنويه والعناية بالزراعة عند هذا الحد؛ بل انتقل بالزراعة إلى ما هو أجلُّ وأعلى من أن تكون العناية بها لأجل الإنتاج والجمال وطِيب الهواء فحسب، لقد كشف لنا الإسلام عن ناحية مهمةٍ تعطي الزرع والغرس قيمةً قدسيةً روحانية توجب على المسلم لا العناية بالشجرة فحسب؛ بل بما هو أدنى من ذلك وأصغر، فأوجب العناية بكل نبات زراعي نافع ولو كان من حشائش الربيع وزهوره.

قال النبي ﷺ في ذلك: (مِنَ الله لا مِنْ رَسولِه: لَعَنَ الله قاطع السِّدرِ)[1]؛ أي: الأشجار الحراجية، اهـ.

[1] رواه البيهقي في (السنن)، والطبراني في (مجمع الزوائد).

الصوم الطبي:

إنه لا يمكنك الحديث عن الشيخ كفتارو إلا إذا عرَّجت على الصوم الطبي، فهي مسألة تحمَّس لها الشيخ حماساً عظيماً، وأثارت في المجتمع السوري جدلاً كبيراً بين مؤيِّدٍ ومُعارِضٍ.

والصوم الطبي نوع من الحمية المتصلة يكتفي الصائم خلالها بالماء فقط ويترك سائر الطعام، وتتفاوت مدَّته بحسب المرض والمريض حتى يبلغ أحياناً خمسين يوماً متواصلة.

وقد بدأ الشيخ يطرح فكرة الصوم الطبي منذ مطلع الستينيات عندما اطَّلع على بعض الكتب في هذا المعنى لأطباء غربيين، وقد ثارت أولاً ثائرة جماعةٍ من الأطباء دفعتهم قلة المطالعة لما يأتي به العلم من جديدٍ إلى محاربة هذا الاتجاه على أساس أن الشيخ لا علاقة له بهذه المباحث،كذلك فإنهم لم يرَوا فيها إلا نوعاً من العلاج الواهم، وأن الثقافة الطبية الحديثة متجهة للقضاء على هذه الوسائل البدائية في العلاج.

واعترض ثانياً جماعة من المشايخ، حيث خُيِّلَ إليهم أن الشيخ يزهِّد –من خلال طرحه هذا– بالصوم الشرعي، ويدعو إلى استبداله بصيامٍ أوربيٍّ مستحدَثٍ.

أما الأولون فقد جاءت الأيام بنقيض ما تصوروه، فقد تعاظم أمر العلاج بالصوم، وخُصِّصت له مشافٍ خاصة، وأصبح له تعليم محترم يقوم عليه خبراء عارفون، كما أصبحت التجارب العملية التي تبلغ آلاف الحالات –وكلها مضبوطة بوثائق طبية أصولية– دليلاً علمياً فيه، مقنع لمن أراد أن يقنع.

وأما الآخرون فإنهم قوَّلوا الشيخ ما لم يقل، وعكسوا مراده وقصده، ولم يدركوا أن حديثه عن الصوم الطبي الذي هو علاج طبي محض يُراد به تذكير المسلم بفضل الله سبحانه وتعالى عليه؛ إذ شرع صوم رمضان وفيه عافية الأبدان وبلوغ الجنان.

فهو مع حماسته الكبيرة للصوم الطبي لم يتحدث يوماً عن أجرٍ موعودٍ أو ثوابٍ معهودٍ لمن يصوم هذا الصوم مهما طالت أيامه وصبرت جوارحه، ولم يُشِرْ يوماً في تصريحٍ أو تلميحٍ أنه ينفذ إلهاماً أو وحياً، ولم يكن يسمِّي هذه الحمية نسكاً أو عبادةً؛ إذ الله سبحانه لا يُعْبَد إلا بما شَرَع، غايةُ الأمر أنه يتحدث عن طريقةٍ علاجيةٍ محضةٍ شجعه عليها ما لمسه من أثرٍ حقيقيٍّ لذلك على نفسه أولاً وعلى إخوانه الذين نصحهم به وشجعهم عليه.

ولماذا لا يُسمَحُ لعالم دينٍ أن يتكلم في جانبٍ من المعرفة يشعر هو أنه أضاء فيه جديداً وقرب منه بعيداً؟!

ما العلم؟ إنه مجموعة الخبرات الموضوعية التي تؤدي إليها التجارب العملية، فإذا حدثك الرجل أنه شجع أكثر من ألف إنسانٍ على التداوي بالصوم الذي قرأ عنه عشرات الكتب كتبها أطباء أوربيون وأمريكيون كبار، وأدرك بالمراقبة والمتابعة نجاح هذا السبيل في تخفيف بعض معاناتهم؛ أليس له بعد ذلك أن يشير إلى ذلك من باب التحدث بنعمة الله؟

إنه في الحقيقة رجل واقعٍ لم يزعم يوماً أنه طبيب، ولم يزاحمهم في مناط اختصاصهم؛ بل إنه ومنذ أكثر من عشرين عاماً ينتدب لكل صائمٍ طبيباً خاصاً يلحظ حالته ويراقب صحته وفق المعايير الطبية العلاجية بالوسائل المعتبرة.

وقد حدثني الدكتور محمود البرشة الطبيب المتخصص في الأمراض الداخلية، وهو من أكثر الأطباء السوريين اشتغالاً بهذا الجانب: أنه قام حتى عام (١٩٩٤م) بتوثيق اثنتي عشرة ألف حالةٍ من الأفراد الذين صاموا صوماً طبياً، وأفادوا من هذه الحمية في تخفيف آلام كثيرة وإزالة أسقام خطيرة.

ومثل هذا العدد بلا ريبٍ كافٍ لتقرير صلاحية أي علاجٍ وجدواه بشكلٍ علميٍّ وموضوعيٍّ.

وقد أُعجب بهذه الطريقة مئات الأطباء ورجال الاختصاص، وكذلك فإنه لا يزال يستنكرها منهم كثير، ولكن الشيء المؤكد أن التقدم الطبي ليس ماضياً في عكس هذه الوسيلة العلاجية، فقد وفد على الشيخ شخصيات رفيعة من مختلف بلدان العالم الإسلامي لتحقيق هذه الفائدة، كان من أبرزهم الملاكم الأمريكي الشهير والداعية الإسلامي محمد علي كلاي الذي يعاني من مرض باركنسون، وقد صام في دمشق أربعةً وعشرين يوماً متواصلة، وأمكن وفق التقرير الطبي الأخير تحسن حالته بنسبة ثلاثين في المئة، وتحسَّنَ نُطْقُه بنسبة ستِّين في المئة، أما الضغط فقد عاد طبيعياً، واختفى التورم والروماتيزم[1].

أياً كان فإني لا أملك الدقة العلمية في وصف هذه الطريقة العلاجية وصفاً علمياً، كما إنني غير معنيٍّ بالانتصار لها؛ إذ هي لا تشكل بحالٍ نسكاً دينياً يجب أن نكشف عن حكمته وننتصر له، ولكنها جزء حقيقي من مساهمة الشيخ كفتارو في الحياة العامة تكشف لك عن شخصيته المتميزة في الاطلاع الواسع على كافة أنواع الثقافات، وأخذ

[1] كتبت الصحف العربية والدولية مئات المقالات في وصف حالة كلاي والتحسن الذي أصابه عقب ذلك، انظر على سبيل المثال: مجلة النهضة الكويتية، العدد (١٢٤٠)، تاريخ: ١٩٩٣/٣/٦م.

المفيد منها، والتأكيد على صلة الدين بالحياة، وكذلك في الدفاع عن رأيه والثبات على مواقفه إذا ما ظهرت له الحجج المقنعة بصحتها، إضافةً لعشقه للحقيقة والدفاع عنها.

وقد علمت مؤخراً أن مشروعاً ضخماً يُقام على أطراف مدينة دمشق بمساهمة عددٍ من كبار أطباء الشام بغرض إنشاء مشفى خاص يُسمى: مشفى كفتارو للعلاج بالصوم الطبي.

وكان الشيخ كفتارو يطَّلع على كل جديدٍ يُكتب في هذا الباب، وطلب ترجمة عدة كتب أجنبية تناولت أمر الصوم الطبي، وقد أمر بطبع بعضها، على سبيل المثال: كتاب الصوم الطبي، تأليف: آلان كوت، الذي طبعته مؤسسة الإيمان بدمشق، وقد كتب بنفسه مقدمةً إضافيةً لهذا الكتاب.

وأنقل فيما يلي ثبتاً كاملاً لمحاضرةٍ ألقاها في إذاعة دمشق عام (١٩٦١م) يظهر لك فيها منهجه القائم على الاطلاع الواسع والعلم الغزير، وتسخير الإنجازات العلمية لدعم مسيرة الإيمان وتمتين نجاحاتها في الحياة، ويجدر بك أن تلاحظ هنا أن هذا الحديث الإذاعي تم بثُّه عام(١٩٦١م)؛ أي قبل نحو خمسة وثلاثين عاماً من كتابة هذه السطور، وهي فترة كافية ليتبين فيها الصواب من الخطأ:

صوموا تصحوا

أيها الإخوة: في بعض بلدان أوربا وبعض بلدان الولايات المتحدة توجد مصحات ومستشفيات تعالج مرضاها وزبائنها لا على طريقة العقاقير الكيماوية، ولا بواسطة الحقن والإبر الجلدية أو العضلية والوريدية؛ بل إن هذه المشافي الحديثة تعالج مرضاها بشيئين خفيفين رخيصين: (الصوم والرياضة).

إن النظرية التي يستند إليها أصحاب هذه المنشآت الصحية في (التطبيب بالصوم) هو أن الكثير من الأمراض، والكثير من خطوط الوجه وتجعُّداته التي تشوِّه القَسَمات الحلوة في النساء والرجال، وأن الكثير من الشحم المتراكم، واللحم المتهدِّل، والقوى المنهكة، والنفوس المريضة... كل هذه العاهات والأمراض تعزى إلى التُّخمة المتواصلة والطعام الدسم المترف، مصداقُ الحكمة المأثورة: (المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء).

أيها الإخوة: إن الجسم يحتاج إلى كميةٍ معينةٍ من الغذاء، فإذا تناول الإنسان ما يزيد على حاجته حمَّل أعضاءه فوق طاقتها، وأتعب كبده وكليته، وأجهد قلبه في سبيل إرواء الكتل الشحمية.

إن العلاج في نظر مؤسِّسي مستشفيات الصوم يرجع إلى وجوب تطهير الجسم من السموم التي تشبَّعت بها الخلايا والأنسجة في الأمعاء والأحشاء، والتي تغلغلت في جميع أنحاء البدن بسبب النَّهَم في الطعام، وبسبب الجراثيم التي رافقت الطعام غير النظيف، مما يستلزم تطهير الأنسجة من هذه السموم المتراكمة طوال السنين.

إن الصوم وحده كافٍ في تطهير الجسد من جميع السموم والرسوبات المضرَّة كما وضح ذلك الدكتور (إدوارد بوي) الأمريكي، حيث يقول: ما من داءٍ ولا مرضٍ إلا وخارت قواه أمام الصوم، ولقد مضى عليَّ زُهاء ستٍّ وعشرين سنةً أعالج فيها المرضى بالإمساك عن الطعام إلى أن ترجع إليهم شهيتهم الصادقة وصحتهم الكاملة.

وكان لشيخ الأطباء (ابن سينا) طريقة خاصة يفرض فيها صوم ثلاثة أسابيع في كثيرٍ من الحالات المرضية، كما استخدم الدكتور (آلان) الصوم في علاج مرض النقرس وكذا السكر.

ويقول الدكتور الأمريكي الشهير (كارلو) عن صيام رمضان وفائدته ما نصه: إن الانقطاع عن الطعام مدةً كل عامٍ واجب صحي وفريضة طبية، سواء كان الصائم غنياً أو فقيراً؛ لأن الجراثيم ما دامت تجد الطعام متوفراً في جسد الإنسان فإنها تنمو وتتكاثر، ولكنها بالصوم تضعف وتذبل، ثم امتدح الدكتور الأمريكي (كارلو) دين الإسلام فقال: إنه يعتبر أحكم الأديان حيث فرض الصيام وفرض الصحة، ثم قال: إن محمداً الذي جاء بهذا الدين كان خير طبيبٍ وُفِّق في إرشاده وعمله، حيث كان يأمر بالوقاية قبل المرض، وقد ظهر ذلك في صيام شهر رمضان، وفي صلاة التراويح في كل يوم رمضان، حيث إن لهذه العملية الرياضية فائدةً كبرى في هَضْم الطعام.

ثم يقول الطبيب الأمريكي (كارلو): إنه مَرِض مرضاً طال أمده، وعجز عن علاجه، وكان يلازمه طبيب مسلم في أمريكا، فحرَّضه على الصيام، فصام معه شهر رمضان لا عن تديُّنٍ ولكن عن أملٍ في الصحة، ولا عن عبادةٍ ولكن رغبةً في أن يشفى، فوجد أن صحته تحسَّنت كثيراً في أثناء شهر رمضان، ولذلك فإنه إلى الآن يصوم كل سنةٍ شهراً كما يصوم رمضان كل عام.

أيها الإخوة: إن الانقطاع عن الطعام والشراب من الفجر إلى الغروب تحترق بواسطته الفضلات المتولدة عن الطعام، وتجفُّ السوائل الزائدة والمتراكمة، وبالصوم يجد الجهاز الهضمي راحةً له، وتنشط الغدد الهاضمة، وتقوى فيها خاصة الإفراز مع الزيادة في مقدارها، علاوةً عن إتلاف الصيام للأنسجة الميتة التي لا نفع لها.

ويقول الدكتور (إدوارد بوي) الأمريكي: إن القلب يجد في الصوم نفعاً كبيراً؛ لأنه لا ينفق من قوته في الصوم إلا خمسين بالمئة، بسبب أن الخلايا الضعيفة تندثر وتنقص ولا يبقى منها إلا ما كان قوياً وسالماً، وأن الدم يتناقص تدريجياً ويخفف من عمل القلب، أما مرور الدم وخلوه من المواد الغذائية ففيه راحة للقلب كبيرة، إلى أن قال:

ولا يخفى ما يجري في أثناء الصوم في الدورة الدموية من نقاوةٍ من الغازات والحوامض وأشباهها من السموم التي كثيرًا ما ينتعش القلب بنفادها، فتتجدد قواه ويدفع الدم بصورةٍ أنقى وأصح.

أيها الإخوة: ولكي تدركوا قيمةَ الصيام في عصرنا الحديث فما علينا إلا أن نتبع ما كتبه عظماء الأطباء في العالم، وما اكتشفوه به من منافع الصوم المؤكدة، ومن أنه الدواء الشافي لأكثر الأمراض التي تصيب الإنسان والحيوان، ومن بين الكتب التي أُلِّفَت في عظيم فوائد الصوم كتاب (الصوم الشافي) للدكتور (ديفة)، وكتاب (التطبب بالصوم) للعالم الروسي الشهير (ألكسي سوفورين)، وكتاب (الطب الحديث يترسم خطى الإسلام)، وكتاب (رمضان) للأستاذ (سعيد العريان)... وعشرات الكتب غيرها، كلها أُلِّفَتْ في الصوم وفوائده والاستشفاء به، حيث أُسِّسَت المشافي والمصحَّات في أوربا وأمريكا للاستشفاء بالصوم والرياضة فقط.

أيها الإخوة: إن الطب أعلن أن كثيراً من الناس الشَّرِهين في الطعام يحفرون قبورهم بأسنانهم وأضراسهم، أفلا نعجب بعد كل ما سبق من النبي سيدنا محمد ﷺ القائل منذ أربعة عشر قرناً: (ما ملأ آدميٌّ وعاءً شراً من بطنِه، بحسبِ ابن آدم لُقَيْماتٍ يُقِمْنَ صُلْبَه، فإن كان لا محالةَ فثُلُثٌ لطعامه، وثُلُثٌ لشرابه، وثُلُثٌ لنَفَسِه)[1].

وقد ورد في الأثر: (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع).

[1] رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه والبغوي.

أَلَا نعجَبُ أيها الإخوة من الاتفاق العظيم والتحالف الكبير بين الإسلام والعلم الحديث؟ حيث كُتُبُ العصر الحديث تعنى بالطب الشافي (بالتطبيب بالصوم) والنبي العربي الكريم ﷺ يقول منذ أربعة عشر قرناً: (صوموا تصحوا)[1].

أفلا يدلنا ما ذكر سابقاً أن بعض المقصود من الوقاية القرآنية في الصيام هو الوقاية بالصوم من الأمراض والأسقام، حيث يقول القرآن العظيم:

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البَقَرَة: ١٨٢ - ١٨٣].

وبعدُ أَفَلَيس المفطر في رمضان بغير عذرٍ شرعيٍّ يدلُّ على نفسه بسوء سلوكه على أنه جاهل وغير مثقَّفٍ، وأنه أحمق وناقص التربية، ومستهتر بأوامر الدولة، وخارجٌ على آداب المجتمع؟! وفي النهاية لا هو عربي ولا هو أمريكي ولا هو أوربي؛ بل ولا يستحي ولا يخجل... اهـ.

وبعد خمس وثلاثين سنة من إذاعة الحديث فإن مبدأ التطبيب بالصوم أصبح علماً راسخاً، وتحددت له أصول ودراسات، وتفرغ للمعالجة به أطباء كثيرون، وظهر جلياً أن المعارف الحديثة غير متجهةٍ إلى القضاء عليه؛ بل إنها متجهة إلى ترشيده وتطويره والمعالجة به.

ويمكنك أن تقول دون أدنى مبالغة: إن تطوير هذا الفن في منطقتنا عموماً يرجع إلى إصرار الشيخ كفتارو حصراً وجهوده الدائبة.

[1] رواه الطبراني في (الأوسط)، ورواه (أبو نعيم) في (الطب)، و(السيوطي) في (الدرر المنتثرة).

وقد أشرتُ من قبلُ أن مشفىً حديثاً يتم إنشاؤه في ريف دمشق وفق أحدث الأنظمة من أجل المعالجة بالصوم الطبي.

الشَّيخ والصَّحوة الإسلامية:

وعلى هامش الحديث عن التجديد فإن ثمةَ سؤالاً يطرح نفسه: ما هو موقع حركة الشيخ في حركات الصحوة الإسلامية القائمة؟

يشهد العالم الإسلامي صحوةً ظاهرةً أَذَّنَ لها جمال الدين الأفغاني، وما زال يتردد صداها منذ نحو قرنٍ حتى أصبحت اليوم حقيقةً ماثلةً للعيان تمثل أخصَّ مظاهر الحالة الاجتماعية والسياسية في العالم الإسلامي.

ولدى استقراء هذه الحركات المتعاقبة في مرحلة الصحوة فأنت تجد أن ثمة مناحٍ كثيرةً اتجهت إليها هم زعماء الصحوة الإسلامية، فبينما انطلق بها الأفغاني نشاطاً سياسياً شاملاً بعثها الإمام محمد عبده صحوةً فقهيةً تشريعيةً إصلاحيةً، ثم مضى بها رشيد رضا إلى اتجاهٍ سلفيٍّ محدودٍ.

وقد تبدت صورة هذه الصحوة على أرض الواقع على يد إمامٍ كبيرٍ هو الشيخ حسن البنا، وقد ألهم نجاحه في مصر كثيراً من الجماهير المسلمة في العالم، ولكن المنيَّة عاجلته قبل أن يعالج مستقبل الجماعة الذي اتجه في غير ما أراده الشيخ، واتخذ سبلاً هائجةً من المواجهة غير المبررة مع الحكم الوطني تمخَّضت في النهاية عن محض حزبٍ مشاركٍ في الحياة العامة.

وأما النجاح السياسي لحركات الصحوة فقد بشَّر به محمد إقبال، وولدت على أثره أول دولةٍ إسلاميةٍ في العصر الحديث باكستان، ثم انتفضت العمائم السُّود في إيران لتقلب موازين العالم الكُبرى وتبشِّر بالمجد الإسلامي الآتي، وجاءت على أثرها تجارب إسلامية في عددٍ من بلدان هذا العالم الإسلامي في السودان واليمن والسعودية وغيرها.

ومع أن أغلب الحركات الإسلامية في الداخل والخارج تتخذ طابعاً تجديدياً وتوافق على التجديد بالأصول التي أشرت إليها غير أنها تبدو عند التطبيق مكبَّلةً بألف قيدٍ، لا تملك أن تنهض من خلاله بجديد، اللهم إلا في بعض الجوانب البدَهية.

ويمكن القول هنا: بأن حركة الشيخ كفتارو من أكثر الحركات حماساً للتجديد والانفتاح، فقد شقَّ الشيخ كفتارو طريقه بثباتٍ للتعرُّف على الآخر، ولم ينظر من خلال نظارةٍ سوداءَ قاتمة؛ بل رأى في كل الخلق جوانب للخير، وربط من وشائج الصلة بالطوائف الإسلامية على اختلاف مشاربها مالم يسبقه إليه أحد.

ومع الأيام تحقق حركة الشيخ كفتارو انتشاراً واضحاً في أوساط المثقفين والمستنيرين وأصحاب الثقافة المتعددة، ويحظى فكر الشيخ كفتارو في بناء الحياة وتشجيع المعرفة باحترام كل الفعاليات العلمية والاجتماعية.

كما أن مرونته تجاه المسائل الشكلية من الزي والهيئة وصيغ التخاطب قرَّب الهوَّة التي كانت تفصل بين المتدينين والناس، ودفع عن الداعية الملتزم غربةً وعزلةً غير مجديةٍ ولا مفيدة.

ولفترةٍ خلَتْ ظلَّت أفكار الشيخ كفتارو بعيدةً عن طلَبة العلوم الشرعية عموماً الذين ينظرون عادةً نظرةَ ريبةٍ لكل دعوة تجديدٍ أو انفتاحٍ، ولكن ذلك أيضاً ولَّى وانتهى بعد أن أصبح لدى الشيخ أكبر جامعةٍ إسلاميةٍ متخصصةٍ في بلاد الشام.

هذا وإن حركةً دائبةً من الرجال والنساء في الدعوة إلى فكر التجديد تعمل بجدٍّ ونشاطٍ في شتى المجالات، لا تقتصر على أفرادٍ وأسماء؛ بل هي تشمل كل فردٍ عرف الله في ذلك الفردوس الإيماني العارم المسمَّى: **جامع أبي النور**.

وقبل أن نبدأ بتصنيف جهود الصحوة الإسلامية في أُطُرِها المنهجية لا بدَّ أن نشيرَ أولاً إلى موقع مدرسة الشيخ كفتارو في حركات النشاط السياسي الإسلامي، والذي يُراد به النضال في سبيل إقامة دولةٍ إسلاميةٍ، وفرض القوانين الشرعية، والدفاع الواقعي عن الأمَّة الإسلامية بالوسائل المجدية.

ولا نذيع سراً إذا قلنا: إن حركة الشيخ كفتارو ليس لها مشروع سياسي، وإنها تنطلق وفق قاعدةٍ قديمةٍ اختارها الشيخ لنفسه ولإخوانه، وهي الكفاح ضد الاستعمار، والتعاون البنَّاء مع الحكم الوطني، والتزام مبدأ جهاد الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فهو يرى أن السياسة اختصاص، وليس من الحكمة أن تسلَّم قيادة الجيش والاقتصاد لقادة المنابر والمحاريب، فالحياة اختصاص، وحسبنا أن نبعث في رجال الحكم الوطني الإيمان والأخلاق باستمرارٍ لنعينهم على ما أقاموا أنفسهم فيه، إضافةً إلى الدور الأهم في الإصلاح الاجتماعي والبناء الأخلاقي لإيجاد مجتمعٍ يحتكم بنفسه إلى الشريعة، ولا يلجأ إليها إلجاءً.

ويمكن تصنيف جهود الصحوة الإسلامية ضمن إطارين اثنين:

- **الإطار التقليدي:**

وهو يتمثل في العودة إلى مرحلةٍ زمنيةٍ في التاريخ الإسلامي، ويشترك فيه السلفية الذين يطالبون بتمثل حياة القرون الخيرية الأولى، وبعض الصوفية الذين ينشدون العودة إلى مبادئ أئمة الصوفية ومناهجهم، وبعض الفقهاء الذين ينشدون العودة إلى اختيارات الأئمة.

فهؤلاء جميعاً لهم مشاريع جاهزة موجودة سلفاً، والمطلوب الآن إعادة تركيبها على أرض الواقع.

فالذي يحكم نظرة السلفية إلى الطوائف مثلاً فتاوى ابن تيمية الجاهزة سلفاً، بصَرْفِ النظر عما يمكن أن يكون قد طرأ على هذاه الطوائف أو استجدَّ بشأنها، أو ما يكون قد أخطأ به ابن تيمية في حُكمه على طوائف عصره.

والذي يحكم نظرة الصوفية إلى إصلاح النفس هو اختيارات الأئمة الصوفية من أورادٍ مقررةٍ وأدعيةٍ مخصوصةٍ، بصَرْفِ النظر عن التفاوت الهائل بين مسلمٍ يقيم في مجتمعٍ بدائيٍّ وبين آخَرَ يقيم في عاصمةٍ أوربيةٍ في موقعٍ اجتماعيٍّ متميّزٍ.

والذي يحكم نظرة الفقهاء الشافعية مثلاً إلى الحوار مع الأديان الأخرى هو ما رجَّحه النووي في هذا الباب، بصَرْفِ النظر مثلاً عمَّا قد يكون طرأ على الأرض من أيديولوجياتٍ ومذاهبَ وآراء جديدة، وعما يمكن أن تكون فتاواه قد بُنيت عليه -إذ هو بشر غير معصوم- من نظرات غير صائبةٍ واستنباطات غير مستوعبة.

- الإطار التجديدي:

وهو يتمثل في التحقق بقول النبي ﷺ: (إن الله تعالى يبعث لهذه الأمَّة على رأس كل مئة سنةٍ مَن يجدِّد لها دينَها)[1].

وهكذا فإن الفكر التجديدي في الإسلام ليس دعوةً لتغييره وتبديله كما مهَّد لذلك هاملتون جب، ووقع في أحبله بعض رجال الفكر الإسلامي!

إن مقتضى التجديد أن نعودَ إلى جوهر الإسلام وحقيقته كما هو في نصوصه ومصادره الأولى، وهي بلا شكٍّ نصوص مَرِنة مستوعبة قادرة على استيعاب الزمان والمكان، وهي في معطياتها تدور بين ثابتٍ ومتغيّرٍ، فالثابت ما حسمت النصوص بيانه

[1] رواه أبو داود في كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المئة، رقم (٤٢٧٠).

صراحةً كأبواب العقائد والعبادات وكثير من المعاملات وغيرها، وأما المتغير فهو ما يجب أن يُقال لو أن المشرع يعيش عصر الحدث مما تشمله القاعدة: لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان.

فالحكم على الطوائف مثلاً غير منصوصٍ عليه بأعيانها، واليوم بدلاً من أن نستنطق فتاوى ابن تيمية المكتوبة فإننا نستنطق أبناء الطوائف أنفسهم لنتفهم ونقرر نحن مدى قربهم أو بُعدهم عن الإسلام في ضوء النصوص القطعية من الكتاب والسنة، بصَرْفِ النظر عن الفتاوى السابقة؛ إذ نحن أبصر بأهل زماننا.

وموقفنا من أهل الكتاب لا يقرره رأيٌ سطَّره فقيه مهما كان شأنه؛ بل يقرره كتاب الله وسُنة نبيه وموقف أهل الكتاب المعاصرين أنفسهم من الإسلام، ونحن في عصرنا الذين نميز موقعهم في علاقتهم بالإسلام على ضوء قول الله عز وجل: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ [آل عِمْرَان : ١١٣] .

فإن كانوا خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً فقد أخبر القرآن عنهم، وإن كانوا إذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول تفيض أعينهم من الدمع فقد بيَّن القرآن حالهم، وإن كانوا من الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله فقد علمت بمَ توعَّدهم القرآن.

وهكذا فإن رجل التجديد ينبعث نشاطه حراً غير مكبلٍ بقيدٍ، إلا القيد المعصوم المتمثل في قطعي الدلالة من الكتاب، وقطعي الثبوت والدلالة من السُّنة، وهي قيود منهجية ضامنة لا يفكر مجتهد حق بتجاوزها أو تهميشها، وهي قيود محدودة متناهية أمام حوادث الحياة التي لا تتناهى.

إن الله سبحانه فرض فرائضَ فلا تتركوها، ونهى عن أشياءَ فلا تفعلوها، وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيانٍ فلا تسألوا عنها.

إنها عبارة من جوامع الكلم النبوي الطيب تكشف لك عن خطأ ما يسعى إليه كثيرون من استنطاق نصوصٍ ساكتة.

كم في هذه الكلمة الجامعة: (وسكت عن أشياء) من دلالاتٍ عظيمةٍ لما ينبغي أن يجتهد فيه المجتهدون؟!

أليس على هدىً مِن ذلك كان الإمام مالك إذا سُئِل في مسألةٍ يُبادر بقوله: أكان ذلك؟ فإن قالوا: قد كان؛ أفتى بما يعلم، وإن قالوا: لم يكن؛ قال: دعوها لعالم زمانها.

الباب الثالث

وبعد...

فإن من الحكمة أن أشير هنا بالوقائع والأرقام إلى الآثار الباقية التي أنشأها الشيخ وأصبح لها وجودها الاعتباري، وهي ماضية في تحقيق أهدافها وفق ما رسم لها؛ إذ يمكن من خلال الاطلاع على هذه المؤسسات الاطمئنان بأن جهاد الشيخ باقٍ إن شاء الله في حياته في الأرض، وحين يطمئن إلى جوار ربه كما يليق بإنعام الله وإحسانه.

إن كثيراً من المجدِّدين والمصلحين ينفقون أعمارهم في الجهاد والإصلاح، ويملأ صوتهم مسمع الأيام، حتى إذا امتلأت من نشاطهم عيون الناس وآن للراكب المجاهد أن يترجَّل بقي بنيان إصلاحهم على ساقٍ بلا قدم، فما أسرع ما غار في الأرض ولم يعد بعد ذلك إلا ذكرى طيبة وخبراً صالحاً يتحدث الناس عن عطره ولا يجدون شميمه، ويسمعون جعجعته ولا يرون طحينه.

ولا كذلك الشيخ كفتارو، فإنه منذ استيقظت في خواطره رسالة التجديد قام يبنيها على أسسٍ راسخةٍ من الحكمة والاتزان وقراءة المستقبل، وأدرك أن الإصلاح الحق لا يُكتَبُ له البقاء إلا إذا تجرد عن الأشخاص ونهض على قدَميه حراً واضحاً، ولذلك فإن بقاءه ودوامه مرهون بقوة المؤسسات التي تلتزمه وتجاهد من أجله.

وفي هذا الباب فإني سأجتهد في رصد هذه المؤسسات التي أنشأها الشيخ لتأخذ على عاتقها رسالة الدعوة إلى الله وتجديد شباب الإسلام.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه المؤسسات حصلت على الشخصية الاعتبارية القانونية فيما يعمل بعضها الآخر بشكلٍ عفويٍّ؛ إذ ليس له سابقة في البلاد تنظمه وتُؤطِّره.

أ- القسم الأول: في مجال الدعوة والتعليم الإسلامي:

أولاً: حلقات التربية:

بدأ الشيخ كفتارو منذ منتصف الأربعينيات ينشئ حلقات التربية والتصوف، حيث بدأ منذ الأربعينيات بتطبيق قاعدة: (لكل خمسةٍ أمير)، فكان كل خمسةٍ من إخوان الشيخ يجتمعون أسبوعياً بإشراف أخٍ أسبق منهم في السلوك والطريق، فيتدارسون حكماً شرعياً، ويذكرون اسم الله سبحانه وتعالى، ويتفقدون أحوالهم الدينية والدنيوية.

وأنت تلمس حقيقة المصدر الذي ألهمهم هذا الانضباط الحكيم في سيرة النبي ﷺ يوم العقبة الثانية؛ إذ وفد عليه من أهل المدينة اثنان وسبعون رجلاً من الأوس والخزرج، وبعد تداول النظر مع خيار الأنصار قال رسول الله ﷺ: ابعثوا إليَّ نُقباءكم، فانتدبوا اثني عشر رجلاً منهم، فبايعهم النبي ﷺ وقال لهم: أنتم على قومكم كفلاء ككفالة الحواريين على أصحاب عيسى ابن مريم.

وبجهدٍ حسابيّ بسيطٍ يظهر لك أن الصحابة وُزِّعوا إلى اثنتي عشرة حلقةً في كل واحدةٍ منها خمسة أفراد، ومجموع ذلك يبلغ ستين رجلاً، إضافةً إلى النقباء الاثني عشر، فيكون المجموع اثنين وسبعين رجلاً هم تمام عدَّة مَن شهد بيعة العقبة الثانية.

ولست أميل إلى القول بأن هذا الاختيار والترتيب تم بشكلٍ عفويّ؛ بل كان ثمة بالتأكيد مشاورات واقتراحات وقوائم مفصلة يعدُّها مصعب بن عمير وأصحابه في المدينة تم إقرارها في النهاية من قبل النبي ﷺ، وليس من قبيل المصادفة أن يكون وفد المدينة وفق العدد المطلوب تماماً لإنشاء اثنتي عشرة حلقة، وقد ذكر بعض المؤرخين أن عدَّتهم كانت ثلاثة وسبعين رجلاً، وذلك بإضافة مصعب بن عمير إليهم، وقد شهدها أيضاً امرأتان تمهيداً لنشاطٍ نسائيّ واعدٍ ستعرفه المدينة المنورة فيما بعد.

ومن خلال نظام الحلقات أمكَنَ لمدرسة التجديد أن تصبح تياراً يبلغ عُمق المجتمع، يتداوله الناس بالبحث والاستدلال والمناقشة، وتحفظ به الجماعة المسلمة رشدها واستقامتها، فيشد القوي في الجماعة الضعيف، ويرقب المريد أحوال إيمانه وسلوكه وارتقاء يقينه وتقواه.

وقد تجَذَّر هذا النظام في جامع أبي النور، ثم انتقل إلى مئات المساجد والمراكز التي توزَّع فيها تلامذة الشيخ في مختلف المدن، وكان هذا النظام الرشيد يؤدي دوراً أوَّلياً معقولاً في نشر المعرفة بالعلوم الشرعية ورعاية أحوال السالكين.

ولم تكن هذه الحلقات تتبع نظاماً موحداً من جهة الأعداد والمراحل والأزمنة، ولكنها كانت تلتزم اتجاهاً واحداً من جهة الرعاية الدينية والأخلاقية والتربوية، وفي سائر الأحوال فإن شخصية المشرف تنسحب عادةً على منهجه وأسلوبه بمقادير متفاوتة، وقد طُرح مؤخراً نظام تعليمي موحد في الحلقات وفق منهج الدراسة الشرعية لغير المتفرغين، وهي خطوة مفيدة وضرورية لتحقيق فائدةٍ علميةٍ حقيقيةٍ من خلال نظام الحلقات.

وقد شجَّعَ الشيخ هذه الحلقات على القيام بنشاطاتٍ رياضيةٍ واجتماعيةٍ إلى جانب المهمة الأولى التي أُنيطت بها، وهي التربية والإرشاد، وبالفعل فإن ثمة جمعيات خيرية وسكنية نشأت من هذه الحلقات، وكذلك تزويج الشبان الملتزمين والشابات الملتزمات، كذلك فقد أُسِّسَ منتزه كبير على طريق المطار يشتمل على مسبح وملاعب وقاعات وخيام، إلى جانب رحلات دورية ومخيمات سنوية تشارك فيها أغلب هذه الحلقات.

ووجد الاختصاص سبيله في هذا النشاط، فثمة حلقات للأطباء وأخرى للتجار، وكذلك للمهندسين والتراجمة، وهو نشاط ظاهر ينطلق عادةً بشكلٍ عفويّ ثم يجد سبيله إلى العطاء والفائدة.

ولم يكن هذا النشاط خالياً من عثرات وأخطاء يجب إصلاحها، شأن أي عملٍ يقوم عليه أفراد كثيرون، وليس له نظام داخلي ضابط تراقبه مؤسسة متفرغة، فهناك مثلاً اغترار بالذات وضياع للأوقات، وإفراط في الانتماء على حساب حقوقٍ أسريةٍ واجتماعية، وغير ذلك من أمراض الحلقات، ولكن هذه الهوامش السلبية لا تلغي الفائدة الحقيقية من هذا النشاط الذي أثبت أثراً فعَّالاً في الإصلاح والتربية.

وهذا النظام موجود حقيقةً في كل جماعةٍ دينيةٍ واجتماعية، وإن يكن في جامع أبي النور أكثر وضوحاً وتأصُّلاً، ولكن لا يخلو منه مسجد نشيط أو حركة مؤثرة للذكور أو الإناث، وهو في الإناث أظهر، وغالب العلماء والدعاة تعرفوا على الله عز وجل في حلقاتٍ كهذه، وشقُّوا طريقهم لبناء دعوةٍ إسلاميةٍ من خلال حلقةٍ من هذه الحلقات.

والحلقات تشتمل على بذور قوتها وانتشارها في ذاتها، فعادةً ما تتفرَّع الحلقة القوية إلى حلقاتٍ، فيما تضمحل الحلقات الضعيفة، وكثيراً ما تفرعت الحلقة عشرات المرات وهي تزداد توفيقاً ونجاحاً ضمن نشاطٍ هرميّ متعاقبٍ يتوسع فيه النشاط من غير أن يفقد ارتباطه بجذوره، وتتواصل فيه القاعدة مع القمة في نشاطٍ متكامل.

وخلال ما يقرب من ستين عاماً أمضاها الشيخ كفتارو في قيادة الدعوة فإن الحلقات التي نشأت عبر هذه الدعوة ومن خلالها تعدُّ بالألوف وليس بالمئات، وليس في هذا الرقم أدنى مبالغة؛ بل هو حقيقة يدركها كل مَن يرقب هذا النشاط الأفقي

الهائل الواسع الانتشار في أغلب المحافظات السورية واللبنانية على وجه الخصوص، وكذلك في مدن الخليج والغربة التي فيها أفراد من جماعة الشيخ.

ومن أبرز الأسماء التي شاركت في هذا النشاط الحلَقي: السيد برهان حربة الذي توفي عام (١٩٦٨م) وهو في العشرينيات من عمره، وقد أسس حلقةً في مدرسة الصناعة تخرجت فيها مجموعة من الكوادر الفاعلة، واليوم رغم مرور نحو ثلاثين عاماً على وفاته فإن عشرات الحلقات لا تزال تحفظ له ذكرى الوفاء والمحبة، وتتابع ذات النشاط العلمي والتربوي الذي أنشأه المرحوم برهان حربة في جامع أبي النور من طلاب مدرسة الصناعة.

وكذلك فإني أذكر منهم الشهيد السيد محمد غالب الرفاعي الذي استشهد في حرب رمضان (١٩٧٣م) بعد أن أسس حلقةً قويةً في القابون لا تزال حتى اليوم تؤدي دوراً فعالاً في الإصلاح والتوجيه في القابون.

وكذلك أذكر الدكتور المرحوم غياث الأسطواني نجل العلامة الشيخ عبد الرؤوف الأسطواني الذي كان أول مَن أسس حلقة الأطباء في المسجد، والذي لقي ربه عام (١٩٧٥م) بعد أن خلَّف حلقةً متميزةً لا تزال إلى اليوم تؤدي نشاطاً طيباً.

وإنما ذكرت لك هؤلاء الثلاثة وهم ممن عاجلتهم المنيَّة وهم دون الثلاثين؛ لأكشف لك عن فاعلية الدور الذي تقوم به الحلقات في رسالة التربية والهداية، وهو دور لا ينتهي بموت أفراده، وهو صورة للحلقة الناجحة التي ترتقي بالأفراد من الارتباط بالفرد إلى الارتباط بالجماعة، فالارتباط بالعقيدة الإسلامية الحقة.

ثانياً: المعهد الشرعي للدعوة والإرشاد للذكور:

يرى الشيخ كفتارو أن التعليم الشرعي بحاجةٍ إلى إصلاحٍ جوهريٍّ، فثمة في الدراسة الشرعية انفصام ظاهر بين العلم والسلوك، فالعلم في المعاهد الشرعية، والسلوك في الطرق الصوفية، وكثيراً ما لا يهتم طالب العلم بسلوك الطريقة، أو يزهد السالك بطلب العلم الشرعي، وفي الحالتين فإن الداعية الحقَّ لا يمكن أن ينشأ من هنا ولا من هناك، وإنه يتحرك في الحالين بجهدٍ أبتر لا تبلغ به الغاية التي ترجوها لطرحٍ إسلاميٍّ حقٍّ.

فلماذا لا نجمع الطريق والعلم في منهج واحد؟ لماذا لا نوجِّه طالب العلم الشرعي في سلوكه كما نوجهه في دراسته؟

ثم إن العلم الشرعي نفسه بحاجةٍ إلى تمييز ما هو مهم مما هو أهم، وما لا يُستغنى عنه بما عنه غناء، فما جدوى الخوض مثلاً في دراسة أفكار فرق بائدة أكل الدهر عليها وشرب على أساس أنها جزء من العقيدة الإسلامية؟

لماذا لا تُنفَقُ هذه الأوقات في دراسة الفرق الاعتقادية المعاصرة كالبهائية والقاديانية والبابية ثم الماركسية والوجودية وغيرها؟!

ثم ما هذا التمييز المبهم بين العلم الشرعي والمعارف الكونية؟ ولماذا نصرُّ على تجهيل طالب العلم الشرعي بمعارف العصر من لغات وكمبيوتر واكتشافات، ولو على أساس تحقيق الاطلاع الضروري لما لا يسع عاقلاً أن يجهله؟!

كان الشيخ كفتارو يطرح دوماً الأسئلة في محاضراته العامة حول هذه الاستفسارات وغيرها، ويتمنى أن يجد سبيلاً لتحقيق هذه الأفكار على أرض الواقع، وتخريج دعاة من

نوعٍ آخر غير النموذج التقليدي الذي تنتهي مهمته عند إمامة الناس بالشعائر الدينية وفق مذهبٍ معتمد.

وكانت أول تجربةٍ له في هذا السبيل في أواخر الخمسينيات، حيث أسس معهد الأنصار في منطقة ساروجة، واستمر نحو عشرين سنة يؤدي رسالةً تربويةً طيبةً، حتى جاءت محافظة دمشق بالتنظيم الجديد الذي أسفر عن هدم معهد الأنصار بعد توقفه.

وفي عام (١٩٧٥م) افتتح الشيخ المعهد الشرعي للدعوة والإرشاد في طابقٍ غير مكتملٍ في المجمع الإسلامي، وباشر الطلاب الدراسة في غرفٍ بلا أبواب، وأرضٍ بلا بلاط، ونوافذ بلا زجاج، فقد كان بالفعل في سباقٍ مع الزمن، وأذكر أني كنت حينها في المجموعة الثانية للطلبة، حيث كنا ندرس بين أكوام الرمل وأكياس الإسمنت وقضبان الحديد.

وقد اتخذ هذا المعهد منهجه الذي اختاره الشيخ، وتميز بجوانب من التجديد والتطوير لا تجدها في سواه، فإلى جانب العلم الشرعي الذي التزم مناهج الأزهر فإن هناك التربية الروحية والإيمانية التي عهد بها إلى رجالٍ عُرفوا بالاستقامة والورع والمعرفة الصوفية، أمثال: الشيخ محمد بشير الباني، والشيخ رجب ديب، والأستاذ أبو الخير الصباغ، حيث كُلِّف هؤلاء الذاكرون بتنظيم برامج مكثفة لخريجي المعهد الشرعي في التربية والسلوك والإرشاد.

كذلك فقد تعددت وسائل التعليم والتربية في هذا المعهد، فإلى جانب قاعة الدرس وحلقة الذكر هناك مجالس الإقراء بعد الفجر التي عهد بها إلى كبار رجال الإقراء في الشام، ومنابر خُصِّصت للتدريب، ومجسمات بديعة تمثل الحرمين لدراسة أحكام الحج،

وكذلك فإن هناك وسائل حديثة دخلت في العملية التربوية كالمسرح والفيديو ووسائل الإيضاح المختلفة والرحلات العلمية والاستكشافية.

ونظام الدراسة في المعهد ست سنوات تبدأ بعد المرحلة الابتدائية، واليوم فإن المعهد يكون قد أمضى نحو عشرين عاماً، وتخرج فيه نحو ١٥٠٠ طالب، ويتابع الخريجون دراستهم في الكليات الشرعية، ويسهمون في الدعوة الاسلامية ورعاية الشعائر الدينية في مواقع مختلفة.

ثالثاً: المعهد الشرعي للدعوة والإرشاد (قسم الإناث):

وإلى جانب معهد الذكور قام الشيخ كفتارو بتأسيس معهد الإناث، وذلك بغرض تخريج داعياتٍ من النساء الملتزمات علماً وعملاً وسلوكاً، وقد التزم المناهج نفسها التي يدرسها معهد الذكور، وهي مطابقة لمناهج الأزهر في العلوم الشرعية، وقد جاء هذا المعهد بديلاً لمعهد بدر للإناث الذي أسسه الشيخ كفتارو في الستينيات، ومارس دوراً تعليمياً لعدة سنين حتى هدمته محافظة دمشق لدى إحداثها شارع الثورة.

والشيخ كفتارو يدرك دور المرأة في المجتمع، وخلال دعوته الطويلة فإنه يهتم عادةً بحلقات النساء، ويسرُّ إذا وجد فيهن موهبةً متميزةً، ومراراً كان يحضر ندوات تقوم بها النساء، ويستمع إلى شِعْرهنَّ وخُطَبِهنَّ؛ بل إنه أذن لعدة شاعرات منهن أن تنشد شعرها في المسجد، ويثني على بلاغتهن وفصاحتهن.

وقد يبدو ذلك تجاوزاً غير معتاد، وبالفعل إنه تجاوز، ولكنه ليس تجاوزاً للحدود الشرعية؛ بل هو تجاوز للمفاهيم التقليدية الشائعة من وجوب عزل المرأة عن الحياة، وهو مبدأ لم يقرَّه النبي ﷺ أبداً حين كان يأمر الخنساء أن تنشد شعرها في المسجد، ويقول في معرض إعجابه وإطرائه: هيه يا خناس! أسمعينا.

وإلى جانب العلوم الشرعية والتربية القلبية فقد تميز معهد الإناث بجوانب خاصة من العناية بالأسرة المسلمة والتدبير المنزلي، وقد أقام منذ عام (١٩٩١م) معارض سنوية وأسواقاً خيرية تضم إنتاج المرأة المسلمة من الأشغال اليدوية النافعة للمرأة والرجل والمجتمع، وقد لاقت بحول الله نجاحاً طيباً متميزاً.

وتقوم السيدة وفاء كفتارو كريمة سماحة المفتي بإدارة شؤون هذا المعهد منذ افتتاحه قبل عشرين عاماً وإلى اليوم، وقد تخرَّج فيه عدد يماثل ما تخرج من معهد الذكور.

رابعاً: دار الشيخ أمين كفتارو لتحفيظ القرآن الكريم:

حفظ الشيخ القرآن الكريم وهو ابن ثلاثة عشر عاماً، وذلك على يد شيخ قرَّاء الديار الشامية الشيخ محمد سليم الحلواني، وأُجيزَ منه وهو ابن أربعة عشر عاماً، وذلك عام (١٩٢٥م)، فهو بذلك أعلى الحفظة اليوم إسناداً؛ إذ إن سائر الحُفَّاظ والقُرَّاء اليوم في الشام إنما أخذوا عن الشيخ محمود فائز الديرعطاني الذي هو أحد تلامذة الشيخ محمد سليم الحلواني.

ومن خلال تحصيله للقرآن الكريم في سنِّ الصِّبا فإنه أدرك مدى ما يمنحه القرآن الكريم للداعية إلى الله من أسباب النجاح ومقوماته، ولذلك فإنه وجَّه عنايةً خاصةً لتنشيط هذا الاتجاه العلمي، فنذر داره التي وَرِثها عن أبيه لتصبح مقراً خاصاً لإقراء القرآن الكريم ونشر علومه، وبالفعل فقد تأسَّسَت دار الشيخ أمين كفتارو عام (١٩٨١م)، وتعاقب على الإقراء فيها والتدريس بها عدد من كبار شيوخ الإقراء في بلاد الشام، نعد منهم: فضيلة شيوخ القراء الشيخ محمد سكر، والشيخ عبد الصمد إسماعيل، والشيخ عدنان غرة، والشيخ إبراهيم حبش، وغيرهم ممن اشتهروا في بلاد

الشام بخدمة القرآن الكريم وانتفع بهم العباد والبلاد، وقد بلغ عدد الطلاب الذين انتسبوا إلى هذه الدار وفروعها عام (١٩٩٣م) حوالي ٢٥٠٠ طالباً وطالبةً.

وكان أكبر أثرٍ ظاهرٍ لهذه الدار هو النهضة القرآنية الكبيرة التي شهدتها الشام فيما بعد؛ إذ تأسست لها فروع في مختلف المساجد والمحافظات، كما أنشأت وزارة الأوقاف بدءاً من عام (١٩٨٢م) معاهد لتحفيظ القرآن بعد ملاحظة النجاح الكبير الذي حققته دورات القرآن في جامع أبي النور، وتولى نفس الطاقم المشرف على دار الشيخ أمين لتحفيظ القرآن الكريم الإشراف على هذه المعاهد لمدة خمس سنوات، حيث نظمت لهذه المعاهد برامج كثيرة ومسابقات عامة.

وتمنح دار الشيخ أمين كفتارو لتحفيظ القرآن الكريم إجازات الإقراء بالسند المتصل عبر مسانيد شيوخ الدار إلى الإمام عاصم بن أبي النجود الغاضري الكوفي من رواية حفص عن عاصم، كما تمنح عن طريق الشيخ محمد سكر إجازات الإقراء بالقراءات العشر المتواترة عن طريق الشاطبية[1].

كما تقوم دار الشيخ أمين كفتارو بتنظيم مسابقاتٍ عامةٍ لحفَّاظ القرآن الكريم في سورية تحت شعار: (**عمرة لكل حافظٍ لكتاب الله**)، حيث تُوفِدُ الفائزين سنوياً إلى المسابقات الدولية، وتوفد كل حافظٍ متقنٍ إلى الأراضي المقدسة لأداء العمرة الشريفة على نفقة الدار.

كما تقدِّم الدار براعمها وناشئتها في برامج يومية في رمضان عبر إذاعة دمشق والتلفزيون العربي السوري منذ عام (١٩٨٨م) وحتى هذا العام (١٩٩٥م).

[1] انظر: تصريح الدكتور محمود كفتارو والشيخ محمد سكر لمجلة (العالم)، عدد (٤٠٠)، تاريخ: ١٩٩١/١٠/١٢م.

خامساً: المعهد التأهيلي للناطقين بغير العربية:

(دار الشيخ أمين كفتارو لتعليم اللغة العربية):

تأسست دار الشيخ أمين كفتارو لتعليم اللغة العربية عام (١٩٨٧م) في دارٍ خاصةٍ في حي الزينبية شمال مسجد أبي النور، وأخذت الدار على عاتقها تأهيل الطلبة الوافدين إلى دمشق بأصول اللغة العربية وقواعدها[١]، وبالفعل فقد تلقَّفت الطلبة من نحو أربعين جنسية مختلفة، حيث تم إعداد مجموعة من المناهج الخاصة لتعليم اللغة العربية، وقد تم تأهيل المئات من القادمين لإتقان اللغة العربية وفق أصولها، ومن ثَم لتحصيل العلوم الشرعية.

وإنك ليأخذ بك العجب حين تلمس مدى ما يحققه برنامج التأهيل هذا من نجاحٍ وتوفيق، حين تلتقي هؤلاء الوافدين فلا تدرك أنهم أعاجم إلا من لونهم، أما الخطاب والحديث والكتابة فإنها تشير إلى أداءٍ عربيٍّ أصيلٍ.

وإلى جانب هذه الدار للذكور أسس الشيخ داراً أخرى لتأهيل الإناث وتعليمهنَّ اللغة العربية، وبها اليوم مجموعة منتخبة من المسلمات من الصين واليابان وتركيا والجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى وقفقاسيا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

وخلال ثمانية أعوام من تجربة هذه الدار تأهل المئات من المسلمين والمسلمات الأعاجم، وقد تأصلت هذه التجربة اليوم، وأصبح للدار رصيد نادر من المدرِّسين الأكْفَاء الذين يتقنون لغات العالم الإسلامي، ومن الكتب المطبوعة التي تناسب مختلف

[١] مجلة (العالم)، عدد (٤٠٠)، تاريخ: ١٢/١٠/١٩٩١م.

المشارب والمطالب والتي صدرت عن الدار من تأليف المدرِّسين فيها، أو جمعت من المؤسسات المهتمة بتعليم اللغة العربية.

سادساً: كلية الدعوة الإسلامية:

كان الشيخ كفتارو قد رتب برنامجه التعليمي على أساس إيفاد المتخرجين في المعهد الشرعي إلى جامعة الأزهر، وقد حصل لأجل ذلك على الموافقات اللازمة، وأذكر أن بعثةً أزهريةً خاصةً قدمت إلى دمشق عام (١٩٧٧م)؛ لتطَّلع على واقع المعاهد الشرعية في مجمَّع أبي النور الإسلامي، وحينما التقى بنا رئيس البعثة واستمع إلى نشيد المعهد من حناجر الشباب المشتعلة حماساً أذكر حينذاك أن الرجل لم يكفَّ عن البكاء وتلقف المدامع طوال النشيد، حتى دفع إليه المرحوم الشيخ زاهر كفتارو منديلاً أبيض يمسح به دموعه.

وهذا النشيد الخالد الذي اختاره الشيخ للمعهد هو قصيدة إقبال الرائعة التي ضمنها أماني المسلمين في خلق حاضرٍ موصولٍ بالماضي المجيد، وأبسط لك القصيدة هنا إتماماً للفائدة:

الصين لنا والعرب لنا ... والهند لنا والكل لنا
أضحى الإسلام لنا دينا ... وجميع الكون لنا وطنا
توحيد الله لنا نور ... أعددنا الروح له سكنا
الكون يزول ولا تمحى ... في الدهر صحائف سؤددنا
بُنِيت في الأرض معابدنا ... والبيت الأول كعبتنا
في ظلِّ السيف تربينا ... وبنينا العز لدولتنا
هو أول بيتٍ نحفظه ... بحياة الروح ويحفظنا

علم الإســـلام على الأيام ... شـــعـار المجـد لمـلَّـتـنـا
وأذان المســـلم كـان لـه ... في الغرب صـــدىً من همَّتنا
قولوا لســـماء الكون: لقد ... طـاولنـا النـجم برفعتنـا
يا دهر لقـد جربـت على ... نـيران الشـــدة عـزمـتـنـا
طوفـان البـاطـل لم يُغرِق ... في الخوف ســفينـة قوتنـا
يا ظـل حـدائق أنـدلس ... أنســيت مغاني عشـــرتنا؟
وعلى أغصـــانـك أوكـار ... عمرت بطلائع نشـــأتنـا
يا دجلة هل سـجلت على ... شـــطَّيـك مـآثر عزتنـا
أمواجـك تروي للـدنيـا ... وتعيـد جواهر ســيرتنـا
يا أرض النور من الحرمين ... ويا مـيـلاد شـــريـعـتـنـا
روض الإســـلام ودوحتـه ... في أرضـــك رواهـا دمنـا
ومحـمـد أمـير الـركـب ... يـقـود الـفـوز لـنصـــرتـنـا
إن اســـم محمـد الهـادي ... روح الآمـال لـنـهضـــتـنـا
دوت أنشـــودة شـــاعرنا ... جرســـاً يحـدو فيـه الزمنـا
ليـعـيـد قـوافـلـنـا الأولى ... في المجـد ويـبـعـث أمـتـنـا

وأُرسلت بالفعل أول بعثةٍ من خريجي المعهد للدراسة في الأزهر، وذلك عام (١٩٧٨م)، ولكن الظروف السياسية المتفجرة، ودخول مصر في اتفاقية كامب ديفيد، وقطع العلاقات العربية بمصر... كل ذلك أدى إلى توقف الإيفاد من جامع أبي النور إلى الأزهر.

وتم قبول دفعتين من خريجي المعهد في جامعة دمشق – كلية الشريعة، وذلك استثناء من نظامها العام الذي لا يعادل الشهادة الشرعية من المعاهد الخاصة بالشهادة العامة، وقد كان هذا الاستثناء لفتةً كريمةً من السيد الرئيس حافظ الأسد خصَّ بها هذا المجمع الإسلامي.

ولكن هذا الوضع لا يدوم ولا يستقر، فلم يكن ثمة بُدٌّ من إيجاد وضعٍ دائمٍ أكثر استقراراً.

وهنا توجه الشيخ كفتارو إلى ليبيا، فقد كانت هذه البلد تشهد إرهاصات وحدة سياسية مع سورية، وهي بلد شديد الحماس للقضايا الإسلامية والعربية ولها اهتمام كبير بالدعوة الإسلامية في الآفاق.

وفي زيارةٍ خاصةٍ للشيخ كفتارو إلى ليبيا التقى بالعقيد معمر القذافي قائد الثورة الليبية، وكان لقاءً مثمراً وناجحاً نتج عنه إحداث فرعٍ لكلية الدعوة الإسلامية في دمشق بعد التنسيق مع القيادة السورية.

ولدى افتتاح هذا الفرع أرسل الشيخ وفداً من خيرة إخوانه، فطافوا على المحافظات السورية، وشرحوا للمعاهد الشرعية القائمة ما حققوه من كسبٍ كبيرٍ للتعليم الشرعي العالي في سورية، حيث كان طلبة المعاهد لا يجدون أي سبيلٍ يستكملون فيه تحصيلهم الشرعي بعد قطع العلاقة مع مصر.

وكانت السنوات الأولى لهذه الكلية من أعظم مواسم البركة في الشام؛ إذ تزاحم على مقاعد الدراسة سائر أبناء المعاهد الشرعية على اختلاف مناهجم وطرقهم، وهو لقاء لم يحصل للأسف من قبل، ولكنه أفاد أعظم الفائدة في تقريب قلوب الدعاة الذين فرَّقهم البُعد، والبُعد جفاء!

وتلتزم كلية الدعوة منهاجاً دراسياً قوياً في جانب اللغة العربية والدعوة الإسلامية والإعلام، ولا بدَّ من استكمال المشروع الذي أمر به الشيخ من تقوية المعارف الفقهية فيها.

وبدءاً من عام (١٩٨٢م) حيث بدأت الدراسة في كلية الدعوة الإسلامية فإنه يتخرج سنوياً نحو مئة طالب وطالبة، وقد بلغ عدد الخريجين حتى عام (١٩٩٤م) ٨٧٠ من المجازين في الدعوة الإسلامية وعلوم اللغة العربية، وهم يؤدون اليوم واجبهم على وجهٍ مُرْضٍ.

سابعاً: كلية أصول الدين:

ومع مطلع التسعينيات تبيَّن أن كلية الدعوة الإسلامية لم تعد تستوعب سائر أبناء جامع أبي النور والوافدين عليه الراغبين في تحصيل العلم الشرعي، فقد كان الإقبال يتعاظم يوماً بعد يومٍ، وأصبح الشيخ كفتارو رمزاً للتوفيق في خدمة العلوم الشرعية، ولأجل ذلك بدأ التفكير بكليةٍ ثانيةٍ تستوعب الأعداد الهائلة الراغبة في العلم الشرعي، وتعالج النقص الواضح في منهاج العلوم الشرعية.

وهكذا فقد توجه الشيخ كفتارو إلى السودان عام (١٩٩٠م)، وهي تشهد حالةً إسلاميةً متميزة، والتقى الرئيس السوداني عمر البشير، ثم قام بعقد اتفاقيةٍ مع جامعة أم درمان الإسلامية؛ لإيفاد المتخرجين من دمشق إليها، على أن تكون دراساتهم وامتحاناتهم بدمشق.

وتعتبر جامعة أم درمان الإسلامية من أعرق الجامعات الإسلامية في العالم؛ إذ بدأت بمنهج الدرجات الأكاديمية عام (١٩١٤م)، وما زالت تؤدي دورها التعليمي بدون أي انقطاع.

ولكلية أصول الدين منهاج قوي في العلوم الشرعية يعتمد الكتب الأصول في كل علمٍ شرعيٍّ، وهو منهج مطلوب وضروري لتخريج طالب علمٍ متمكنٍ، وقد بدأت الدراسة فعلاً عام (١٩٩٢م)، وستتخرج أولى الدفعات خلال عام (١٩٩٦م).

ثامناً: قسم الدراسات العليا:

ونظراً للأعداد الكبيرة المتخرجة في الدراسة الشرعية، فإن الحاجة تأكدت لتوفير فرص الدراسة في المراحل العالية بما يكفل توفير رجال الاختصاص والاجتهاد الذين تنهض على كواهلهم حركة التجديد، وهكذا فقد تم الاتفاق مع ثلاث جامعات وكليات إسلامية، وهي:

١- جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان.
٢- كلية الدعوة الإسلامية في ليبيا.
٣- كلية الإمام الأوزاعي في لبنان.

وقد اتُّخِذَت الترتيبات الكافية لتسجيل الطلَبة في أقسام الدراسات العليا التابعة لها، والتزمت جامعة أم درمان بإحداث شعبتين للدراسات العليا: الأولى للفقه المقارن، والثانية للتفسير وعلوم القرآن في قاعات مجمع أبي النور الإسلامي، بينما تنظم الجامعات الأخرى دوراتٍ محددةً أو تشترط إقامةً معينةً في مقرَّاتها.

وتتم الدراسة العليا في المجمع الإسلامي في جامع أبي النور على ثلاث مراحل: الدبلوم فالماجستير فالدكتوراه، وقد بلغ عدد المنتسبين إلى الدراسات العليا لغاية عام: (١٩٩٥م) ٢١٢ طالباً وطالبةً.

وقد تعاقب على التدريس في المجمع الإسلامي نخبة مختارة من خيرة علماء الشام، نعد منهم: المرحوم الشيخ محمد حمزة، والعلامة الكبير المرحوم الشيخ محمود الرنكوسي، والشيخ العلامة المرحوم عبد المجيد جعفر، والعلامة المرحوم الشيخ أحمد الكناكري، والدكتور فوزي فيض الله والدكتور مصطفى الخن، والدكتور محمد حسن الحمصي، والدكتور نور الدين عتر، والدكتور وهبة الزحيلي، والدكتور محمد الزحيلي، والدكتور الشيخ محمد بشير الباني، والأستاذ الداعية مروان شيخو عضو مجلس الشعب السوري، والشيخ عمر الصباغ، والشيخ محمد رجب ديب، والدكتور زياد الأيوبي، والدكتور محمد خير هيكل، والدكتور محمد علي سلطاني، والدكتور مازن المبارك، والدكتور فريز منفيخي، والدكتور بديع اللحام، والدكتور حمزة حمزة، والدكتور محمد الشربجي، والدكتور رياض الجبان، والدكتور الطيب الإبراهيمي، والشيخ منذر الدقر، وغيرهم من أعلام الفكر والقلم.

ويعكس ذلك أمرين اثنين:

الأول: نجاح الأداء الإداري الذي جعل جامع أبي النور مركزاً حقيقياً للتعليم الشرعي في الشام.

الثاني: رغبة الشيخ كفتارو في الإفادة من سائر الطاقات العلمية والعملية في دمشق في سبيل تحقيق أمنيته في تخريج جيلٍ متمكنٍ أمينٍ يقوم على خدمة الدعوة الإسلامية.

تاسعاً: قسم الدراسات الإسلامية لغير المتفرغين (الجامعة المفتوحة):

منذ بداية دعوته اعتمد الشيخ كفتارو منهج العمل الجماعي في خدمة الإسلام، وهكذا فكل مسلمٍ ملتزمٍ إنما هو رجل دينٍ ينصح من موقعه ويرشد وفق طاقته وعلمه، وكان يشير إلى أن أصحاب النبي ﷺ لم يكونوا خريجي جامعاتٍ متخصصةٍ، ولم يُمنَحوا

مواقعهم وفق درجاتٍ أكاديميةٍ، وإنما مُنِحُوا مواقعهم بحسب واقعهم، وخلَّدَهم في الأرض جهادهم وبذلهم.

وكذلك فإن انتصاراتٍ كثيرةً في التاريخ الإسلامي لصالح الدعوة إلى الله كانتشار الإسلام في أفريقيا وجنوب شرق آسيا مثلاً تمت على أيدي أفرادٍ من التجَّار والمسافرين الذين لم يكونوا علماء متخصصين بالمعنى الأكاديمي اليوم.

ولكن على ذلك فإنه ليس ثمة بدٌّ من تأمين حدٍّ أدنى من العلم الشرعي الضروري زاداً وسلاحاً لكل داعيةٍ يُبَشِّر بالإسلام مهما كان موقعه ثانوياً في حركة الدعوة.

ولماذا يبقى الطبيب والمهندس والتاجر والعامل غريباً عن ثقافته الإسلامية؟ ولم لا يتاح له منهج تعليمي يتوافق مع ظروفه وأشغاله؟!

من أجل ذلك قام الشيخ كفتارو بإحداث قسمٍ خاصٍّ في المجمع الإسلامي يُعْنَى بتنظيم شؤون الدراسة لغير المتفرغين في مختلف مواقعهم، وبالفعل فقد تم إقرار منهاجٍ علميٍّ تعاقبيٍّ حرٍّ على مستوىً جامعيٍّ يسلكه المرء أياً كان موقعه، فيحصل على رصيدٍ وافرٍ من المعارف الشرعية المنتخبة، فيما هو نواة لجامعةٍ مفتوحةٍ تُعنى بالعلم ولا تُعنى بالشهادة، وهو نظام فريد من نوعه في المنطقة، وقد حقق نتائج باهرة.

وحتى عام (١٩٩٥م) فإن عدد المنتسبين إلى هذه الجامعة المفتوحة يزيد على ٤٠٠٠ طالب وطالبة، تجد فيهم أستاذ الجامعة والعامل والتاجر والمهندس والطبيب ومن كافة التخصصات.

عاشراً: مكتب الترجمة والنشر:

يؤكد الشيخ كفتارو دائماً على ضرورة تعلم اللغات الحيَّة، وهو يدرك حقيقة ما يجب أن يكون عليه الدعاة من إحاطةٍ باللغات الحيَّة إذا أرادوا أن ينطلقوا بدعوتهم حيث أمرهم الله عز وجل.

ونظراً للموقع الكبير الذي أصبح فيه مجمع أبي النور، حيث لا يمر بالشام زائر ديني أو ثقافي إلا ويزور مجمع أبي النور، وكذلك فإن ضيوف الإسلام من مختلف أصقاع العالم يَفِدون إلى المسجد، فإن الحاجة متأكدة لوجود مكتبٍ خاصٍّ بالترجمة والنشر، كذلك فإن محاضرات الشيخ الدورية –وهي تمثل عماد التجديد الذي جاء به الشيخ– يحضرها ضيوف كثيرون من بلدانٍ إسلاميةٍ مختلفةٍ ومن مدنٍ أوربيةٍ وأمريكيةٍ ويابانيةٍ، ولهذا فإن الترجمة الصحيحة للفكر الحي هي وحدها اللسان الناطق الذي يبلغ موقعه في الهدى والبلاغ.

وقد بُدِئَ بالفعل منذ عام (١٩٩٣م) بترجمة كل محاضرات الشيخ ترجمةً فوريةً موثقةً على كاسيت منتظم؛ ليُصار فيما بعد إلى إعداده للنشر والتوزيع، كما تتمُّ طباعة المحاضرات المهمة باللغة الإنجليزية وتوزيعها.

حادي عشر: مكتب رعاية الدعوة الإسلامية في الخارج:

خلال دعوته الطويلة كان الشيخ كفتارو ينثر بذور التجديد الإسلامي في كل أرض يزورها، حيث يتعلق به أبناء المسلمين والباحثون عن الحقيقة من الناس، يرجون منه تواصلاً غير منقطعٍ مع جهود الدعوة التي يبذلها فيهم، وآمال التجديد التي يدعوهم إليها، ولكنه لم يكن يملك لهم إلا نفسه التي بين جنبيه، فكان يقدمها بين أيديهم طيلة أيامه فيهم، حتى إذا همَّ بالعودة إلى عشه الذي يرعاه في الشام لم يكن له إليهم وسيلة يخدمهم بها إلا الدعاء الصالح، وأعظِم به من زادٍ كريمٍ!

وكان إذا توجه أحد إخوانه إلى بلدٍ ما في الشرق أو الغرب لغرض عملٍ أو دراسةٍ يبعث فيه روح الحماس للدعوة والتجديد، ويصله بدعواته ورسائله وتوجيهاته، وكان هذا يؤتي ثماراً طيبة، حتى كان كثير من هؤلاء يترك ما جاء لأجله ويتفرغ للدعوة إلى الله عز وجل شوقاً وحباً.

ولكن رسالة الدعوة والتجديد في الأرض لا يمكن أن تقوم وفق هذا السبيل فحسب؛ بل لا بد من إيفاد دعاةٍ متفرغين مهيَّئين، ومراقبة نشاطهم وعملهم، وتقديم الوسائل الممكنة لنجاح نشاطهم حيث كانوا؛ لذلك فقد كلَّف الشيخ كفتارو مجلساً من الإداريين الأكفياء الناجحين في مجال الدعوة والعلاقات العامة لتأمين رعاية الدعوة الإسلامية في الخارج، والاتصال المنتظم بكوادر الدعوة التي أوفدها المجمع، وعقد الصلات والاتفاقيات مع الحركات الإسلامية المنتشرة في الشرق والغرب[1].

وبالفعل بدأ هذا المكتب نشاطه منذ مطلع التسعينيات، حيث عُقِدَت اتفاقيات علمية وثقافية ودعوية مع الجمعيات الإسلامية في جمهوريات آسيا الوسطى وقفقاسيا وأوربا الشرقية بغرض تشجيع الدعوة الإسلامية عن طريق تقديم المنح الدراسية وإيفاد الدعاة وبناء المدارس الإسلامية.

وهكذا فإن إمكانيات المجمع الإسلامي في مجال الدعوة والتجديد قد أمكن توزيعها إلى مواطن الحاجة على أحكم وجهٍ وأتم مقصودٍ.

[1] انظر في أثر هذا النوع من النشاط في جامع أبي النور ماكتبته صحيفة (الرأي العام) الكويتية، عدد (٨١٠٣)، تاريخ: ١٩٨٦/٦/٦م، ومجلة (العالم) العدد (٤٠٠)، تاريخ: ١٩٩١/١٠/١٢م.

ويمكن الإشارة هنا إلى بعض المعاهد الشرعية التي تأسست بالفعل عبر مكتب رعاية الدعوة في مجمع أبي النور الإسلامي بدمشق ويشرف عليها خريجون من جامع أبي النور بالتعاون مع مؤسساتٍ ومراكز إسلامية ومحلية وعالمية:

١- معهد الإمام أبي حنيفة في مدينة جركسيك: عاصمة جمهورية جركيسية قرجاي - روسيا.

٢- معهد المسجد الأقصى في مدينة عشق آباد: عاصمة جمهورية تركمانيا.

٣- معهد بداية الهداية الإسلامية في محافظة جاوة الشرقية: أندونيسيا.

٤- معهد الأنصار الإسلامي في محافظة سومطرة الشمالية - أندونيسيا.

٥- معهد الدراسات العربية والإسلامية في مدينة (لانكاستر) - لوس أنجلوس بأمريكا.

٦- معهد النور للتعليم الإسلامي واللغة العربية في مدينة (بالتيمور) - ميرلاند بأمريكا.

٧- جمعية النور الإسلامية الخيرية في مدينة (سان دييغو) - كاليفورنيا بأمريكا.

٨- معهد النور الإسلامي في مدينة (نارت قالا) في ضواحي نالتشك عاصمة جمهورية كبردينيا بلقار - روسيا.

٩- معهد الدراسات العربية والإسلامية في مدينة (بورتون) - برمنغهام - بريطانيا

ثاني عشر: الدورات التأهيلية للأئمة والخطباء والدعاة:

خلال تطوافه في الأرض يحمل فكره وتجديده كانت تتعلق به أبصار المسلمين وآمالهم، حتى إن الوصول إلى جامع أبي النور أصبح منيةً يرتجيها كثير من الدعاة

العاملين في العالم الإسلامي، سيما في تلك البلدان المرهقة التي عصفت بها مظالم الكبت الشيوعي الأحمر خلال ما يزيد على سبعين عاماً.

وكان في تطوافه وجولاته يوزع منحاً دراسيةً محددةً تتناسب مع طبيعة الإمكانات المتوفرة لديه في الشام، ولكنها لا تفي بحاجة المسلمين في تلك البلاد لنفحات الشام، وعطاء حركة الدعوة والتجديد.

كما أن المنح تذهب عادةً إلى الطلبة الراغبين في العلم الشرعي، ولكن ماذا عن أولئك الذين دفعت بهم الأقدار إلى المنابر والمحاريب من غير أن يسبق لهم تحصيل علمي أو روحي مركَّز.

لقد فتحت –على سبيل المثال– ألوف المساجد المغلقة في العالم الشيوعي خلال شهور، فماذا كانت النتيجة؟ ومن أين يمكن أن يقدم هؤلاء للناس صورةً ساطعةً عن الإسلام الحي المشرق ولم تكتب لهم الدراسة المنتظمة في مدارس إسلامية أصيلة؟ وكيف يمكن لهؤلاء الدعاة أن يرحلوا في طلب العلم سنين عدداً وهم على رأس المنابر وفي المحاريب والمدارس، وبهم يرتبط سائر النشاط الديني في بلادهم؟!

لذلك فقد رأى الشيخ تنظيم دوراتٍ مكثفةٍ خلال فصل الصيف يُدعَى إليها دعاة منتخبون، حيث يتلقون خلاصة العلوم الشرعية والعربية من خيرة المدرِّسين الأكفياء الذين لهم تجارب واضحة في اتجاهين اثنين:

أولاً: دورة تخصصية ناطقة باللغة العربية مخصصة للدعاة إلى الله عز وجل القادمين من الجمهوريات الإسلامية، وخصوصاً من الاتحاد السوفياتي السابق.

وقد بدأت هذه الدورات منذ عام (١٩٩٢م)، وهي مستمرة في كل صيفٍ يلتحق بها العشرات من الأئمة والخطباء في تلك البلاد الإسلامية، حيث يَصِلُون إلى دمشق فيتولَّى المجمع الإسلامي رعايتهم وتعليمهم والإنفاق عليهم خلال فصل الصيف كله.

وتختصر أهداف هذه الدورات فيما ورد في اللائحة الداخلية المنشورة في الإصدار الخاص بهذه الدورة الصادر عن دار المحبة ودار إقبال عام (١٩٩٣م)، ومنه أنقل لك ما يلي:

١- النهوض بالمستوى العلمي للمشاركين، وإعطاؤهم مفاتيح العلوم الشرعية الأساسية، وبالتالي النهوض بمستوى المسلمين في بلادهم.

٢- النهوض بالمستوى الروحي للمشاركين ومساعدتهم على معرفة الأساليب السليمة والحكيمة لربط المسلمين بخالقهم، وإدراكهم لفقه العبادات والروحانيات في الإسلام.

٣- التركيز على التربية الأخلاقية والجانب التعاملي في الإسلام، ومعالجة مشاكل المجتمعات الإسلامية فيما يخص المرأة والاقتصاد ومشاكل الشباب وقضايا الاختلاف وما إلى ذلك.

٤- التركيز على الاهتمام بكتاب الله الذي هو دستور حياة المسلمين، وذلك من خلال العناية بتلاوته وتجويده وتفسيره والتعريف بفضله.

٥- اكتساب الخبرات العملية في الدعوة إلى الله تعالى من خلال اللقاء بالدعاة العاملين؛ للاستفادة من هذه الخبرات ونقلها إلى بلادهم.

وباختصارٍ تتجلى أهمية هذه الدورة ومثيلاتها بأنها تعالج مشكلات تخلُّف المسلمين، وتحاول مد يد العون للدعاة المخلصين؛ لتعريفهم بسبل نجاح الدعوة الإسلامية في بلدانهم في شتى النواحي، ومحاولة تنشيط دور الدعاة في الحياة عموماً؛ لتغدو حياة المسلمين إسلاميةً من شتى الوجوه علمياً واجتماعياً وثقافياً واقتصادياً[1].

وتعتبر هذه الدورات من القفزات النوعية في مجال تنشيط وتصويب الدعوة في البلدان التي ترزح تحت وطأة النظم السياسية الإلحادية الفاسدة، هذه البلدان التي صمدت بدينها لأكثر من سبعين سنة متحدِّية الإفناء والتعذيب ومحاولة محو هويتها الإسلامية، فقُتِل من شيوخها وعلمائها المئات والآلاف، وأُحرِقَت المصاحف وأُغْرِقت الكتب التي تحمل تراثها الإسلامي الأصيل.

ولكن هيهات لكل هذا أن يمحُوَ ما كتبه الإيمان والإسلام في قلوب هؤلاء الناس الذين فرُّوا بدينهم إلى أقبية البيوت ومجاهل الغابات، وقاموا يعلمون العربية والعلوم الشرعية بالمخطوطات حيث فُقِدَت المطبوعات، وصاروا يدفعون ثمناً لأمهات الكتب الإسلامية التي يعلمون بها أولادهم أموالهم وأرواحهم، حتى جاء اليوم الذي انزاح فيه هذا الكابوس عن هذه البلدان، وقد خلَّف ما تخلِّفه سياسة الأرض المحروقة من الدمار والخراب والجهل والفوضى، ومن بين رماد الكفر وحطام الجهل بزغت شمس الإسلام جديدةً في حُلَّتها، وضَّاءةً في طلعتها، فأذهلت مَن رآها، وقام أبناء المسلمين يبحثون عما فقدوه عشرات السنين من العلم والدين، ومدوا أيديهم إلى إخوتهم في أنحاء العالم الإسلامي ليخرجوهم من وهدة الجهل بتراثهم المجيد وسوء الفهم لتعاليم دينهم.

[1] الدورة التأهيلية الأولى – إصدار دار إقبال – دمشق، ص١٨.

فامتدت أيادٍ خيّرة في أنحاء العالم الإسلامي، وانتشلت الأيدي الواعدة بنصرة الإسلام وعزته، وإيماناً من إدارة مجمع أبي النور الإسلامي بواجبها في مساعدة هذه الفئة من أبناء المسلمين فقد كرَّست لأبنائهم من مقاعد الدراسة أكثر مما كرست لغيرهم من أبناء المسلمين، ودَعَتْ شيوخهم إلى دورةٍ تعليميةٍ تدريبيةٍ مكثفةٍ للنهوض بمستواهم العلمي والديني وتأهيلهم بحقٍّ لحمل رسالة الدعوة، وفتحت معاهد شرعية في بلادهم[1].

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الدورات وإن كانت قد بدأت رسمياً قبل ثلاث سنواتٍ غير أنها في الحقيقة موجودة منذ فجر دعوة الشيخ، حيث لم يكن يخلُو جامع أبي النور من مهاجرين عاكفين يلتمسون نعيم الروح وقطاف المعرفة، وهم بلا شكٍّ سبب من الأسباب الظاهرة لما زرع الله في هذا المجمع من بركةٍ ونورٍ.

وقد أثبتت هذه الدورات على مدى الأعوام الماضية نجاحاً هائلاً في بثِّ الوعي الإسلامي والعلوم الشرعية لدى رجال الدعوة الإسلامية في تلك البلاد.

ثانياً: دورة تخصصية للأئمة والدعاة في المراكز الإسلامية في أوربا وأمريكا (مخصصة للغرب):

إن المتَتَبّعَ لمسيرة الدعوة الإسلامية والدعاة في أوربا وأمريكا يلاحظ أن كثيراً ممن تصدوا لقيادة الدعوة الإسلامية في تلك البلاد لم يتحصلوا على ثقافتهم الإسلامية من خلال دراساتٍ منهجيةٍ متخصصة، وكثير منهم يجد فراغاً ونقصاً كبيراً في دراسته الإسلامية التخصصية، وقد حاولوا كثيراً سد هذه الثغرة بوسائل مختلفةٍ لم يفلح أغلبها، وبسبب طبيعة العمل في تلك البلاد، وعدم إمكانية التفرغ لفتراتٍ طويلةٍ بقصد

[1] من كلمة الدكتور محمود كفتارو في تقديم كتاب: الدورة التأهيلية الأولى، ص١٢: إصدار دار إقبال.

الدراسة، ولعدم وجود مؤسساتٍ أكاديميةٍ تملأ هذا الفراغ على المستوى المطلوب فقد عمل الشيخ على إحداث دوراتٍ تخصصيةٍ مكثفةٍ ولفترة ٧٥ يوماً سنوياً تتكرر كل عامٍ، ويلتحق فيها:

١- الأئمة والخطباء والدعاة في أوربا وأمريكا المهاجرون من بلدانٍ إسلاميةٍ ولم تُتَحْ لهم الفرصة للتخصص.

٢- الأوربيون والأمريكيون الداخلون في الإسلام والذين يرغبون بدراسة الإسلام دراسةً تخصصيةً.

ويجري التدريس في هذه الدورات بلُغتين اثنتين:

الأولى: ناطقة باللغة الإنجليزية.

والثانية: ناطقة باللغة الفرنسية.

ثالث عشر: دار سكن المهاجرين:

يأوي المهاجرون إلى العلم الشرعي عادةً إلى المساجد، وقد حظي جامع أبي النور بإقامة عددٍ كبيرٍ من هؤلاء المهاجرين لفتراتٍ طويلة، حيث كانوا يمضون نهارهم في طلب العلم، ويؤويهم الليل إلى سدد المسجد وغرفه على الحال التي كان يبيت عليها أهل الصفة من أصحاب رسول الله ﷺ، ومع أن أمتع ليالي المهاجر في طلب العلم هي أن يأوي إلى مثل هذا الغار الأمين إلا أن ذلك لم يكن ممكناً باستمرار؛ إذ للمقيم حاجات كثيرة لا تليق بالمساجد، كما أنها تعطل كثيراً من وظائف المسجد، وزيادة على ذلك فإن جامع أبي النور لم يعد يتسع لهذه الوفود المتلاحقة من المهاجرين إلى الله ورسوله.

وفي عام (١٩٩١م) منحت وزارة الأوقاف قبو جامع الحاجبية لسكن الطلاب المهاجرين المقيمين في جامع أبي النور.

ولكن الشيخ كفتارو توجه إلى مقرٍّ أكثر استقراراً، وأقرب إلى تحقيق غايات الإقامة، وبالفعل تم شراء مجموعةٍ من الدُّور العربية القديمة وُضِعت فيها مئات الأَسرَّة، وأُعِدَّت فيها الوسائل الكافية لتحقيق راحة الطلَبة، وجُهِّزَ فيها مطعم ومشرب ومكتبة علمية في ظروفٍ سكنيَّةٍ مقبولةٍ.

وقد حان الوقت الآن لهدم هذه الدور وإنشاء مبنى حديثٍ من تسعة أدوارٍ يكون سكناً نموذجياً للمهاجرين إلى الله ورسوله من علماءٍ ودعاةٍ وطلاب، وقد أُعِدَّت بالفعل مخططات هذا البناء الكبير.

ويبلغ عدد الطلاب في القسم الداخلي حالياً نحو ٦٠٠ طالب، ويُتَوَقَّع أن يتسع المبنى الجديد لنحو ١٥٠٠ طالب، مع مرافق نموذجية ومكتبات ومطاعم وقاعات اجتماعاتٍ وقاعات استقبالٍ تتناسب مع ضيوف العلم والإسلام القادمين إلى الشام ابتغاء مرضاة الله ورسوله.

رابع عشر: دار سكن المهاجرات:

نهج الشيخ كفتارو على إيجاد مواءَمةٍ بين نشاط المرأة والرجل في كل سعيٍ يتجه إلى تحقيقه وتأسيسه.

وهكذا فقد قام بتأسيس فرعٍ للإناث في سائر المعاهد والكليات والأقسام التعليمية والتعبدية التي نشأت في جامع أبي النور.

ومع أن استقبال مهاجراتٍ من بلدانٍ إسلاميةٍ بغرض تعليمهن وإعدادهن مسألة جد حساسة ودقيقة محفوفة بالمخاطر غير أن الشيخ قرر خوض هذه التجربة؛ إيماناً منه بدور المرأة ورسالتها في الدعوة الإسلامية.

وبالفعل فقد تم شراء دارٍ خاصةٍ في قاسيون، وأُعِدَّت فيها مرافق مناسبة لاستقبال المهاجرات، واختِيرَ كوكبة متميزة من الداعيات للإشراف على هؤلاء المهاجرات، وهو أمر له ظروفه المعقدة؛ إذ ليس من السهل الإشراف على نساءٍ من أجناسٍ ولغاتٍ وطبائع مختلفةٍ متبانيةٍ، وللمرأة أعذار وظروف تحتاج إلى نوعٍ من الرعاية مختلف تماماً عن ظروف الرجال.

ومع ذلك فإن دار سكن المهاجرات بدأ منذ أواخر الثمانينيات في استقبال المهاجرات الداعيات من الصين وأندونيسيا وروسيا وغيرها من البلاد الإسلامية والعالمية المختلفة.

وتتلقى المهاجرات خلال إقامتهنَّ برامج تربويةً مختلفةً، إضافةً إلى المناهج المقررة، وكذلك يتم إلحاقهن بحلقات الذكر النسائية الخاصة الموجودة في الجامع.

ب – القسم الثاني: في النشاطات الاجتماعية:

خامس عشر: جمعية الأنصار الخيرية:

بدأ الشيخ كفتارو منذ الأربعينيات بالتفكير بإنشاء جمعيةٍ خيريةٍ ترعى بالإنفاق جهود الدعوة الإسلامية، وتصل بالمعونات فقراء مدينة دمشق وضواحيها، وهي ضرورة لازمة لم يكن ثمة بدٌّ منها لحركة دعوةٍ وتجديدٍ تبني آمالاً وآفاقاً بعيدة.

وفي عام (١٩٥١م) قام الشيخ كفتارو بتأسيس **جمعية الأنصار الخيرية**، وذلك بالتعاون مع كبار إخوانه ومساعديه، وكان في أول مجلس إدارة لها الشيخ عبد الرؤوف الأسطواني قاضي الشرع الأول بدمشق، والشيخ محمد بشير الباني، والأستاذ صادق البغدادي، والدكتور عارف الطرقجي وغيرهم.

ونصَّت أهداف الجمعية كما جاء في نظامها الداخلي على ما يلي:

١- تحقيق الآية الكريمة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عِمْرَان : ١٠٤].

٢- نشر الثقافة وتأسيس المعاهد العلمية، ومكافحة الأمية، ومساعدة النجباء من الطلاب ونشر الفضائل.

٣- المساهمة في أعمال البر والإحسان، ومساعدة أهل العوز والفاقة.

وهكذا فإنه منذ (١٩٥١م) بدأت جمعية الأنصار الخيرية نشاطها في غرفةٍ ملحقةٍ بمسجد أبي النور القديم، ولكنها لم تشهر رسمياً إلا عام (١٩٥٩م)، حيث صدر قانون الجمعيات الموحد.

وتجد في نظام جمعية الأنصار أنها اتجهت إلى معالجة مصدر المعاناة الاجتماعية، فالفقر داء، والتشرد داء، والانحلال داء، ولكن الداء الأعظم هو الجهل، وبالعلم تتم مقاومة ذلك كله، فيُقضى على الجهل، وتنتظم الأسر، ويزول التحلل الأخلاقي.

وهكذا فقد سارت الجمعية في خطين متوازيين: مساعدة الفقراء، ومكافحة الفقر، وقد تم مَسْك سجلاتٍ أصوليةٍ لمئات العائلات من الفقراء، وتدور المساعدات بين

رواتب شهرية أو هبات عينية أو كسوة موسمية، وتتولى الجمعية مباشرة إعالة نحو ١٦٥ عائلة من العائلات الفقيرة في دمشق.

وأشرفت الجمعية على معهد الأنصار للذكور ومعهد بدر للإناث، وقد قام المعهدان برسالةٍ تعليميةٍ ناجحةٍ خلال الستينيات، حتى أصبح معهد الأنصار من أكبر معاهد دمشق العامة، وكان يعمد إلى تدريس العلوم العامة وفق مناهج وزارة التربية، ويضيف عليها عدة ساعات للفقه وتلاوة القرآن، ويرعى المبادئ السلوكية والتربوية للطلَبة.

وبدءاً من عام (١٩٧٥م) شرعت تنفق على المعهد الشرعي للدعوة والإرشاد بقسميه الذكور والإناث، وكذلك على ما أُلحِق به من مؤسساتٍ تعليميةٍ كدُور القرآن الكريم، ومعهد تعليم اللغة العربية مما سنأتي على تفصيله بعد قليلٍ.

ولديها اليوم نحو ستمئة طالب علمٍ من مختلف بلدان العالم يقيمون إقامةً دائمةً في مباني الجمعية، وينالون منح الطعام والإقامة والدراسة مجاناً، كما تنفق على سائر الدعاة الذين ينتدبهم المجمع الإسلامي للدعوة إلى الله في البلدان الفقيرة، كما تقوم الآن بتأسيس دار للأيتام على مساحة ١٣٠٠٠م٢ في ضواحي مدينة دمشق، ويتوقع أن تستوعب نحو ألف يتيم.

وفي عام (١٩٩٥م) بلغ مشروع موازنة الأنصار نحو ثلاثين مليون ليرة سورية، يرد نصفها تقريباً على شكل هبات عينية، ولا شكَّ أن هذا الرقم كبير بالقياس إلى الجمعيات الخيرية القائمة في الشرق الأوسط.

سادس عشر: النادي الرياضي الإسلامي:

أدرك الشيخ كفتارو مبكراً أن أي إصلاحٍ حقيقيٍّ منشودٍ لا يمكن أن يقوم إلا على أكتاف الشباب، فالشباب هم عماد كل تغييرٍ ورجاء كل أملٍ، وللشباب طبيعته وخصائصه، ولا بد لمن يفكر بقيادة هذه الأجيال أن يرعى فيها مكامن قوتها، فلا يجوز أن تنطفئ تلك الشعلة المتوهجة في الشباب؛ بل يجب أن تترشد وتتوهج، وهذا يتطلب استعداداً من نوعٍ خاصٍّ، وبالفعل فقد هيأ الشيخ كفتارو ذلك كله لمدرسته الناشئة، وجعل يشرف بنفسه على نشاطهم الترفيهي والرياضي، فكان يخرج معهم في النزهات والرحلات، ويبيت معهم في المخيمات ويشاركهم في بعض النشاطات الرياضية.

وقد تم بالفعل استئجار عدة منتزهاتٍ لهذا الغرض، منها: منتزه (وردي شام)، ومنتزه (نبع العراد)، ونادي (الغافقي)، ونظمت رحلات كثيرة إلى الحمة في الشتاء والساحل السوري في الصيف، وكان لكلٍّ من هذه الرحلات برنامج تربوي وروحي متين.

وفي مطلع السبعينيات تم شراء أرضٍ كبيرةٍ على طريق المطار من قِبَلِ إخوان الشيخ، وصُمِّمَت لتكون أول نادٍ رياضي إسلامي من نوعه في الشام.

وبالفعل فقد أدى هذا النادي دوره التربوي الكبير خلال عشرين عاماً، وكان أرضاً طيبة تطهرها أنفاس شباب الإسلام، وتكبر ثمارها مع نضجهم واكتمالهم، وكانت حلقات المسجد قد خصصت منه بأيام، كما كانت تنصب المخيمات فيها لتقام أيام كاملة من التربية والتزكية والمتعة والفائدة لشباب الإسلام.

ولا شك أن الرسالة التي يؤديها هذا النادي تكمل رسالة المسجد وترفدها، ويمكن مطالعة أثر ذلك من خلال قراءة أعداد التائبين الذين شدتهم متعتهم ذات يوم، ولكنهم

رزقوا اليقين والطاعة فيما بعد من خلال استكمال ما بدؤوه من برامج، والحق أنه لا يمكنك أن تنسى أبداً مشاهد الليل في تلك المخيمات، حيث تبصر الناشئة والفتيان بين أشجار الحور السامقة يصفُّون أقدامهم في ظلمة الليل، ويغسلون المرج الأخضر بمدامع الأشواق في تسبيحٍ وتمجيدٍ وذكرٍ لا يشبهه إلا تجلي ليلة القدر، يذكرك برعيل الإسلام الأول الذين كانوا رهبان الليل وفرسان النهار.

ويشهد هذا النادي اليوم وضعاً مؤسفاً؛ إذ يتعطل سائر ذلك النشاط، وتضم أركانه بعضها على بعضٍ في حزن مُمضٍّ بعد أن فقدت تلك الأشواق اللاهبة بسبب وضعٍ لا محل لتفصيله هنا، نتمنى أن يزول عن قريبٍ ليستعيد هذا النادي دوره الرائد في خدمة شباب الصحوة الإسلامية.

سابع عشر: مشروع دار الشيخ أمين كفتارو لرعاية الأيتام:

يمكن إدراج هذا الجانب ضمن نشاط جمعية الأنصار الخيرية على أساس أن دار الأيتام تتبع للجمعية من جهة الإدارة والتمويل، ولكني آثرت أن أعدَّها أثراً باقياً مستقلاً من آثار الشيخ كفتارو نظراً لضخامة هذا المشروع وآفاقه المتوقعة.

ففي مطلع التسعينيات تتالت النكبات على العالم الإسلامي من فلسطين إلى أفغانستان إلى البوسنة والهرسك إلى الشيشان وأذربيجان وغيرها، وتبين في هذه الحروب المشتعلة أن الوقود المطلوب دائماً هو دماء المسلمين.

ويمكن القول: إن مئات الألوف من المسلمين سقطوا في أماكن مختلفة من العالم؛ لأنهم يقولون: ربنا الله، ويدرؤون عن أنفسهم مظالم الاستكبار العالمي.

ومع أن سورية لا تُعدُّ من البلدان الغنية والثرية، ولكن الشيخ كفتارو أراد أن يؤدي جزءاً من الواجب الإسلامي المحتم تجاه الشعوب الإسلامية المنكوبة في الأرض.

ولذلك فإنه أمر بإنشاء دارٍ خاصةٍ لأيتام المسلمين تتوفر فيها كل حوائج الأطفال من مدارس ومطاعم ودور سكن، ومعامل لتعليم المهن، وملاعب وحدائق ومخابر؛ لتعوضهم شيئاً من الحرمان الذي أصابهم بسبب فقدان آبائهم وأمهاتهم، مع العمل على الحفاظ على هويتهم وثقافتهم؛ ليعودوا إلى بلادهم فيوصلوا رسالة الجهاد في الحفاظ على الهوية والذات الإسلامية، ويتوقع أن يشهد هذا المشروع النور خلال عامين اثنين.

ثامن عشر: بستان ضيوف الإسلام:

لقد كان جامع أبي النور مركز النشاط الدعوي كله خلال أكثر من خمسين سنة من دعوة الشيخ، فيه يبيت ضيوف الإسلام ويأكلون ويشربون ويذكرون ويتعلمون.

ولكن الضغط الهائل على مرافق المجمع الإسلامي في جامع أبي النور قد جعل مثل هذه الخدمات غير ممكنةٍ في الجامع، إضافةً إلى أن ثمة مستويات مختلفة من وجوه القوم وسراتهم تفدُ إلى مسجد أبي النور لتصيب زادها من العلم والتزكية.

وأمام ذلك فإن حاجةً ضروريةً تأكدت لإيجاد مقرٍّ مناسبٍ يبيت فيه ضيوف الإسلام تكون فيه خدمات الفنادق ونفحات المساجد، يرتاح فيه ضيوف الإسلام من سفرهم، ولكن لا يفقدون متعة الجلوس في ذلك النعيم الروحي الطاهر.

وفي عام (١٩٩٤م) خُصِّصت قطعة أرضٍ مساحتها ٦٠٠٠م^2 في منطقة عين الخضراء أجمل ضواحي دمشق، سوف يشيد عليها سكن متميز وقاعات ذكر وعبادة

يغشاها خيار السالكين الذاكرين في جامع أبي النور؛ لينعم ضيوف الإسلام فيها بنعيم الجسد والروح، ومتعة الطبيعة وطمأنينة القلب.

تاسع عشر: مشفى الشيخ أمين كفتارو:

عُنِيَ الشيخ عنايةً ظاهرةً بالمعارف الطبية، وقد كانت تلك رغبة قديمة له في أيام طفولته، فقد كان الدكتور مدحت شيخ الأرض تلميذ الشيخ أمين طبيباً خاصاً للملك عبد العزيز آل سعود، وكان يقول للشيخ أحمد وهو طفل: ستكون من بعدي طبيباً خاصاً للملك.

غير أن نجاحه في الدعوة والإرشاد جعله يترك هذه الأماني كلها ويتفرغ للعلم الشرعي، ولكن ذلك لم يصرفه عن متابعة الاهتمام بالمعرفة الطبية بالوقوف على كل جديد ومفيد فيها.

لذلك فإنه أدرك دور عافية البدن في تحقيق عطاءٍ متوازنٍ في شتى جوانب الحياة، فرصد لطلبة العلم لديه أطباء مهرة يتولَّون الإشراف الصحي على سائر المهاجرين والمقيمين من طلبة العلم.

وفي عام (١٩٨٨م) أسس الشيخ مستوصفاً خيرياً عاماً ينتفع به الناس، وقد أدى ذلك المستوصف دورين متوازيين:

١- الخدمات الصحية المجانية لعموم الناس.

٢- إقامة دورات خاصة للتمريض، وقد تخرَّج بالفعل أكثر من ٢٥٠ ممرض وممرضة.

ولكن ذلك لم يكن غاية أمانيه، فتوجه إلى إنشاء مشفى عام، وبالفعل فقد خُصِّصت أرض كبيرة في ريف دمشق في واحدةٍ من أرقى مناطق الاصطياف أُطلِقَ عليها اسم: مشفى الشيخ أمين كفتارو.

وسيقوم المشفى بتقديم عنايةٍ مركزةٍ للاستطباب بالصوم الشرعي مع الرقابة الطبية، ويعالج كذلك بأنواع الحمية والرقابة الصارمة على الغذاء (الصوم الطبي)، ولا شكَّ أن هذا المشروع الرائد فريد في مجاله ويُتوقَّع أن يؤديَ رسالةً متميزة.

عشرون: مركز التدريب المهني للنساء:

إن التعليم جانب ضروري في حياة المرأة المسلمة، ولكنه في كثيرٍ من الأحيان لا يحقق للمرأة المسلمة الكفاية التي تلزمها لتحقيق حياةٍ شريفةٍ كريمةٍ.

وإذا كان الشاب المسلم قادراً على خوض غمار الحياة لتحصيل رزقه وكفايته فإن ذلك أعسر وأصعب في حياة المرأة المسلمة في مجتمعٍ لا يقيم وزناً كبيراً لآداب المرأة المسلمة.

لذلك فإن من رسالة المسجد أن يوفر للمرأة فرص الكفاية الشريفة من خلال مهنٍ تتناسب مع طبيعتها وأنوثتها.

وهكذا فقد دفع الشيخ الفتاة المسلمة إلى المغزل كما دفعها إلى الكتاب، ونشأت على هامش المسجد عدة مشاغل للخياطة تولتها نساءٌ عارفات، وفيها تخرجت مئات من الفتيات الصالحات يهتدين بهدي السيدة الطاهرة زينب بنت جحش أم المؤمنين يوم قال لها النبي ﷺ: بلَى: جُذِّي نخلك، فعسى أن تُرزقي فتتصدقي، فتنتفعي ويُنتفع بك.

ونتج عن هذه المراكز معارض سنوية تُقام في بعض قاعات المجمع الإسلامي يعرض فيها إنتاج هذه المراكز النشيطة، ويتبارى الخيرون من تجار دمشق في مؤازرة هذا النشاط تشجيعاً للمرأة المسلمة لتتبوَّأ موقعها الذي تساهم فيه في بناء الحياة الكريمة، ويُؤدَّى ريع هذه المعارض الخيرية إلى أنشطة التعليم الشرعي واستقبال المهاجرين من ضيوف الإسلام.

ج – القسم الثالث: في المجال الفكري:

واحد وعشرون: مكتب الدراسات الإسلامية:

وهو نواة مركز بحوث متخصص؛ إذ لا بد لكل عملٍ تجديديٍّ من ورشةٍ فكريةٍ توازي نشاطه العلمي، وتشجع حركة البحث والتحقيق العلمي بما يخدم مصالح التجديد المنشود.

وبالفعل فقد تأسس مكتب الدراسات الإسلامية في أواخر الثمانينيات، وتفرغ به عدة عاملين في مجال التحقيق، وهو يقوم بنشاطين متوازيين:

الأول: جمع تراث الشيخ كفتارو الفكري من خلال الوثائق المحفوظة كتاباً وصوتاً وصورة، والتي جمعت في محاضراته الموثقة خلال مدةٍ تزيد على ثلاثين عاماً.

وأهم نتاج الشيخ كفتارو الفكري يتمثل في أمرين اثنين:

١– تفسير القرآن الكريم الذي استكمله أربع مرات خلال حياته، وقد جُمِعَ بالفعل أرشيف كامل منها، وأُعِدَّ ما يقرب من تفسير نصف القرآن الكريم للطبع.

٢– السيرة النبوية التي قام بتدريسها خلال ثلاثة أعوام في الثمانينيات، وهي أيضاً مجموعة في الوثائق الصوتية، وقد أُصدِرت بالفعل نسخة مختصرة منها سُميت:

(سيرة رسول الله)، وطبعت ست مرات حتى عام (١٩٩٦م)، كما يجري الإعداد لإخراج السيرة بثوبٍ أوسع وأشمل.

كذلك فقد قام المكتب بإصدار عدة دراسات عن حركة التجديد التي يقوم بها الشيخ كفتارو، نعدُّ منها: (الشيخ أمين كفتارو في ذكرى مرور خمسين سنة على وفاته)، (مجمع أبي النور الإسلامي والدورة التأهيلية للأئمة والخطباء والمدرسين الدينيين الناطقين بغير العربية)، ومنها مجموعة محاضرات جامعة للشيخ كفتارو طبعت بالعربية بعنوان: (من هدي القرآن) و(سبيل الهدى)، وطبعت مجموعة أخرى بالإنجليزية بعنوان: (طريق الحق) (The way of truth).

الثاني: تشجيع الحركة الفكرية وأعمال التحقيق العلمي في جامع أبي النور.

وقد صدرتْ بالفعل عشرات الأعمال الفكرية عن أبناء المسجد في اختصاصات ومجالات كثيرة، ويمكن الإشارة بهذا الصدد إلى المعرض الخاص الذي نظمه مكتب الدراسات الإسلامية عام (١٩٩٢م) على هامش ندوة الدعوة والإرشاد، حيث شارك فيه مدرسون ومتخرجون من مجمع أبي النور الإسلامي، وبلغ عدد ما عرض في هذا المعرض من مؤلفات المدرسين نحو ١٦٠ مؤلفاً، ومن مؤلفات الخريجين والطلبة نحو ٦٥ مؤلفاً.

ولعلّي لا أبالغ إن قلت: إنه قد صدرت في السنتين التاليتين لهذا المعرض مثلما صدر من قبل، وستشهد السنوات القادمة نشاطاً متعاظماً في هذا السبيل، وذلك لخدمة حركة التجديد التي أسسها الشيخ كفتارو على مدى أكثر من نصف قرن.

اثنان وعشرون: دار الشيخ أمين كفتارو للطباعة والنشر والتوزيع:

في عام (١٩٩٥م) صدر قرار وزاري عن وزير الإعلام يتضمن الترخيص الرسمي لدار نشر وطباعة باسم: (دار الشيخ أمين كفتارو)، وباشرت الدار أعمالها عقب شهر الترخيص رسمياً.

وقد أخبرني الدكتور محمود البرشة مدير الدار عن خطةٍ مدروسةٍ لطباعة كل عملٍ يتصل بحركة التجديد التي أسسها الشيخ أحمد كفتارو، وذلك استجابةً لرغباتٍ مؤكدةٍ من تيار التجديد الواسع الانتشار الذي أرساه الشيخ في بلاد الشام.

ثلاثة وعشرون: دار أبي النور لنشر الكتاب الإسلامي:

كما صدر عام (١٩٩١م) قرار وزاري آخر بإحداث دارٍ علميةٍ أخرى باسم: (دار أبي النور)، وتتولى هذه الدار رعاية النشاط الفكري التجديدي الذي يتعاظم يوماً بعد يومٍ في جامع أبي النور بحمد الله.

أربعة وعشرون: مجلة صدى الإيمان:

وجد التجديد الذي قاده الشيخ طريقه إلى الصحافة، فالصحافة منبر لا يُستهان به في نشر دعوة الخير، وصدرت أول مجلةٍ في جامع أبي النور باسم: (الأنصار) في مطلع الستينيات، ولم يُكتَب لها الاستمرار.

وخلال دعوة الشيخ إلى التجديد تسابقت الصحف والمجلات المحلية والدولية لعقد اللقاءات والحوارات مع الشيخ كفتارو لنشر فكره التجديدي، وقلَّ أن تُجْرِيَ له صحيفة أو مجلة حواراً إلا تختاره فيها موضوعاً للغلاف، ومن خلال ذلك أمكنه أن يوصل صوته إلى آفاقٍ بعيدةٍ، فسعد بذلك رجال الوعي والانفتاح، وتأذى منه أهل الجمود، ولوددتُ لو أفردتُ لك فهرساً يتضمن أسماء ما نشر عن الشيخ في الصحافة العربية

والعالمية غير أن ذلك يطول، وقد تكفل به عمل خاص يصدر قريباً بعنوان: (كفتارو يصرح).

وقد أفردت عدة مجلات ملفات خاصة لفكر التجديد الذي يقوده الشيخ، وتخصصت بنشر مختارات من فكره، وهي تؤدي دوراً ضرورياً في حركة التجديد.

ثم خطا مجمع أبي النور خطوةً أُخرى، فأصدر مجلةً خاصةً كُرِّسَت لنشر الدعوة الإسلامية على أركان التجديد، وسُميت باسم مجلة صدى الإيمان، وهي تصدر بانتظام، ويتولى تحريرها الدكتور محمد حسن الحمصي.

خمسة وعشرون: المؤلفات:

لم يتفرغ الشيخ كفتارو للتأليف، وذلك نظراً لزحمة المسؤوليات التي ألقتها الأيام على كاهله، ولكن جهده في خدمة الكتاب والفكر الإسلامي كان متصلاً لا ينقطع، ويمكن القول: إنه ألف العشرات من المؤلفين الذين كتبوا مئات الكتب في القضايا الإسلامية.

وسوف نشير إلى إحصاءٍ رقميٍّ بهذا المعنى في حديثنا عن معارض الكتاب الإسلامي التي يقيمها مكتب الدراسات الإسلامية في كل عام[1].

ومع ذلك فإن نشاطه الفكري يتجسد أيضاً في محاضراته الكثيرة في المساجد والإذاعات والمؤتمرات والمقابلات الصحفية والعلمية والتي حظيت بتوثيقٍ دقيقٍ نهضت به ثلاث مؤسسات:

[1] انظر قسم الملاحق من هذا الكتاب.

الأولى: التسجيل الصوتي باسم: (تسجيلات الأنصار)، حيث تحتفظ بتسجيل صوتي لما يزيد على ٤٠٠٠ محاضرة موزعة على نحو ثلاثين عاماً.

الثانية: التسجيل المرئي، وتحتفظ أيضاً بتسجيلٍ مصوَّرٍ لنحو ١٢٠٠ محاضرة موزعة على خمسة عشر عاماً.

الثالثة: الصحافة والإعلام، وهي تقوم بأرشفة كل ما صدر للشيخ من أخبارٍ ولقاءاتٍ ومقابلاتٍ صحفيةٍ وعلميةٍ وفق أصولٍ مبرمجةٍ منسقةٍ، ولديها اليوم نحو ألف وثيقةٍ مطبوعةٍ ترصد فكر الشيخ وأخباره وآثاره.

وتقدم هذه المؤسسات خدماتٍ دائمةً للعشرات الذين يكتبون في فكر الشيخ التجديدي ورسالته في خدمة الدعوة الإسلامية.

وقد ظهر بالفعل عدد من هذه الكتب نقلاً عن هذه الوثائق، مثل:

١- محاضرات إذاعية طبعتها اللجنة الثقافية في معهد الأنصار عام (١٩٦١م)، وتشتمل على نحو خمسين محاضرة إذاعية ألقاها الشيخ من خلال إذاعة دمشق تتناول مختلف جوانب الدعوة والتجديد.
٢- (من هدي القرآن الكريم) طبعتها دار المحبة بدمشق، وفيه حوالي سبعين محاضرة إذاعية وتلفزيونية، ويقع في نحو ٣٠٠ صفحة.
٣- (The way of truth) (طريق الحق)، وهو كتاب باللغة الإنجليزية، أصدرته مؤسسة GFS، وطبع في دمشق عام (١٩٩٥م)، يجمع عدداً من محاضرات الشيخ في مؤتمراتٍ عالميةٍ.
٤- محاضرات الدورة التأهيلية الأولى للأئمة والخطباء والمدرسين الدينيين الوافدين من البلاد غير الناطقة بالعربية، وهو كتاب صدر عن دار إقبال في دمشق نحو

٥٠٠ صفحة، أورد عدداً من المحاضرات التي ألقاها سماحته على رجال الدعوة الإسلامية في آسيا الوسطى وقفقاسيا والشرق الأقصى خلال عام (١٩٩٣م).

٤- محاضرات الدورة التأهيلية الثانية للأئمة والخطباء والمدرسين الدينيين عام (١٩٩٤م)، وهو كتاب صادر عن دار إقبال أيضاً.

٥- كتاب (نطق مفتي أعظم سورية) وأصدرته جامعة علي حسيني في طهران بالفارسية، وترجمه إلى العربية عبد الكريم عبد الله، يورد الكتاب بعض محاضرات الشيخ في الجامعات الإيرانية التي ألقاها في ربيع الثاني عام (١٣٩٣هـ) الموافق (١٩٧٣م) خلال زيارته لإيران بدعوةٍ من آية الله الميلاني.

٦- تفسير القرآن الكريم (تفسير الدعاة) الذي أعده مكتب الدراسات الإسلامية من محاضرات الشيخ، وقد أُعدَّ للطبع منه حالياً: سورة البقرة، آل عمران، الأعراف، إبراهيم، الكهف، السجدة، يس، الصافات، الدخان، الواقعة، الملك، وغيرها... وتقوم صحيفة (صوت العرب) وغيرها بنشر عددٍ من هذه المحاضرات والبحوث المتيسرة.

٧- سيرة رسول الله ﷺ، وهو مجموع محاضرات الشيخ في السيرة خلال الفترة من عام (١٩٨٠-١٩٨٦م)، وقد قمتُ باختصارها وبتبويبها وتوضيحها، وقد صدرت الطبعة الشرعية الرابعة منها عام (١٩٩٤م) عن دار النور، كما قامت بعض دور النشر بطباعتها عدة مراتٍ بدون إذنٍ، وتقع في نحو ٥٠٠ صفحة.

٨- صدرت عدة رسائل جامعية عليا تتناول بالبحث والدراسة شخصية الشيخ ومنهجه العلمي والفكري، وتتضمن نقولاً مطولةً من محاضرات الشيخ، نعد منها:

«الدعاة والدعوة الإسلامية المنطلقة من مساجد دمشق» رسالة دكتوراه في كلية الأوزاعي للباحث د. محمد حسن الحمصي، «الحوار الإسلامي - المسيحي» رسالة

ماجستير في كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس للباحث محمد بسام العجك، «أعلام المفسرين في القرن العشرين» رسالة ماجستير في كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس للباحث علي خرفان، «الفتوى في دمشق منذ العصر العثماني وحتى اليوم» رسالة دكتوراه في كلية الأوزاعي تقدمت بها الباحثة: لينا الحمصي من دمشق، «مجمع أبي النور بين الواقع والمرتجى» دراسة لمرحلة الماجستير بقلم السيد محمد تاجا في نحو ٤٠٠ صفحة.

ومن الكتب التي تناولت التعريف مباشرة بالشيخ كفتارو ومنهجه الفكري:

١- «من نهر كابل إلى نهر اليرموك» تأليف العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي، ط (١٩٧٣م).

٢- «مذكرات سائح في الشرق العربي» تأليف العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي.

٣- «معجم المؤلفين السوريين» السيد عبدالقادر عياش، ط دار الفكر (١٩٧٤م).

٤- «عرف البشام فيمن ولي فتوى الشام» الشيخ خليل المرادي، ط مجمع اللغة العربية بدمشق (١٩٧٩م) صلة لإكمال عمل المرادي كتبها السيد مطيع الحافظ ورياض مراد.

٥- «الشيخ أمين كفتارو» محمد الحبش، ط دار المعرفة (١٩٨٩م).

٦- «سراج الصالحين» محمد أنور وردة، ط دار الرشيد (١٩٩١م).

٧- «روجيه غارودي من الشك إلى الإيمان» رامي كلاوي، ط دار قتيبة (١٩٩٠م).

٨- «الموسوعة الموجزة» حسان بدر الدين الكاتب، ط (١٩٧٥م).

٩- «يحدثونك عن آبائهم» محمد عبد الرحيم، ط دار الخير (١٩٩٠م).

١٠- «من هو في سورية» الوكالة العربية للنشر والدعاية دمشق (١٩٤٩م).

١١- «المرشد المجدد» الشيخ محمد بشير الباني دمشق (١٩٧٨م).

١٢- «التربية الروحية بين الصوفيين والسلفيين» د. محمد شيخاني.

١٣- «الدعاة والدعوة المنطلقة من مساجد دمشق» د. محمد حسن الحمصي.

١٤- «إشكالية المعاصرة وأخلاقيات المجتمع العربي المعاصر» للباحث التونسي محمد الطيب خماسي، ط دار قتيبة (١٩٩٥م).

١٥- «تاريخ الفتوى في سورية» للباحثة الدكتورة لينا الحمصي، رسالة دكتوراه في كلية الإمام الأوزاعي - بيروت.

١٦- «المكتبة الإسلامية» سلسلة كتبها المفكر الدكتور أحمد شلبي، ط القاهرة (١٩٩٥م).

١٧- «ذكر الله تعالى» محمد ديب، صدر عن دار الأحباب — بيروت

١٨- «عالمية الإسلام» للسيد أحمد علي الملا، ط (١٩٩٠م).

كذلك فإن مئات الكتب صدَّرها مؤلفوها بإهداءٍ إلى سماحة الشيخ أحمد كفتارو، أو كتب سماحته مقدمةً لها إذا رأى أنها تمثل اتجاهاً يتوافق مع حركته في التجديد.

ويصعب إحصاء ذلك وحصره؛ إذ لا يتفق مثل ذلك الإحصاء الموسع مع طبيعة النهج العلمي الذي نبتغيه هنا في هذا المقام.

وفي سائر الأحوال فإن الشيخ كفتارو لم يكن غائباً عن ساحة النشاط المكتوب وقد انتفع الناس بما صدر له من أعمالٍ فكريةٍ مطبوعةٍ، ولا شكَّ أن ما لم يطبع منها

أكثر بكثيرٍ مما طُبع، ولعل الله سبحانه يوفر السبيل لصدور المزيد من أعماله الفكرية، والتي تم -بحمد الله- توثيقها بالصوت والصورة كما بينا من قبل.

الملاحق

التقاريظ والوثائق النادرة

(لا يعرف الرجال إلا الرجال!)

تقريظ

بقلم فضيلة العلَّامة الشيخ محمد المجذوب

فضيلة العلَّامة الشيخ محمد المجذوب –حفظه الله– من خيرة الدعاة العاملين في ميادين الهداية، عرفته عواصم العالم الإسلامي داعياً مؤثراً ومرشداً ناصحاً، وقد صدر له من الكتب نحو سبعين مؤلَّفاً في شتى العلوم الشرعية، ونفع الله به خلقاً عظيماً من الناس.

وقد أسعد الله الشام بعودته إليها قرير العين بعد تطوافٍ في الآفاق دام أكثر من أربعين عاماً، فأصبح بحمد الله مرجعاً لطلبة العلم يقصدونه في دقائق المسائل، ويفيدون من خبرته وتجربته الطويلة في الدعوة إلى الله، حيث هو اليوم يخطو نحو التسعين، بارك الله به ونفع بعلمه.

وقد وافاني تقريظه هذا وأنا أدفع الكتاب للمطبعة، ورغب إليَّ أن أنشره تواضعاً منه ووفاءً وحباً، وهو خطاب طافح بالمحبة يذكرك بأعلام السلف الصالح الذين كانوا يقولون كلمة الحق، ولا يخافون في الله لومة لائمٍ، وفي هؤلاء قال الأول:

وما من كاتبٍ إلا سيفنى ويُبقي الدهرُ ما كتبت يداه

فلا تكتب بخطك غير شيءٍ يسرُّك في القيامة أن تراه

فجزاه الله خيراً بما جلَّى من ستور الحقيقة، وأثابه بما هو أهله.

صورة خطاب العلامة الشيخ محمد المجذوب

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله، والصلاة والسلام على رسوله ومصطفاه محمد بن عبد الله ﷺ...

أصرح بأن لهذا الكتاب النفيس ولمؤلفه البصير فضلاً لا يزايلني إن شاء الله، بكشفه لي ستور الحقيقة التي طالما غفلت عنها بالنسبة إلى هذا الداعية العالمي فضيلة الشيخ أحمد كفتارو، فقد حجبت الدعاية السوأى حقيقته عن عيني، فعاديته مخدوعاً بأقاويل الجاهلين، حتى إذا قدَّر الله لي الاتصال به شخصياً، ثم علمياً عن طريق هذا المؤلَّف الكريم، انقدح في قلبي نور المعرفة الصافية، فعلمت هول الخطل الذي عشت في عتمته طويلاً، حتى تداركني الله بالوقوف على أبواب الحق، فغمرني الندم للذي حال بيني وبين هذا البحر الزخار من علم الحق.

فاللهَ أسأل أن يغفر لي ما تقدَّم من ذنبي وجهلي، وأن يعمم بفضله وتوفيقه عبده الصالح العامل لإعلاء كلمته في العالمين الشيخ أحمد كفتارو بن الأمين، والحمد لله وصلاته وسلامه على صفوته من خلقه المصطفى الأمين.

نعم الأب... والراعي... والمرشد... والمصلح.

وواضيعةَ العمر الذي استهلكناه قبل أن نعرفه من خلال هذا الكتاب... جزى الله مؤلفه كل خير.

اللاذقية ٢٧/شوال/١٤١٦هـ

محمد المجذوب

تقريظ

بقلم فضيلة العلامة المرشد الشيخ عدنان إبراهيم حقي

بسم الله الرحمن الرحيم

روحانية الشام وقدسِيتُها جذبت إليها كثيراً من العلماء والصالحين من أطراف المعمورة؛ لِما بارك الله من حولها وأهبط عليها من التجليات وأحاطها بأجواء الأُنس والطمأنينة، ففي عام (١٢٩٤هـ) توجه إليها بهذا الحِداء القدسي وانجذب إليها بتوجيه الشوق الرباني من بلاد الأكراد عالمٌ جليل ومتصوف ربَّاني اسمه الشيخ عيسى بن طلحة الكردي[١].

كان هذا القادم متحلياً بسيما الصالحين كرماً وتواضعاً وخشيةً لله، ومع هذه المناقب السَّامية فقد كان متمكناً من العلوم الشرعية وعلوم الشرع[٢]، لا سيما التصوف، فقد نال فيه القِدحَ المعَلَّى[٣].

وما إن استقر به المقام في دمشق حتى تضوع شذا[٤] سيرته بين العلماء وأرباب القلوب، فأقبلوا عليه إقبال الظمآن على نبع السلسل[٥]، وكان نقشبندي المشرب، ونالوا منه شرف الانتساب إلى هذه الطريقة، وأجاز كثيرين فيها، وممن أجازهم: حضرة

---

[١] من قرية شوز، إحدى قرى بلاد الأكراد في ولاية سعرد بتركيا.

[٢] العلوم الشرعية: كالفقه وأصوله والتفسير... إلخ، وعلوم الشرع: كالنحو والصرف والبلاغة والمنطق... إلخ.

[٣] القِدحُ المعَلَّى؛ أي: الحظ الأوفر.

[٤] تضوع المسك: انتشرت رائحته، والشذا: حدة ذكاء الرائحة.

[٥] السلسل: الماء العذب أو البارد.

الشيخ أمين بن موسى الكردي الشهير بكفتارو، الذي استهوت دمشقُ قلبَ والده أيضاً كغيره من أرباب القلوب، فطار إليها على أجنحة الشوق.

كان الشيخ أمين –قدَّس الله روحه– من حُفَّاظ كتاب الله، متقناً للعلوم الشرعية وعلوم الشرع.

لزم الشيخ عيسى الكرديَّ وشغل قلبه بذكر الله، فلما أنس منه الشيخُ الاستعدادَ لمرتبة الخلافة أجازه بالطريقة النقشبندية، ثم درَّسه الفقهَ الشافعيَّ.

كان للشيخ أمين –قدس الله روحه– عناية خاصة بالفقه المقارن، فكان يدرِّس كتابَ (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) لابن رشد.

من أحواله أنه كان لا يلتفت إلى ما كان يظهر منه من الخوارق والكرامات، ويقول: (الكرامةُ الحقيقيةُ: خرقُ عوائد نفسك، لا خرقُ عوائد الكائنات).

كان يستسهل الصعابَ غيرَ شاكٍ، عاش على كفافٍ من العيش صابراً محتسباً، وقام بالإرشاد فأقبل عليه المريدون وطلابُ الحقيقة، فسار بهم بالحكمة الموعظة الحسنة، واتخذ من جامع (أبي النور) مقراً له يجلس فيه إلى مريديه وتلاميذه، فتسري في نفوسهم منه أنوارُ المعرفة، وتهبط عليهم فيوضاتُ التجلّيات الإلهية، ويذكرون اللهَ بقلوبٍ وجلةٍ ونفوسٍ خاشعةٍ، ويَتْلُوْنَ ختمَ الخوجكان الشريف[1].

[1] ختم الخوجكان: أذكار شرعية مخصوصة تُتلى عادةً بعد صلاة العشاء والصبح، ثم يهدى مثل ثوابها إلى أرواح مشايخ الطريقة، وخوجكان: جمع خوجة؛ أي: مشايخ، كلمة فارسية.

ولما كثر من حوله التلاميذ وتعلموا منه ما يَصْلُحون به للقيام بأعباء وظيفة الإمامة والخَطابة والتدريس بثَّهم في بعض قرى الغوطة ومناطقها، وظلَّ ينشر العلم والدين ويربي المريدين تربيةً علميةً صوفيةً على ضوء الكتاب والسُّنة، وهكذا إلى أن توفاه الله تعالى.

وخلال حياته المباركة هذه كان معه مَن يقتبس من أنواره، ويترسم خطاه وأفعالَه، وينهج سيرته، وينسج على منواله مقتدياً به حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّه[1] فانياً فيه، ألا وهو نجلُه المقدَّم وخليفتُه المنتظر شيخنا أحمد كفتارو مدَّ الله في حياته بالصحة والعافية، فقام في مقام والده الراحل ودعا المريدين إلى الله بأسلوبٍ لم يُسْبَقْ إليه حتى اشتُهر به بين الداعين إلى الله، ففي أسلوبه الحكمة وفيه الحديث الشريف وفيه التفسير وفيه لمحات من علوم العصر التي تؤيد الإسلام بعرضٍ جذابٍ لا يُمَلُّ، وفيه الطرفة الخفيفة التي تجدد نشاط السامعين في قوة دليل وإشراق بيان.

عرفتُ فضيلته منذ عام (١٣٩٦هـ) الموافق لـ(١٩٤٨م) تقريباً حين جذبتني دمشق وأنا مراهق[2] كما جذبت غيري، وكنت طالباً في مدرسة أستاذي وشيخي الشيخ أحمد الدقر في جامع تنكز، ثم في مدرسة شيخي وأستاذي المجاهد الشيخ حسن حبنكة في جامع منجك رحمهما الله تعالى.

ولن أنسى اليوم الذي ذكر لي فيه سيدي الوالد –قدَّس الله روحه– اسم أستاذنا وشيخنا الشيخ أحمد كفتارو قائلاً: يا عدنان، إنك ذاهب إلى دمشق، فعليك ألَّا تحرم نفسك من حضور الختم الشريف لدى أخي الشيخ أحمد كفتارو، وحضور دروسه في جامع يلبغا وجامع أبي النور، وكانت البساتين تفصل حينئذٍ الشام عن ساحة شمدين

[1] متساويان بلا تفاوت، والقذَّة: الريشة التي يراش بها السهم.

[2] المراهق: الغلام الذي قارب الاحتلام.

آغا في حي الأكراد، فما كنت أحرم نفسي من حضور الجامعين عند سنوح[1] الفرصة والفراغ، فكان الشيخ يُجلِسني بقربه ويرحِّب بي بحرارةٍ، ويظهر البشر والاهتمام كلما ذهبتُ إليه، ويثني على الوالد ثناءً يدلُّ على ما يُكِنُّه في قلبه من التقدير والمحبة والإجلال، وكنتُ أسمعه منذ ذلك الوقت يقول في دروسه بأنه يتمنى على الله أن يوفقه لإنشاء معاهدَ تعلِّم العلوم الشرعية وعلوم الشرع للذكور والإناث والدراسات العليا والدراسات المهنية، فقد تيقنتُ أن مستوى الأئمة والخطباء والوُعَّاظ لو تحسَّن علمياً ومعيشياً فأصبحوا مثقفين ثقافةً جامعيةً، وتحسَّن وضعهم المعيشي بحيث يترفَّعون عن مستوى تلقِّي زكوات الناس ومعوناتهم، لَأَضحى لهم شأن غير هذا الذي هم عليه، فإن السبب المهم في هذا الحال هو عدم صلاحية المرشد لوظيفته، فهو غير مؤهلٍ لأن يغدو فارس هذا الميدان؛ لفقر أكثر مَن يتصدون لهذه الوراثة النبوية أولاً، وعدم استعدادهم العلمي والفكري ثانياً لضحالة[2] معلوماتهم.

فلو تيسر للمشايخ المال وسعة العلم لغَدَوْا أكثر تأثيراً في مجتمعاتهم، حين يراهم الناس مستغنين عما في أيديهم، فتعظم أقدارُهم حينئذٍ في نظر أهل الدنيا، ويُسْمَعُ كلامُهم ويُصغى إليه.

لذا أفكر منذ الآن أن أهيِّئ لهؤلاء هذه الظروف، وأسأل الله تعالى أن يوفقني لأرفع من شأنهم.

وهكذا فقد حقق الله لشيخنا أمنيته وأثمر طموحه، فأنشأ مُجَمَّع (أبي النور) الثقافي، ينال طلابُه الشهادات ويتمتعون بمستوىً معيشيٍّ أفضل مع مستوىً جيدٍ من التحصيل والثقافة الشاملة، فها هم طلاب العلم يقصدونه من الصين وسائر دول الشرق الأقصى

[1] سنحت الفرصة: عرضت وحدثت.

[2] الضحل: الماء القليل على الأرض لا عمق له، وضحلتِ الفُدُرُ: قل ماؤها.

وتركيا وأفريقيا وروسيا، أضف إلى ذلك الدورات التربوية التعليمية لأئمة وخطباء ووعاظ الدول الشيوعية سابقاً، حيث يقيمون مطعَمين بسخاء ثلاثة أشهر يطلعون خلالها في دروسٍ مكثفةٍ على ما ينقصهم من القضايا الشرعية والمسائل الثقافية العامة، ويطلعون على معالم سورية في رحلاتٍ منتظمةٍ، وبعد هذا يعودون إلى بلادهم وقد تضلعوا من العلوم التي تساعدهم للقيام بمهامهم الإرشادية والإصلاحية والتثقيفية، وقد أتاح الله له لصدق توجهه أعواناً مخلصين من أبنائه وتلامذته يتفانَوْنَ في تحقيق رغبته.

كل هذا مضافاً إلى جولاته العالمية الموفقة التي كان يقابَل فيها بأنواع الحفاوة وصنوف التكريم كما فعلت كُبرى جامعات باكستان حينما قلَّدته رتبة دكتوراه فخرية في حفلٍ مهيبٍ حضره كبار العلماء والسفراء ووجهاء باكستان، كما انتُخِب رئيساً لمؤتمر الأديان العالمي الذي أُقيم في روسيا.

وإن كونه انتُخِبَ رئيساً لهذا المؤتمر لمعلم مهمٌّ جداً بأن حضرة الشيخ بات زعيماً معروفاً في كل أرجاء العالم، إضافةً إلى أنه كانت تأتيه الوفود العالمية إلى مقره للتعرف عليه ومعرفة رأيه في مسائل مهمةٍ تخص تلك الهيئات أو تتعلق بالقضايا العامة العالمية.

ولا أنسى خلال هذه السطور القليلة عن شيخنا أن أعرّجَ على ذكر علاقة والدي الشيخ إبراهيم حقي –قدس الله روحه– بالشيخ مد الله في عمره، فكان –رحمه الله– يحب الشيخ حباً جماً، وكان معجَباً بمواهبه وأسلوبه في الدعوة، وكان يدعوه (نادرةَ الزمان).

كان والدي –رحمه الله– يمضي أشهر الصيف في مصايف دمشق، وكان الشيخ أيضاً يأتي هذه المصايف، فما أكثر ما يلتقيان ويمضيان معاً الأوقات الطوال في أحاديث

ودية شائقة[1] مستغرقين في أجواء الأنس الرحماني، ماضين في ذكر سير أرباب القلوب وأحوالهم.

وحينما كان الوالد –قدس الله روحه– يقيم في دمشق في داره التي في الأكراد (كيكية) كان يأتيه الشيخ أحياناً في الساعات الأولى من بعد صلاة الفجر، فكنت أدخل عليهما لخدمتهما، فأشاهدهما يبكيان بدموعٍ غزارٍ مع التنهدات والحسرات وقد أقبل كلٌّ منهما على الآخر، فكانت هذه الجلسة تذكرني حالَ الأصحاب بعد وفاة رسول الله ﷺ حينما كانوا يتنادَوْن فيما بينهم قائلين: (تعالَوْا نؤمِنْ ساعةً).

وهكذا ظل والدي –رحمه الله تعالى– على محبته وإعجابه بالشيخ إلى أن فارق الحياة.

كل هذا وهو يوصينا –أي أولاده–: لا تنقطعوا عن الشيخ، ولا أزال والحمد لله على عهدي، فإن من أبر البر كما ورد في الحديث الشريف أن يَبَرَّ الرجلُ أهلَ ودِّ أبيه، ولم أنقطع عنه متذكراً جلسات سيدي الوالد مع الشيخ، تلك الجلسات التي كانت تغمرها فيوضات الصدق وواردات الصفاء والشهود في حداء الأرواح إلى عوالم العروج النفسي في طمأنينة وخشوع، هذا وقد نظم الوالد هذه الأبيات وضمنها حُبَّه وإعجابه بالشيخ:

جماعتنا محبُّو كلِّ خير ... يبثُّون الفضائلَ لا كغير

ففي الضَّراء والسَّرا سواء ... وقد بذلوا وهم في أرض قفر

فمنهم أحمد الأصحاب طُراً ... وقد حاز السباق بكل فخر

[1] شائقة: الشوق: نزاع النفس إلى الشيء، يقال: شاقه الشيء، فهو شائق.

له الفضل العميم على سواه إذا جالت ليوث الفضل تجري

فكم أبدى الكمالات العلية وكم ساد المحافل وهو يدري!

حباه الله أسلوباً حكيماً يؤثر في النفوس كفعل سحر

ويأتيه رجالُ العلم شوقاً إليه يأخذون غذاء فكر

فتلقاهم وقد جلسوا إليه إليهم منه نور الوعظ يسري

فأرجو اللهَ أن يوليك أيداً[1] أبا عمر[2] يدوم بخير ذكر

وكتب

عدنان حقي

سورية – القامشلي

[1] الأيد: القوة، وتأيد: تقوى، ورجل أيِّدٌ: قوي.

[2] أبو عمر: كنية الشيخ أحمد كفتارو.

شهادة دكتوراة فخرية بالدعوة الإسلامية التي منحتها جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية بجاكرتا للشيخ كفتارو عام (١٩٦٧م).

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين:

نحن مدير وأعضاء المجلس الجامعي الأعلى لجامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية بجاكرتا نشهد ونقرُّ بعد المشاورة الجماعية والدارسة المستفيضة للحجج والبراهين التي تقدمَّ بها السيد البروفيسور محمد طه يحيى عمر عميد كلية أصول الدين، بعد النظر والبحث التي أجرته الكلية في هذا الصدد: بأن الشيخ أحمد كفتارو المفتي العام للجمهورية العربية السورية والمولود بتاريخ (١٩١٥م) في سورية تتحقق فيه وتتجمع لديه خصائص الدراية والمعرفة والروح العلمية الصحيحة والكفاءة الحقة للقيام بالأعباء العلمية والعملية في ميدان الدعوة الإسلامية، فقد تحققت لدينا كفاءته وتبحره في هذا العلم الذي يمثل جزءاً لا يتجزأ من العناصر الأساسية للدين الإسلامي، وإن انتفاع سيادته واستخدامه لهذا العلم قد كان دائماً ضمن إطارٍ متلائمٍ ومنسجمٍ حقاً مع رسالة الدعوة الإسلامية وخصائصها.

فبناءً على هذه الأسباب والحجج المذكورة أعلاه، واعتماداً على الحقوق المخولة لنا بمقتضى القرار الجمهوري رقم ١١ لسنة (١٩٦٠م)، وبمقتضى القرار الجمهوري رقم ٢٧ لسنة (١٩٦٣م)، وطبقاً للمادة رقم ٧ من قرار وزير الشؤون الدينية رقم ٥ لسنة (١٩٦٥م):

قررنا نحن مدير وأعضاء المجلس الجامعي الأعلى لجامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية بجاكرتا منح الشيخ أحمد كفتارو المفتي العام للجمهورية العربية السورية

الدكتوراه الفخرية في علم الدعوة الإسلامية كلية أصول الدين، مع تخويل سيادته جميع الحقوق والالتزامات الشرفية المترتبة على منح هذا اللقب وللنظم والعادات المتبعة.

هذا وقد سُلمت إلى سيادته هذه الوثيقة الموقعة من كلٍّ من السيدين: مدير الجامعة وعميد كلية أصول الدين جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية بجاكرتا كأمارة ودليل إتمام منحة الدرجة المذكورة.

جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية بجاكرتا

جاكرتا /٣ ربيع الآخر/ ١٣٧٨هـ

١١ يوليو/ ١٩٦٧م

مدير الجامعة: **عميد كلية أصول الدين:**

البروفيسور كاكتماتجسونا رجو البروفيسور الحاج محمد طه يحيى عمر

ملحق رقم (٢)

عاش الشيخ أحمد في شبابه شعلةً متَّقدةً من الحيوية والحماس لا يفتر ولا يهدأ، وقد كُتبت له مساهمات كثيرة في نصرة القضايا الإسلامية الدولية.

ننقل فيما يلي وصفاً للمؤتمر الشعبي الذي دعا إليه الشيخ أحمد في مسجد يلبغا بدمشق، وهو يعكس صورةً عن نشاطه في نصرة القضية الجزائرية.

دعت جماعة الأنصار -التي يرأسها فضيلة الشيخ أحمد كفتارو- في الساعة السادسة والنصف من مساء أمس إلى مؤتمرٍ خاص في مسجد (يلبغا) لبحث ما يجب عمله لنصرة إخواننا في المغرب العربي، وقد افتتح أحد شباب الأنصار المؤتمر بكلمةٍ أوضح فيها وحشية فرنسا في المغرب العربي، وكيف فتك الفرنسيون بالشعب السوري الأعزل في عهد الاستعمار الفرنسي الغاشم... ثم أُنشدت قصائد رائعة حول المغرب العربي... وبعد ذلك ألقى فضيلة الشيخ الأستاذ أحمد كفتارو -رئيس المؤتمر- كلمةً قيمةً حذر فيها العرب من مغبة السكوت على هذه الأعمال الوحشية التي تقترفها فرنسا في تونس ومراكش والجزائر، وقال:

إننا نحن هنا نلهو ونعبث، وفي المغرب يُذبح العرب ذبح النعاج! وأضاف أنه يجب علينا أن نعمل على إيجاد خطة عملية لمحاربة فرنسا، وإنقاذ إخواننا في المغرب العربي... وأسهب في الحديث عن شهامة العرب وكرامتهم أيام الرسول العظيم ﷺ والخلفاء الراشدين وأمراء المؤمنين، وضرب مثلاً على ذلك قصة المرأة التي استنجدت بالمعتصم بقولها: (وامعتصماه) عندما حاول العدو الاعتداء عليها، فأنجدها وفتح عمورية من أجلها! فكيف بنا نحن الذين نرى الاعتداء على عشرات الألوف من المغربيين العرب؟!

وعلى إثر ذلك أصدر المؤتمر الشعبي البيان التالي، ونال البيعة عليه من المسلمين الذين حضروا هذا الاجتماع:

بسم الله الرحمن الرحيم

البيان الصادر عن المؤتمر الشعبي المنعقد في مسجد يلبغا

قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [المُمْتَحنَة : ٨ - ٩].

في هاتين الآيتين الكريمتين تحديد لصفات الأمة التي نستطيع أن نصادقها، والأمة التي يجب أن نعاديها لا ظلماً ولا اعتباطاً؛ بل نتيجةً لأعمالٍ يقر الشرع الدولي اليوم عدم السكوت عليها؛ كسفك الدماء، والإخراج من الديار، ومساعدة المعتدين.

وإن المجتمعين اليوم في المؤتمر الشعبي في مسجد (يلبغا) مساء يوم الإثنين الواقع في: ٢/صفر/١٣٧٥هـ الموافق: ١٩٥٥/٩/١٩م لبحث ما يجب عمله لنصرة إخوانهم في المغرب الإسلامي من شيوخ دمشق وعلمائها وشيبها وشبابها قد استعرضوا أعمال الفرنسيين في المغرب، فوجدوا أن الآية الكريمة تفيد النهي صراحة عن التعامل معهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [المُمْتَحنَة : ٩].

تهديم المساجد: ذلك لأن الفرنسيين قد هدموا المساجد في المغرب، وأقاموا مقامها كنائسهم، وقد أثبت الإحصاء أن ٣٦٠ مسجداً قد هدمت بهذه الطريقة.

١- القضاء على لغة القرآن: وقد جنَّد الفرنسيون قواهم لمقاومة لغة القرآن فاعتبروها لغةً أجنبيةً في الجزائر، ومنعوا تدريسها في المدارس، كما اعتبرت في تونس منذ سنة (١٩٤٦م) لغةً غير ضرورية، فلا تدخل في مواد الامتحان.

٢- القضاء على الأوقاف الإسلامية: كما حارب الفرنسيون الأوقاف الإسلامية، فحولت مواردها إلى الجمعيات التبشيرية الفرنسية.

٣- سياسة الفتك والتكفير: وقد أقام الفرنسيون سياستهم على مبدأ الفتك والإبادة وتحويل العربي المسلم إلى فرنسي، شريطة أن يتعهد بعدم الاعتراف على أحكام الإسلام.

فإذا أضفنا إلى ذلك كله ما يرتكبه الجنود الفرنسيون من فظائع مع السكان الآمنين، حتى لقد بقروا بطون الحبالى، وقتلوا الأطفال الرضَّع على حجور أمهاتهم.

تبين بوضوح أن الفرنسيين يقاتلون المسلمين ليخرجوهم من دينهم أو من أرضهم، وبذلك فقد حقَّت عليهم الآية، وأصبح من واجب كل مؤمنٍ أن يتمثل أوامر الله، فلا يتولى الفرنسيين في شأنٍ من شؤونه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [المُمْتَحنَة : ٩]

لذلك كله فإن المجتمعين في المؤتمر الشعبي من علماء دمشق وشيوخها وشبابها يتوجهون إلى العالمين العربي والإسلامي، وبهذا النداء آملين أن تعلن البلاد العربية والإسلامية مقاطعة فرنسا اقتصادياً وثقافياً، خصوصاً بالامتناع عن إدخال أطفال المسلمين في أية مدرسةٍ من مدارسهم المبثوثة في الشرق العربي والإسلامي؛ كالفرير، واللاييك، والفرنسيكان وأمثالها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصَّف : ٤].

صدر هذا البيان في ١٩٥٥/٩/١٩م

نقلاً عن مجلة الأيام السورية عدد (٢٦٣٢)، تاريخ: ١٩٥٥/٦/٢٠م

ملحق رقم (٣)

نص المرسوم الجمهوري الباكستاني الذي مُنِح بموجبه الشيخ كفتارو وسام نجمة باكستان العظمى تقديراً لجهوده في نصرة القضية الباكستانية:

من المشير محمد أيوب خان رئيس جمهورية الباكستان إلى سماحة الشيخ أحمد كفتارو المفتي العام للجمهورية العربية السورية، تحيةً وبعد:

ليعلم الجميع بأننا نولي ثقتنا الخاصة في إخلاصكم وشخصكم، ورغبةً منا في تقدير خدماتكم لباكستان فإننا نقلِّد سماحة الشيخ أحمد كفتارو لقب ومرتبة حامل وسام (ستارة باكستان) مع كل ما يتبعها من الحقوق والمكانة.

وآمر بأنه وفقاً للمراسم التي تخص هذا الوسام فإنني أقلِّدكم هذه الميدالية؛ لتحتلوا المرتبة والمكانة التي يخولكم إياها هذا الوسام.

المشير محمد أيوب خان رئيس جمهورية الباكستان

ملحق رقم (٤)

نص خطاب الشيخ أحمد كفتارو إلى السفير الأمريكي بدمشق إبان العدوان الثلاثي على مصر:

لقد شارك الشيخ أحمد في قيادة نشاطٍ إسلاميٍّ شعبيٍّ كبيرٍ لنصرة مصر في الدفاع عن نفسها إبان العدوان الثلاثي عليها عام (١٩٥٦م).

وتجد في الخطاب الوعي الدبلوماسي، وهو ما يسميه الشيخ الحكمة، والتي عرَّفها مراراً بقوله: هي فعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الشكل الذي ينبغي، ويعرفها أيضاً بقوله: الحكمة: هي إدارك الأشياء على ما هي عليه في الواقع ثم العمل بمقتضاها.

بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة سفير أمريكا المفوض في سورية المستر جيمس موس المحترم:

تحيةً واحتراماً وبعد...

فقد رأيت أن أكتب إلى سعادتكم راجياً أن ترفعوا إلى حكومتكم قلق المسلمين الشديد للوضع الشاذ الذي أعقب تأميم الحكومة المصرية لشركة قناة السويس، فإن المظاهر الدولية التي اشتركت أمريكا في مراحلها الأولى لا يفهم لها المسلمون معنى إلا استمرار الروح الاستعمارية القديمة التي لا تزال تحكم العقلية البريطانية والفرنسية في معاملتها لكل قضايا الشعوب، وإلا الافتئات الصريح على سيادة مصر.

وجاء البيان الثلاثي متناقضاً مع نفسه، فهو يعترف لمصر بسيادتها، ثم ينكر عليها حقها الشرعي في تأميم شركةٍ من شركاتها بحجة المصلحة الدولية، وما كان لأمريكا التي أحرزت استقلالها بعد حربٍ مريرةٍ مع الاستعمار أن تتورط في أمثال هذا النوع من

الحجج، وحسبها ما تورطت فيه من قبل باحتضانها لإسرائيل، وعليها أن تبادر إلى النصح لإنجلترا وفرنسا ومَن سار في ركابهما بوجوب الترفع عن هذه الأساليب الرجعية في معاملة الشعوب التي تطلب حقوقها الطبيعية المعترف بها في ميثاق هيئة الأمم، وأن تضغط على هذه الدول لتمنع فتنةً رهيبةً لا بد أن يتعرض لها الشرق الأوسط؛ بل العالم كله إذا امتدت أية يد إلى مصر بعدوان، فإن قضية مصر هي قضية العرب والمسلمين جميعاً، ومن المؤسف حقاً أن نجد أنفسنا مندفعين إلى ما نكره، ومضطرين إلى الاستعانة بكل مَن يساعدنا على دفع العدوان عن أنفسنا وعن حقوقنا المشروعة، والدفاع عن النفس حقٌّ أجمعت عليه كل الشرائع والأديان، وبالأمس قال المستر تشرشل رائد السياسة البريطانية المعتدية: سنتحالف ولو مع الشيطان!

ياصاحب السعادة، إن أمريكا تحسن إلى نفسها وإلى سلام العالم وأمنه إذا بادرت إلى عملٍ حاسمٍ يكبح جماح النزوات الاستعمارية التي لن تكون عاقبتها إلا فتنةً حمراء، وتقبلوا تحياتي...

الشيخ أحمد كفتارو

رئيس جماعة الأنصار ١٩٥٦

ملحق رقم (٥)

نص خطاب الشيخ كفتارو في حرم المسجد الأقصى في ليلة الإسراء والمعراج (١٣٨٥هـ) الموافق (١٩٦٦م)، وفيها يبدو موقفه في تصحيح نهج العمل الفلسطيني الذي ينبغي أن يكون جهاداً إسلامياً خالصاً، وإن الدافع القومي غير كافٍ لتحرير فلسطين، وهو ما جاءت الأيام لتؤكده في الانتفاضة الإسلامية التي انطلقت من مساجد فلسطين.

لقد طوى الشيخ أحمد هنا أسلوب المجاملات مع حُكَّام العرب وتوكل على الله وقال:

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته...

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لا يخفى على مَن قرأ تاريخ الإسلام أن هذه البلدة المقدسة لما أتاها سيدنا عمر لفتحها اعترضته مخاضة من طين، فنزل عن جمَله، وأمسك نعلَيه بيديه، وشمَّر عن ساقيه، وخاض الطين على مرأى من قواد الرومان والمستعمرين، فقال له القائد العام أبو عبيدة: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ والأعداء يروننا! ولمَ هذا الحال؟! فجمع عمر أصابع يده ودفعها في صدر أبي عبيدة قائلاً: (نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما نُرِد العزة بغيره يذلنا الله).

أيها المسلمون: نبكي الآن على فلسطين وتشرد أبنائها، ومن قبلُ بكينا على ضياع الأندلس وتشرد أهله.

وقد ضاع منا ما هو أعز من فلسطين وأعز من الأندلس، لقد ضاع منا الإسلام ونحن الذين أضعناه حتى حيل بيننا وبين الإسلام، وعزة الإسلام، وكرامة وانتصارات الإسلام.

كان الصليبيون يحاربون المسلمين في الزمن الماضي، أما في عصرنا الحاضر فإنهم يحاربون المسلمين، ويحاربون عقيدة الإسلام، وتربية الإسلام، وأخلاق الإسلام.

لقد تجمع على الإسلام الصليبيون والتتريون والشيوعية والصهيونية العالمية، إن المسلمين في بلاد الإسلام أسرى لرسالات الاستعمار، المسلمون مستقلون صورةً لكنهم مستعمرون قلباً وفكراً وأخلاقاً وميولاً وأهواءً.

أيها المسلمون –عرباً وعجماً– إن المسؤولية عن ضياع فلسطين في ساعتنا الحاضرة إنما يتحملها ملوك العرب ورؤساء العرب، وما لم يحملوا رسالة الإسلام معتزين بها ورافعي الرؤوس بعظمتها من غير خوفٍ ولا وجلٍ فليس لفلسطين منا –والحال هذه– إلا الدموع والآهات، وإلا العويل والحسرات، شأن الأطفال وشأن النساء النائحات.

لقد كانت بلاد العرب مجزأةً بين دول الحبشة والفرس والرومان، فهل الذي حررها العرب أو القومية؟ لا يا سادة، إنما الذي حرر البلاد العربية الإسلام، ومَن الذي وحد العرب؟ إن الذي وحدهم إنما هو الإسلام.

فهذا عمر، عمر الذي ما ولدت النساء بعد النبي ﷺ والصِّدِّيق مثله، والذي عرف قدره الأعداء قبل المسلمين، يقول: (نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما نرد العزة بغيره يذلنا الله).

إن هذا القول لم يقله عمر وحده؛ بل قاله عثمان وعلي وخلفاء بني أمية والخلفاء العباسيون، وقاله ملوك المماليك والعثمانيين؛ بل قاله التاريخ، بل قالته الأرض والسماء.

ولما كان الإسلام منهج حياتهم لما كانوا يأخذون القرآن بأيمانهم والإسلام في قلوبهم، ويرفعون رؤوسهم به، كان الله يرفع شأنهم ويعزهم وينصرهم، فها هو ذا الملك المظفر قطز (التركي الأصل) الذي أتى من مصر وجابه جيوش التتر التي مزقت العالم وطحنت دوله، هذا الملك المظفر قطز التركي هو الذي انتصر بالإسلام وبالإسلام وحده، وهزم جحافل التتر.

وهذا صلاح الدين (الكردي الأصل)، وقبله نور الدين التركي ما صدوا حروب الصليبيين في قرنين عن بلاد العرب بالقومية والجنسية العربية، إنما صدوا الصليبيين وهزموهم بالإسلام وحده.

إن العرب والمسلمين ما كانوا يقولون في ذلك الوقت عربي أو كردي أو تركي، إنما كانت جنسية العرب والمسلمين جميعاً الإسلام وحده.

﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ [المَائِدَة : ٥٠].

يا ملوك العرب، يا رؤساء العرب: في أعناقكم ضياع فلسطين، وإن التاريخ سيسجل عليكم ذلك، كما أن ملككم ورئاستكم لا تدوم لكم، وإن أعمالكم لمسجلة عليكم عند الله، وقريباً ستنزلون عن عروشكم إلى نعوشكم، وعن قصوركم إلى قبوركم، وستقفون

مكتوفي الأيدي بين يدي جبار السماوات والأرض، وسيسألكم الله عن ضياع المسجد الأقصى، وعن ضعف الإسلام، وعن إهمال العمل بتشريع الإسلام.

يا ملوك ورؤساء العرب: هل سمعتم قول النبي ﷺ: (الإسلام والسلطان أخوان توأمان لا يصلح أحدهما بدون الآخر، فالإسلام أس والسلطان حارس، وما لا أس له ينهدم، وما لا حارس له يضيع).

يا رؤساء العرب وملوكهم: إن سبعمئة مليون مسلم ينظرون إليكم نظرة الجندي والجيش إلى قائده، إن شعوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ليتطلعون إليكم لتقودوهم بالإسلام، الإسلام الذي جعل لكم بفضله عشرات الشعوب ومئات الملايين، جعلهم لكم بالإسلام إخوة وأشقاء يبكون على ضياع فلسطين بالدماء والدموع ويفدونها بالمهج والأرواح.

فيا رؤساء العرب، يا ملوك العرب! اذكروا أن الحياة فانية والملك مؤقت، واقتدوا بآبائكم وأجدادكم أبي بكر وعمر.

أيها العرب: إننا نعتز ونفخر عندما نرفع الرأس عالياً، فبمن نعتز؟ وبمن نفخر؟ إننا نقول: (فمنا الوليد ومنا الرشيد)، فهل تدرون ماذا كان تشريع الوليد، وماذا كان دستور الرشيد؟! وبماذا كانوا يعتزون؟ وبأي تشريع كانوا يحكمون؟

لقد كانوا يحكمون بالقرآن ويعتزون بالإسلام، فلما أعزوا دين الله أعزهم الله، ولما نصروا الإسلام نصرهم الله، وما نحن وهم إلا كما قال الشاعر:

قد حوى القرآن نوراً وهدى ... فعصى القرآنَ من لا يعقلُ

قل لقومٍ نبذوا أحكامَه: ... ما لكم مما نبذتم بَدَلُ

فاســـألوا التاريخَ عن قرآنكم يوم ضـاءتْ بسـناه السُّبُلُ
فـكـأن الـكـونَ أفـقٌ أنـتـمُ فيـه بـدرٌ كـامـلٌ لا يأفـلُ
وكـأن الكون فيكم روضـــةٌ وعلى الأغصـــانِ أنتم بلبلُ

أيها المسلمون: لا تقنطوا وأبشروا، إن نبيكم ﷺ يقول: (خير هذه الأمة أولها وآخرها، وبين ذلك ثبج أعوج لست منه وليس مني).

أيها العرب: إن تتولوا عن الإسلام فإن الله يقول: ﴿هَـٰٓأَنتُمۡ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَـٰلَكُم ٣٨﴾ [مُحَمَّد : ٣٨].

فيا رؤساء العرب وملوكها: ما هو الإسلام؟ الإسلام دين العلم والثقافة والمعرفة، دين الجهاد والتضحية، الإسلام دين الصناعة والزراعة والعلوم، الإسلام دين الأخلاق والتربية والعقيدة والإيمان، الإسلام دين الوحدة والاتحاد والتعاون على البر والتقوى.

فأسأل الله العظيم ببركة هذه الليلة المباركة أن يُلهم رؤساءنا وملوكنا أن يتقوا الله في دينهم، أن يتقوا الله في إسلامهم، وأن يفكروا ليكونوا خلفاء أبي بكر وعمر، ونوَّاب نور الدين وصلاح الدين.

وختاماً: قولوا آمين: اللهم ببركة هذه الليلة الكريمة، وببركة مسرى رسول الله ﷺ ومعراجه أسألك يا الله أن تردَّ المسلمين جميعاً إلى صراطك المستقيم رداً جميلاً.

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يلهم ملوك المسلمين والعرب أن يكونوا مسلمين في حكمهم وملكهم ودولتهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٦

ملحق رقم (٦)

كلمة البروفيسور روبرت كراين مستشار الرئيس نيكسون ومؤسس مركز الحضارة والتجديد بالولايات المتحدة، وذلك لدى التحاقه بجامع أبي النور للدراسة صيف عام (١٩٩٥م).

بسم الله الرحمن الرحيم

١- حتمية التغيير الحضاري:

لقد تساءل البعض منكم: ما هو سبب وجودي هنا في دمشق كطالبٍ في كلية الدعوة الإسلامية؟

والجواب بسيط: هو أن الله تعالى أرسلني.

ويسألني الناس: لمَ أصبحت مسلماً؟

وجوابي هو ذاته: إن الله هو الذي هداني للإسلام.

والله يفعل مراده عن طريق أسبابٍ كثيرةٍ خفيةٍ، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما هي الأسباب التي هيأها الله؟

والجواب: هناك سبب مباشر وحيد لوجودي هنا، لقد قابلتُ أناساً من أمريكا وأوربا وأخبروني أن مركز دعوة سماحة الشيخ في دمشق هو أفضل مكانٍ في العالم لاكتساب العلم بالإسلام الحقيقي، ذلك الإسلام الذي أراده الله ليكون القوة العالمية البارزة (وليست المسيطرة) في القرن الواحد والعشرين، وقلة قليلة جداً من الناس يدركون

مثل هذا التغيير في العالم، وكمسلمين فقد حبانا الله بالقدرة على معرفة هذا لأننا تعلمنا من القرآن أن كل الوجود دائم التغيير من أجل غايةٍ سماوية، وكلنا يرى تغييراتٍ تحدث بسرعة، فمثلاً: إننا نرى الغيوم وهي تتكاثر قبل هبوب العاصفة، ولكن فئةً نادرةً من البشر (ما عدا المسلمين) قد راقبت خيط الفجر الرفيع.

وحياتنا تتحرك ببطءٍ أكبر، وكلنا يلاحظ الشيخوخة وهي تدبُّ في أوصالنا، ولكن قلةً من فلاسفة التاريخ تتتبَّع البزوغ الحتمي والأفول لحضارات كاملة.

ويعلم المسلمون أن صعود الحضارات وأفولها هو جزء من الخطة الإلهية، ولذلك لا مندوحة عنها بسبب أنها تلبي هدفاً ربانياً.

ولقد بدأ كثير من مفكري الغرب البارزين بإدراك ذلك، وهم يخشون أن حضارتهم تقترب من نهايتها، والبعض يتنبؤون أن القوة الحضارية التي بدأت تحل محلها هي الإسلام، وقليل منهم بدؤوا يدركون أن تلك القوة العالمية يمكن أن تكون جزءاً من إنقاذ كل حضارات العالم بما فيها حضارتهم.

٢- نيكسون والهدف الأعلى:

قبيل وفاته بسنةٍ كتب الرئيس السابق ريتشارد نيكسون في كتابه الأخير: (ما وراء السلام):

لقد كان القرن العشرين فترة صراعٍ بين الغرب والعالم الإسلامي، وإذا عملنا معاً فسنستطيع أن نجعل من القرن الواحد والعشرين ليس فقط عصر سلام؛ بل قرناً فيه ما وراء السلام، فهما حضارتان عظيمتان سوف تغني إحداهما الأخرى، وكذلك بقية أنحاء العالم.

ومع نهاية الحرب الباردة يلحُّ نيكسون أن نسأل أنفسنا: ماذا نؤيد بالإضافة إلى القوة والازدهار القوميين؟ فالديمقراطية والرأسمالية هما مجرد أساليب فنية ما لم يوظفها الذين يسعون لها نحو هدفٍ أسمى من أجل أنفسهم ومن أجل المجتمع.

ويعارض نيكسون أولئك الذين يرون الصدام الحتمي للحضارات، فهو يؤكد قائلاً: (عدونا اليوم في داخلنا) وما يهدد العالم فعلاً كما ذكر نيكسون لزملائه الأمريكيين: هو أن بلدنا قد يكون غنياً بالبضائع ولكننا فقراء في الروح، فالتربية والتعليم الرديئان، والجرائم المتزايدة والعنف المتصاعد، والانقسامات العرقية النامية والفقر المستشري، وآفة المخدرات والثقافة المنهارة في وسائل التسلية، والانحدار في تأدية الواجب المدني والمسؤولية، وانتشار الفراغ الروحي ساهمت جميعاً بفصل الأمريكيين وتغريبهم عن بلادهم ودينهم وعن بعضهم بعضاً.

ويصرح نيكسون واضعاً نصب عينيه أولئك القدّيسين من المسلمين والمسيحيين قائلاً: إن أزمتنا في القيم في الداخل مشفوعة بفقدان سياسة منسجمة في الخارج قد خلقت للروح ليلاً مظلماً.

ورغم هذا التقييم المتشائم للحاضر فقد توفي نيكسون وهو متفائل في المستقبل؛ لأنه كان يرى أن فرصتنا باكتشاف إحساسٍ جديدٍ بالهدف المشترك تكمن في ذاتنا، وكان يرحب بذلك المد الظاهر للجوع الروحي في أمريكا، وكان يؤكد بإلحاحٍ على أن جوعنا لشيءٍ نؤمن به هو تطور إيجابي عميق على أعضاء فئة القيادة أن تحتفل به لا أن تخافه.

٣- روح النظام العالمي:

وهناك قائد بارز آخر يحمل نفس هذه الرسالة، وهو (زبينغو بريجنسكي) والذي كان مستشار الرئيس كارتر لشؤون الأمن القومي في البيت الأبيض، وقد نال شهرته كمتنبئٍ بالتغير الحضاري، حيث ألف كتاباً قبل عشر سنوات يتنبأ فيه أن الشيوعية ستختفي قريباً كقوةٍ في العالم، وهو الآن يحذِّر أن نفس القدر قد يصيب التجربة الأمريكية الكبرى والتي بدأت قبل قرنين من الزمان، وهذا المنظور الجديد عن العالم وعن أمريكا وعن الإسلام قد تطرقت إليه قبل سنتين وللمرة الأولى إحدى الصحف الأمريكية الواسعة الانتشار، واسمها "New Perspectives Quarterly".

وفي إصدارٍ خاصٍّ لهذه الصحيفة قدَّم بريجنسكي ما يسمى بـ(عقيدة بريجنسكي)، والتي تؤمن: (بأن المجتمع المنغمس في الشهوات لا يستطيع أن يسنَّ قانوناً أخلاقياً للعالم، وأن أي حضارةٍ لا تستطيع أن تقدم قيادةً أخلاقيةً سوف تتلاشى).

وإن المحرر لهذه الصحيفة (ناثان جارولز) قدَّم لهذا الإصدار الخاص بمقالٍ افتتاحيٍّ تحت عنوان: (**روح النظام العالمي**) يوحي فيه أن روح الإسلام قد تصبح قريباً روح القرن الواحد والعشرين، وقد تكون العلاج الوحيد للمشاكل المستعصية، والتي سببتها علمانية الحضارة الغربية.

وكتب قائلاً: وربما ساعد الصدام مع الدين الإسلامي على إيجاد عصر (ما بعد العلم) في الغرب، والذي يفسح المجال ثانيةً للوجود الروحي بعدما حذف من القائمة، ربما أدى الإنهاك بسبب السعي المجنون وراء مستقبلٍ أجوف إلى نظرةٍ فوريةٍ ثانية إلى قيم الإسلام في التوازن والاعتدال والتبصر، وربما عادت الثقافات المتفككة والتي فقدت مصداقيتها وتمزقت في مليون اتجاهٍ إلى تقدير فضائل النظام الكونفوشي.

إن الغرب يدخل حلبة الصراع مستعيناً بآخر ما توصلت إليه اليد الطولى لتكنولوجيا الإعلام، ورغم أنه تسلح كما تراه عين الفكر بقناتي التلفزيون العالميتين CNN وMTV يتساءل المرء إن كان بمقدور حضارة ما لا تقدس شيئاً أن تهيمن على الآخرين الذين يهمهم كل ما هو مقدس؟ وهذا في علم الله.

٤- نحو حركة دينية عالمية صادقة:

لم أنا موجود في مركز سماحة الشيخ العلمي؟

والجواب بسيط: أنني هنا لأن سماحة الشيخ وعدداً كبيراً من مريديه في كل أنحاء العالم يفهمون مشاكل الحضارة الغربية المحتضرة، ويستطيعون أن يعلمونا ويأتونا بالعلاج الوحيد، وهذا العلاج الوحيد يمكن أن ينبثق فقط من قادة الإسلام الروحيين؛ لأنهم الوحيدون الذين يستطيعون أن يجمعوا بين حكمة النبي ﷺ، والتراث الفكري لعلماء الشريعة الكبار في قيادة حركةٍ صادقةٍ أصيلةٍ لتغير العالم، ولديهم القدرة أن يعملوا مع نظرائهم من قادة المسيحيين واليهود الأصلاء، وهم كثرة، وبهذا يقدمون للعالم منهاجاً جديداً للعدالة قائماً على أصلٍ متألقٍ للحقيقة يكون أساساً لكل السياسة الداخلية والخارجية.

إنني هنا اليوم لأنني ولدتُ في أمريكا -والحمد لله- كفردٍ من أسرةٍ قديمةٍ تتعامل مع السياسة وتعود لأكثر من ثلاثمئة سنة منذ تأسيس أمريكا، إننا في عصرٍ يدرك فيه الشعب الأمريكي والآن يدرك ذلك بعض قادتهم بإدراكٍ واضحٍ جليٍّ لمصيرهم المحتوم، وهم يتطلعون إلى مصدرٍ أسمى من الهداية؛ لأنهم وجدوا أن الهداية الصادرة عن البشر فقط لم تُؤْتِ أُكُلَها.

إنني هنا لكي أستطيع إن شاء الله أن أساعد لأصل سماحة الشيخ بالناس في أمريكا المستعدين لتلقِّي رسالة الحكمة الروحية والهدي الأخلاقي الذي أُقيمت عليه أمريكا، فلم يكن مؤسسو أمريكا مسيحيين طائفيين، ولكنهم كأمثال: توماس جيفرسون وجيمس ماديسون كانوا عالميين ويشبهون سماحة الشيخ.

لقد كانوا حنفاء لم تنقرض رسالتهم في أمريكا، ولكنها اليوم بحاجةٍ إلى بعثٍ من جديد.

إني أطلب دعواتكم لكي أستطيع أن أساعد في أن أوصل حكمة الإسلام إلى بلدي؛ لكي أساعد في إتمام الثورة الأمريكية.

ولقد اعتاد الأمريكيون أن يؤمنوا بأن أمريكا أرادت لها السماء بأن تكون نبراساً للعالم، والآن يرى كثيرون أن العالم بدأ ينشد قدوةً جديدةً، وواجبنا أن نساعد هذا المثال الجديد أن ينمو ويشبَّ كجهدٍ مشتركٍ لكل الحضارات والأديان، متبعاً الهدي الذي قدمه الله برحمته بكل كماله وعطائه قبل ألف وأربعمئة سنة.

وفي العالم أجمع قلة أولئك القادة الذين لديهم إدراك لهذه التغيرات العميقة التي تجري في عالم اليوم، والذين يصرون على الدوام أن سر النجاح هو في أيدي قادة العالم الروحانيين هم نذر يسير.

ويقف سماحة الشيخ مفتي عام سورية شامخاً وقد فاق الآخرين، وقد عمل لأكثر من نصف قرنٍ كداعٍ لا يكلُّ من أجل التفاهم والتعاون بين الأديان، وهو وحده الذي لم يتوانَ قطُّ ولم ينثنِ في اعتقاده بأن التعاون بين الأديان من أجل إيجاد حركةٍ إيجابيةٍ صادقةٍ تسمو بالسياسة كفيل بأن يكون الخلاص للبشرية.

إنكم أيها السوريون لمحظوظون بأن يكون مثل هذا الشخص بين ظهرانيكم، وإنني كأمريكي لمحظوظ بأن أكون معكم في حضرة سماحة الشيخ أحمد كفتارو في هذه النقطة الحرجة من تاريخ البشرية، والسلام عليكم...

البروفيسور المسلم فاروق عبد الحق (روبرت كرين سابقاً)

دمشق – جامع أبي النور

وإذ أضـع القلم فإنني سـعيد أن أجد تأثير هذا الرجل في محافل الإخاء الديني في العالم، فقد كان سابقاً لعصره في الوعي بإخاء الأديان، وكان شجاعاً في طرح أفكاره حتى صار هدفاً للمتعصبين، ولكنني حزين في الوقت نفسه أن فريقاً آخر من تلامذته بات يرفض تجديده كله، ويتحدث عنه كفقيه شـافعي تقليدي وشـيخ طريقة عرفانية كرس كلام القدماء وعاد إلى منطق كل بدعة ضـلالة وكل ضـلالة في النار، دون أن يضيف روحاً جديدة ودون أن ينجز شيئاً في إصلاح الإسلام وإخاء الأديان.

هل انصفت الرجل؟ آمل ذلك، والأيام خير حكمٍ ومنصف وهو جهد المقل والكامل الله

الفهرس

مقدمة الطبعة التاسعة ٩
مقدمة الطبعة الثانية ٢١
تقديم بقلم الأستاذ الدكتور: محمد الزحيلي..... ٢٣
مدخل ٣١
الباب الأول ٣٣
حكاية الكفاح..... ٣٣
المنبت الطيب ٣٤
قراءة في عصر المشايخ ٤١
عائلة الشيخ..... ٤٩
الشيخ موسى كفتارو ٥١
الشيخ أمين كفتارو..... ٥٣
الباب الثاني..... ٢٦٥
الباب الثالث ٤٠٣
الملاحق..... ٤٤٩